منى سلامة

غصون البندق

الكتاب الثاني

الطبعة 3



عصير الكتب

رواية

غصون البندق

كان ياما كان
في زمنٍ من الأزمان
رأيتُ مِن البندق ثلاث حبات
عند كسرهن تتناثر الغيمات!

هل يمكن لقلبٍ أن يقع في حب الشخص نفسه مرتين، أم أن سريان الزمن، وتغير الذوق، وانقلاب المزاج عوامل طاغية التأثير؟

أعمال أخرى للكاتبة



عصير الكتب
www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb

غصون البندق

الكتاب الثاني

عصير الكتب

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان: غصون البندق (الكتاب الثاني)

- الطبعة الأولى: يناير 2025م
- رقم الإيداع: 2024/25925م
- الترقيم الدولي: 3-437-992-977-978
- تأليف: منى سلامة
- تدقيق لغوي: نهال جمال
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

دُنيازاد

الشر في الناس دخيل
أو عادة وطبع أصيل
لا تتساوَى الشرور وإن كثُرَت
وأبواب التوبة مفتوحة وإن حصرَت
شروطها في أربعة فالزَم
ندم وإقلاع وعزم على عدم العودة
ورَد مَظلَمة خالطَت البياض بسودة
ولا يكون الندم إلا بالإدراك
إن غاب عن العقل فضياع وهلاك
وصاحب الذنب بريء ومجرم
في قلبه نور وعقله مظلم
إلى أن تشرق الشمس من مغربها
ما زال أمامه نفسٌ يحاربها
تأمر بالسوء ولا شفاعة
وعليه أن يفوز عن قناعة!

الليلة الرابعة والثلاثون

أيهما الأشد تأثيرا: المنطق أم العاطفة؟

(1)

أي الهويتين ستختار؟

المأزق الذي أوقعها فيه «رعد»، ألزمها بسرعة اتخاذ القرار.

لكنه لم يكن بالقرار الذي يُتخذ بين غمضة عين وانتباهتها، «من هي؟» إنه النزاع الأهم الذي قد يمضي المرء منا عمرًا بأكمله دون أن يعثر له على تسوية محققة.

ما تشعر به بداخلها أنها امرأة جديرة بالاحترام، مبادئها راسخة وقناعاتها لا تتجزأ، يستحيل أن تأتي بأفعال إجرامية كما يزعمون. شعورها بذاتها قوي جدًّا، أقوى مما يقوله عنها الآخرون، رغم ذاكرتها المعطوبة، وماضيها المفقود.

ضربت بيده التي تمسك بذقنها، بقوة لم تفاجئه كما تمنت، كان قد توقع ردة فعلها، فبسط كفيه أمامه قائلًا بلوم مصطنع: «ألن تعانقي خالكِ؟».

تجاهلت محاولته الحثيثة لاستفزازها ومضت تستنطقه: «هل أنتَ ابن القاضي فعلًا، أم فقط ابن زوجته؟».

- أعرف أنكِ تحاولين البحث عن مخرج من هذا المأزق، لكن لن تنجحي في ذلك.. أنا ابن القاضي «أبو العيون»، دماؤه تجري في عروقي، الواحة كلها تعرف.

عندما همَّ بالاقتراب منها بخبث من يتوقع ردة الفعل سابقًا، ابتعدت خطوة إلى الخلف ثم رفعت سبابتها محتدة: «اقترب أكثر وسأمزق هذا القناع عن وجهك».

لا ترى قسماته إلا أنها عرفت أنه يبتسم بسخرية لاذعة، تسربت إلى نظراته ونبراته حين قال: «تعترفين إذن أنكِ لستِ «سراب» حفيدة القاضي!.. لو كنتِ هي لتعلقتِ برقبتي فرحًا بهذا اللقاء العائلي.. خسارة، كنت أنتظر أن أسمعكِ تناديني بـ «خالي الحبيب»».

ثم أردف بجدية بالغة: «لا حديث بعد الآن عن كونكِ «سراب» ابنة أختي، تلك المسألة حُسمت.. لا سبيل للتراجع خطوة إلى الوراء».

- لماذا لم تخبرني من البداية أنك ابن القاضي من زوجته الثانية؟
- وأضيع فرصة مفاجأتكِ؟ لو كان بإمكانكِ رؤية وجهك الآن، لأدركتِ أنه مشهد لا يُفوَّت.
- هل تستمتع دائمًا بإزعاج الآخرين؟
- ليس الآخرين، أنتِ فحسب.

بدت عبارته المستفزة خاصة بشكل غريب، تفصيل حميمي يجمع بين حبيبين، أصابها بالارتباك، يراودها سؤال مُلح يأبى الاختفاء؛ عن طبيعة العلاقة التي جمعته بذات البرقع.

لم تعد ترى نفسها كـ «سراب» بشكل كامل، تسرب إليها شك زعزع صورتها عن نفسها وعن عائلتها. لكنها كذلك لا ترى نفسها في مرآة الذات المرأة التي يتحدثون عنها. تقف على الصراط بين الهويتين، لا تعرف إلى أي منهما تنتمي، وما أصعب أن يجهل المرء هويته.

- ما اسمها؟

تؤكد نظراته نحوها أنه يعرف الاسم جيدًا، وما تؤكده كذلك أنه لن يخبرها، هذا ما تحقق عندما قال بجمود: «ستتذكرينه».

كأن للذكريات زِرًّا أحمر تستطيع أن تضغط عليه وتستدعيها عند الحاجة. احتدت ترد عليه بانفعال: «ولماذا لا تخبرني به مباشرة إذا كنت تعرفه؟».

- عليكِ أن تتذكريه بنفسك.

راودها شعور غامر أنه لا يتحدث عن الاسم فحسب، عليها أن تتذكر الاسم، وكل ما أحاط به من ذكريات منسية؛ أحداث، ووقائع، ومشاعر، وعلاقات، هذا ما يريد قوله، وما يمثل له الكثير من الأهمية.

لا يتعلق الأمر بالقصاص الذي يسعى إليه أبوه القاضي، ثمة أمور أبعد من ذلك؛ كلا الرجلين يبحث فيها عن شيء مختلف، وهذا الشيء متعلق بحياتها داخل الواحة قبل ثلاث سنوات.

ستة أشهر، هذا كل ما أمضته ذات البرقع داخل الواحة، فأين كانت تعيش قبلها؟ هل جاءت إليها متعمِّدة أم تائهة؟ ولماذا ترتدي البرقع المميز لأهل

الصحراء؟ هل كانت تعيش في إحدى قرى الواحات الداخلة قبل أن تتوه وسط الكثبان الرملية؟

إن كانت كذلك فأين أهلها، لماذا لم يبحثوا عنها؟ أم تراهم فعلوا إلى أن فقدوا الأمل؟

أيكون هذا سر لهجتها المختلفة، التي زعم «مشتاق» وأبوه أنها تعود إلى سنوات طفولتها التي أمضتها في قرية أبيها النائية، أنها من الأساس لا تنتمي إلى تلك العائلة؟

تكاثرت الأسئلة التي تفتش عن الجواب بين فتات الحديث، وهذا الرجل لن يمنحها ما تريد، سيتفنن في تعذيبها. دار رأسها، وتباطأ نبضها، خلع درعه اللامبالي ومد يده في الهواء استعدادًا لدعمها إن تراخت، يحاوطها بنظرات قلقة، متلهفة، كشفت عن ثغرة في درعه الصلب تجاهها.

تبددت القسوة التي كان عليها، أشار صوب الصخرة القريبة وأمرها بلين: «اجلسي ولا تعاندي».

كان عليه تحذيرها سابقًا، لعلمه أنها تتخذ من العناد درعًا بدورها. جلست لا لشيء إلا لكونها لا ترغب في السقوط أمامه من جديد. تشوشت في عينيها الرؤية، اختلطت خضرة الأشجار الكثيفة عند أطراف الغابة بشيء من الضبابية. ظنت أنه سيرحل عنها، أو يستكمل تسديد الحجارة إلى المزيد من القطع الفخارية.

جلس أمامها على صخرة مقابلة، النسمات من حولهما منعشة، والشمس من حرارتها متخففة، يظن الرائي من بعيد أنهما في نزهة خلوية.

لا ترصد العين المجردة ما يعتمل بداخلهما من عواصف مثيرة. يرنو إليها باهتمام بالغ، يتابع تحسن حالها، وقدرتها على استعادة اتزانها.

- هل «مشتاق» حفيد القاضي فعلًا؟ أم أنه أيضًا...
- «مشتاق» حفيده، وابن أخي.
- هل يعرف «مشتاق» أنك عمه؟
- يعرف أن له عمًّا بالواحة، لكنه لا يعرف أن هذا العم هو ممسوس الجبل.
- لماذا أنتَ متأكد من كونه يعرف أن له عمًّا هنا؟

- جدته الحيزبون لا بُد وأنها أخبرته.

- لماذا لم تحضره هو أيضًا إلى الجبل؟

- لأنني أقسمتُ أن أحمي أبي من شرور تلك العائلة، لا أعرف المخطط الجديد لزوجته الأولى، ولا لماذا أرسلت إلى الواحة حفيدها، لا أعرف لماذا ظهر «مشتاق» برفقتكِ رغم علمه بما ينتظركِ، ولماذا يدعي أنكِ «سراب» الحفيدة.. وحتى أفهم ما يدور بعقله سيظل بعيدًا عن أبي.

- ولماذا لا تسأله مباشرة؟

- وهل تظنين أن شخصًا مثله تربى في جحر أفعى كجدته سيمنحني جوابًا صادقًا؟

- لكن أنا بحاجة إلى أن أتحدث معه، أريد أن أفهم ما حدث لي قبل ثلاث سنوات، كيف فقدتُ الذاكرة، وكيف وصلتُ إلى القاهرة.

- لن أسمح لكِ بلقائه أبدًا.

لا يدع «مشتاق» يلتقي القاضي حمايةً للقاضي، إذن لماذا لا يسمح لها بلقاء «مشتاق»، أيًّا منهما يحمي من الآخر؟

لن تقبل بهذا الرفض، التحدث إلى «مشتاق» أصبح من أولوياتها القصوى، عليها أن تفهم لماذا كذب عليها الجميع؟ لماذا أوهموها أنها فتاة أخرى؟

إن كانت بالفعل قاتلة «سراب» الحقيقية كيف يأوونها في بيتهم، ولماذا يمنحونها هويتها؟ ماذا أرادت منها تلك العائلة؟

- ماذا تنتظر؟

لوهلة لم يفهم سؤالها، ثم فطن إلى مرادها، أطرق قليلًا لا يضمر النية للإجابة، فأردفت: «تؤكد أنني ذات البرقع تلك، وتثق أنني ألقيتُ ابنة أختكَ في البئر، ماذا تنتظر حتى تأخذ مني قصاصها؟».

- أنتظر الاعتراف.

- وما المهم في هذا الاعتراف؟ ألا تكفي ثقتك وشهادتك؟

أطرق ثانية، وهذه المرة تبدى عليه الارتباك واضحًا، للمرة الأولى منذ التقته تراه مشوشًا متخبطًا. رصدت التغير الذي طرأ عليه بدقة وقد فطنت للسبب. انتفضت تقول بحماس شديد متفاجئة: «أنتَ شاهد لم يرَ شيئًا!».

سدد نظراته في وجهها، بالحدة والقوة نفسيهما اللتين كانتا يرشق بهما الحجارة الصغيرة في منتصف مجسمات الفخار.

قال مؤكدًا، ليقتل أي فرصة أمامها للإفلات: «لم أرَ، لكنني أعرف ما يكفي».

- تعرف أنني ألقيتُ حفيدة القاضي في البئر، لكنكَ لم ترَني بنفسك وأنا أفعل ذلك، أنتَ شاهد لا تُؤخَذ بشهادته، هذا هو سبب ترددك، ولهذا تنتظر اعترافي، لأن جزءًا صغيرًا منكَ يفكر أنك لربما تكون مخطئًا.

رشقت في وجهه تلك الحقيقة الساطعة، تشبثت بهذا الأمل الصغير، الصغير جدًّا، أن تكون ذات البرقع بريئة من التهم المنسوبة إليها.

وهذا الأمر شديد الأهمية، لأنه العائق الأكبر الذي يمنعها من التماهي مع هويتها الجديدة، ويعجزها عن فهم المؤامرة التي حيكت لأجلها.

كان يعاني صراعًا داخليًّا جبارًا حين قال بصرامة وانفعال مكبوت: «ربما لم أرَكِ تقتلينها، لكنني رأيتكِ تفعلين شيئًا مشابهًا».

رنَت إليه مستفهمة، ومتأملة أن يستطرد في الحديث أكثر، ويخبرها بما تجهله. مال بجذعه صوبها، ارتبكت إذ صار أكثر قربًا وغضبًا: «تركتِني أحترق».

لم يكن غضبًا كما حسبت، بل ألمًا لجرح ما زال مفتوحًا، جرح تقيَّح لثلاث سنوات في غيابها.

- كنتُ وسط الدار المشتعلة حين رأيتكِ من النافذة، وقفتِ هناك تنظرين إلى ألسنة اللهب، رأيتني ورأيتكِ.. لم تفعلي شيئًا، لم تفزعي، لم تتحركي.. أدرتِ ظهركِ ورحلتِ عن الواحة وتركتِني أحترق.

وضعت نفسها مكانه، شعرت بخذلان رهيب ينخر عظامها. في المرتين اللتين تذكرهما عن الحريق، أتى «مشتاق» مسرعًا لإطفاء النيران وإنقاذها. ماذا لو رآها وسط النيران دون أن يبدي ردة فعل تجاهها؟

الخذلان، والخيبة، والقهر، سيطرت هذه المشاعر الثقيلة على الرجل الجالس أمامها، كان بإمكانها أن تسمع صوت تنفسه المضطرب، وأن تشم رائحة دخان لقلب يحترق.

قالت مستنكرة بوهن، تهز رأسها نفيًا بقوة: «أنا لا أفعل شيئًا بهذه الخسة».

اختمر العتاب بداخله، سنوات ثلاث مرت كألف سنة حتى لم يعد بإمكانه تحمله، قال لائمًا لوم من كان يتوسم خيرًا أكبر مما لقي: «لم أنتظر أن تدخلي الدار بينما تشتعل، لم أكن لأرضى أن تفعلي ما يصيبك بالأذى، كنتُ أصيح بكِ ألا تقتربي من اللهب، لكن على الأقل، كان بإمكانكِ إطفاؤها، كان بإمكانكِ المحاولة، لكنكِ تركتِها تشتعل، تركتِني أحترق.. وقفتِ هناك تشاهدين فحسب».

تنامى بداخلها نفور رهيب تجاه الهوية التي يصرون على إلصاقها بها، يستحيل أن تكون تلك المرأة الخسيسة المتراخية. لا تنقذ رجلًا فتح لها بيته وآواها عندما نبذها الجميع، ولا تقدم له يد المساعدة حينما يكون في أمس حاجته. ألقى «رعد» بسؤال أخير محقون بالألم: «ماذا فعلتُ لكِ؟ عن أي شيء عاقبتِني؟».

هل يمكن للكلمات أن تعمل عمل مقص يمزق، أو سكين يقطع، أو خنجر يخترق؟ كان لكلماته هذا الوقع الدامي.

في العينين الحادتين مرت غيمة عابرة، ممتلئة بماء ملتهب، جعلت عينيها تدمعان بدورها. كأنها تنظر إلى انعكاس ذاتها في مرآة؛ الغضب نفسه، والألم نفسه.

عرفت الآن أن الأمر بينهما يتجاوز القصاص، إنه الرغبة في الفهم والقدرة على التجاوز، عرفت الآن أنها ليست «لماذا؟» واحدة ما ينخر عقل هذا الرجل، بل ألف ألف «لماذا؟».

والمشكلة أنها لا تتذكر أيًّا من تلك الأجوبة.

مال اللثام عن جانب وجهه قليلًا، فتبدت مخلفات النار واضحة، تقافزت على لسانها كلمات اعتذار كثيرة. ودت لو تقول له ألف «آسفة»، بقلة حيلة من لا يملك أسبابًا واضحة، تُبرر فعلًا لئيمًا كهذا.

- هل كنتَ تعرفها جيدًا؟

لا تعرف إن كان استخدامها لضمير الغائب هو ما أزعجه، أم فحوى السؤال نفسه، تستفهم بشكل مبطن عن درجة القرب التي كانا عليها سابقًا، كم جدار فصل بينهما، وكم باب كان مواربًا.

ودت لو يؤكد أنه كالآخرين لا يعرف عنها إلا القليل، ولم يدنُ منها أكثر من مسافة أمتار، تذبذب الصورة وتعرقل الحوار.

لكن سكوته الطويل جعلها تضطرب، تتخيل كل أشكال العلاقات التي كان من الممكن أن تجمعهما، لم يجِب، وكان هذا جزءًا من التعذيب المستمر. رأت يده التي من غير قفاز تمتد قليلًا صوبها، تتوق للمسها، كأن ليده عقلًا مستقلًّا غير الذي يفكر به، تتخذ القرار بنفسها.

انتفض بغتة يقبض أصابعه، يعزف عن الوصال الذي سعت إليه أنامله. بدا وكأنه تفاجأ برؤيتها قربه، وبوجوده إلى جوارها. كأنما الرجل الذي كان يرنو لها بلين قبل قليل، قد استحال خلال ثوانٍ رجلًا آخر، مفرطًا في الحركة، لا يلبث في مكان واحد، يتطلع إليها بنظرة شيطانية، وتسيل من عينيه أنهار السخط، حتى نبرة صوته تبدلت، اخشوشنت، وتضخمت.

- ستدفعين الثمن.

غادر بحركة محتدة مفاجئة، أثارت الرمال من حولها، يوليها ظهره ويُسرع الخطى في الاتجاه المعاكس.

كما لو أنه لا يحتمل البقاء معها في مكان واحد!

***

كان بإمكانها ترك المشهد ينتهي عند هذه النقطة، ككل المشاهد التي يغادر فيها أحدهما قبل أن يتما حوارًا كاملًا.

لكنها لم تفعل هذه المرة، حثت الخطى خلفه عازمة على استكمال المشهد، وغزل الحوار من حيث توقفا.

انتظرت ما يربو على الساعتين إلى أن انتهى الحراس من إعداد الساحة عند مدخل مدينة الجبل، وقد نصبوا في منتصفها ما يشبه مسرحًا من الخشب يرتفع عن الأرض بمتر تقريبًا.

التف سكان الجبل حوله يتهيؤون لساعات طويلة من المرح. رأت «رعد» يخرج من الجبل، وقد استعاد نشاطه واتزانه واختفت من عينيه النظرة الشيطانية اللئيمة، يقفز فوق المنصة حاملًا سيفًا مهيبًا شديد اللمعان، مرصعًا بحجارة سوداء وزرقاء.

هلل الجميع ما إن رفع ذراعيه مرحِّبًا، يتحرك بثقة واعتداد، كأنه لم يختبر الألم، ولا شيء قادر على اختراق درعه النفسي القاسي.

نادى منادٍ باسم أحد الحراس، فقفز بدوره يواجه «رعد» بسيفه الذي يحمله، وما إن انطلقت الصافرة حتى بدأ النزال.

لم تسمع من قبل أصوات سيوف تحتك ببعضها، أو لعلها سمعت ثم سقطت تلك التجربة من ثقوب الذاكرة. قرضها الفزع لدقائق متتالية، كان صوت احتكاك السيوف ببعضها رهيبًا قادرًا على زعزعة أعتى النفوس ثباتًا.

حاوطت بنظراتها «رعد» الذي يتحرك بخفة وقوة وعزم لا يفتر، كأنه وُلد وفي يُمناه سيفه البتار. وثب قلبها مع كل ضربة بالسيف، وكل مناورة للإفلات من بطش الخصم، تجهل قوانين تلك المبارزات التي يبدو من الوجوه المستمتعة أنهم يعتادونها.

لا تعرف متى ينتهي النزال ويُعلن الفائز؟ هل عندما يقتل أحدهما الآخر؟ أصابتها الفكرة بالغثيان.

استمر النزال لعشر دقائق كاملة، وما إن وضع «رعد» حد سيفه فوق عنق خصمه حتى صاحت به: «لا تؤذه».

اختلس إليها النظر بطرف عينه، وقد تفاجأ بوجودها وسط الحشد. هلل الناس بالحركة التي حددت الأمهر بينهما، فخورون بقائدهم الذي نال فوزًا محققًا. نالها الحرج عندما أيقنت أنها بالغت في ردة فعلها، إذ توقعت أن النزال سينتهي بسفك دماء أحدهما للآخر.

مد «رعد» للخاسر يده يشد عليها ويربت بقوة فوق كتفه، ثناءً على الجهد الذي بذله.

دقيقة ثم نادى منادٍ يستدعي حارسًا آخر للنزال، وقف كالأول أمام «رعد» حاملًا سيفه ومستعدًّا للمواجهة. ترك له «رعد» الحركة الافتتاحية، يعرف خصمه جيدًا، ويستطيع توقع حركاته وردود أفعاله.

هكذا فكرت وهي تتابع باهتمام شديد طريقته في المبارزة، والكيفية التي تغلب بها على الثاني والثالث دون عناء، كان منذ بدء النزال خصمًا لا يُستهان به.

لو كان بإمكانها الوقوف أمام سطح عاكس لرأت في عينيها المتسعتين لمعة براقة، ونظرات هي مزيج من دهشة وترقب وإطراء وإشادة.

كانت منتبهة لنظراته الخاطفة صوبها، التي يجتزئها من وقت النزال، دون أن يخل ذلك بقدرته على سحق خصمه، وإنهاء المبارزة بوضع سيفه ملامسًا لعنقه أو موضعًا مميتًا بجسده.

توقفت عن عد الرجال الذين نازلهم بعد الحارس الرابع، لم يكن الأخير كسابقيه في القوة، جديد على تلك اللعبة، منحه «رعد» وقتًا بين عدة ضربات وأخرى، كي يلملم شتات قوته، ويستعد لتسديد ضربته.

حجب عنها الرؤية حشد تجمع أمامها، فارتأت تغيير مكانها.

ومن موضعها الجديد كان بإمكانها رؤية «رعد» الذي تدور عيناه في الحشد، يبحث عن شيء مفقود، أو شخص بدل موضعه. لم تكن بحاجة إلى طول تفكير كي تدرك أن نظراته تفتش عنها بتصميم.

وعندما عثر عليها أخيرًا لانت نظرته، كأنه لم ينهِ حوارهما عند شجرة السنديان الأسود بعاصفة رعناء من الغضب، تشتت تركيزه لجزء من الثانية، وكان هذا كافيًا ليتقدم خصمه ويمزق بسيفه الحاد موضعًا بذراع «رعد» من غير عمد.

اضطرب الحارس، ولم يدرك كيف يتلافى هذا الخطأ، اقترب منه «رعد» مربتًا فوق كتفه مرتين، متفهمًا للزلة غير المقصودة، ومعلنًا أنه الفائز في النزال بينهما.

هلل الناس ابتهاجًا، وكان أكثرهم فرحًا الحارس نفسه، الذي لم يصدق أنه تغلب على الممسوس في نزال قوة أمام سكان مدينة الجبل.

وقف الحارس بثقة أكثر وثبات أكبر يستعد لنزال رجل آخر تقدم ليصعد أمامه لتستمر المسابقة.

تركت موضعها وتابعت خطوات «رعد» إلى أن اختفى داخل حظيرة بالقرب من المدخل. كان يمسك بذراعه التي تمزق كمها ولحمها، يكتم جرحًا نازفًا رأت أثره فوق الرمال من خلفه.

بعد قليل خرج جاذبًا حصانه الأسود، وقد ربط ضمادة من غير عناية فوق الجرح. وقبل أن يبتعد بحصانه توجهت صوبه قائلة: «يجب أن نتحدث».

- ليس الآن.

صمتت قليلًا ثم أشارت إلى ذراعه تقول: «الضمادة ليست محكمة».

نظر إلى ما تشير إليه، ثم إليها نظرة قصيرة غامضة، تحرك بحصانه دون أن تستوقفه ملاحظتها، ثم توقف على بُعد خطوات ملتفتًا صوبها.

- لا تبقي بالخارج كثيرًا، قريبًا سيتغير الطقس، الليلة سيهطل المطر.

وجهت عينيها شطر السماء، تتأمل الغيوم التي تطوف فيها منذرة بإفلات الماء الذي تحمله، ثم نظرت إليه قائلة: «أنا لا أخاف المطر، بل أحبه كثيرًا».

استوقفته عبارتها وأولاها اهتمامًا أكبر مما تحتمله معانيها، كأنه يفتش بين الكلمات عن معانٍ مستترة، وتصريحات غير معلَنة.

أطلق الحصان صهيلًا متململًا، ربما غيرة من اهتمام سيده الذي انصرف عنه بالكامل، مسح «رعد» فوق عنقه مربتًا، ثم قال باقتضاب: «أحيانًا يأتي مصحوبًا بالرعد لذلك أظن أن عليكِ أن تخافي».

شعرت أنه يرمي لشيء أبعد من المعاني البسيطة المحتملة، شيء أكثر تعقيدًا من أن تفهمه بذاكرتها المثقوبة التي لم تحتفظ بأي من الخبرات التي عاشتها، ولا الوقائع التي دارت بينهما.

- لا أخشى الرعد كذلك.

استوقفته عبارتها الناقصة عن سابقتها، يمنحها وقتًا لربما أرادت أن تضيف لها المزيد، وعندما لم يحدث ذلك استدار إلى حصانه يمتطيه ويتوجه به صوب الغابة، مخترقًا أشجارها الكثيفة.

وقفت ترنو إليه إلى أن اختفى، ثم أغمضت عينيها مستشعرة رذاذًا أوليًّا يمهد لهطول غزير للمطر.

***

- هذا هو سرك إذن!

رددتها «سلام» مرات ثلاث، مرة بصوتها، ومرتين كررهما الصدى، رغم الغرفة المؤثثة، شعرت بقبيلة من الأصداء تزاحمها المكان، وتشاطرها الذهول.

ارتجفت كورق الشجر في مواسم الخريف، حين يصير هشًّا يابسًا، من غير غصن يدعمه. لطالما أحست أن بها خطبًا غير قابل للعلاج، منذ أن تفتحت أنوثتها وعبقت برائحتها الأجواء.

تسرب إليها خجل غير مبرر، ورغبة في الانزواء، كلما وُجِد «طوفان» بين أعمامها في مجلسهم، بينما تطوف عليهم مرحِّبة ومعانقة.

تقف أمام «طوفان» مترددة، تشعر باختلاف الرابط بينهما عما يجمعها بسائر أعمامها، فيحثها أبوها أن هذا عمك فلا تخجلي. تدنو منه مضطربة

الفؤاد، مشتتة البال، تشعر أن بها خطبًا غير مفهوم، كأنها مبرمجة على الخجل منه، ووضع الحدود، بينما الجميع يحثها ألا تفعل.

في كل مرة تلقاه وسط أعمامها أو بمفرده، تخنق صوت الفطرة بداخلها، وتعامله كما تعامل محارمها، وفي لحظات الخلوة، يقض مضجعها هذا الصوت المختنق، فتشعر بالغربة والاختلاف.

تدرك أنه ابن خالة يتيم تربى مع أبيها وأعمامها حتى صار لهم أخًا، لكن الناس من حولها لا تقف عند التفاصيل، هو في مقام عم، بل هو عم كروابط الدم المقدسة.

شعرت أن الخلل عندها، والخطب بها، هي التي تحتاج إلى إعادة تخليق.

والآن بينما تتطلع إلى محتويات الصندوق، وتستعيد كلمات زوجاته في رأسها، وتستنبط التفاصيل التي كانت مبهمة، وتزيح الضباب عن الروابط الباهتة، اكتملت الصورة أخيرًا أمام عينيها.

كل ما يحدث كان يعلن عن وجود امرأة أخرى تقف بينه وبين زوجاته، امرأة قريبة وبعيدة، يريدها ولا يستطيع بلوغها.

بينهما جدار عازل لا يمكن هدمه، ولا شيء في قوة جدُر عادات الواحة وأعرافها.

فكرت أنها بحاجة إلى أن تسأل خبيرًا حكيمًا: بماذا عليَّ أن أشعر الآن؟

وكأن صدرها أصبح مرتعًا للمشاعر المتباينة، التي تناقض بعضها بعضًا، تارة تذهل، وأخرى تتجمد، تارة تفزع، وأخرى تتزعزع.

أيقنت للتو أنها لم تكن الوحيدة التي تحمل هذا الصوت الفطري بداخلها، لم تكن الوحيدة التي تختنق. تكثر من مناداته بـ «عمي» فقط كي تُسكت الصوت الذي يصدح كلما التقيا عمدًا أو مصادفة.

أعادت الصندوق إلى موضعه، ثم ركضت تتعثر في ردائها، تغادر الغرفة، والدار، والحارة، تركض في اتجاه دارها، وبطرف وشاحها تخفي وجهها الذي تعلوه حُمرة ظاهرة.

كان الطريق مهيَّأ للهرب، لم تلتقِ من تعرفه، لم يستوقفها أحد، وعندما بلغت عتبة الدار أطلقت شهقة صغيرة حشدت فيها ذهولها واضطرابها.

على عتبة الدار تقابلت وجهًا لوجه مع الرجل الذي كانت، تفتش بين أغراضه قبل قليل، الرجل الذي اكتشفت سره الذي يخفيه، وكنزه الذي يجمعه.

فزع «طوفان» لمرآها خارج غرفتها، وهي في هذه الحالة المضطربة، والأنفاس اللاهثة، والحُمرة التي تصبغ وجهها.

- ما بكِ؟

في صوته لهفة محققة، واهتمام يتجاوز اهتمام الأعمام، ومثلما شعرت بعزوف قلب «جمعان» عنها، شعرت أن قلب «طوفان» يتحرك بمعزل عن عُرف الواحة وقوانينها.

استعادت مواقف كثيرة بينهما كانت تفصح عن نفسها، وتكشف ما يواريه خلف كلمة أو نظرة، لكنها أبَت أن ترى، وخشيت أن تصدق.

والآن أمست ترى أمامها رجلًا يحل لها وتحل له، فاستيقظ الخجل الرابض في صدرها، وأيقظ التوتر بدوره، تحدوها رغبة حثيثة في الفرار.

وضع ظهر كفه فوق جبينها، يحسب أن حرارتها ملتهبة بفعل المرض، وأنها كعادتها تكتم ألمًا ألمَّ بها.

هذه المرة لم تُسكت «سلَّام» الصوت الذي صدح، أدركت أخيرًا أنه كان محقًّا منذ نطق، هذا الرجل ليس محرمًا لها.

لا تكفي العادات والأعراف لتصنع أواصر قوية بقدسية روابط الدم وديمومتها. نفضت يده بغتة تقول بنبرة راجفة: «لا تلمسني بعد الآن».

فاجأته ردة فعلها غير المعهودة، لاحظ اضطرابها، ورجفة كفها، وإخفاءها لجزء من وجهها خلف وشاحها الأخضر، تنظر إلى الأرض ثم تحث الخطى تجاه غرفتها.

يطرق الباب، يقف هناك جامدًا وذاهلًا، فزعًا ومتزعزعًا، لا يسأم محاولة استنطاقها: ««سلَّام» أخبريني ما بكِ؟».

إلى أن أدرك أنها لن تجيب، فيخرج من الدار مشتت البال، حائر التفكير، يحدوه الشرود طوال الطريق، لا يدرك كيف بلغ داره، كان مستغرقًا في التفكير فيما ألمَّ بها، وبدَّل حالها.

يدخل غرفته، ثم يتجمد في موضعه، يرنو إلى الغرض الساقط فوق الأرض، يدنو منه، ثم يحمله؛ سوار الحجارة الذي فقدته «سلَّام» يوم الزفاف

المشترك، يثق أنه كان يخبئه جيدًا داخل الصندوق الخشبي، فكيف خرج منه وزحف أرضًا؟

لم يتحرك بمفرده، إذن من الذي أخَرجه؟

لم يحتج إلى طول تفكير، الحالة التي كانت عليها أنبأته بالكثير، وأتى السوار ليزيل الشك ويُبقي فقط على أعمدة اليقين. تأمل ما حوله مضطربًا ومبتهجًا في آنٍ واحد، يتهامس لنفسه بلهفة عاشق محروم: «مِن هُنا مرَّت «سلَّام»».

أخذ يذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا، لا يسعه مكان، يتساءل بلوعة: «ماذا سيحدث الآن؟».

هل ستخبر «أبو الأحناش» عن السر الذي انكشف؟ هل ستفضحه أمام باقي الأعمام؟ هل تنتظر أن تستعيد توازنها ثم تواجهه لائمة وساخطة؟

ما كان بإمكانه أن يتحمل السقوط من عيني «سلَّام»، ضرب جبهته وأسقط عمامته.

كان عليه مقاومة تلك الرغبة العاتية التي تدفعه للاحتفاظ بجزء منها في صندوق حسب أنه سيصون سره إلى الأبد.

نسي أن عمر الأسرار قصير جدًّا، الأسرار ليست خالدة.

ساعات طويلة أمضاها «طوفان» حبيس الدار، يفكر في كيفية الخروج من تلك الورطة، إلى أن أيقن أن الحقيقة التي تطارده طوال سنوات عثرت عليه ولن تفلته.

كل ما استطاع التفكير فيه، هو الخروج من الواحة والهرب، قبل أن يعرف الجمع وينتشر الخبر، فتلحق ألسنة الناس «سلَّام» أينما حلت.

لن يدعوها وشأنها أبدًا، ولربما ألفوا القصص حولها، وزعموا أنها كانت تعرف بمشاعره، تسمح له بدخول غرفتها، تدنيه، وتصاحبه. لن يسمح بأن يطال الأذى «سلَّام»، تلك خطيئته وحده، وعليه دفع الثمن وحده.

لم يعد بإمكانه البقاء في هذا المكان، عليه أن يفارق الواحة قبل أن ينتشر الدخان.

***

(2)

الخوف شعور مخادع، مراوغ، يمارس طقوسًا متجددة من الخدع النفسية. الخوف شعور متملِّك، مباغت، يطيب له المقام في النفوس الهشة، ذات الإرادة الضعيفة.

والخوف الذي خادع وراوغ وتملك وباغت «صدف»، قد استفحل في قلبها، حتى أصبح شعورًا مستمرًّا يُجدد نفسه بنفسه دون حاجة إلى مثير خارجي.

عندما وجدت أمها على أعتاب غرفتها في غياب «قوس» تعلق الخوف في عنقها، تمامًا بين كتفيها، فأصبحت كالأحدب الذي يميل بجذعه إلى الأمام، لثقل فوق جسده لا يتحمله.

- أرسلتُ إليكِ فلم تأتيني، هل نسيتِ من أكون لتردي لي طلبًا؟ أنا ساحرة الجبل، أقوى نساء الواحة، أستطيع سحقك في قبضتي.

وتصديقًا لحديثها، ضمت أصابعها بقوة تسحق «صدف» صغيرة متخيَّلة تقف مذعورة فوق راحة كفها.

- أعتذر.. أنا لم...

- أغلقي الباب وتعالي.

امتثلت لأوامر أمها، جلست الساحرة فوق الفراش تتأمل الغرفة قليلًا، ثم تسقط نظراتها الساخطة فوق وجه «صدف» المرتبك. تقف أمامها مثل سجين في حضرة الجلاد.

- لماذا لا يزال هذا الرجل هنا؟ لماذا لم تتطلقي منه؟ هل نسيتِ حديثنا؟

- لم أنسَ.

- إذن لماذا لا تزالين في عصمته؟

رجف جسدها برعشة ظاهرة، تجاهد لتُبقي العبرات المنفلتة حبيسة جفنيها. تمنت عودة «قوس» سريعًا، عله بحضوره يخفف وطأة الخوف الجاثم بين كتفيها، لا شيء سوى كلمات «قوس» تُبدد هلعها.

أمسكت الساحرة بمعصمها، تجذبها إلى أن أجلستها فوق الفراش، تجاورها «صدف» في صمت مطبق، ورأس مطرق.

- اسمعي يا «صدف»، عليكِ أن تثقي بأمكِ، القوة هي السلاح الوحيد الذي يحميكِ، والمدخل الوحيد لحياة هانئة، ما العيب في أن أريد لكلتينا حياة مرفهة دون الحاجة إلى العمل؟ ألم تملي صناعة السلال؟ ألم يرهقكِ الذهاب إلى السوق كل يوم وانتظار بيعها؟ ألا ترين الحياة الهانئة التي أعيشها؟ لقد مللتُ الوحدة، وأرهقني انعدام الثقة فيمن حولي، أنتِ ابنتي الوحيدة، أريدك معي هنا، إذا اتحدت قوتانا سنحقق المعجزات معًا، هذا ما كان يخشاه أبوكِ عديم الطموح، كان رجلًا ضعيفًا يهوى حياة الشقاء، وأنا أريد لكِ حياة أفضل من الجميع، ما الخطأ في هذا يا بُنيتي؟

ثم مسحت فوق كفها تقول بحنان استشعرته «صدف» في الحال: «فكري فيما قلتُ، هل تعدينني بذلك؟».

أومأت «صدف» وقد أبهجها لوهلة الشعور الذي غمرها، تتحدث إليها الساحرة دون تعنيف أو تجريح، تربت كفها، وتضمها قليلًا إلى صدرها، لكم افتقدت «صدف» هذا العناق الأمومي، وأفنت ليالي طويلة تقاسي غيابها.

- أنتِ ابنة أمكِ، لا تنسي هذا.

منحت أمها ابتسامة صغيرة ونظرة رائقة من عين دامعة.

- هل ينقصكِ شيء؟ أخبريني فأخبر الحراس فورًا أن يحضروه لكِ.

قالت بتردد ملحوظ: «أريد القليل من الخوص، وسأرد إليكِ ثمنه».

ربتت وجنتها سريعًا، ثم غادرت الغرفة تاركة إياها تتخبط في دوامات الحيرة. أعجبها الشعور الذي غمرها، أطل الحنين برأسه يدفعها لأن تذهب من خلفها، تسألها أن تضمها مرة أخرى، وتعيد على سمعها كلمة «بنيتي».

أحضر الحارس الخوص الذي طلبته، أمرته أن يضعه أمام الباب، وبعد قليل فتحته. خرجت عبر الممرات التي تقود كلٌّ منها إلى أخرى، إلى أن بلغت مدخل الجبل، وهناك افترشت الأرض وعكفت على جدل أشرطة الخوص فوق بعضها، يشرد عقلها مستعيدًا الحوار الذي تشاركته وأمها قبل قليل.

لم تمضِ ساعة إلا وكانت قد انتهت من أولى سلالها، وساعة أخرى حتى تمكنت من بيعها، لقاء نصف عملة ذهبية منحها إياها المشتري.

كانت عاكفة على صناعة سلة جديدة عندما رأت «قوس» أمامها، جاورها فوق الرمال في الموضع الذي اختارته.

- ماذا تفعلين؟

- ما أجيده، أصنع السلال وأبيعها.

- أخبرتُكِ أنني أعمل لأحصل على طعام الفطور.

- أردتُ مساعدتكَ بما أستطيعه.

بابتسامة صغيرة مشرقة، خجول ومترددة، أخرجت نصف عملة ذهبية من جيبها. مد «قوس» يده إلى جيبه وأخرج مثلها، يُتمم كل منهما النصف الذي لدى صاحبه.

ابتسم بدوره يقول متلطفًا: «هذا يعني أننا هذا الصباح ستكون لدينا مائدة عامرة».

لم يختبر «قوس» قبلًا شعور المشاركة، عندما استيقظ فجرًا وجد غطاءً خفيفًا مسدلًا فوقه.

ووجد ملابسه التي حضر بها إلى الجبل، مغسولة ومعلقة بجوار النافذة. وعندما أراد إرواء ظمئه، وجد أنها شربت نصف القارورة وتركت له نصفها.

والآن تساعده في تحصيل ثمن طعام الفطور.

في الدور التي كان يقيم فيها كان يؤدي مهامه بنفسه، يغسل ملابسه، ويجني ثمن كسوته، ويعمل لقاء حاجته، لئلا يكون عبئًا ثقيلًا على أصحاب الدار.

الآن بينما تشاركه «صدف» المعيشة، غمره شعور عامر بالرضا والسكينة. جنبًا إلى جنب جلسا أمام الخوص غير المجدول، يأخذ شريطًا ويقلد حركة يديها المدرَّبة السريعة، تبتهج حين تراه يحاول مجاراتها وتعلُّم صنع سلالها، ورغم أن منتجه الأول لم يكن بجودة ما تصنع، إلا أنها أحبته كثيرًا، قررت الاحتفاظ بالسلة وعدم بيعها.

- ألأنها سيئة؟

- بل لأنها سلتك الأولى، ستحب أن تتذكر تلك اللحظة دائمًا.

ضحك بابتهاج لم تعهده، رنت له بقليل من الدهشة فأوضح لها: «اليوم مزاجي جيد.. هل تعرفين أن ذات البرقع هنا بالجبل؟».

- حقًّا؟ هل عادت إلى الواحة؟

- إنها الفتاة نفسها التي كانت تقيم في دار «أبو الأحناش».

- لكن تلك اسمها «سراب»، لم تتطرق قط للحديث عن ذات البرقع!

- هذا ما لم أفهمه بعد.

حل الصمت بينهما لفترة، ثم ألح عليها الفضول كي تسأله: «لماذا أبهجتكَ عودتها؟».

ولم يكن الفضول وحده ما ألحَّ، قطرات من الغيرة تتذوقها «صدف» للمرة الأولى، ولم يكن شعورًا مبهجًا قط، كان لئيمًا مزعجًا، أرادت التخلص منه في الحال، وكان هذا دافعها الأكبر للسؤال.

نظر حوله ثم مال قليلًا صوبها يقول: «تعرفين كيف كانت تقف بشجاعة أمام كل ما نبغضه في الواحة، هي الوحيدة التي كانت تتحدث عن ممارسة السحر فوق أرضنا، وتخبرنا عن أشياء ما سمعنا بها قبلًا».

أومأت «صدف» برأسها مؤكدة تقول بثقة: «تخشاها أمي وتبغضها كثيرًا».

- لهذا أقول، ربما لا يزال هناك أمل.

- ليختفي السحر من أرضنا؟

- وليتحد أهل الواحة وأهل الجبل ثانية.

وكان هذا ما تنشده بدورها، أومأت برأسها متفهمة، تشاركه أمنيته. أشار برأسه صوب ركن قصي أسفل شجرة صنوبر عملاقة، ذات جذع ثخين يكفي لحجب كليهما عن أعين سكان الجبل، ثم قال متلطفًا: «انتظريني هناك حتى أحضر فطورنا».

- ألن نأكل في الغرفة؟

- كلانا يستحق نزهة.

لم يسبق لها أن خرجت في نزهة منذ أن أقعد أباها المرض، ابتهجت كطفلة في العاشرة، وجمعت يديها في جذل. توجهت إلى حيث أشار، وأسفل ظل شجرة الصنوبر جلست تنتظر.

لا تفارق البسمة شفتيها، تستبطئ الزمن كي لا يتقدم بسرعته المعهودة، تناشده أن يتريث قليلًا عند تلك اللحظات الثمينة.

يأتي «قوس» حاملًا ما يثير شهيتها، تفرش فوق الأرض قماشة لف بها الطعام، وترص ما جادت به الأرض عليهما.

النسمة القوية التي مرت أزاحت عنها وشاحها، أرسل «قوس» نظرات شغوفة متأملة، أخجلتها ودفعتها لأن تحاول إعادته.

جذبته الريح ثانية، فأطلق «قوس» ضحكة رائقة يقول: «لا تعاندي الريح العابثة».

تطيب لها النزهة، حتى تود ألا تنتهي، ما الضير أن تبقى هنا أسفل شجرة الصنوبر وتبني بيتًا لا تهزمه الريح ولا تهدمه رغبات الآخرين وأهواؤهم؟

كان الطعام شهيًّا طيبًا، ربما لم تتذوق قبلًا في الواحة لذة مماثلة، أو هذا ما ارتأى لها إذ يشاركها الطعام «قوس» بنفسٍ نهمة مُقبِلة.

أخرج من جيبه نصف العملة الذهبية الذي أعطته إياه، أمسك بكفها ثم وضعه بداخلها، فأبدت اعتراضها على الفور: «قلنا سنقتسم ثمن الطعام معًا».

- أنا لم أقل، هذا مالكِ أنفقيه كيفما شئتِ.

- لكن..

- أستطيع الاعتناء بكِ.

لماذا يكون لحديثه على قلبها وقع كلمات غزل ساحرة؟ هذا ما كانت تتساءل بشأنه عندما أدركت أنها ومنذ مرض أبيها لم تخبئ مالًا لأجلها.

كل ما كانت تجنيه كانت تنفقه على الدار والدواء وتبعات المرض. قبضت على نصف العملة بفرحة ظاهرة.

- ألم يحن وقت العودة؟

بدد بكلماته السكون الذي تسبح فيه، عادت لتسقط في دوامات الحيرة، تستعيد الحديث الذي دار مع أمها، ألا يمكن لها أن تحتفظ بكليهما؟ أن تقيم مثلًا فوق الهاوية فيصير بإمكانها وصل الواحة بالجبل؟

- لا تخافيها، ثقي بي يا «صدف».

لم يعد الخوف وحده ما يستبقيها، بل شوقًا لأمها وحبًّا في وصالها، كيف تخبره بهذا؟ سيغضب منها ويثور عليها وربما يندم على مساعدتها، لا تستطيع أن تخسره.

لجأت إلى الصمت تحتمي به من الخوف الذي أطل بعنقه عازمًا على أن يفسد نزهتهما الجميلة. اضطربت حين مس «قوس» كفها، برقة كأن أنامله تضغط فوق زجاج هش قابل للكسر.

- أنا زوجكِ، تستطيعين التحدث معي.

كيف تفك تشابك الخيوط الكثيرة التي تزاحم رأسها؟

إن تحدثت لن تخرج منها جملة سديدة، أو عبارة ذات معنى محدد، ستربكه بمشاعرها المتشابكة، وأفكارها غير المستقرة.

- اسمعي يا «صدف»، الزواج طريق طويل مملوء بما نجهله، لا نعرف كم عثرة سنصادف، كم جبل، وكم هاوية.. الشيء الوحيد الذي نختاره ونعرفه هو رفقاؤنا، أنا قبلتُ بكِ رفيقة، وأنتِ قبِلتني.. يجب ألا يكون الصمت حاضرًا بين رفقاء الطريق، في هذه الحالة سيواجه كل منا وحده الصعوبات التي ستقابله، إن اتحدت جهودنا، نستطيع السير معًا والتغلب على العوائق التي تنتظرنا.

كانت توليه كل انتباهها، تقع كلماته على عقلها وقلبها فتوحد وجهتهما معًا، يردف: «التواصل هو أهم شروط الرحلة».

تصدق على كل كلمة يقولها، بهزة خفيفة من رأسها، تسكن كفها في يده، كمن عثر أخيرًا على مأوى. يردف بلطف محذرًا: «لا أحتمل الأسرار، أو سوء التفاهم وقلة الحوار.. تلك العوائق يجب إزاحتها أولًا، عليكِ أن تقرري الآن، هل ترغبين في السير معي؟».

وكانت أكثر من راغبة، إلا أنها لا تعرف كيف تخبره، تحتاج إلى شجاعة كبيرة لم تتحل بها يومًا.

منحها كل الوقت الذي تنشده، لم يستبطئ جوابها ولم يدفعها لقول ما يريد أن يسمعه. الوقت الذي ذلَّله لأجلها والانتظار الذي لم يزعجه، منحها الاسترخاء الذي تأمله، وأنزل على عقلها صفاء مكنها من أن تتحلى بالشجاعة الكافية لتفصح عن رغبتها الحقيقية، فتقول مؤكدة: «أريد السير معكَ».

وقَّعا اتفاقًا ضمنيًّا مدة سريانه حياة كاملة، ألا يكون بينهما سدود وجدران، تعوق دون تواصلهما. شد على كفها وأدناها، مستمتعًا بالتقارب الذي حل بينهما، ومستكشفًا لها ولمشاعره.

يُمرر أنامله فوق وجنتها بروية رحَّال يستكشف أرضًا جديدة. الشعور الغريزي الذي كان يلح عليه للوصال مع أنثى تُكمِّله، تأجج أكثر بداخله، التمس عندها ما كان ينقصه، مستشعرًا نعمة أن يكون للمرء وليفٌ ينجذب إليه ويجذبه.

شعرا بالامتنان للأب الذي وحد دروبهما معًا، يتمسكان بالفرصة التي تهيأت لهما من حيث لا يحتسبان، يود كل منهما أن يكون للآخر مسكنًا.

بدت لها تفاصيل المكان من حولها مختلفة عما عهدته؛ الشمس تضحك، والسحاب يرقص، والهواء يتراقص، كأن شعورها انعكس على الموجودات من حولها.

لو سألوها الآن ما هي السعادة؟ لأجابت: السعادة «قوس».

***

لم يكف عقل الساحرة عن العمل.

اضطرت مرغمة إلى أن تزور «كسار» في محبسه، بعدما أرسل في طلبها عشر مرات ويزيد. ما إن رآها حتى هب واقفًا، يتمسك بقوة في القضبان التي تحول بينهما، يرمقها بلهفة بينما تقف متململة، تقول بطبعٍ نزِق: «ها قد أتيتُ، ماذا تريد؟».

- أريد مساعدتكِ، تحدثي مع الممسوس كي يعفو عني.

لمس الضمادة الكبيرة فوق أنفه التي جعلت مخارج حروفه مشوهة. قالت باستعلاء كبير: «أرأيتَ المكان الذي أوصلتْكَ إليه حماقتكَ؟».

بينما تخلل الوهن قسماته، وانطبعت المذلة فوق جبينه، ناشدها بإصرار: «تحدثي معه، سيستمع إليكِ».

- الممسوس غاضب منكَ بشدة، أخبرتك أن «قوس» صديق مقرب له، لكنكَ لم تلتفت لتحذيري، لن ينجح حديثي في إذهاب غضبه.

- لو رجوتِه...

- لن أرجو أحدًا لأجلكَ يا «كسار».

هز القضبان بقوة كما لو كان ينتوي خلعها، كشر عن خبثه الذي أخفاه منذ بداية اللقاء، قرب وجهه من القضبان، ثم انفجر: «صار رهانكِ عليَّ

الآن خاسرًا، أليس كذلك؟ لو كنتُ حصانًا رابحًا لجثوتِ أمام الممسوس على ركبتيكِ كي يخرجني من محبسي».

أمسكت الساحرة بالقضبان بدورها، تكشر هي الأخرى عن بغضها: «لو كان في رأسك السميك هذا ذرة عقل لاستمعتَ إلى نصائحي، لكنك مريض بالحماقة، والدليل أنكَ لم تتعلم بعدُ كيف تتحدث معي».

ضرب «كسار» القضبان بقوة صدر عنها صوت أجفل الساحرة، ابتعدت خطوة إلى الوراء وقد خشيت أن يمد يده ليُمسك بتلابيبها. قال وما زال محتدًّا ناقمًا: «سمعتُ أن الفتاة التي أحضرها الممسوس من الواحة هي نفسها ذات البرقع التي رحلت عنا قبل ثلاث سنوات.. تعرفين ماذا يعني ذلك؟.. صار عرشكِ على الماء، موجة واحدة ستقلبه».

- لن يحدث هذا إلا في أحلام الحمقى أمثالكَ.

ثم شدت هامتها وقالت باستعلاء: «الفتاة لا تتذكر شيئًا على الإطلاق».

أطلق «كسار» ضحكة ساخرة صاخبة، سرت أصداؤها من ممر لآخر حتى اختفت. أردف بنبرة مستفزة مقلقة: «تستغلين نقطة ضعف الممسوس كي يبقيكِ إلى جواره بالجبل، عودة الفتاة ستقلب الموازين التي جاهدتِ لضبطها، كم أنتظر هذا متشفيًا».

رمقته بنظرات شرسة متسلطة، لم تنجح في إسكاته إذ استطرد: «هل نسيتِ ما حدث مع «رماح»؟.. هل نسيت كيف أن الفتاة ساعدته؟!».

على ذِكر «رماح» اهتز ثباتها، عدة ثوانٍ ثم استعادت اتزانها، تجاهد لتواري اضطراب ألمَّ بها، «رماح» الذي جاهدت للتنكيل به مستعينة بالسحر الذي تطوعه ببنانها، نجحت الفتاة في أن تشفيه!

لم يسبق لأحد أن تمكن من قلب سحرها، أو إبطال أعمالها، لا أحد إلا الفتاة الغريبة التائهة. بينما عاد ذِكر الفتاة ليقض مضجعها ويهز عرشها، أردف «كسار» بلؤم مخلخلًا ثباتها: «عندما تتذكر الفتاة أي قوة تمتلكها، ستجبُر ضعف الممسوس الذي يحتاج إليها، وعندئذ لن يكون لكِ مكان بالجبل».

هل عادت غريمتها تسد عليها الطريق نحو القمة؟ منذ عودتها أثارت العواصف بالواحة والجبل رغم أنها واقعة في بئر النسيان الجهولة. فكيف بالحال عندما تخرج منها وتنفض الغبار عن ذكرياتها؟

- لن تتذكر أبدًا، سأحرص على ذلك بكل قوتي.

ختمت الساحرة حديثهما بقوة وصرامة، ثم استدارت تدور على عقيبها. صاح «كسار» بحدة من خلفها: «والممسوس سيحرص على جعلها تتذكر، فلنرَ أيكما سينجح في مسعاه في النهاية.. فلننتظر ونرَ».

***

الشيء الذي ظل طوال اليوم يحاول أن يفهمه: ما الخطأ الذي اقترفه؟

يعرف أنه أخطأ عندما نسي وعاد إلى دار أمه من الطاحونة كعادته، لكنه خطأ مبرَّر، غير متعمَّد، يكفيه اعتذار صادق كي يمحيه.

لكن هذا لم يحدث، ظلت «فلك» عابسة في وجهه، شاردة عن حديثه، كأن عقلها يحط في مكان آخر.

عندما قرر الزواج تعامل مع الفكرة كما يتعامل مع طاحونته؛ تُنقى الغلة، ثم يضعها في المكان المخصص للطحن، يدور مع الطاحونة بقوة ساعديه إلى أن يُطحَن الحَب، ثم يعبئه في الوعاء، ليستخدمه صاحبه كما يشتهي.

عملية متتابعة بخطوات محسوبة وميكانيكية ثابتة.

وكان الزواج في رأيه عملية مشابهة؛ يختار فتاة يعرف بيتها، وإلى أي العائلات تنتمي. يعرف كيف تبدو، أو رآها بعينَي أمه التي تجيد التوصيف، يؤسس معها دارًا حولها حديقة صغيرة يزرع فيها الخضر، ينجب منها الأولاد والبنات وينشئ عائلة كبيرة يكون القائم عليها.

يحسن تربية الصغار إلى أن يصيروا مثالًا في الشرف والقوة والنزاهة، يشاركونه العمل بالطاحونة، ويتفاخر بهم في المجالس، وعندما يموت يرثون سيرته العطرة، ويكونون امتدادًا لاسمه.

والآن بدا له أن الآلة بها ترس معطوب لا يعرف كيف يصلحه، لم يسِر الأمر بالوتيرة التي يعرفها، التي تبدو مثالية لإنجاح عملية منظمة كالزواج.

لم يكن يحتاج إلا إلى الوجود وسط المجلس كي يحظى بحفاوة أقرانه. ولم يكن مطلوبًا منه في الطاحونة سوى طحن الغلال كي ينال استحسان زبائنه. وعندما يوزع ابتساماته على الصغار كانوا يهرولون نحوه ويتعلقون بملابسه. وكان يكفيه الظهور على عتبة الدار كي تستقبله أمه باشة ومرحِّبة.

فلماذا لا يستطيع كزوج أن يحقق هذا القدر من النجاح كما يفعل في سائر علاقاته؟

ما الخطأ الذي اقترفه؟ وما السبيل لتلافيه؟ هذا ما فتئ يتساءل عنه دون أن يتمكن من الوصول إلى الترس التالف.

حين دخل الدار ووجدها على حالها من الشرود والغم والتجاهل؛ شعر بحمل ثقيل يحط فوق كتفيه، ترجم ما يراه منها كخيبة أمل في شخصه. ولأول مرة منذ فتح عينيه على الحياة شعر «هلال» أن ثقته بنفسه تهتز بشدة. فوجوده لا يكفي لإسعاد امرأته، كما تسعد به أمه والصغار وأقرانه وزبائنه. تذوق الفشل ربما لأول مرة منذ وقت طويل جدًّا، أورثه هذا رغبة قوية في الهرب من هذا الشعور المحبط، الذي لازمه منذ أن دخل الدار.

أعدت «فلك» الطعام فوق مائدة أرضية، التفا حولها يتناولانه في صمت، إلى أن قطعه «هلال» بقوله: «ألن تتحدثي معي؟».

- ماذا أقول؟

- أي شيء.

- هل عندك ما يُقال؟

- كلا.

- ولا أنا.

أطلقت تنهيدة صغيرة حارة محاولة السيطرة على أعصابها التالفة منذ أن صادفت «مشتاق» في حديقة الدار. لا تزال أصداء كلماته تتردد في أذنيها مهما حاولت التجاهل، وبذلت جهدها في صرف التفكير.

سيطرت عليها مشاعر متباينة، لكن أقواها كان الغضب، لا من «مشتاق» ولا من نفسها، بل من «هلال» الذي يجهل تمامًا التصدع الذي يحدث بداخلها.

- «فلك».. أناديكِ.. ألا تسمعينني؟

- كنتُ شاردة.

- كنتُ أقول إنني جئتُ لكِ بهدية.

التمعت عيناها بفضول، نهض ليحضر الهدية التي تركها أمام الباب. عندما عاد ووضعها أمامها تحول الفضول إلى دهشة، ثم حيرة وهي تسأله: «ما هذا؟».

- مهد للصغير.

- أي صغير؟

- طفلنا الأول الذي سننجبه.

نظرت إليه في بلاهة بفم مفتوح قليلًا، تسرب الشعور من مسامها وبقيت للحظات خاوية، لا تعرف فيما تفكر، ولا ماذا تقول؟

لم يكن المهد في نظر «هلال» سوى تأكيد لكونه رجلًا جادًّا في مسعاه نحو بناء عائلة، ودلالة لحرصه ولهفته على أن يحدث ذلك في أقرب وقت ممكن.

«لا شيء يسعد المرأة أكثر من سعادة طفلها» هذا ما كانت تردده أمه على مسامعه؛ أراد إسعادها، فتفتق ذهنه عن هذه الهدية المحملة بالمعاني الراسخة.

بينما كانت «فلك» تفكر: *عن أي طفل يتحدث؟*

لا تزال تشعر بالغربة في دارها، كأنها ضيفة مقيمة لأيام وعندما يحين موعد الرحيل ستجمع أغراضها وتفارقها. ربما منحها دارًا مؤثثة للمقام، لكنها بعدُ لم تشعر بالاستقرار النفسي الكافي للتحدث عن طفل وعائلة.

لا تزال تشعر بالغربة تجاهه كما لو أنها لا تعرفه، بل هي في الحقيقة لا تعرفه.

تند عنه تصرفات لم تصادفها في أبيها الذي لطالما كان خاضعًا لرغبات أمها، يدور في فلكها مع بناته الثماني.

«هلال» مختلف، لا يشبه أباها في شيء، له مدار خاص يدور فيه دونها، لا تعرف حتى كيف تبلغه.

- لا أريد عائلة.

شعر بها كصفعة قوية لكرامته، فسر قولها بــ: لا أريد عائلة معكَ. فتجدد شعوره بالفشل، بأنه ليس كافيًا.

- أقصد الآن.

لم تغير إضافتها شيئًا من السخط الذي جثم بثقله فوق صدره، انسدت شهيته، قام عن الطاولة شاردًا بدوره، كأنهما يتبادلان الأدوار. اختلى بنفسه في غرفته، وعندما لم يحتمل هذا الوضع عاد ليستكمل الحديث الذي انقطع: «لماذا تزوجتِني؟».

ألقت عليه نظرة خاوية، مفرغة من أي معنى يستطيع أن يتبينه، فما زاده هذا إلا انزعاجًا، الأمور المشوشة تبدو في نظره مخيفة ومزعزعة. تشرد قليلًا ثم تقول: «لأكون سعيدة».

وكانت إجابتها صادقة، لكنها لم تكن الإجابة التي انتظرها، تجعد جبينه، وتبدى الضيق على قسماته، السعي لبناء عائلة أعلى قيمة وأكثر قدسية من الحصول على السعادة الفردية.

السعادة تتويج لجهد كبير وعمل ممتد لسنوات، ثمرة لا يمكن جنيها إلا بعد بذر البذور وري الأرض ثم انتظار طويل لموسم الحصاد. وليست شيئًا يُمكن الحصول عليه مغلفًا داخل علبة مخملية.

كيف تنظر إلى الزواج كعلبة مخملية؟

- ألستِ سعيدة؟

- ماذا فعلتَ لتجعلني سعيدة؟

لماذا تصر على إشعاره بعدم الكفاية؟ ماذا عليه أن يفعل أكثر من دوره الذي يمارسه في حياته اليومية؟

ألم يبنِ الدار ويؤثثها؟ ألم يعمل بالطاحونة ليكفي احتياجاتها من طعام وشراب وكسوة؟ ألم يمدح جمالها، ويبدي لهفة حقيقية حين يدنو منها في المساء؟

- إذا كنتِ لا تودين أن تكوني أمًّا لأطفالي وأكون أبًا لأطفالك، إذن لماذا تزوجتِني؟

ولم تكن «فلك» بحاجة سوى إلى شرارة صغيرة كي يشتعل غضبها.

- عن أي أبوة تتحدث وأنتَ بعدُ لم تستطع أن تكون زوجًا؟

«أحبكِ يا «فلك»».

تتردد في ذاكرتها أصداء كلمات «مشتاق» التي انتظرت أن تسمعها من رجل آخر، رجل يقف أمامها ويتحدث عن طفل، الحمل به سيشوه جمالها.

إذا كان لم يحبها بعدُ بينما هي في أروع حالاتها، كيف وهي أم تلتهي بإطعام الصغار وتغيير ملابسهم والتنظيف من خلفهم؟ آخر ما كانت تفكر فيه في اللحظة الراهنة، هو الدخول في تلك الدوامة التي ستسحبها بعيدًا عن كل ما تشتهيه نفسها.

لن تزيدها هذه الدوامة إلا جوعًا على جوع.

- حتى إنكَ لم تحبني بعدُ.

- الحب لا يولد سريعًا هكذا.

- متى يولد؟ بعد الطفل الثالث؟

- ليس هذا ما انتظرته منكِ.

- ولا هذا ما انتظرته منكَ.

لخص كلاهما المشكلة في جملة قصيرة تؤكد على المعنى الذي يشعران به وتثبته، كلاهما لم ينجح في تحقيق تطلعات الآخر من الزواج.

للزواج أهداف عديدة يرتبها كل فرد حسب أولوياته واحتياجاته غير المشبَعة، وبدا واضحًا بجلاء أن قائمة أولويات كل منهما تحتوي على هدف أول مختلف.

الإحباط الذي حام حولهما دفعها لأن تمسك بالمزهرية التي أفنى ساعات لإصلاحها، ثم تلقي بها فوق الأرض بعزم قوتها، فتتناثر الشظايا الصغيرة في كل مكان، تنكسر بطريقة ما عاد ينفع معها الإصلاح.

يتسرب صوت التهشيم خارج الدار، ويبلغ أذنَي «مشتاق» الرابض في الأحراش، يضم قبضته بقوة مقاومًا رغبة عاتية في اقتحام الدار وضرب «هلال».

- لم يتبقَّ إلا القليل.

بينما يقولها لنفسه يعبث بهاتفه الحديث المزود بخاصية الشحن بالطاقة الشمسية. كان يظن ألا نفع منه لأن محاولات الاتصال عبره لم تكتمل، لكنه الآن أدرك أهميته.

مسح على شاشته، إلى أن بلغ ملفًّا قليل المساحة كبير التأثير، به فيديو وصور مجتزأة من لقائه الأخير مع «فلك» في حديقة الدار!

كان قد دسه خلسة بين الأشجار.

لو رأى «هلال» تلك الصور لن يُبقي عليها في عصمته ثانية واحدة. كانت تلك خطته المحكمة لإنقاذها، ما دامت هي ضعيفة لا تستطيع الفكاك من أسر الزواج الذي يلتف حول رقبتها مثل حبل المشنقة؛ عليه هو أن يتحلى بالجرأة

المطلوبة، العاشق الولهان المجنون بحبها سيكون فارسها الذي لا يقف في وجهه جدار إلا وهدمه، ولا عائق إلا وتجاوزه.

عليه أن يجمع مشاهد أكثر تشعل النيران في قلب «هلال» فيلفظها من عصمته.

يهمس بقلبٍ يتوق لوصلها وبناء حياة مشتركة معًا: «تماسكي يا «فلك»».

***

استيقظ «مطر» من نومته وقد بلغ النهاية الأخرى من النفق.

حقق ما كان يصبو إليه لأيام متواصلة من الجهد والعمل، أسقط جسده المنهك فوق الحشائش الخضراء النابتة، يتطلع صوب السماء الغائمة، يفكر في كل الاحتمالات التي تنتظره.

غبر عابئ إلا بهدف واحد يسعى صوبه، ألا وهو رفع الظلم الواقع عليها، والدفاع عنها عندما لم يجرؤ أحد على ذلك.

رغم التعب، تحامل على نفسه ليستكشف المكان الذي بلغه، قذفه النفق وسط الغابة، حيث تتكاثف الأشجار وتتقافز المخلوقات الصغيرة هنا وهناك.

غير واثق من الاتجاه الذي يؤدي إلى مدينة الجبل، وإن حاول السير مستكشفًا لربما سار في الاتجاه المعاكس، ولأضاع وقتًا ثمينًا لا يملكه.

ارتأى أن الحل الأمثل يكمن في التريث وتحديد الاتجاه الصحيح أولًا.

وما كان هذا ليحدث إلا بتسلق إحدى الأشجار العالية، ليتمكن من مسح المكان بعينيه. اختار شجرة قوية الجذع عفية الفرع، تسلقها بروية، يتخير موضع قدمه بعناية لئلا تزل ويصيب نفسه بالأذى في هذا المكان الموحش.

بلغ ارتفاعًا مكنه من استطلاع ما يحدث أمام الجبل، من مبارزة بالسيوف بين الحراس وبعضهم.

الأجواء التي تنذر بعاصفة على وشك الهبوب، جعلته يفكر في الاحتماء أولًا، لن يستطيع بلوغ الجبل هذه الليلة.

وقبل أن ينزل عن الشجرة ليبحث عن مكان للاحتماء من العاصفة، رأى من موضعه حصان الممسوس مربوطًا في إحدى الأشجار البعيدة.

وتمكن مع استراق السمع من استقبال صهيله المخيف، يبدو أن الرياح تفزعه، فيصهل على صاحبه مناديًا للرحيل قبل حضور العاصفة.

أطلق نظراته الأخيرة صوب الجبل، يعِد المرأة الحبيسة بداخله، أنه سيبذل وسعه ليبرئ اسمها، ويعيد لها الحياة التي تستحقها.

***

لم تدخل الجبل كما أمرها «رعد»، لا تعرف تحديدًا إن كان أمرًا أم نصيحة، لكن على أي حال لم تستجب لأيهما.

تروح وتغدو أمام أشجار الغابة الكثيفة، تنتظر أن يخرج بحصانه من بينها، ليحتمي بمدينة الجبل، وبالطبع ليستكملا حوارهما المبتور. طال انتظارها، عقدت ذراعيها أمام صدرها، تمسد فوقهما تستجلب الحرارة إلى جسد تضربه البرودة من كل اتجاه.

صهيل الحصان هو ما استرعى انتباهها قبل رؤيته، وعندما خرج من بين الأشجار بقفزة سريعة جامحة تسارع نبضها، وتخلل الفزع قسماتها.

كان «رعد» يميل بجذعه فوق صهوة الحصان كما لو كان نائمًا، لا بل كان بالفعل نائمًا.

هذا ما أدركته حينما اقترب الحصان من مدخل الجبل، عندئذ اندفع الحراس صوبه يتكاتفون لحمله والركض به إلى الداخل.

ساد هرج ومرج عطلاها عن بلوغ الممر المؤدي إلى غرفته، وعندما بلغته أخيرًا وقف أمامها حارسان يمنعان مرور الجميع، لم يرفع أحدهم عينًا في وجهها، أو يوجه لها كلمة ممانعة.

فاستغلت أوامر «رعد» السابقة لرجاله ومحظوراته المتعلقة بها، وعبرت الممر وسط حيرة الحارسين وعدم قدرتهما على اتخاذ ردة فعل صحيحة، لا تغضِب الممسوس لاحقًا.

عندما بلغت باب غرفته، رأت ثلاثة من الحراس يخرجون برفقة «فضة» التي رفعت كفها تقول بحزم: «لا أحد يدخل غرفته سوى الساحرة».

- لم أكن سأدخل فقط كنتُ أتساءل عما حدث.

كانت «فضة» متحفظة معها، غير راغبة في توضيح ما استشكل عليها، التزمت صمتًا لم يقطعه إلا مجيء الساحرة.

تسير كملكة متوجة، يحاوطها أربعة من الحراسة، ترفع رأسها باستعلاء وعلى وجهها بسمة خفيفة واثقة. وقفت الساحرة أمامها للحظات ترمقها

بغموض لم تفهمه، وكانت المرة الأولى التي تلتقي فيها وجهًا لوجه مع ساحرة الجبل.

بنظرات قوية لا تعرف الخنوع رنَت كل منهما إلى الأخرى.

إلى أن استكملت الساحرة طريقها صوب الغرفة دون الحراس، ثم اختفت بداخلها.

جذبت الفتاة ذراع «فضة» وانزوت بها في أحد الأركان تسأل بإصرار: «ماذا حدث له؟ ولماذا أراد الساحرة؟».

ترددت «فضة» بعض الشيء، ثم حسمت أمرها، ترنو إلى الفتاة قائلة: «هذا ليس سرًّا لذلك أستطيع أن أخبركِ».

شحذت انتباهها وتابعت بلهفة الكلمات تخرج من شفتي «فضة» وهي تقول بحزنٍ بادٍ على مُحياها: «إنه مسحور!».

تفاجأت بما سمعته، حتى إنها لم تعرف ماذا عليها أن تقول، ما كانت لتفلت من يدها فرصة الحصول على المزيد من المعلومات من «فضة» فأردفت تسأل: «من الذي سحره؟».

رنَت «فضة» إلى فتحة بالجدار تطل على الغابة الكثيفة، بأشجارها التي تتعانق رؤوسها بفعل الرياح العاتية، تقول: «لا تخلو أرضنا من الساحرات، إلا أنهن لسن على القدر نفسه من القوة والتأثير، ساحرة الواحة أضعف من ساحرة الجبل، أما التي تتفوق على كلتيهما هي ساحرة الغابة».

- ساحرة الغابة!

بينما رددتها بشرود وضحت «فضة»: «حاول الممسوس كثيرًا الوصول إليها لفك لعنته، لكنه لم يعثر بعدُ على مقرها السري الذي تتخفى بداخله، ساحرة الغابة أطعمته السحر عندما كان بداخل الغابة في إحدى رحلاته المستكشفة».

تأملت باب غرفته المغلق متسائلة: «وماذا تفعل عنده ساحرة الجبل؟».

هزت «فضة» كتفيها تقول بحسرة تغشى عينيها الصغيرتين: «لا يفِل الحديد إلا الحديد».

يعالج السحر بالسحر إذن!

لهذا السبب يُبقي ساحرة الجبل إلى جواره دائمًا!

هذه الواحة ترتع في بركة من السحر والشرور التي تتغذى علىٰ أهلها، مثل الوحش الذي يتقوَّى بامتصاص الحياة من أجساد ضحاياه.

وإنقاذهم يستلزم إدراكهم أولًا، ورغبة حقيقية في التغيير تنبع من داخلهم، من ثم استعادة التوازن المفقود.

رأت من خلفها رجلًا لا تعرف اسمه، يسأل عن حال «رعد» بلهفة من يعرفه. كانت قد رأته من قبل يعمل في دكان التوابل بالواحة.

وقف ثلاثتهم في الممر ينتظرون استفاقة «رعد» من نومته.

ترنو إلى الغابة وما يختفي بداخلها من أسرار دفينة، يراودها شعور مباغِت أنها عبرت هذه الغابة من قبل، تحت أمطار غزيرة وصوت رعد يخترق السماء كما يحدث الآن.

لو تتذكر، ستفك تشابك تلك الخيوط المتناثرة.

فقط لو تتذكر!

دُنيازاد

لكلٍّ منا حُلم يُراوده
وآمال كبيرة تسابقه
إلى حيث تتحقق المستحيلات
وتتلاقى الأماني الجميلات
ولكل حُلم مَسلك طويل
من الجهد والعمل الثقيل
يبذل خلاله ما يُرتجَى
منه السداد بلا عويل
للمتكاسل لا تتمهد دروب
أو متقاعس عن السعي الدؤوب
لا يبلغ المجدَ ذو الحَظوة
ولا من يتخلف عن الحياة بخطوة
بل المثابر الذي يقف على مقربة
من حلمه وللنسيان لا يتركه!

الليلة الخامسة والثلاثون

أين تذهب كل تلك الأحلام التي لا تتحقق؟

(1)

لكل إنسان «صندوق طوفان»، يخفي بداخله كنزه الصغير، وسره الأكبر، وسوءَته التي يخشى أن ترصدها الأعين. ولأجل أن تتضح الحقيقة كاملة، على تلك الصناديق أن تنفتح، وتخرج خبيئتها إلى العلن.

جاء المطر مصحوبًا بالرعد كما أخبرها الرجل الذي يرقد نائمًا في غرفته، بسبب مَس من سحر لعين. وقفت في الممر ترنو إلى السماء التي تعصف وتزمجر، متعجبة من قدرة الغيوم على حمل هذا القدر من الماء الغزير بداخلها.

في أحوال أخرى كان ليسعَد سكان الجبل بعطية السماء، والخير الذي هطل، لكن حال الممسوس أرق ليلتهم وأطال السهر.

- ما الذي حدث له؟

ألقى «قوس» سؤاله على المرأتين، علَّ إحداهما تشفي غليله بجواب مطمئن على حال صديق طفولته. وضحت «فضة» بأسى: «هذا ما يحدث منذ أن سُحِر.. فجأة يسقط نائمًا كالمشلول، غير قادر على الحديث أو الحركة».

- «رعد» مسحور؟! متى سُحِر؟

تسورت قسماته الدهشة، لم يسمع بهذا الخبر في الواحة، ولا يعرف بواقعة السحر أيٌّ من أهلها.

- في ليلة الحريق المشؤومة قبل ثلاث سنوات.. الليلة ذاتها التي غادرت فيها ذات البرقع أرضنا.

أجابت «فضة» وهي تحدق إلى الفتاة تشعرها أن لها حصة فيما حدث. الفتاة التي لا تعرف اسمها، التي لا يعفيها عدم التذكر من الإثم الذي وسمها.

لم تكن بحاجة إلى نظرات «فضة» اللائمة، كانت بالفعل تشعر بذنب رهيب مستعر، دسوه عنوة في رأسها؛ اكتشفت عندئذ كم من السهل أن يحمِّلنا الآخرون شعورًا رفضناه سابقًا، التكرار يورث الأُلفة، أصبح الشعور بالذنب مألوفًا لها.

تساءلت: «أهي حقًّا مذنبة؟».

استمعت باهتمام إلى حديث «فضة» مع الرجل الذي دعَته بـ «قوس»، تجمع المعلومات التي تنقصها، كي تصنع منها حكاية محكمة، تروي الذي حدث.

- من الذي سحره؟
- ساحرة الغابة التي لم يرها أحد، ولا يعرف مكانها مخلوق.
- لماذا لم نُخبَر بذلك؟
- لا يعرف بذلك إلا سكان الجبل.
- أي نوع من الأسحار هذا؟
- سحر مأكول.
- لماذا سحرَته؟ ماذا أرادت منه؟
- لا أحد يعرف.
- ألم يحاول إقناع ساحرة الغابة بإبطال مفعول السحر.. بتهديدها، أو مساومتها؟
- كل شهر مع اكتمال القمر يذهب إلى الغابة ويمضي بها أيامًا متتالية، بحثًا عنها، إلا أنه لم يعثر بعد على مخبئها.
- ألم يساعده أحد؟
- ينظم حراس الجبل رحلات استكشافية داخل الغابة بصفة دورية، لكن لم يعثر أي منهم بعدُ على أثرها، تعرف كم أن الغابة تحتل مساحة شاسعة، مترامية الأطراف على امتداد البصر، أشجارها العظيمة متشعبة ومتشابكة، ممتلئة بالأفخاخ والحيوانات المتوحشة.
- وماذا تفعل ساحرة الجبل الآن في غرفته؟
- يستعين بها لشفاء مؤقت يستمر أيامًا أو أسابيع، إلى أن يفتك به السحر ثانية، فيسقط نائمًا في أي مكان كان.

منذ الصغر، سمع «قوس» عن ساحرة تعيش في الغابة، تملك قوة أكبر من تلك التي تملكها أي ساحرة مرت بالواحة. ساحرة مخيفة الهيئة، قوية البنية، خبيرة بفنون السحر، عُمرها ألف عام.

كان قد تناسى حكايات الطفولة عن ساحرة الغابة التي لم يرَها أحد، إلى أن عادت تلك الأسطورة تفرض نفسها على حكاياتهم وأحاديثهم. وذلك قبل ثلاث سنوات، وتحديدًا منذ الحريق المشؤوم الذي أكل دار الساحرة القديمة للواحة، زوجة القاضي الثانية، ووالدة «رعد».

يقول بعض أهل الواحة إن روح الساحرة القديمة لم تذهب حيث تنتقل الأرواح المُقبَضة، وإنما طافت فوق الغابة مشكلة غيمة رمادية باهتة، ثم تساقطت روحها قطعًا صغيرة فوق الغابة كالمطر، وعادت تتشكل من جديد في هيئة ساحرة الغابة التي لا يهزمها أحد.

والبعض يقول إنما ساحرة الغابة كانت هناك منذ البداية، تعيش بين الأشجار متخفية، تأكل ثمارها، وتشرب من مياه البحيرة العذبة الكبيرة في منتصفها، تطل عليهم في الليل عندما تنام أعين الجميع، تحرسهم من أشرار العالم الخارجي الذي تطوقه أسوار واحتهم الآمنة.

وأحيانًا كان يسمع الشباب في ساحة المرح يتبارون في سرد الحكايات عنها؛ أحدهم يزعم أنها زارته في داره الليلة الماضية، وآخر يحكي كيف نقلته فوق بساط من الغيوم إلى الغابة وأطعمته كبد الطير والكرَز.

وآخر ما وصل إليه عنها من حكايات، أنها امرأة لا تأكل ولا تنام، تبدو كما تبدو النساء، إلا أن لديها أذنًا واحدة.

ظلت ساحرة الغابة أسطورة في الأذهان؛ قوتها، خبرتها، وحنكتها التي تفوق أي ساحرة أخرى مرت بواحة زرزورة.

وتلك هي المرة الأولى التي يصادف فيها «قوس» شخصًا تضرر من سحرها.

يُقال إنها حاكَت من السحر أعمالًا منفردة باسم كل فرد بالواحة، كي تحبسهم جميعًا بداخلها، لئلا يتمكن أحد من المغادرة، ثم دستها في ماء البئر المسحورة، هكذا سمعوا من بعضهم ونقلوا ما سمعوا إلى الغرباء الذين يحطون على أرضهم.

ولم يحاول أحد الخروج ليثبت صحة الأسطورة.

لم يغادر سوى «رماح» الذي لم يصل إليهم أيٌّ من أخباره بعدها. «رماح» الذي عالجته ذات البرقع من السحر، لذلك لا يصلح لأن يكون مقياسًا لما يمكن أن يحدث لأحدهم إن حاول عبور البوابة الحجرية.

والبعض لا يصدق تلك الأسطورة، يؤمنون أنها حكاية مختلَقة رواها الأجداد ليخيفوا الغرباء ويحثوهم على البقاء، لئلا يخرجوا ويفشوا سرهم، فينكشف مكان واحتهم المسحورة.

لا سبيل لبلوغ الغابة إلا عن طريق الجبل، لذلك لم يتحقق «قوس» قط من صدق الحكايات التي تسربت إلى أسماعهم، تشكك أحيانًا في وجودها، والآن صار أمامه دليل ملموس على أثرها.

- كان عليه أن يخبرني.

قالها «قوس» مغاضبًا، من «رعد» أولًا، ومن نفسه ثانيًا؛ لو عرف ما كان يعانيه صديق طفولته، لما تركه يقاسي كل هذا بمفرده. أفعاله كممسوس الجبل قطعت كل الخيوط التي تجمعهما، لم يعرف بأمر السحر الذي أكله، ولا بالساحرة التي تربصت به لتؤذيه.

لماذا «رعد» بالذات؟ ولماذا في ليلة الحريق؟ ألم يكفِها الألم الذي تجرعه تلك الليلة القاسية؟

وقف ثلاثتهم يجمعهم الصمت في حزمة واحدة، لم يقطعه سوى خروج ساحرة الجبل من الغرفة، بعد أن قضت بالداخل ساعة ويزيد.

تطلعت إليها الأعين بلهفة، يطل منها سؤال موحد، عن حال الرجل الذي يرقد بالداخل. رنَت إلى «قوس» منزعجة، وتجاهلت الفتاة التي تُعد غريمتها. وجهت حديثها إلى «فضة» في ترفع مرصود: «الممسوس بخير الآن، أعطيته وصفتي الخاصة التي تساعده على الشفاء، لا أحد يدخل غرفته، لا طعام له ولا شراب حتى آمر بذلك، هل سمعتِ؟».

أومأت «فضة» برأسها إيجابًا، مرت الساحرة أمامهم ومن خلفها الحراس الذين كانوا ينتظرونها في الممر، تختلس النظر إلى الرجل والمرأة الفائضين على حاجة الجبل.

ما إن اختفت الساحرة عبر الممرات حتى أقبل القاضي يندفع صوب غرفة «رعد» يتآكله القلق، دون أن يوجه كلمة لأحدهم، تحمل قسماته خوفًا حقيقيًّا على ابنه، وقلبًا يخشى أن يُفجع فيه ومعه.

بنظرة خاطفة تعرَّف «قوس» على الفتاة التي كانت تقيم في دار «أبو الأحناش»، التي عرف من ثرثرة الحراس أنها ذات البرقع التي اختفت من واحتهم قبل ثلاث سنوات؛ فتجدد أمله في أن تُحدِث بعودتها فرقًا، وبخاصة

بعدما تجرع «رعد» من الكأس نفسها التي شرب منها «رمَّاح»، صديق طفولتهما المشترك.

«رمَّاح صانع الرِّماح» هكذا كان يناديه الجميع، مهنته التي ورثها عن آبائه وأجداده. كان له دكان بالواحة يبيع فيه الرماح التي يصنعها، التي يستخدمها أهل الواحة في الصيد.

جمعت الهواية المشتركة دروب ثلاثتهم، «رعد» و«قوس» و«رماح».. وكبرت صداقتهم كلما مر عليها عام تلو الآخر.

انتفض «قوس» بغتة وقد رأى «صدف» تحث الخطى صوبه، فأمسك بها يسألها بجزع: «لماذا خرجتِ من الغرفة؟».

قالت بينما القلق يطل من قسماتها، تفتش فيه بنظرات فاحصة عن علة أصابته: «سمعتُ أن هناك مريضًا بالجبل، خفتُ».

سمعت من خلف بابها أن ضررًا ما وقع لأحد سكان الجبل، فلم تتمهل لسماع المزيد من التفاصيل، انطلقت تبحث عن «قوس» وتسأل عن مكانه إلى أن عثرت عليه.

اللهفة التي كانت عليها، والخوف الذي تسور عينيها، دفعا به لتأمل طويل، في حالها وما طرأ عليه من تغيير.

أكل هذه اللهفة له وحده؟ بينما تساءل في نفسه بشغف، ربت فوق كتفها بلمسات حانية.

- لا تقلقي، ليس أنا.

أدركت أنها بالغت في ردة فعلها، لكن الخوف من الفقد شل تفكيرها؛ لا تتحمل خسارة «قوس»، الرجل الذي يعمل كدعامة لها، من دونه ستقذفها الرياح وتتلاعب بها.

- «صدف»!

التفتت «صدف» إلى الفتاة التي نطقت باسمها متفاجئة، وقد كانت حتى الآن تحسبها قد تزوجت بـ «كسَّار».

فرحت إذ رأتها بحال طيب، وإلى جوارها «قوس» الذي يبادلها قلقًا بقلق، واهتمامًا باهتمام. صفقت «فضة» بكفها قائلة بحزم: «لا فائدة من الوقوف هنا، الجو بارد للغاية، فليتوجه الجميع إلى المطبخ، سأعد لكم حساءً دافئًا».

لم يعارضها أحد، كان ثلاثتهم بحاجة إلى حديث طويل عما يدور من أحداث متلاحقة، ومفاجآت مذهلة.

بينما التف حول طاولة خشبية الرجل والفتاتان، كانت تحركت «فضة» بخفة داخل مطبخها، وتعد حساء الخُضَر.

فرحت الفتاة التي لا تعرف اسمها بزواج «صدف» برجل غير «كسار»، أمسكت بكفها عبر الطاولة وقالت مبتهجة: «أحمد لله أنكِ نجوتِ من هذا الرجل.. حاولتُ مساعدتكِ صدقيني، تحدثتُ إليه، أخبرته بعدم رغبتكِ فيه، إلا أنه حقير لا نخوة فيه».

امتنت لها «صدف» لكونها أقدمَت عندما تقهقر الجميع، وحاولت حين لم يحاول أحد. ثم تتابعت الأسئلة المتلهفة فوق لسانها: «لكن كيف حدث ذلك، رأيتكِ خلفه فوق حصانه ليلة الزفاف المشترك؟».

في عجالة قصت عليها «صدف» ما حدث، لم تمِل لها كـ «سراب» التي تدس أنفها في أمورها، وتنصحها بما يثقل عليها فعله. أما وأنها عرفت أنها ذات البرقع نفسها، استرجعت مشاعرها القديمة نحوها، من إعجاب بشجاعتها، وامتنان لقوتها، ووقوفها إلى جانب ما تؤمن أنه الحق والعدل.

سهَّل ذلك على الجميع تبادل الأسئلة، عما استشكل عليهم من أمور مبهمة. وكانت الفتاة التي لا تعرف اسمها هي البادئة بالسؤال، شجعتها على ذلك معاملتهما الطيبة: «أهل الواحة يظنون أن التي بالبئر المهجورة هي المرأة التي تدعونها بذات البرقع.. لماذا لم تدهشكما رؤيتي على قيد الحياة وقد علمتم أنني هي؟.. ثمة الكثير مما أريد أن أعرفه، الكثير حقًّا، لكن أخبراني أولًا، هل أنا حقًّا كما يُقال عني، امرأة مجرمة؟».

تبادلا نظرات دهشة صريحة، قبل أن توضح لهما العطب الذي أصاب ذاكرتها، وما يدَّعيه عنها كل إنسان صادفته بالجبل، بما فيهم الطباخة التي تعد لهم الحساء الآن، التي كانت منصتة للحوار الدائر بقربها، لا تُبدِ اهتمامًا ظاهرًا به، إلا أنها تتابعه بإنصات شديد، واهتمام بالغ. استهلت «صدف» الحديث قائلة، ترنو إلى «قوس» الذي يجاورها: «لم تدهشنا رؤيتكِ لأن أبي لم يصدق أنكِ تلك المرأة الميتة.. رأى وجهكِ قدرًا.. ويعرف كيف تبدين.. لذا عندما تطلع إلى امرأة البئر أخبرني أنها ليست أنتِ».

صدَّق «قوس» على حديثها قائلًا بحماس: «أخبرني بهذا أيضًا، لكن أحدًا لم يصدقه، ربما لأنهم أرادوا بالفعل أن تكوني تلك الميتة.. كانوا ينزعجون منكِ.. لا لأنكِ مجرمة كما تقولين.. بل لأنكِ كنتِ تكشفين ما يحاولون إخفاءه، وتواجهينهم بما يزعجهم سماعه.. السحر مقدس فوق أرضنا، والحديث عن المقدسات أو المساس بها مذموم ومردود على صاحبه.. الناس لا يحبون من ينهاهم عما ألفوه من عادات متوارثة، ويعادون من يقف وسط الساحات ليهدم أصنامهم».

صدَّقت على حديث «قوس» بهزة من رأسها، ما من نبي إلا وأتى الناس ينهاهم عما تفشى فيهم من موبقات؛ نهى «شعيب» قومه عن نقص الكيل والميزان، ونهى «لوط» قومه عن إتيان الرجال شهوة من دون النساء، ونهى «إلياس» قومه عن اتخاذ «بعلًا» إلهًا يُعبَد.

والرجل الصالح الذي أتى من أقصى المدينة يسعى، نهى قومه عن قتل ثلاثة من الرسل، فقوبلوا بالتكذيب والاستهزاء والنبذ والنُّكران، كأن تلك سُنة كونية لا تتغير مهما تبدلت الأزمان.

- لم أقتل «سراب» حفيدة القاضي إذن، أنا بريئة من دمائها؟

تبادل الزوجان نظرات دهشة ممزوجة بحيرة بالغة، ثم تمتمت «صدف»: «هل للقاضي حفيدة؟ لم نعرف بذلك!».

- كيف ذلك؟ الفتاة الميتة في البئر هي «سراب» الحقيقية، رآها بنفسه وتعرف عليها.

أكد «قوس» مدهوشًا بدوره: «لم نعرف قط أن للقاضي حفيدة بالواحة، الفتاة التي ماتت في البئر لم نرها بيننا قط، لذلك ظن الجميع أنها أنتِ».

أمسكت برأسها تستوعب تلك المعلومة الجديدة المفاجئة، ظنت أن «سراب» الحقيقية كانت تعيش بالواحة قبل قتلها. الآن مع ما أكده الزوجان أمامها، من كونهما لم يرياها بينهم، يترك ذلك الباب مواربًا أمام احتمال وحيد؛ أن «سراب» الحفيدة دخلت الواحة خلسة دون علم أهلها، ماذا كان هدفها؟ ومن الذي ساعدها، الجد أم الجدة؟ ولماذا تخفت عن أهل الواحة؟ وأين كانت تعيش؟

بدا واضحًا أن الزوجين لن يمنحاها أيًّا من تلك الأجوبة، يجهلان تمامًا حقيقة أن للقاضي حفيدة من زوجته الأولى.

- و«مشتاق» حفيد القاضي.. ألم تروه قبلًا؟

أجابها «قوس»: « كلا، لم نره إلا معكِ، وعندما طاف بالواحة يسأل عن جده «أبو العيون» عرفنا وقتها أنه حفيد القاضي».

- ولماذا لم يخبره أحد أن جده بالجبل؟

- لو أراد القاضي له أن يعرف لأخبره بنفسه، أو أرسل من ينقله إلى الطرف الآخر من الهاوية.. عامة لا يحب أهل الواحة التدخل في شؤون غيرهم، وبخاصة ما يتعلق بسكان الجبل، لسبب واضح كما تعرفين، يخافون بطش الممسوس ويحسبون حساب غضبته.

- هل كان أهل الواحة والجبل منقسمين دائمًا؟

- قط، كنا جميعًا نعيش بالواحة، لم يكن أحد يسكن الجبل، لم نعرف عنه سوى حكايات كنا نسمعها صغارًا عن الجن الذي تسخره ساحرة الغابة وتسمح له بالمبيت بمغارة صغيرة بالجبل.

- ولماذا انقسم أهل الجبل عن أهل الواحة؟

بدا أن السؤال أزعج الزوجين معًا، اضطربا وعدلا من جلستيهما، اكتفى «قوس» بأن قال ورأسه مطرق: «شجعهم «رعد» على ذلك، مباشرة بعد الحريق الذي التهم داره».

لم يضِف المزيد، إلا أنها سجلت ذلك كنقطة ستعود إليها لاحقًا لا محالة، إذ يبدو أن سبب الانقسام أكثر أهمية مما يحاول «قوس» إظهاره، ولعله مفتاح لكل ما حدث.

- والجدة.. زوجة القاضي الأولى هل تعرفانها؟

على ذِكر الجدة اندفعت «صدف» بحماس تروي لها ما حدث: «نعم، أعرف زوجته الأولى، أقصد سمعت عنها، أتت معه إلى الواحة قبل زمن بعيد، استقرت فيها إلى أن أنجبت بنتًا وولدًا، كانت امرأة تثير المشكلات، تبغض الواحة وأهلها، ولا تتورع عن التصريح بهذا في وجوهنا، كانت الحياة الزوجية بينهما غير محتملة، هكذا أخبرني أبي، وقتها أراد القاضي الزواج بالساحرة القديمة للواحة، لم أشهد بعيني تلك الحادثة لكن ما قيل إن زوجته الأولى فقدت صوابها بهذا الخبر، أكلت نيران الغيرة قلبها، توجهت إلى منزل الساحرة في غيابها، وبفأس تحمله دمرت كل ما بداخله، وذات ليلة عصيبة،

أخذت ابنها وابنتها، كانا طفلين صغيرين وقتها، في التاسعة والعاشرة، ثم غادرت الواحة ولم نرها ثانية».

- لم تروها ثانية!

كررت من خلفها، فما كان من «صدف» إلا أن أكدت بثقة: «لم نرها بعدها».

إذن هذا الجزء من حكاية الجدة كان حقيقيًّا، غادرت الواحة بالفعل بطفليها ولم تعد أدراجها مرة أخرى، إذن ما الذي كانت تفعله «سراب» الحفيدة بالواحة، وما الذي أدى إلى قتلها؟ ولماذا ألصقَت بها تلك التهمة الشائنة؟

من هو المجرم الحقيقي هنا، من يكون شرير الحكاية؟

أمسكت بكوب فخاري تتجرع الماء على دفعات لترطيب فمها الجاف متسائلة بلهفة: «وأنا، ماذا تعرفان عني؟.. اسمي مثلًا، هل يعرفه أي منكما؟».

كانت مدركة كونها تتحدث تارة عن ذات البرقع كما لو كانت امرأة أخرى غائبة. وتارة أخرى كما لو أنها هي، دفعها هذا التذبذب في الهوية لأن تثور غضبًا، عندما أخبرتها «صدف» أنها لا تعرف عنها أكثر مما يعرفه الجميع، ثم أضافت: «كنتِ تبدين خائفة، منذ أن دخلتِ إلى واحتنا شعرتُ كما لو أنكِ...».

توقفت قليلًا تبحث عن الكلمة المناسبة، ثم أردفت بحماس وقد عثرت عليها: «كما لو أنكِ تهربين».

- أهرب!

هزت كتفيها موضحة: «هذا ما أحسستُ به، ربما كنتُ مخطئة.. لا أحد منا يعرفكِ حقًّا، مكثتِ في دار القاضي، ولم تخبري أحدًا عمن تكونين».

- هل هبطتُ عليكم من السماء أم انشقت الأرض وقذفتني داخل واحتكم؟ من أين أتيتُ؟ وكيف أتيتُ؟ ومن أكون أنا؟

ارتجفت يداها بشدة حتى أسقطت الكوب الذي تحمله.

أفزعها الدوي الذي كان القشة التي قسمت ثباتها، بينما أمسكت برأسها كانت عبراتها تنهمر بشدة، كالسماء التي تسكب مطرها على الجبل بالخارج.

لم تكن جبلًا لتحتمل، كانت بشرًا ضعيفًا بلا هوية تشكله، هبة ريح قادرة على خطفه وإلقائه إلى حيث تريد وتشتهي. لم تشعر بهذا الخواء من قبل،

حتى عندما استيقظت في المشفى فاقدة للذاكرة، كان من حولها «مشتاق» وخالها، والجدة التي تزورها أحيانًا.

تضمها إلى صدرها وتتركها تبكي إلى أن يجف حزنها، ويذهب هلعها.

الآن لا الخال موجود، ولا «مشتاق»، ولا صدر الجدة الذي يسعها.

والأبشع أن تكتشف أنهم كانوا ومن اللحظة الأولى أعداءها، محوا هويتها الحقيقية وألصقوا بها هوية زائفة لفتاة ميتة.

لا أحد من أهل الواحة يعرف أصلها، لا أحد قادر على مساعدتها.

- لماذا لا تسألين «رعد»؟

رفعت رأسها تتطلع إلى «قوس» الذي ظل صامتًا لفترة، وقد فاجأها سؤاله. أضاف بعد قليل من التردد: «تحدثي معه، سيخبركِ».

- لماذا أنتَ واثق أنه يعرف هويتي؟

- كنتِ تقيمين في دار القاضي.

- ربما أخفيتُ عنه هويتي مثلما أخفيتها عن أهل الواحة.

كرر بإصرار: «لماذا لا تسألينه؟».

- سألته، لم يجِبني.. قلتَ إنكَ كنت صديقًا له، هل أخبركَ بشيء عني؟

صمت ولم يتحدث بعدها، وكلما تغير مجرى الحديث وعادت به إلى تلك النقطة، شتت عنها انتباهها، أو هكذا خيِّل له. لم يتشتت انتباهها قط، تلم بكل كلمة قيلت وكل تلميح طُرح فوق الطاولة.

- الحساء جاهز.

وزعت «فضة» الأطباق أمامهم، وانضمت إليهم تحمل طبقها. مسحت كفيها المتعرقتين في ردائها، تضيف لحسائها القليل من الشطة، ثم تمدها إلى طبق «قوس».

عندئذ هتفت «صدف» محذرة: «كلا إنها تؤذيه!».

التفت إليها «قوس» يرفع حاجبًا بدهشة، مدققًا إليها النظر. قالت بخفوت بينما تفرك كفيها بارتباك ظاهر: «في احتفال رقصة العجول العام الماضي أضاف أحدهم الشطة إلى طعامكَ، فمرضتَ، وانتشرت البثور في جبهتكَ».

ضاقت عيناه بنظرة فاحصة، وابتسامة صغيرة جذلة اتسع لها ثغره، تضيف في محاولة يائسة لإخفاء ارتباكها: «كنتَ قد سكبتَ عصير الدوم قبلها

فوق ردائك الرمادي وذهبت لتنظفه.. فانتبهتُ لما حدث بعدها.. أي الطعام.. أي الشطة.. أقصد».

عندما اتسعت ابتسامته، وتمادت نظرته، أطبقت على شفتيها بإحكام تمنعهما من الاسترسال في المزيد من الكلمات غير المترابطة. ودَّت ألا يسألها المزيد، وأن يتظاهر بأنه لم يسمع أيًّا من هذيانها، مرر لها الشطة دون أن ينبس بكلمة، فأطلقت نفسًا عميقًا مسترخيًا.

تشرد الفتاة التي لا تعرف اسمها، تغوص في أفكارها، فلا تسمع الحوار الدائر بين ثلاثتهم، عن أشياء لا تهمها.

تُخرج حبات الجزر من الحساء، وتجمعها على طرف الطبق، ثم تأكل ببطء متلذذة بالمذاق الطيب، وبالحرارة التي شرعت في تدفئتها.

بغتة أمسكت «صدف» بكفها، وقالت متعاطفة، بينما «قوس» و«فضة» منهمكان في حديث جانبي: «لا أتخيل ما تشعرين به الآن، ليتَ بإمكاني مساعدتكِ».

- أخبرتِني أنني لستُ امرأة سيئة، ساعدتِني أكثر مما تظنين.
- سنبقى هنا في الجبل لفترة، إذا أردتِ بإمكاننا اللقاء في الصباح، نتحدث معًا، وتُعلمينني كيف أصنع سلالًا بمهارتكِ.
- أنت ماهرة في صناعة السلال يا «صدف».
- لستُ بمثل مهارتكِ صدقيني.

استوقفتها عبارة «صدف» فمالت بجذعها متسائلة: «لم تعلميني إذن، أتيتُ إلى واحتكم وأنا أعرف كيف أستخدم الخوص في صناعة الأوعية؟».

أومأت لها «صدف» مؤكدة، ورغم أنها كانت معلومة هامشية جدًّا، فإنها سعدت أخيرًا بعثورها على شيء مؤكد عن مهارات المرأة التي كانت عليها قبل دخول الواحة؛ تحارب السحر، جريئة، شجاعة، وتصنع السلال بمهارة فائقة.

كل معلومة كانت تمثل قالبًا من القرميد في جدار ذكرياتها المفقودة، التي ستجمعها بصبرٍ وإصرار، طوبة طوبة.

- والآن الجميع إلى غرفته.

صفقت «فضة» تُنهي جلستهم التي طالت إلى مشارف الفجر. تتثاءب «صدف» بإرهاق فوضع «قوس» حول كتفها ذراعًا داعمة، فرمته بنظرة ساحرة، وقعت في منتصف قلبه واستقرت بداخله. وقبل أن ينصرف معها، التفت للفتاة الساهمة يقول بعد تردد لم يدُم: «على عكس ما تظنين، وجودكِ السابق في الواحة أحدث بها فرقًا، ربما ليس أثرًا كبيرًا ملحوظًا، لكن أصبح بعضنا يفكر بشكل مختلف، الحياة في الواحة تسير وفق نهج معد سابقًا، نعيش حياتنا داخل قوالب جاهزة صنعها السابقون منا، لا نقف لنفكر ما الصحيح وما الخطأ، إذ حفَّظونا الجواب سابقًا، أنتِ أريتِنا أن بإمكاننا أن نختار طرقًا مختلفة، أن نفكر، أن نعترض».

ثم أردف متممًا لحديثه: «لا ترحلي عن الواحة.. ابقي معه».

استوقفتها عبارته الأخيرة التي ألقاها ثم ابتعد، تود لو تناديه وتستفهم منه عن كلماته المبهمة، يرحل سريعًا برفقة زوجته، فلا تجد حولها سوى «فضة» التي تتطلع إليها كمن يراها لأول مرة، تتنهد ثم تقول لها: «لم أعد أعرف إن كنتِ خيرًا له أم شرًّا».

- من يقصد؟.. من تقصدين؟

- الرجل الذي يؤلمه قربكِ مثلما يؤذيه غيابكِ.

- القاضي؟

قالت اسمًا تعرف أن الطباخة لا تقصده، لا تنتظر جوابها، تتجاهل ما سمعته عامدة، أربكها ما بلغها من معانٍ غائرة لا تمر بصفة عابرة.

تتوجه إلى غرفتها، وتقف في شرفتها، تبسط كفها، وتجمع الرذاذ الذي ما زال ينهمر. تبسط نظراتها فوق الغابة الكثيفة المخيفة وسط العاصفة، تتلاقى رؤوس الأشجار بقوة دفع الريح العاتية.

تفكر في ساحرة الغابة وما فعلته بالرجل الذي تراه قويًّا كالجبل، متى وكيف ولماذا أطعمته سحرها؟ ولماذا تعود كل الحكايات لتلتقي عند ليلة الحريق تلك كما لو أن عندها مبتدأ الطرق ومنتهاها؟

المفترق الذي باعد الدروب، وفرق الجمع، وأحرق الأفئدة. ما الذي حدث في ليلة الحريق يا تُرى؟

الذاكرة المعطوبة نقطة عمياء تُعجزها عن رؤية الحقيقة الكاملة، عليها أن تعثر بداخلها على تلك المرأة المنسية، عليها أن تعيدها إلى الحياة مهما كان الثمن.

***

يشقشق الفجر ولا تزال تقف في شرفتها المطلة على الغابة الكثيفة، هدأت العاصفة، سكن الرعد، وتوقف المطر.

يحدوها الفضول لتعرف ما يحدث الآن في غرفة سيد الجبل، هل استفاق من نومته؟ هل نجح دواء ساحرة الجبل في شفائه مؤقتًا حتى موعد الهجمة الجديدة؟

لا تسعها الغرفة فتخرج إلى الممرات المفضية إلى مدخل الجبل، تقف وسط هذا الهدوء تتأمل الموجودات من حولها. تحسب أنها وحدها التي يجاذبها الأرق.

بعد قليل تجاورها «فضة» وحول كتفيها شال من الصوف يقيها النسمات الباردة، تقول الطباخة التي تتأملها بدقة: «لم تستطيعي النوم».

- ولا أنتِ استطعتِ.

- ما حدث أزعجني.

- وأنا أيضًا.

- قلقة؟

- ليس عليه بالتأكيد.

تجيب بحدة، ثم ترنو إلى برك الماء المتناثرة وسط الرمال، تضم ذراعيها، تستطرد بحنق: «كونه مريضًا لا يشفع لأفعاله المجرمة».

- لم أرَ أحدًا في مثل نزاهته.

تدافع «فضة» عنه بحماس كما لو أنها فرد من أسرته، وهذا ما كانت تشعر به بالتحديد، رغم أنها لا تمت له بصلة دم حقيقية، تلتفت لها الفتاة التي لا تعرف اسمها محتدة: «والمسكين الذي جلده بالسوط أمامنا؟ هذا الممسوس مريض يتلذذ بالاستقواء على غيره، مجرم يحتاج إلى عقاب، وفاسد يحتاج إلى إعادة تربية».

- هذا العناد سيؤدي بكِ إلى التهلكة.. الممسوس لم يجرم في حق الفتى الذي جلده.. ما فعله به أنقذه!

رمقتها بدهشة لم تخفِها، بينما «فضة» تستطرد ساخطة على الفتاة ذات الرأس العنيد: «هذا الفتى مدين للمسوس بحياته».

أولتها «فضة» ظهرها وعادت أدراجها، لم تحتمل الفتاة الوقوف عند تلك النقطة المبهمة، التي تفتح في رأسها الباب أمام آلاف الاحتمالات التي يناقض بعضها بعضًا.

ركضت خلف «فضة»، تجذب ذراعها، تستوقفها متسائلة: «كيف تقولين إن الجَلد أنقذه؟».

كررت السؤال ورجتها أن توضح لها ما استشكل عليها فهمه. حررت «فضة» ذراعها، ثم عقدتهما أمام صدرها، تجيب عن سؤال الفتاة التي أزعجتها بعنادها: «هذا الفتى الذي تقولين عنه مسكينًا أخطأ في حق نساء الجبل، صنع بالإزميل فتحة في جدار قاعة تغيير الملابس، وتلصص عليهن عبرها، لما قبض عليه الحراس كادوا أن يفتكوا به ويسحقوه تحت أقدامهم، لو لم يخلصه الممسوس من أيديهم وينزل به العقاب أمام أنظار الجميع وأسماعهم، لما تمكن من تهدئة غضب الرجال وإذهاب غيظ صدورهم.. ولنحروا عنق الفتى انتقامًا لتعديه على شرف نسائهم».

أذهلتها الحقيقة التي وعتها متأخرة، وأذهبَت بقصر الرمال الذي بنته للوقائع من حولها. عادت إلى الغرفة مستلقية فوق الفراش بعقل متأهب يقظ رغم النوم الذي حُرِم.

أقرت أنها بحاجة إلى فسحة من الوقت والتفكير لتكرر بناء قصر الذاكرة بالمعطيات الجديدة، وتعيد تعريف الأشياء ومسمياتها.

هل من الممكن ألا يكون الممسوس هو شرير الحكاية كما كانت تحسبه؟

إذا لم يكن هو، فمن الشرير إذن؟

(2)

ليلة طويلة مرت على «سلام»، تكافئ العاصفة بالخارج قوة تلك التي تعصف بأفكارها. شعرت أن ثوابتها تُنتزَع نزعًا كالأشجار التي تُقتلع من جذروها.

كيف لم ترَ مشاعره؟

عندما تفكر الآن في ذكرياتها معه، تقف على معانٍ نصف مستترة، وأفعال تفصح عن نفسها.

كيف لم ترَ مشاعره؟

أكثر ما ألهب غيظها أنه بينما كان ضعيفًا مثلها، لم يقف في وجه أعراف الواحة وينزع عن نفسه المسميات التي ألبسوه إياها قسرًا، كانت مشاعره تسير في اتجاه مغاير.

عندما لاح الصباح صعدت إلى السطح قبل أن تبدأ تجهيزات الفطور، ومن مكانها تمكنت من رؤيته قادمًا من مبعدة، يسير بهمة جندي ذاهب إلى معركة، لا يلتفت، ولا يحيد.

معركة يعرف أنها خاسرة، لكن شرف الجندي يحتم عليه ألا يتخلف عن موعده.

تعجبت إذ ظنته سيسعى إلى تفادي رؤيتها والفرار من المواجهة، لا تعرف أن هذا ما كان يزمعه «طوفان» بالأمس؛ تبدل رأيه بعد ليلة طويلة مرهقة أفناها في تفكير مضنٍ، أراد على إثرها أن يتحدث إليها ولو لمرة أخيرة، قبل أن يقرر أي وجهة سيسلك.

تعجبت من جرأته على الحضور إلى دارها بعد ما وقع، إلا أنها لا تنكر أنها استحسنت تصرفه. تتذكر كيف هرولت بالأمس صوب دار «أم الرمال» تنشد عندها الحكمة، والنصح، والرأي الرشيد، فيما وقعت فيه من خطب جلل.

أجلستها «أم الرمال» في غرفة صغيرة لحين مغادرة ضيوفها، فكرت «سلام» ألف مرة فيما تفعله، وعندما عادت «أم الرمال» ومسحت فوق ظهرها متسائلة: «ما الذي يؤرقكِ يا بُنيتي؟.. أخبريني يا «سلام»».

وقتها عجزت عن الإفصاح عن السر الذي باتت تحمله، مناصفة مع «طوفان».

شعرت في تلك اللحظة أن الأمر لا يعنيها وحدها، وأنها لربما من غير قصد شوهت صورة الرجل في الأذهان، وبخاصة مع علمها كيف أن الجدة متزمتة فيما يتعلق بعادات الواحة وتقاليدها.

اضطربت بينما تبحث عن خطب آخر تقصه على سامعَي الجدة، وتخفي الحكاية الحقيقية التي جاءت كي ترويها.

لم تفارق «سلام» السطح، انتظرت أن يعثر عليها بنفسه. وعندما وقع بصره عليها شعر أن الأمر أصعب مما كان يحسبه.

مواجهة «سلام» بالحقائق التي أخفاها دهرًا في أعماق قلبه، تهدده بالسقوط من عينها، ولا شيء أقسى عليه من الانزلاق من عين «سلام».

تثاقلت خطواته، وتسارع نبضه، يجلي حلقه كي يستعد للمواجهة التي ستفضي به إما إلى بقاء في الواحة وإما فرار منها، إلى حياة محتملة أو شقاء مستمر.

انتظر كل منهما أن يستهل الآخر الحديث، إلى أن طال الصمت وتربع فوق عرشه متلذذًا بسطوته التي حضرت، التي لم تكفِ قوة أي منهما لطرده.

- كيف حالكِ اليوم؟

لم تنفك عقدة حاجبيها وجبينها المجعد، لم تتبدد نظرتها الجامدة، التي تخفي أكثر مما تفصح.

أدرك أنها لا تريد حديثًا ملهيًا يحيد بهما عن الهدف، أجلى صوته ثانية، شد هامته، عدَّل عمامته، ثم رفع رأسه يواجهها نظرة بنظرة، تاركًا بينهما مسافة أكبر مما يتركها عادة.

- أعلم أنكِ غاضبة، وربما تكونين أكثر من غاضبة.. تكرهينني الآن ربما، تنفرين مني، وتستنكرين ما عرفتِه ما إن نظرتِ إلى الصندوق الخشبي وما بداخله.

لاحت على شفتيه بسمة خفيفة لم تعرف «سلام» إن كانت مبتهجة أم ساخرة، يستطرد: «كنتُ أعرف أن هذا سيحدث يومًا، وربما تركتُ الصندوق في مكان واضح غير مخبَّأ بعناية لأنني أردتُ أن يُعثَر عليه.. أي فتاة لو رأت ما رأيتِ وعرفَت ما عرفتِ لسعت هي إلى الهرب، ولكشفت للناس سري، ووضعت بيننا ألف حاجز قبل أن تسمعني.. لكن ليست «سلام»».

قال عبارته الأخيرة المتضمنة اسمها برجفة ظاهرة، جعلتها تضطرب، فتخف حدة النظرة، وينبسط الجبين المنعقد.

- هل سمعتِ من قبل عن حكاية السمكة وطائر النورس؟.. كان كل منهما يشعر بالوحدة في عالميهما المنفصلين رغم الكثير من النظراء والأشباه.. وذات نهار قفزت السمكة فوق الماء لترى هذا العالم المحرم عليها، فتصادف النورس حين كان يقترب من السطح ويميل برأسه كي يروي عطشه. تتلاقى السمكة والنورس في لحظة خاطفة، تنحفر في ذاكرة كل منهما، تشتهي السمكة أن يكون لها جناحان مثله فترى العالم الذي فوقها، ويأمل النورس خياشيم تمكِّنه من استكشاف الأعماق من تحته. كانت علاقة مستحيلة من البداية رغم ذلك حرصا على اللقاء كل يوم وقت المغيب، في اللحظة التي تترك فيها الشمس السماء وتسقط داخل الماء، لحظة ساحرة تبهج قلبيهما معًا، يشعران بالغيرة من الشمس التي تستطيع الحياة في عالمين مختلفين، في الوقت الذي يعجزان عن فعل ذلك. وفي هذا اللقاء الخاطف، واللحظة المسروقة من جيب الزمن، تشعر كل من السمكة والنورس بسعادة غامرة. اكتفيا بتلك اللحظة ولم يسعَ أي منهما للمزيد، إذ إن انتقال النورس إلى الماء يعني الغرق، وخروج السمكة إلى الهواء يعني هلاكها.

توقف «طوفان» يلتقط أنفاسه المتسارعة، يرنو إليها بالنظرة التي طواها طويلًا وأخفاها بين ملايين النظرات المراوغة، ثم يقول بأنفاس متهدجة: «لم أسعَ لأكثر مما سعى إليه النورس مع سمكته.. لم آمل شيئًا أكثر من لحظة خاطفة أرى فيها «سلام»، أو أتحدث إليها، أو أطمئن بها».

تركت الحكاية أثرًا بليغًا تجلى فوق قسماتها، يحدوها الاضطراب والحيرة والضيق ومشاعر أخرى متباينة، لم تستطع فهمها، أو جمعها في عقد واحد، ظلت بداخلها مثل حبات الخرز المتناثرة بعشوائية.

بعين الخيال رأت بينهما أمواجًا عالية، تفصل بين عالميهما، كالماء الذي حال بين النورس والسمكة.

- ليست لدي أسباب أو مبررات أقدمها لكِ، فقط أريدك أن تعلمي، أنا لم أختر المكان الذي حط فيه قلبي رحاله بعد أن طال به التحليق، لو كان لي عليه سلطان لوجهته حيث لا تنزعج «سلام».

يدفن نظراته في السحاب، يلتقط أنفاسه، ثم يردف: «أحيانًا أقول لنفسي، من غير المعقول أن الله وضع كل هذا الحب في قلبي ليعذبني به، ثمة سبب لا أعرفه، وربما أفني عمري كله دون أن أعرفه».

يقدم لها اعتذارًا صامتًا عن عجزه لعدم التوافق مع أعراف الواحة التي ترغمه على أن يكون عمًّا لها. يقدم لها ندمًا صامتًا عن مشاعره التي حادت عن الخط المرسوم من قِبَل آخرين يتحكمون بسريان الحياة فوق أرضهم.

تستقبل كل هذا بالحيرة، والدهشة، والعجز عن اتخاذ موقف نهائي.

تدهشها كل تلك المشاعر القوية المفاجئة، تشعر أنه يتحدث بأبجدية لم تتعلمها يومًا، تتخطى الحروف الثمانية والعشرين التي تحفظها منذ الصغر، كأنه يمسك بكفها ويطوف بها على كلمات لا تعرف بوجودها.

إلا أن ثمة شيئًا واحدًا يجب أن تطالب به في الحال.

تحدثت أخيرًا تقول: «على هذا الوضع الشاذ أن ينتهي».

لم يفهم إن كانت تطالبه بقطيعة بينهما، أم بالرحيل عن الواحة، أم بكليهما؛ تجلى الأسى فوق قسماته، يراوض نفسه التي تأبى البُعد وتشتهي الوصال، لكن لن يكون إلا ما تقرره «سلام».

مذعنًا لرغبتها بهزة من رأسه قال بثبات الصادقين ويقينهم: «سأنهيه إذا كان هذا ما ترغبين فيه.. فقط أخبريني كيف؟».

- بالتوقف عن التعامل معي كأحد محارمي.. لأنكَ لستَ عمًّا لي.

ذُهل لبرهة وقد أطاحت به رياح الحيرة، هل هذا ما كانت تعنيه؟ لا رحيل ولا قطيعة تحول بينهما؟

أومأ برأسه موافقًا بقوة، مرت من أمامه تلبيةً لنداء إحدى زوجات أعمامها بالأسفل، وقبل أن تنزل الدرج وتغادر السطح على عجالة، التفتت صوبه، ترفع حاجبيها ثم تقول بنبرة متحدية: «وستتوقف عن نعتي بـ «الصغيرة»».

تركته متخبطًا يسترجع الحوار الذي دار بينهما، لدقيقة ثم ينزل الدرج بدوره متوجهًا إلى غرفة «أبو الأحناش» حيث طاولة الطعام الأرضية المنصوبة في وسطها، يشاركه الجلوس حولها، لا يأكل إلا لقيمات معدودات.

يتجاوب مع حديث «أبو الأحناش» بهزة من رأسه لا يعنيها، بينما عقله سابح في التفكير في شكل علاقته الجديدة بـ «سلام».

لم يكن غضبها عاصفًا كما توقع، تصرفت بهدوء وحنكة، وما إن رآها تدخل غرفة «أبو الأحناش» وتضع الماء بجوار الطاولة، حتى ترك الخبز من يده وانتبه.

- لماذا ترتدين وشاحكِ؟ لا أحد هنا سوى عمكِ.

قالها «أبو الأحناش» وهو يلوك الخبز بفمه، أتت لحظة اختبار حقيقية ستفضي نتائجها للدرب الجديد الذي سيُشكل طبيعة الحدود بينهما.

- ليس عمي.

التفت إليها «أبو الأحناش» بحدة مستنكرًا قولها، ومنزعجًا من حدتها في الحديث وجرأتها على أن تضيف: «له مني ما للغريب الذي لا تقيدني به رابطة دم».

ثم تغادر الغرفة بالحدة التي دخلت بها، يقدم «أبو الأحناش» أسفه إلى «طوفان» مضيفًا أن المرض أورثها قلة الصبر، وتشوش التفكير، والاندفاع في الحديث.

للحظات تأمل «طوفان» موقفها معجبًا بقوتها وقدرتها على وضع الأمور في نصابها، مثلما تجرأت على رفض «جمعان» ليلة زفافهما، دون أن تخشى العاقبة. ولم يرضَ «طوفان» بأن يكون أقل منها عزمًا وجرأة.

- لم تخطئ «سلام»، عليها أن تضع الحدود بيننا، كوني أخاكَ لا يجعلني عمًّا لها.

ثم يضيف بحزم مؤكدًا ما ود طوال سنوات أن يهتف به: «أنا لستُ عمها».

شعر براحة عجيبة ما إن نطق بتلك الكلمات التي حُبست في صدره طويلًا طويلًا. يصيح «أبو الأحناش» مستنكرًا، وموضحًا أن روابط العُرف كروابط الدم في قوتها وموجباتها، مبديًا انزعاجًا واضحًا مما سمعه للتو، ومحذرًا إياه من تكرار مقالته.

يتجاهل «طوفان» كل ما سمع، ويسترجع عقله تلك اللحظة التي نطقت فيها «سلام»: ليس عمي.

ينبض قلبه بقوة كادت أن تكشفه، لم يكن ما سمعه سوى حلم مستحيل ما ظن يومًا أن يصادفه. مهما كانت شكل علاقته الجديدة التي ستجمعه بها، ومهما كانت مشاعرها تجاهه مستقبلًا، لن يغير ذلك من الارتياح الذي غمره. كأن جبلًا عظيمًا زُحزح عن صدره.

***

تفتح «فلك» الباب عندما تسمع طرقات خفيفة، فلا تجد إلا تفاحة حمراء أمام عتبته.

تعرف مرسلها دون حاجة إلى سؤال، تعود بذاكرتها إلى لقائهما الثاني في الحديقة، والتفاح الذي تشاركا في جمعه. لا تأكل التفاحة، تضعها فوق الطاولة وتنظر إليها، لا يترك لها فسحة لنسيانه، أو للتظاهر بأنه غير موجود بحياتها؛ قبل ساعة ترك زهرة صفراء عند النافذة، وعندما احتارت في هوية المرسل الخفي أعدت في خيالها قائمة.

شطبت على من فيها اسمًا اسمًا بعد لحظات من التفكير، ولم تكن بحاجة إلى أي تفكير يُذكَر كي تستبعد «هلال» من تلك القائمة.

لم يتبقَّ سوى «مشتاق» الذي يجرؤ على فعل أمر كهذا، والآن عندما رأت التفاحة الحمراء على عتبتها تأكدت من هوية المرسل غير الخفي.

رجفت إذ سمعته يغني لها من خلف النافذة، بصوت عذب أسكَر سمعها. ورغم محاولتها الحثيثة كي تتظاهر بأنها لا تسمع، تتسرب كلماته الشجية إلى قلبها وتهزه هزًّا، تصف حبه وشوقه ولوعته، وكيف يحترق بنيران البعد عن محبوبته.

كلمات لم يؤلِّفها، وألحان لم يصنع لها وترًا، يحفظها عن ظهر قلب كما لو أنه منشئها من العدم، يتقولب بداخلها، ويعيش الحالة المُسكِرة، تسمعها وتشرب من الكأس بدورها.

يتشبث اللحن بذاكرتها، حتى عندما يخفت الصوت ويبتعد صاحبه.

تحاول استدعاء خيالاتها كما كانت تفعل قبل الزواج، فتتخيل حبيبًا قويًّا جريئًا مغامرًا يرفعها فوق حصان أسود ويركض بها صوب السماء العالية. لم يكن الفارس المغوار في خيالاتها السابقة يحمل وجهًا محددًا، وجهه عجيني قابل للتشكيل، كانت تُكيف معه أي تقاسيم شاءت.

فما بال وجه الفارس قد تقولب في شكل واحد، له تقاسيم «مشتاق» وصوته ونظرته؟ اقتحم حتى خيالها وأضحى جزءًا من عقلها، كيف لها أن تخرجه؟

يعود «هلال» إلى الدار منزعجًا من الجفاء النامي بينهما، خرج في الصباح متوجهًا إلى حقول «أبو الأحناش» جلس فيها إلى أن حان موعد استقبال زبائن الطاحونة.

لكنه وجد قدميه تسوقانه صوب الدار، متجاهلًا طابور الزبائن الذي تجمع أمامه.

- لماذا عدتَ مبكرًا؟

- لا رغبة لي في العمل اليوم.

يغمرها الخزي للشعور النامي في قلبها تجاه الغريب الذي يشن عليها حملة حب غامرة، تحاول خنق هذا الشعور المثير في مهده، فيصافحها العجز والتعب.

- هل أعد لكَ الطعام؟

- لستُ جائعًا.

تسعى للبقاء في مكان آخر لا يوجد به «هلال»، فوجوده يثقل ضميرها، ويُحمِّلها ما لا طاقة لها به من خزي وندم.

يسعى هو للبقاء معها في مكان واحد، علَّ التقارب الجسدي يذيب الجليد الذي حال بينهما؛ يلامسها ويلاطفها، فتراوغه، ثم تفر متعللة بحجج واهية، تُبقي نفسها بعيدة عنه بمسافة آمنة لا ترهق ضميرها بحمل يثقله.

مشاعرها تنصرف عنه رويدًا، وتتوجه صوب الغريب الذي غنى لها ثم ابتعد. تاركًا في دارها أصداء صوته تسبح من غرفة لأخرى، وهداياه ترقد فوق الطاولة.

يسأل «هلال» عن مصدر الزهرة والتفاحة، فتجيبه كاذبة أنهما هدية من إحدى أخواتها.

- لماذا لم تأكليها؟

- لا أحب التفاح.

يصدقها «هلال»، فيثقل ضميرها أكثر، يلتف حبل الكذب حول رقبتها، تنزعج، وتختنق.

- سأذهب إلى أمي لتقرأ لي طالعي.

ولم تكن بحاجة إلى ذلك، إذ قرأته أمها في الصباح فوق إحدى صخورها، قالت لها بحماس باسمة: «خير عظيم يشدك إليه فلا تقاوميه يا «فلك»».

تفكر «فلك»: *هل العاشق المشتاق هو الخير الذي في طالعي؟*

تغادر الدار فرارًا من الطاقة السلبية التي تحوم بداخلها، التي تزيد في حضور «هلال»، وتقل كلما ابتعد.

يبقى «هلال» في الدار وحده، يتأمل الفراغ الكبير من حوله. يعترف لنفسه أخيرًا أنه بحاجة إلى مساعدة خبير حكيم، كي يُسيِّر قافلة الزواج إلى وجهة آمنة، ويحميها من وحشة الطريق، ولصوصه، وقُطَّاعه.

لصوص الطريق يتربصون دومًا بقوافل الزواج التي تسير على غير هدى، يتخيرون أكثر مواضعها ضعفًا فيخترقونها، ويسلبونها نفائسها وأغراضها.

يقلب «هلال» الزهرة الصفراء بين كفيه بشرود فتقترب من الشعلة وتحترق؛ يسارع بإطفائها إلا أنه لا يتمكن من إنقاذها.

يجلس واجمًا، يقضم التفاحة من غير نهم.

***

عندما عاد القاضي إلى غرفته على مشارف الصباح، شعر أن الابتلاء ترك الطواف حول العالم، واختار المبيت عند قدميه.

تمزق قلبه لمرأى ابنه في هذا الحال الذي يتكرر، منذ الحريق الذي فقد فيه كل ما يملك. اليأس عدو شرس للإنسان، وأكثر فتكًا به من المرض العضال، تملك اليأس من «أبو العيون» قاضي الجبل، يحركه بخيوط خفية مثل عروس الماريونيت، ويتلاعب به كيفما شاء.

خلت جعبته من الحلول الناجعة، قالوا له إن السحر لا يعالَج إلا بالسحر، فسمح لساحرة الجبل أن تقيم بينهم، رغم بغضه لها ولأفعالها.

فقط لأجل ابنه الذي يحب، لكن حتى هذا أثبت فشله يومًا بعد يوم.

لم تستطع ساحرة الجبل إبطال السحر الذي أكله، الذي يُسقطه نائمًا خائر القوى في أي مكان وزمان. قالت إنه قوي فتاك يفوق قدرتها ومهارتها، لا أحد بقوة ساحرة الغابة التي يُسمع عنها منذ قديم الأزل.

- من هناك؟

هب القاضي واقفًا ما إن سمع حركة عند النافذة، استل خنجره من حزام الخصر، ثم اقترب من الستارة المتطايرة؛ وقد أطلق شهقة عالية لم تتحملها رئته المريضة، فسعل إلى أن دمعت عيناه، استند إلى ظهر المقعد، ثم ألقى فوقه جسدًا منهكًا.

تجمد فوق المقعد ينظر بعينين مشدوهتين وفم مفتوح إلى المتسلل الذي أزاح الستارة ووقف قبالته.

يلهث القاضي، ويشير صوب المتسلل بإبهام يرتعش: «كيف...؟».

يعجز عن استكمال السؤال، يتقدم المتسلل وفي خطواته عرجة ظاهرة، منحني الجذع، محدودب الظهر! يرفع ياقة ردائه ليخفي بها بعضًا من آثار

الحريق الممتدة على جانبي وجهه. يتطلع إلى القاضي بعين مشفقة، ويقول بنبرة مترقرقة: «يبدو عليكَ الكِبَر.. تبدو متعبًا».

لا يحرك القاضي ساكنًا، جلس مشدوهًا، ومصدومًا، ومتفاجئًا. يتردد على لسانه «كيف؟»، فيبسط «مطر» كفيه المشرحتين بخطوط طولية ويقول: «أيام طويلة أمضيتها في إزاحة الحجارة عن النفق الذي يصل الواحة بالجبل، النفق الذي أغلقه ابنكَ «رعد» أمامي لئلا أتمكن من الوصول أبدًا».

يتقدم «مطر» خطوة، فيسقط ضوء الصباح فوق قسماته التي يحتشد فيها الأسى، تنفتح أمامه بوابة الحديث، فيلجها منفعلًا: «لم يغلق النفق فحسب، ألقى بي عند البوابة الحجرية حيث لا أحد، منعني من مخاطبة الناس، ومن استضافتهم داخل الكوخ، أكنتَ تعرف ذلك؟».

كان سؤالًا بلاغيًّا لا يُرجى له جواب، ذرع الغرفة يمنة ويسرة مهتاجًا، يستطرد بألم: «حرمني الحياة، أراد التخلص مني، عاقبني بالنبذ، وأنت تعرف السبب».

أشار صوب القاضي بسبابته لائمًا، ومتألمًا، يردف بانفعال: «لم أحاول قتل ساحرة الجبل كما ادَّعى، كذب عليكم، لم أحاول قتلها، كنتُ فقط أحاول إسكاتها».

بينما كرر عبارته الأخيرة «كنتُ فقط أحاول إسكاتها»، ضرب جانبَي رأسه بقبضته، دار في الغرفة كحيوان مذبوح، يستطرد بأسى: «كانت تروي الأكاذيب عنها.. عن الفتاة التي لم تخطئ في حق أحد، لم أتحمل كذبها، أردتُ فقط إسكاتها، لم يعاقبني «رعد» لأنني حاولتُ قتل الساحرة كما ادعى، بل لأنني دافعتُ عن الفتاة التي لم يدافع عنها أحد، لم يصدق براءتها، أوصد أذنيه، وصدق فقط ما رآه وقتها.. يقول إنها نظرت إليه وسط النيران دون أن تنقذه، العين تخدع، نعم العين تخدع، لكن القلب أبدًا لا يكذب».

قالها وهو يشير إلى صدره، ثم تصاعد انفعاله إلى أن بلغ حد الصراخ حين هتف: «أنتَ.. أنتَ رأيتَ قلبها، كيف تصدق أنها قاتلة؟».

كان القاضي لا يزال متجمدًا في جلسته، لا تند عنه كلمة ولا إيماءة، يسمع، ويرى.

دنا منه «مطر» جاثيًا على ركبتيه أمامه، تخلص من انفعاله، وقطَّر الحزن من صوته كالمطر المنهمر: «في تلك الليلة التعسة خسرتَ حفيدة وزوجة،

واحدة في البئر وأخرى في الحريق، هذا مؤلمٌ، أعرف، تبحث عما يكَنس الألم عن قلبكَ، تريد أن تتخفف منه، أعرف، لكن إلقاء الذنب على بريء لا يزيل الألم، بل يُلهبه، أرجوكَ، لا تدع الغضب يسوقك، ولا تسمح للفقد أن يسلبكَ حكمك العادل كما سلب «رعد» بصيرته، لا تدعه يؤذيها، لا أحتمل خسارتها مرتين».

أمسك بكف القاضي يمسح بها فوق وجهه، ثم يمررها فوق شفتيه مقبلًا، وبعين دامعة يسأله بلوعة: «ألا يكفي يا أبي ما خسرته عائلتنا الصغيرة؟!».

بينما تساقطت عبرات صامتة فوق وجنتَي القاضي، استكمل «مطر»: «فقدتُ أمي في الحريق.. وابنة أختي في البئر.. لكنني لستُ مثلكم، لن أظلم بريئة فقط لأنها لم تكن حاضرة تدافع عن نفسها.. لن ألقي التهمة على كتفها فقط لأنها أدارت ظهرها واختفت».

يمسح وجهه بطرف ردائه ثم يستطرد بمرارة: «أنتَ تثق بـ «رعد» دائمًا، حتى عندما كنا صغارًا في السادسة، لم تصدق ما أقوله إلا عندما يكرره «رعد» مؤكدًا، تراني ضعيفًا، هشًّا، عاجزًا عن الحكم على الأمور بحكمة مثلكم، أفكر بقلبي الكبير الذي فتح لنفسه مكانًا في ظهري، هكذا كنتَ تخبرني، نعم، أنا يحركني قلبي، ولا أرى عيبًا في هذا، هذا القلب الذي يحركني نهاني عن التقرب منها عندما عادت، رغم أنها لا تتذكر، كان بإمكاني تشويه «رعد» في عينيها، ودفعها لأن تكرهه، لم أفعل، كانت لا تتذكر، لكنني كنتُ أتذكر، وأعرف، أن قلب «رعد» هو من فاز بها».

يهز كتفيه بقلة حيلة، واستسلام من اعتاد الهزيمة، وشهامة فارس نبيل يأبى الخديعة والإضرار بمن أحبها.

وضع كفه فوق صدر القاضي، واستطرد راجيًا: «أطفئ هذا الغضب الذي شوَّش بوصلتك، وفتش عن الحقيقة بين أكوام الكذب، ستدرك عندئذ أنها بريئة، ساعدها كي تستعيد نفسها، افعل ذلك يا أبي، إن لم يكن لأجلها، فلأجل أخي».

غادر «مطر» من الطريق الذي جاء منه، وما إن تسلق الشرفة متشبثًا بحجارة الجبل، مختفيًا عن ناظرَي القاضي، وتاركًا أصداء كلماته من خلفه، حتى انفجر الأخير باكيًا بحُرقة شديدة، يقاسي حسرة من نوعٍ مختلف!

دُنيازاد

الحب ليس كلمة تُلفَظ

ولا شعورًا من القلب ينبت

ولا فكرة في العقل تُمسك

ولا حالة تُعاش وتُرتجى

الحب ميثاق شرف

والثقة فيه طرف

بمقتضاه تُبذل الجهود

ولأجله تُصان العهود

تشوهه المشاعر المفرطة

وتؤذيه اللهفة المهلِكة

الحب اختبار على الوجهين

في السعادة والشقاء كلا الحالين

اجتماع قلب وعقل وروح

وأمل ممتد في الأفق يلوح!

الليلة السادسة والثلاثون

إن عاهدك من حسبته أهلًا للثقة، هل
تلتمس عذرًا إن تخلَّف عن موعده؟

(1)

لم تذُق غمضًا ولو لثانية.

استغرقها التفكير في الحديث الطويل الذي تشاركته مع «صدف» و«قوس» بالمطبخ، وما انتهى إليه من توضيح «فضة» عن حادثة الرجل الذي جُلِد.

أخبرتها «صدف» أنها أتت إلى الواحة خائفة، هاربة، تحتمي بها من شيء ما، وهذا يتنافى مع ما قاله القاضي، من كونها جاءت بناء على حيلة واتفاق سابق مع الجدة.

لو كانت هي يد الجدة التي أفسدت ودمرت، فممَّ كانت خائفة؟

وجدت أخيرًا تفصيلًا صغيرًا يتعارض مع ما يزعمه عنها سكان الجبل، وفتح هذا أبواب الاحتمالات مرة أخرى أمامها.

كان صباحًا هادئًا على غير العادة، فقدت مدينة الجبل روحها، وتباطأت وتيرة الحركة بداخلها، لغياب «رعد» عن المكان. وبينما تقف في شرفة غرفتها، حط على السور طائر صغير بعد أن طاف حول رأسها بشكل أزعجها وشتت انتباهها.

الطير المزعج الذي ظل يدور في دوائر مرسومة بقلم خفي، عندما كانت تتحدث إلى «رعد» على مشارف الغابة.

أحضرت من الداخل فتات خبز ثم نثرته فوق السور، فالتقطه الطير في نهم. كانت تتأمله بحنو عندما استرعى انتباهها خيط رمادي ملفوف حول إحدى ساقيه.

اقتربت ببطء من الطائر تمد إليه سبابتها، تتحسسه، وتتذكره، الخيط نفسه الذي حاكت منه الطاقية الرمادية التي أهدتها إلى «مطر».

بلغ حماسها ذروته، وشعرت ببهجة منعشة، هل أرسل «مطر» الطير إليها ليُعلمها باقترابه من الجبل؟ هل هو بخير كما كانت ترجو له وتأمل؟

أمسكت بالسور وأرسلت نظرات مستطلعة فوق الصخور المكونة لبدن الجبل، ثم عادت إلى الطير تنظر إليه بحنو وتمسح فوق جناحه متمتمة: «قولي لـ «مطر» إن سلامه بلغني».

طار الطير مبتعدًا بعدما أتمَّ مهمته، تتبعته بابتسامة مشرقة إلى أن توارى في ثنايا السماء. في المطبخ لم تجد «فضة»، وجدت «قوس» عاكفًا على تصليح أحد الأفران، كانت قد تحدثت الطباخة بالأمس عن عطل أصابه. حيَّته ثم سألته عن حال الرجل النائم في مرقده، الذي منعت الساحرة عنه الطعام والشراب، فأجابها بقلق بادٍ على مُحياه: «لم يخرج بعدُ من غرفته».

- أليس عليكَ زيارته، أقصد لتطمئن عليه بنفسكَ، لا أثق بتلك المرأة.

- لا أثق بها كذلك، حاولتُ رؤيته لكن الحراس يقفون كالزبانية أمام غرفته.

تنهدت بانزعاج، أطرقت قليلًا شاردة، ثم رفعت رأسها متسائلة عما شغلها في الساعات الماضية: «لماذا قلتَ لي بالأمس: ابقي معه؟».

- لا تذكرين «رماح»، أليس كذلك؟

أطلق الاسم صافرة منبهة في رأسها، لا تعرف أحدًا بهذا الاسم سوى متقفٍّ للأثر ساعدها على عبور الصحراء، والاقتراب من منطقة الجلف الكبير، ثم أضاعته في العاصفة، عندما قررت أن تتوه عامدة.

- «رماح» أحد أبناء الواحة، أكل سحرًا هو الآخر.

لم يكن لقيطًا مجهول النسب إذن، أخفى هويته كي لا يستجوبه الناس عن الواحة ومكانها. هل له يد في عثورها على واحة زرزورة؟ هل هو الذي نقلها مع «مشتاق» إلى البوابة الحجرية عند كوخ الأحدب؟

إذا كان هو الذي فعل، فماذا كان هدفه؟

- من الذي أطعم «رماح» السحر؟

- لـ «رماح» دكان يبيع فيه الرماح، ولديه كذلك مخزون كبير من الخشب ورثه عن جده الكبير، اختلف مع أحد التجار في بيعة أراد أن يبخسه فيها الثمن، فرفض «رماح» أن يبيعه الخشب، لجأ هذا الرجل إلى السحر كي يتغلب به على «رماح» ويسلبه إرادته، كي يمنحه الخشب بالثمن البخس الذي أراد.

- رجل لئيم، من يكون هذا التاجر الأثيم؟

- لم نعرف قط هويته، لم يخبرنا «رماح» باسمه، أقص عليكِ هذا فقط لأخبركِ أنكِ استطعتِ شفاء «رماح» من السحر الذي وقع.

تفاجأت بما قال، وتطلعت إليه مبهورة الفِكر، مشتتة البال، ألهذا السبب سألها «رماح» إن كان قد التقاها من قبل؟ لأنه بالفعل التقاها، بل وعالجته، لم يعرف شكلها سابقًا بسبب البرقع الذي كانت تواري وجهها خلفه، لكنه بالتأكيد ميز صوتها عندما سمعها تتحدث إلى «مشتاق» في الفندق، عندئذ سقط الإبريق، وعكف على جمع شظاياه ببطء شديد، في تلك اللحظة كان الشك يساوره بشأنها أتكون هي ذات البرقع أم أخرى تتشابه معها في اللهجة والصوت.

لكنه عرف من تكون عندما قرر مصاحبتها في الرحلة، بعدما تأكد أنها هي الفتاة التي عالجته من السحر، لكنه لم يفهم لماذا تنتحل هوية مختلفة، وتتظاهر بأنها لا تعرف مكان الواحة المسحورة. تضاعف شكها في أن يكون هو من ساعدها على بلوغ زرزورة عندما كانت فاقدة للوعي.

لكن لأي سبب؟ ما زالت غير متأكدة.

- لهذا قلتُ لكِ: ابقي معه، لا أومن أن السحر سيشفيه.

- قلتَ إنه كان صديقكَ، فما الذي فرق بينكما؟

- تغير «رعد» كثيرًا بعد الحريق، تحول إلى الممسوس الذي يسكن الجبل ويلقي الفزع في قلوب أهل الواحة دون تفرقة، يبقي في حمايته ساحرة الجبل التي باعت السحر للتاجر الذي أطعمه لـ «رماح»، لم تعترف بذلك قط، لكنني أعرف أنها الفاعلة.. لم أعرف أن «رعد» واقع تحت تأثير سحر يُسيِّره، لو عرفتُ أن صديقي يعيش أكثر لحظاته ضعفًا لما ابتعدتُ عنه، ولما تركته فريسة لتلك المرأة المجرمة.

- تبغض الساحرة لكنكَ تزوجتَ بابنتها.

بينما انقبضت عضلات فكه قال بحزم وثقة: ««صدف» لا تشبهها».

- صدقتَ، «صدف» لا تشبهها، وتستحق رجلًا يحبها.

سارت في مدينة الجبل على غير هدى، إلى أن قادتها قدماها إلى الممر المؤدي إلى غرفة «رعد». وقف الحارسان يترددان بين السماح لها بالمرور أو منعها.

لم تتركهما في حيرة من أمرهما، إذ لم تكن تزمع دخول غرفة الرجل الذي طالت غيبته، لا تعرف لمَ أتت إلى بابه من الأساس.

خرجت من الجبل وتجولت قليلًا حوله، مستكشفة، ومبددة للوقت الذي يتحرك ببطء باعث على الضجر.

رأت الطائر مرة أخرى يحوم فوقها، ثم يتوجه إلى الحظيرة كأنه يقودها. دخلت وراءه فاستقبلها صوت صهيل قوي أطلقه حصان «رعد» باهتياج.

حذرتها إحدى النساء أن الحصان الأسود جامح كصاحبه، لديه طبع نزق، لا يسمح لأحد غير الممسوس بالاقتراب منه، ويلقي من فوق ظهره كل من يحاول أن يمتطيه. لم تقترب كثيرًا من الحصان الذي بدا أنه يفتقد فارسه، أبقت على مسافة بينهما، وباب قصير من الخشب يحول دون رفصه لها إذا تملكه الغضب.

كان أسود، جميلًا، عفي البدن، أغراها شعره الطويل المرسل بالاقتراب قليلًا وتلمسه.

اهتاج للحظات ما إن مدت كفها صوبه، أبعد رقبته عن مرمى كفها، مرة واثنتين ثم سمح لها في الثالثة. بدا ملمس شعره ناعمًا، وقويًّا بين أناملها، تمادت أكثر ومسحت برفق على رقبته الطويلة الأبنوسية.

لم تقترب من حصان سابقًا، أو على الأقل هذا ما كانت تعرفه عن نفسها. رائحته مألوفة، وحركة عضلاته تحت كفها تخبرها بشيء لا تتذكره، أطلق الحصان صهيلًا لم تفهمه، وقرب خطمه من رأسها المنحني.

سمعت صوتًا آخر يحذرها من الاقتراب أكثر، تجاهلته وفتحت الباب القصير تدنو من الحصان الذي لم تند عنه بادرة اعتراض لتعديها على مساحته.

تابعها بدهشة قلة من الحراس الذين كانوا يقفون على مبعدة، إذ ما عاد يسمح الحصان البري باقتراب أي مخلوق منه إلا فارسه؛ فما باله لا يرفس الفتاة بحافره، أو يدفع بخطمه في صدرها؟

- هل يعرف أحدنا الآخر؟

مسحت فوق جسده فسكنت عضلاته التي كانت تنقبض أسفل أناملها، كأنه اشتاق لتلك اللمسات المتفرقة، أخذت من وعاء معلق مكعبات من السكر وقربتها من شفتيه الكبيرتين فالتقطها متلهفًا.

- من أكون؟ أخبرني وسأحاول أن أفهمكَ.

همست للحصان وهي تخلخل شعره بأناملها، بحركات حانية، متباطئة. صهل بقوة ثم مال برقبته نحوها، أسعدتها تلك البادرة، كما لو أنه يسمعها، كان التفاهم بينهما باهرًا، وباعثًا على العجب. أطعمته مكعبًا آخر من السكر، ثم سألت متهامسة: «كنا مقربَين، أليس كذلك؟».

بلغ حماسها ذروته، لما تحرك في مكانه كأنه يؤدي رقصة مرح. فلما سكن إليها عانقت رقبته، تنساب الدموع من عينيها المغلقتين فرحًا، وشوقًا. تعرفه حتى وإن كانت لا تذكره.

تتذكر عندما حملها الممسوس ووضعها فوق السرج، كيف أنه لم يحاول إسقاطها من فوق ظهره، لم يتعامل معها كغريب لا يعرفه، ثم تذكرت تفصيلة أخرى استرعت انتباهها، حين دار الممسوس حولها بحصانه بينما تقف أمام الكوخ مترقبة، ومتوجسة.

هل فعل ذلك كي يتعرف عليها الحصان فلا يلفظها حين يحاول حملها معه؟

كانت تظن أن «رعد» وقتها يستعرض قوته، أو يلهب أعصابها بحركات مستفزة، الآن أدركت أنه كان يُذكر الحصان برائحتها.

أخذت تفكر بقلب واجف، وأنفاس مضطربة، إذا كانت إلى هذا الحد قريبة من الحصان الأسود، فما مدى قربها من فارسه؟ عند هذه النقطة تنامى اضطرابها، وسارعت بمغادرة الإسطبل، هربًا من الجواب الذي باتت تعرفه.

تتجاهل الحقيقة التي أصبحت واضحة، كالشمس المطلة فوق رأسها.

***

عندما لم تعثر «صدف» على «قوس» في غرفتهما حال استيقاظها، توجهت من فورها إلى المطبخ.

إذ أخبرها قبل نومهما أنه سيصلح فرن الطباخة نظرًا للُطفها، ولتكبدها إعداد الحساء لأجلهم.

- صباح الخير.

استقبلها ببشاشة كأنه أول صباح يجمعهما، لا من شيء سوى لأنه شعر بالابتهاج حال رؤيتها، دون أن يكون لذلك سبب محدد.

أو لعل السبب يكمن في شعوره المتنامي بأنه لم يعد مضطرًّا إلى مواجهة تلك الحياة القاسية وحده، صار له رفيقة رقيقة القلب، تهتم بحاله، وتقلق حين لا تجده إلى جوارها. في الدور التي كان يقيم فيها لم يجرب شعور أن يكون مُفتَقدًا لأحد، لأن كل صُحبة يقيم معها لوقت قصير يعلمون أنه سيغادر إلى غيرهم لا محالة.

أما الآن، فثمة إنسان يفتقده، ويبحث عنه حين لا ترصده عينه القلقة.

- صباح النور، ماذا تفعل؟

- كما أخبرتُكِ بالأمس، أصلح الفرن، اقتربي ربما ترغبين في مساعدتي قليلًا.

وكانت أكثر من راغبة، لم يكن بحاجة إلى مساعدتها، إلا أن قربها يسعده. ابتسم لها تلك الابتسامة التي تُشعرها أن وجودها مرحَّب به، فابتسمت له بدورها.

- «صدف»، كنتُ أنا من يطلب منكِ الرحيل، والآن تبدل الحال، بعد ما حدث مع «رعد» قد نضطر إلى البقاء هنا لفترة أطول، لا أريد أن أتركه وحده وبخاصة وقد عرفتُ في أي مأزق هو، كما أخبرتكِ بالأمس، كنا صديقَي طفولة وصبا، له عليَّ حقوق واجبة.

- بالطبع، يجب أن تبقى معه.

صحح لها لائمًا بلُطف: «نبقى، مكان أحدنا حيث يكون الآخر».

بينما خفق قلبها بقوة أومأت برأسها موافقة، ولتواري خجلًا لذيذًا.

- بالأمس شعرتُ أنكَ تخبر الفتاة بأقل مما تعرفه.

- وما الذي جعلكِ تظنين ذلك؟

- لا شيء يخفى في الواحة، كلنا نعرف، يعني أقصد كانت ثمة أحاديث تدور هنا وهناك، عنه وعنها.

- ماذا كان يُقال؟

- تذكر كيف أن ابن القاضي ضرب «جمعان» وسط ساحة المرح عندما حاول إجبار الفتاة على الرحيل عن الواحة، وكيف كان يخشى الجميع التحدث عنها بسوء في وجوده، كان يهتم بها، كنا نرى تلك التفاصيل

الصغيرة التي يحاول أن يخفيها، أقصد الفتيات كن يرين ذلك، ثم يتحدثن معًا.. لماذا لم تخبرها أنهما كانا مقربين؟

- لأنه أمر لا يخصني.

أجابها ببساطة يهز كتفيه، ثم يضيف موضحًا: «إن لم يخبرها «رعد» بنفسه إذن فثمة سبب لديه لذلك، ولا أريد أن أتدخل بفجاجة في أمور الآخرين، لأنني بدوري لا أحب أن يتدخل الآخرون في شؤوني».

أومأت برأسها تقول باضطراب: «طبعًا، سأتذكر ذلك».

- لم أقصدكِ بالتأكيد، أنتِ لستِ «آخرين».

انبسطت قسماتها التي توترت، وقد راق لها تأكيده المستمر أنهما صارا كيانًا واحدًا. كانت تولي انتباهها للقطع التي يخرجها، ينظفها، ثم يعيد تثبيتها عندما فوجئت به يقول: «تعرفين إذن أن الشطة تؤذيني».

حسبت أن ما قالته بالأمس لم يثِر انتباهه كفاية ليتوقف عنده، لم تعلم أنه أرجأ الحديث إلى وقت معلوم.

- أغلب الدور التي كنتُ أعود للمبيت فيها كنتُ أضطر إلى تذكير أهلها أنني أتأذى من الشطة، وعندما كان القليل منهم يتذكر تلك التفصيلة الصغيرة، كنتُ أسعد كثيرًا.

وتصديقًا على كلامه انفرجت أساريره بسعادة بادية، أطرقت صامتة بخجل وقد أدركت أنه عرف أنها كانت تُبدي نحوه اهتمامًا خاصًّا. في الوقت الذي كان يسعى أبوها لتزوجيها بـ «هلال»، كان شعورها منصرفًا إليه، سرًّا تواريه عن الأعين والأسماع، وتحتفظ به في صندوق لا يطلع عليه أحد، أبهجه هذا الشعور كأنه حاز الدنيا وما فيها.

- هل تعرفين كيف يبدو الصدف؟

هزت رأسها نفيًا ببطء، تتطلع لأن يخبرها بشيء ودت أن تعرفه.

- قال لي أبي إنه مخلوق يعيش في البحر، لا بحار في الواحة.

- بعض أنواعه تعيش في المياه العذبة، رأيته مرة في البحيرة الكبيرة بمنتصف الغابة.

- حقًّا، كيف يبدو؟ لم يختر أبي هذا الاسم، بل اختارته جدتي، ولم يحب معارضتها.. لم يحبه، أخبرني أن الصدف قبيح المنظر ومغموس بالأوحال.

- هذا لأنه يخفي الجمال كله بقلبه، عليه أن يغوص في الأعماق مع مخلوقات أخرى شرسة ونهمة، لذلك عليه ألا يبدو جميلًا ومغريًا، كي يحافظ على قلبه الرقيق الذي يخفيه بداخله.

لمعت عيناها بعبرة دافئة، تتذوق ربما لأول مرة معنى جميلًا يخصها، ولكم عاشت عمرًا طويلًا تتوق لهذا الشعور الذي منحه «قوس» إياها ببساطة مدهشة، غير مدرك كما يبدو للأثر الذي أحدثه في قلبها.

إذ تفاجأ بنظرتها الطويلة اللينة، التي دفعته لأن يتأمل النمش الصغير المتناثر فوق أنفها ووجنتيها، الذي كانت تحسبه عيبًا وانحرافًا شاذًّا أصاب بشرتها، تتمنى إخفاءه بمعجون سحري.

بينما يراها هو كشموس مجتمعة، تنظر إليها السماء فتتآكلها الغيرة؛ للسماء شمس واحدة ولوجهها شموس عديدة.

اقترب منها يحط بسبابته فوق إحداها، يتنقل منها إلى أختها، يخشى إن أفلت واحدة أن تحزن وتغار من أخواتها.

تمسك «صدف» باليد التي تحنو عليها مستكشفة، تشد عليها بلغة اللمس التي تقول ابقَ هنا ولا تفلتْ.

- صباح الخير، آه هل تصلح الفرن كما وعدتني؟ لم أظن أنكما ستستيقظان باكرًا، هل تناولتما الفطور أم...، آه، هل جئتُ في وقت غير مناسب؟

وقفت «فضة» تعقد خلف ظهرها رباط مريولة المطبخ، تتطلع إلى اضطراب الزوجين ومسارعة كل منهما للانهماك في شيء يفعله.

لا يخفى على عينها المدققة ما كان يُطبخ في مطبخها قبل لحظات من دخولها.

وما إن انتهى «قوس» من تصليح الفرن، شكرته وسمحت لهما بالمغادرة، فأشرق وجه الطباخة بابتسامة واسعة.

ونظرًا لاستيقاظها المتأخر كانت تتحرك في المطبخ بسرعة فائقة، وذلك عندما شعرت بحركة وراءها فالتفتت وقد أدهشتها المفاجأة.

رأت «رعد» يدنو من إحدى الطاولات ثم يجلس فوق مقعد بعينه، بكامل ملابسه التي اعتاد الظهور بها، كما لو أن شيئًا لم يحدث الليلة الماضية. انفرجت أساريرها ودنت منه تقول ببشاشة: «سيدي، سعدتُ كثيرًا برؤيتكَ، هل صرتَ بخير الآن؟ هل أعد لكَ حساءً لذيذًا.. أوه لا أستطيع أن أفعل ذلك، قالت ساحرة الجبل ألا تأكل شيئًا قبل أن...».

أشار لها بكفه أن تمهلي، ثم قال بصوت خفيض: «لستُ جائعًا».

ترددت أن تعود إلى عملها بينما هو جالس هكذا، يرنو باهتمام إلى طبق من بقايا عشاء الأمس، يتجمع فيه الجزر على حافته.

أقبلت صوب الطاولة تحاول جمع الأطباق والبقايا المتناثرة، معتذرة عن التقصير في جمعها، فرفع كفه مرة أخرى وأمرها أن تترك الطاولة على حالها.

ترددت مرة أخرى قبل أن تعود إلى ما كانت تفعله، تلقي صوبه نظرة بين فينة وأخرى. إلى أن باغتها: «من الذي شاركها العشاء؟».

قال بينما نظراته تنتقل من طبق لآخر، تفاجأت الطباخة بمعرفته هوية الشخص الذي جلس في المقعد نفسه الليلة الماضية.

- «قوس» و«صدف» ابنة الساحرة.

- هل عرفَت بأمر السحر الذي أصابني؟

- نعم، كانت تلقي الكثير من الأسئلة، عنيدة الرأس تلك، لا تتوقف عن أكل رأس من أمامها حتى يمنحها الجواب الذي تريده.

سمعت ما يشبه ضحكة صغيرة متوارية خلف اللثام الأسود، ثم أردف: «هل تحدثَت مع «قوس» عني؟».

- كل حديثها كان عنكَ، وعن ذكرياتها الضائعة.

- بماذا أخبرها «قوس»؟

- ليس أكثر مما نعرفه.

أومأ برأسه في رضا ثم نهض عن الطاولة، يغادر المطبخ دون أن يلقي عليها أيًا من أوامره.

***

وقفت الفتاة التي لا تتذكر اسمها تشد نبلتها بطول ذراعها، ثم تطلق الحجر الصغير ليصيب أحد مجسمات الفخار التي صفتها في خط طويل، كما رأت سيد الجبل يفعل في المكان نفسه.

تفكر في الحصان الذي شعرت تجاهه بألفة عجيبة؛ رائحة الإسطبل، وحلب الأبقار، نجوم السماء، ورمال الصحراء المترامية، لم تشعر بتلك الألفة يومًا واحدًا في القاهرة.

فكرت، أن هذا لا يرجع إلى كونها أمضت في الواحة ستة أشهر من عمرها، تلك الروابط التي تتكون مع الأرواح والجمادات تحتاج إلى عمر طويل لا بضعة أشهر قصيرة.

مؤكد أنها كانت تنتمي إلى تلك الأشياء التي تشعِرها أنها محاطة بأفراد من عائلتها، وذلك قبل دخولها الواحة بوقت طويل.

تبدل شعورها تجاه الرجل الذي كانت تحسبه شرًّا خالصًا، دفعها هذا التغيير لأن تسترجع حواراتهما السابقة؛ كل خلجة، كل التفاتة، كل تلميح مستتر.

لماذا تعمد أن يرتدي أمامها ثوب الغلظة والقسوة بينما الحقيقة شيء مغاير؟

أهكذا يعاقبها على ذاكرتها الضائعة؟

ولماذا تشعر أن ما يؤلمه أكثر ليس خذلانها له، بل نسيانها إياه؟

كانت تستعد لتوجيه حجارتها الصغيرة صوب أحد المجسمات عندما ندَّ عنها صوت فرقعة، وسقطت شظاياها فوق الرمال متناثرة. التفتت إلى الخلف لتسقط نظراتها فوق الرجل الذي استيقظ من نومته المسحورة.

ابتسمت، ولم تشعر أنها تبتسم، ابتسامة متلهفة كتلك التي يُستقبَل بها مسافر عاد من سفرة طويلة. تصاحبها نظرة فاحصة لحال الرجل الذي وقف صامتًا، يقبض على النبلة بكفه، ويرنو إليها بترقب من ينتظر شيئًا محددًا.

- ظننتُكَ ستحتاج إلى وقت أطول لتعود إلى طبيعتكَ.

- أزعجكِ شفائي السريع إذن.

- لا يعنيني إن طال أم قصر.

- لماذا إذن كنتِ تحومين منذ الأمس حول غرفتي؟

تفلَّت الزمام من كفها، سبَّت الحارسين في سرها، ثم شدت هامتها قائلة: «كنتُ أتأكد إن كان سجاني ما زال على قيد الحياة أم صار بإمكاني المغادرة».

«أنتظر موتكَ» هذا ما عنته بطريقة غير متعمَّدة، وما فهمه من الوهلة الأولى ودفعه لأن يتطلع نحوها ساخطًا، يبسط كفيه مشيرًا حولهما قائلًا بنبرة متحدية: «لا أرى قيودًا ولا زنازين».

- تعرف أنكَ تحبسني هنا، وإلا فكيف أعود إلى الواحة دون مساعدة؟

- أنتِ لا تحتاجين إلى مساعدة أحد، هذا ما تقولينه دائمًا.

نعم، هي لا تحتاج، أو تتظاهر دائمًا أنها لا تحتاج، الاحتياج ضعف، ولا تحب أن يفطن الآخرون لمواطن ضعفها.

- بما أنكِ لا تحتاجين إلى مساعدة أحد للرحيل، ولساعات طويلة كنتِ تمرحين في الجبل دون مراقبة، فهذا يؤكد أنكِ تبقين هنا بإرادتكِ.

أزعجها أن حرَّف الواقع لصالحه، واستغل طبعها في الإحجام عن الطلب. عقدت ذراعيها، لا تعرف السر لكنها كانت بحديثهما مستمتعة، لا تسمح للصمت أن يستقر بينهما ولو لثانية، تقول متابعة: «لن أرحل قبل أن تخبرني من أكون».

- ولماذا تظنين أنني أعرف عنكِ أكثر مما يعرفه أي شخص آخر بالواحة؟

أزعجها تلميحه غير المستتر، كل من حولها يؤكد لها أنه الشخص الوحيد العارف بها.

- لا تتظاهر بأنكَ لا تعرفني.

قالتها باقتضاب وقد تسرب إليها شعور بالسخط. تغيرت نبرته، كانت أكثر تكثيفًا لمشاعر كثيرة محتدمة حين قال: «المرأة التي تركتني وسط النيران أحترق.. لا أعرفها».

كان يصرخ بكامل جسده، صراخًا من غير صوت، لا تلتقطه أذن منصتة، رغم ذلك شعرت أنها سمعت صرخته الصاخبة من غير صدى. همت بأن تخبره أنها تسمعه، وأن هذا التردد الذي يدور بينهما صار قابلًا للترجمة، وأنها باتت تشعر أنه حبيب خذلته محبوبته.

رجف قلبها بقوة لم تختبرها يومًا بذاكرتها التي لا تتعدى ثلاث سنوات، ولا في أيٍّ من خِطبتيها السابقتين، وقد كانت تحسب وقتها أنها بلغت قمم المشاعر وذراها.

الشعور الذي يباغتها كان مزلزلًا، لا لقوته فحسب، بل لكونه غامضًا، عصي عن الإمساك به، كالزئبق ينفلت من بين الأنامل ما إن تقبض عليه.

- لماذا عانقتِ حصاني باكية؟

تفتش عن جواب يزعجه، ربما لأنها وبهذه الطريقة وحدها كان بإمكانها أن تطيل الحديث بينهما، وتعرف أكثر مما يُريدها أن تعرفه.

- هل أزعجكَ أنه سمح لي بالاقتراب؟ أكنت تظنه يحبك وحدك؟.. ألهذا أنتَ غاضب هكذا؟

كان ناقمًا على المرأة التي لا تتذكر، متألمًا معها وبها، يريد منها دليل براءتها الذي لا تملكه، والعثور على الذكريات التي تسربت من ثقوب الذاكرة.

- لو لم تدمري كل شيء بيننا، لكنت أخبرتكِ لماذا أنا غاضب هكذا.

مال بشوقه نحوها، بأُنس زاحف صوبها، وفي صدره وحشة الهجر التي أُطعِمها كرهًا، تورثه مرارة كالعلقم. وفي الخطوات القليلة بينهما رأت حقولًا وسهولًا وساحات وميادين، بنيان مكتمل يجاور آخر هاريًا، وفي أحشائها انقباضة تشي بحالها المضطرب.

يتابعهما «قوس» إلى أن تباعدا، دنا من صديقه الذي كان يشتعل بغضب دفين يحرق كل من يقترب، يروح ويغدو فوق الرمال كأنها جمر مشتعل. وضع كفه فوق كتفه قائلًا: «لماذا لا تخبرها؟».

التفت إليه «رعد» وقد فطن لمقصده، وشت نبرته بما كان عليه من انفعال حين قال: «عليها أن تتذكر بنفسها».

«قوس» الذي يميل للبساطة والحلول المباشرة لم يقنع بالجواب، فحثه قائلًا: «ألا ترى أن عليكَ مساعدتها؟.. على الأقل تخبرها بهويتها، وبما تعنيه لكَ».

تشنجت قبضته، بينما كرر «رعد» جز فوق أسنانه بقوة: «عليها أن تتذكر».

- هذا ما كنتَ تفعله في الصغر، عندما يشرد حصانك ويتوه بين أشجار الغابة أو خلف كثبان الرمل، كنت تثور غضبًا لأنه نساكَ وابتعد، تعاند

رافضًا البحث عنه، تجلس مكانكَ ولا تبرحه، لا ترضى إلا عندما يعود إليكَ بنفسه، هذا الطفل الذي بداخلكَ لم يكبر قط.

رغم انزعاجه من حديث «قوس» عن الطفل الذي كان عليه، ابتهج قليلًا باستعادة تلك الذكريات المشتركة مع صديقه الذي يحب. استطرد «قوس» من وازع اهتمام ومحبة خالصة: «إنها ليست حصانك الذي تاه عنكَ يا «رعد»، تنتظرها كي تعرف بمفردها الطريق إليكَ بينما هي لا تعرف الطريق إلى نفسها، أليس في هذا ظلم لها؟».

لأول مرة منذ عودتها، يراجع «رعد» نفسه في ردود فعله تجاهها، إذا كان ينتظر منها شيئًا لن تمنحه إياه إلا بالتذكر، فلماذا لا يعاونها على استعادة ذاكرتها؟

أدرك أنه معها كالطفل الصغير الذي يعاند من سبَّب له هذا الجرح الذي يؤلمه، يعاقبها على ذنب لا تعرفه، وهذا ليس من الإنصاف، بل درب من المكابرة.

ربت فوق كتف «قوس» وتولى عنه دون أن يخبره بما عزم عليه. وعندما ناداه للحديث عن السحر الذي أصابه، أجابه «رعد» باقتضاب: «نتحدث لاحقًا».

فقد كان لديه ما هو أهم كي يفعله.

***

(2)

كان نومها متقطعًا، بلا أحلام.

استيقظت «سلام» متعبة، كأنها لم تنم ساعة واحدة.

منذ أن قابلته فوق السطح ثم في غرفة أبيها يجالسه حول طاولة الطعام، لم تره ثانية.

لم يأتِ للغداء تلبية لدعوة «أبو الأحناش»، أو للسمر مع أعمامها من العصر إلى قبيل الغروب كعادته.

الكلمات التي أسمعها إياها فوق السطح كانت كالطوفان في أثرها، طوفان محا كل ما كانت تعرفه، وجرف القناعات التي تكونت سابقًا.

لم تتصور يومًا أن تسمع كلمات مفعمة بالمشاعر القوية من فم «طوفان» العابس، دائم التقطيب. كأن بداخله حديقة شعور سرية، يتعهدها بالسقيا، دون أن يدري بأمرها أحد، ومع كلماته فاح عبيرها، التقطت حاستها رائحة كل زهرة تنمو، وكل ثمرة طرحتها الغصون المتباينة.

كانت تعرف نفسها كـ «سلام» المريضة التي لن يحبها أحد، ليست جيدة كفاية لتكون زوجة، أو حبيبة.

فما بال هذا الطوفان الذي اجتاحها؟ كيف ومتى ولماذا نمَّى كل هذا الحب تجاهها؟

الساعات التي قضتها في انتظار مجيئه إلى الدار، راكمت بداخلها اللهفة، والترقب، والحيرة.

تحب أن تراه وتتحدث معه، تتتبع أخباره، وتتأكد من كونه بخير، لطالما كان هذا شعورها، والآن بعدما أعادت ترتيب طبيعة علاقتهما، وحذفت ما تقتضيه الحاجة، لا تستطع أن تعثر لشعورها على مسمى واضح.

كانت تعزو اهتمامها به لكونه العم الذي تتشارك معه الأفكار والاهتمامات، أما الآن لم يعد هذا ذريعة ملائمة.

لم تفهم ما يدور بداخلها، وما أحدثه الطوفان من تأثير، ظلت في غرفتها غير راغبة، وغير قادرة على التماهي مع الآخرين.

في حين أنه لم يحجم عن الحضور إلى دار «أبو الأحناش» إلا ليترك لها فسحة للتفكير، كي لا يضغط عليها بحضوره المستمر، الذي قد يكون غير مرغوب فيه.

الحدود التي أرستها «سلام» بينهما كانت مبعثًا على البهجة لا الانزعاج كما خيِّل له. عندما خفضت بصرها، ولفت وشاحها، وامتنعت عن السلام عليه عند خروجه من الدار، شعر أنه صار بإمكانه أن يتنفس.

تلك الحدود تعني تغييرًا جوهريًّا في طبيعة علاقتهما، التي صارت تسير في الاتجاه الذي لا يجعل منه محرمًا لها رغمًا عنه.

لم يكن ساذجًا ليظن أن تصرفه سيمر على «أبو الأحناش» مرورًا كريمًا، تأكد له ذلك عندما وجده ينتظره في الصباح عند معصرة الزيتون. يغلظ عليه في القول، لانجرافه وراء تقاليع «سلام» الجديدة. ويضيف «أبو الأحناش» بحدة: «لم أشأ إزعاجها لمرضها المتفاقم، لا يحتمل قلبها الحزن أو الغضب.. لهذا أتوجه إليكَ بحديثي، توقف عن معاملتها كالغريبة، هذه الفتاة ابنة أخيك يا «طوفان»، وأنتَ عمها».

أيا مرحبًا بالمشكلات إن كانت لأجل عينَي «سلام»، هذا ما دار بخلده ولا شيء سواه. عندما حاول سابقًا كتمان السر الذي يحمله، ما كان هذا إلا لخشيته أن يخسر «سلام» إن عرفت بما يضمره لها في قلبه. أما الآن وقد عرفت «سلام»، ولم تبدِ تجاهه نفورًا أو قطيعة، كان مستعدًّا لشتى صنوف الرياح والأعاصير.

- لم تخطئ «سلام»، كانت شجاعة لتفعل ما يجب أن يُفعل من البداية.
- كيف هذا؟ هل تتعمد إغاظتي يا «طوفان»؟
- أنتَ أخي الأكبر، بل عائلتي بأكملها، لا أرضى إن غضبتَ، ولا أسعد إن حزنتَ، لكنني لن أعارض «سلام» في معاملتي بالطريقة التي تفضلها.

لم يقنع «أبو الأحناش» بما سمع، واتهمه بأنه يأتي بما لم يأتِ به السابقون ولا الأولون، ويحدِث في واحتهم أمرًا مستحدثًا، خبيثًا، غير مرحَّب به.

هدده أن يشكوه إلى باقي إخوته، إن لم يتوقف عن مخالفة عرف الواحة الذي يعرفه. لم يتركه وشأنه، حمله على الحضور معه إلى الدار لاستكمال الحديث، بعدما زاحم الناس البسطة أمام المعصرة.

وفي الدار بينما تقابلا على الدرج كان يهم بالصعود خلف «أبو الأحناش». وقعت نظرتها الأولى على الوحمة الحمراء في جبهته، اعتادت أن تراها كقلب صغير، كانت تقول: «عمي «طوفان» له قلبان».

كان القلب الأحمر ينبض فوق العرق البارز في جبهته، كما لو كان قلبًا حقيقيًّا تقافز ما إن وقع بصر صاحبه عليها.

- كيف أنتِ اليوم يا «سلام»؟
- أفضل حالًا.

كانت للحدود الجديدة متعة غريبة، كطريق مجهول يفتح المجال لعدة احتمالات رحبة، تفضي كل منها إلى شعور مختلف، من بينهم السعادة المطلقة.

سعادة محتملة، أفضل من تعاسة محققة.

بلغ سمعها حديثهما المحتدم رغم الأبواب المغلقة بالطابق الثاني، يضغط عليه أبوها، ويجابهه «طوفان» ببسالة، مطيحًا بالوضع القديم من فوق الطاولة. عصف أبوها وزمجر وأطال النقاش إلى أن اقتربت الشمس من المغيب.

التقت مرة أخرى «طوفان» عند مطلع الدرج، ترنو إليه بامتنان كبير لقدرته على الصمود رغم الريح الغضوب.

- لا تحزني.

قالها لما رأى جبينها المنعقد، واضطرابًا طفيفًا تنطق به قسماتها، ثم أردف: «سيعتاد مع الوقت، سيعتادون».

لم تكن متفائلة مثله، لكن لم يكن لديها شيء لتخسره، سيلقَى هو اللوم كله فوق كتفيه، سيترفقون بمرضها ويثقلون عليه وحده. لا تعرف كيف قرأ أفكارها، إلا أنه قال: «لستُ ضعيفًا لأرضخ، لن يكون إلا ما تريده «سلام»».

ابتهجت، وتجدد شعورها بالأهمية، أنها شيء ثمين يُجمع في سنوات ويُحفَظ كالسر داخل صندوق خشبي.

لم تكن من قبل «سرًّا» لأحد، فما بال هذا الشعور جميل أكثر مما تخيلت؟

فارقها وقد تركها من خلفه في حيرة من أمرها، وكأن مسميات الشعور تاهت عن بعضها. سار إلى داره بتؤدة، مستمتعًا بالنسمات المنعشة، إلى أن وقعت نظراته فوق «أم الرمال» التي تنتظره عند عتبته.

استندت إلى عصاها، ودقت بها ثلاثًا فوق الرمال، ثم قالت عبارة واحدة جددت بداخله شعور الاختناق والثقل: «عثرتُ لكَ على العروس الرابعة، تجهز كي نذهب لخطبتها، والزفاف بعد أسبوع».

***

عندما عادت «أم الرمال» إلى دارها، وجدت «هلال» في انتظارها. يسألها أن تمنحه القليل من وقتها الثمين، كي يستشيرها في أمر خطير.

أفضى لها «هلال» بما أرق لياليه، وبدد فرحته، وأعجزه عن تسيير الحياة برفقة «فلك». فما كان منها إلا أن أخبرته: «فتاة طائشة، لا تنزعج يا بني، سأحل لكَ تلك المشكلة».

رحل وقد راوده الأمل، فعند السيدة الخبيرة المجربة حتمًا وصفة ناجعة لحالته. وما كان منها إلا أن جمعت في دارها بعض نساء الواحة وفتياتها، ثم أرسلت لـ «فلك» دعوة عاجلة. وأمام أنظار النساء وأسماعهن، عنفتها «أم الرمال» على ما بدر منها في حق زوجها.

كيف يشكوها ولا تزال عروسًا جديدة لم يمضِ شهر على زواجها؟ تمنت «فلك» أن تنشق الأرض وتبتلعها، ولأول مرة يعجزها الكلام، فلا تخرج من فمها همسة واحدة، كانت مصدومة والجزع يرتع في قلبها.

لا تعرف كيف خرجت من دار «أم الرمال» مع تشوش الرؤية أمام ناظريها، ولا كيف تمكنت من بلوغ دارها مع الدوار الذي أصابها. ما إن أغلقت بابها عليها حتى أجهشت في بكاء متصل، لم يستطع «هلال» أن يوقفه، وقد تطلع إليها بجزع جاهلًا بالسبب.

- أخبريني فقط ما الذي حدث؟
- هل شكوتني إلى «أم الرمال»، هل أخبرتها شيئًا سيئًا عني؟

لم تكن شكوى كما تقول، بل طلب مساعدة، وحاجة ماسة إلى إصلاح ما أفسده.

- أردتُ فقط أن أستفيد من خبرتها لتحسين الوضع بيننا، أنا لم أكن...

- كل نساء الواحة يتحدثن عني في دارها، كل فتاة، وكل امرأة.

الصورة التي جاهدت لرسمها، التي تحب أن تُرى بها تهدمت فوق رأسها، سيخُضن في الحديث عنها، والتكهن بأحوالها، سمعت البعض يتهامسن أنها لن تعمر كثيرًا في دار «هلال»، وأنها ستلحق بركب المطلقات قريبًا مثل «مندورة».

سيشمت بها أخواتها، وقريباتها، وصديقاتها، سيتندرن على الوضع الذي أوقعها فوق لسان «أم الرمال»، التي تحسب أنها بهذا التعنيف العلني تصلحها وتُسيِّرها على الطريق القويم.

أفزعه مرآها بهذا الحال، دنا منها يود عناقها، فدفعته عنها بقوة، لم يتوقف بكاؤها للحظة، بل ازدادت حدته وهي تصيح في وجهه: «لن أنسى هذا يا «هلال»، لن أسامحكَ أبدًا».

***

عندما دخلت المطبخ في غياب طباخته، شعرت بجوع مباغت، ذكرها بكونها لم تأكل شيئًا منذ أن تناولت حساء الخضر.

عندما كانت تسخِّن القدر أحست بحركة من خلفها، التفتت فلم يقع بصرها على أحد. وعندما تكرر الصوت وجدت نفسها تقترب ببطء من الفتحة الكبيرة في منتصف الجدار، التي تطل على منظر بديع للغابة.

وجدت نفسها تهمس باسمه قبل أن تراه: «مطر!».

تمسك بالحافة وتميل بجذعها إلى الخارج، تتفحص الصخور البارزة وزواياها، إلى أن استقرت بنظراتها على واحدة في الميمنة. صاب تخمينها، ابتهجت لرؤيته، نظرت خلفها تتأكد من خلو المطبخ، ثم التفتت إليه تسأله بصوت خافت: ««مطر»، كيف أتيتَ إلى هنا؟».

كان المطبخ على ارتفاع شاهق من الجبل، إن انزلقت قدمه سيهوي من مرتفَع، سقوطًا مدويًا لن تُكتب له النجاة بعدها.

ومن هذا الارتفاع الخطر، تمسك في صخرة عن ميمنتها، ووضع قدميه فوق بقعة مستوية، ثم قال لاهثًا ومبديًا لهفته: «أنتِ بخير، تبدين بحال طيبة».

- ماذا تفعل هنا؟

- تحدثتُ للقاضي بشأنكِ، أخبرتُه، أنكِ لستِ بقاتلة.

جلست فوق الحافة تتطلع إليه متأثرة، أخاض كل هذا الطريق لأجلها؟ يصدِّق براءتها دون أن تضطر إلى الدفاع أمامه عن نفسها. تتطلع إليه فيتجدد شعورها بأنها تعرفه؛ الوجه الذي لم يمحُ الحريق ملامحه، الاهتمام في نظرته، والحنان في نبرته.

- تعرفني، أليس كذلك؟

- أعرفكِ.

أومأ برأسه مؤكدًا، ثم بدا وكأنه تذكر شيئًا مهمًّا، دس يده في جيب معطفه، ثم بسط كفه أمامها، تتوسطها ثلاث حبات من الرُّطب، كان قد عثر أسفل جذع نخلة على أربع، أكل واحدة وكانت شهية مسكرة، وخبأ لها الثلاث المتبقية.

تناولت منه حبات الرطب، بتأثر من مُنح الجواهر والدُّرر.

بدا وجهه باهتًا، كأنه لم يذُق راحة لأيام متتالية.

- انتظر هنا.

دخلت المطبخ تحضر كل ما تطاله يداها من طعام وشراب وحلوى وفاكهة، جمعتهم في سلة من الخوص ثم عادت تقدمها إليه قائلة: «لا بُد أنكَ جائع».

- كل هذا لأجلي أنا؟

تناول السلة بخجل، قربها، ولف ذراعيه حولها.

- أنا بريئة، أليس كذلك يا «مطر»؟

- لم تفعلي شيئًا سيئًا.

- رأيتني، لديكَ دليل براءتي؟

لم يرها، ولا يملك الدليل الذي تريد، كيف يخبرها أنه لا يملك إلا قلبًا كبيرًا متبصرًا، يثق بها كما تثق النجمات بالسماء، تعرف أنها لن تُفلتها مهما أثقلها الرعد والمطر؟

- أنتَ تصدقني دون دليل، لماذا لا يصدقني «رعد» إذن؟

بات هذا الأمر مؤرقًا لها، دون أن تقبض بيدها على السبب، رأيه بها يزعزع الصورة التي تكوِّنها عن نفسها.

ما قاله «قوس» و«صدف»، وما يؤكده «مطر» من نقاء سريرتها، لا يكفي لترى نفسها بصورة جيدة.

ثمة شيء يشوه الصورة، ويفسد ألوانها، وهذا الشيء هو ما يدَّعيه «رعد» بشأنها.

لماذا رأيه بها مهم إلى هذا الحد؟ هذا ما كانت تسائل نفسها بشأنه. قال «مطر» موضحًا: ««رعد» يثق دائمًا بحواسه أكثر مما ينبغي، يكثر من التفكير، ويتجاهل مشاعره، لا لأنه لا يحس، بل لأنه يخاف أن يحس، يخاف «رعد» الخذلان، والخسارة، والفقد.. هذه الأشياء لا تخيفني، ربما لأنني اعتدتها، قالت لي أمي مرة: نحن نخاف الخسارة إلى أن نعتادها».

- تعرف أنه ابن الساحرة التي تزوجت بالقاضي، أليس كذلك؟

هز «مطر» رأسه بقوة نفيًا ثم قال مدافعًا: «لم تكن ساحرة».

- كيف ذلك؟ كانت الساحرة القديمة للواحة قبل أن تهزمها ساحرة الجبل، هكذا يقول عنها الجميع.

- أنتِ مختلفة، لم تقولي هذا عنها.. لم تقولي هذا قط.

استوقفتها عبارته، ظلت أصداؤها تتردد لثوانٍ في رأسها، قبل أن تستمطر الأسئلة: «لم أقُل عنها إنها ساحرة.. كيف ذلك؟.. لماذا يختلف رأيي عن الجميع؟.. أخبرني يا «مطر»، كيف كانت تلك المرأة؟».

- غريبة لكن طيبة، تفعل ما تنساه لاحقًا، وتقول كلمات لا تعنيها، كانت تتحدث إلى أناس صغار في رأسها.

- أناس صغار في رأسها!

- هكذا كانت تقول، كانوا يتحدثون إليها وتتحدث إليهم، يخبرونها أشياء، فترددها، تدهش الجميع، يخافونها وينبهرون بسحرها، أنتِ لم تقولي عنها ساحرة، كنتِ تحبينها، وكانت تحبك، بقدر ما تسمح به فترات رشدها.

تمتمت بدهشة بالغة: «كانت مريضة نفسية!».

أشار «مطر» بسبابته قائلًا بلهفة وحماسة بالغة: «نعم، هكذا كنتِ تقولين لها.. حاولتِ إخراجها من الواحة، قلتِ إن بالخارج مطببين سيساعدونها، سيشفونها ولن تعود تسمع أصوات الرجال الصغار في رأسها، لكن أحدًا لم

يوافق على خروجها، خاف أهل الواحة أن يفقدوا الساحرة، أخبرتهم قارئة الصخور أن الواحة بلا ساحرة مثلها مصيرها مجهول، سيصبحون من غير حماية فيهجم عليهم جن الجبل ليؤذيهم في أبنائهم، كانوا يكرهونكِ لهذا السبب، لم يوافق أحد، لكنكِ استطعتِ إقناع القاضي بعد شهور من المحاولة، وعندئذ...».

توقف «مطر» مسترجعًا ذكرى أليمة حاضرة، حثته على استكمال الحكاية فأردف بألم: «عندئذ وقع الحريق في الدار، كانت النار تلك الليلة نهمة جائعة، التهمت كل شيء حولها، بما في ذلك المرأة التي لم تقولي عنها ساحرة».

اجتمعت الكثير من الخيوط المتناثرة، أصبحت ترى ما حدث بشكل مختلف عما رُوي لها، ولكم كانت الحكايات مضللة. لا يملك أيٌّ من أهل الواحة الحقيقة الخالصة، لا يحملها سواها في ملف مغلق في ثنايا ذاكرتها المعتمة.

تزوج القاضي بامرأة حسبها الجميع ساحرة، تفشى فيهم الجهل والإيمان بالخرافات والركون إلى السحر إلى أن تحكموا في الوجهة التي تسير إليها عقولهم.

ألقوا بكل شيء على شماعة السحر، ولم يفكر أي منهم أن المرأة المسكينة مريضة تحتاج إلى خبراء وأدوية.

لكنها عرفت ذلك، وبذلت جهدًا كي تنقذها، إلا أن الحريق سبقها، الحريق الذي نال من «رعد» ومن «مطر» هكذا أخبرها الأخير دون أن يفصح عن العلاقة التي تجمعه بأهل الدار الذين كانت تقيم بينهم.

لم يخبرها أن المرأة كانت أمه، وأن «رعد» أخ له، وأن القاضي الذي أتت إلى كوخه بحثًا عنه كان أباه نفسه!

خاف ألا يتحمل عقلها كل هذه الحقائق دفعة واحدة، فيحدث لها ما أصاب أمه من لوثة تسلبها رشدها.

أو لعله كره أن يتسبب في بغضها لـ «رعد» لما فعله بأخٍ له، إذ نبذه عند أطراف الواحة لأنه دافع عنها عندما لم يدافع أحد.

يعرف حسها القوي بالعدالة، وانزعاجها لرؤية مظلوم يتعذب، نأى بنفسه عن دور الضحية الذي ولا شك كان سيقربها منه خطوة، ويبعدها عن «رعد» خطوتين، في حين أن أخاه في أمس حاجته إليها.

- ماذا كان بيننا؟.. أقصد أنا وهو.

طرحت سؤالًا مباشرة وانتظرت له إجابة مماثلة، تعرف أن «مطر» واضح شفاف، لن يستطع الكذب وإن حاول.

التقط أنفاسه ثم قال بنبرات مؤثرة: «كان بينكما ما يكفي لقتله حين ظن أنكِ هجرتِه».

خفق قلبها بقوة تزامنًا مع تأكدها من الرابط الذي يجمعهما، الذي كان واضحًا منذ اللحظة الأولى التي التقاها فيها «رعد» عند الكوخ؛ لم يحاول إلحاق الأذى بها، رغم المسمار الذي نزعته، والتحدي الذي بدأته.

رفعت رأسها عندما أردف «مطر»: «لا تلومي جريحًا يتألم على صراخه في وجهكِ، إن أردتِه أن يهدأ أغلقي الجرح أولًا».

- أنا أيضًا مجروحة وأتألم، لا أتذكر شيئًا يا «مطر»، لا أعرف حتى اسمي، ولا يريد أن يخبرني من أكون، لعلك أنتَ تخبرني.

- اسمعي.

قال هذا وهو يزيح السلة عن ساقيه ويضعها جانبًا، ثم يقول بحماس: «أعرف كيف تجعلينه يتحدث إليكِ، وكيف تهدمين الدرع الذي يحتمي به ليمنعكِ من الوصول إليه، عليكِ أن تخبريه بشيء يعرفه كلاكما، شيء مهم ومؤثر، عندئذ سيلين جموده، وترين أمامكِ «رعد» مختلفًا، افعلي هذا وسترين».

- تقصد أتظاهر أنني استرجعتُ الذاكرة، أخدعه؟

طأطأ رأسه بخجل، ثم قال مرتبكًا: «ليست خدعة، فلنقل إنها حيلة صغيرة، صغيرة جدًّا، لن تكذبي، ستقولين فقط ما يجعله يظن أنكِ تتذكرين».

- بماذا أخبره؟ أنا لا أتذكر أيًّا مما تشاركناه يومًا.

فكر قليلًا، ثم قال بحماس طفولي: «اسمعيني جيدًا».

شحذت انتباهها، وتوجهت إليه بسمعها، أردف «مطر» باهتمام وشغف: «أخبريه عن ثلاث حبات من البندق نبتنَ من غصن واحد!».

دُنيازاد

صرتُ دنيازاد بمهارة

راوية الحكايات الثرثارة

امتدت القصة تأبى الانفلات

وما زال في جعبتي حكايات وحكايات

أشعر باقتراب ميعاد الرحيل

وتثاؤب ووهن بعد ليل طويل

ما زلتم تجهلون من أكون

عني لا تبحث تلكُن العيون

فلأقسم لكم غير حانثة

إن تلك هي المرة الخامسة

أمنحكم فيها ملمحًا عن هويتي

لكنكم ما زلتم تفكرون بنجمتي

فإليكم ما روته لي هذا المساء

ولأكُن من أكون في قافلة النساء!

الليلة السابعة والثلاثون

هل للحقيقة وجه ثابت،
أم وجوه مراوغة عديدة؟

(١)

- ابقَ قليلًا يا «مطر».

حثته على الانتظار ريثما تحضر له بطانية من الصوف من غرفة المؤن، ليل الجبل بارد كالصقيع، لن يتحمله بمعطفه الخفيف. تناول منها البطانية في حرج وغبطة، وعندما همَّ بالرحيل ساورها القلق: «إلى أين ستذهب؟».

- عثرتُ على شجرة كبيرة بالغابة، يصلح أعلاها ليكون مكانًا للمبيت.

لم تستحسن خطته الهزيلة التي أعدها للاحتماء، ماذا إن ألمَّ به مرض، أو طارده حيوان مفترس؟

- ألن تعود إلى الواحة، إلى متى ستبقى هنا؟

- حتى لا يعود هناك حاجة إلى بقائي.

كانت إجابته غير المحددة مستمطرة لحيرتها، تود لو يقرُّ أمامها لوقت أطول، وجهه باعث على الراحة، بتقاسيمه المألوفة، ونظراته العطوفة. بينما تابعته باهتمام تحرك من صخرة لأخرى على بدن الجبل، بخطوات بطيئة محسوبة، حاملًا في يده السلة، وحول كتفه البطانية.

أطلقت شهقة صغيرة عندما كادت قدمه أن تزل فوق صخرة زلقة، مالت بجذعها إلى الخارج تهمس بلوعة: «انتبه يا «مطر»».

التفت لها يومئ برأسه في حبور، تتهلل أساريره لكونها تكترث، وبحياته قل من يكترث، أما هي فلطالما كانت مختلفة.

سار مع انحناء الجبل إلى أن اختفى عن ناظريها، لعدة ساعات متتالية تجولت في أرجاء مدينة الجبل، وأكثر ما لاحظته من سمات طيبة بين سكانها، أنهم يسارعون في مد يد المساعدة لمن يحتاج إليها، رجل أو طفل أو امرأة، وأن لكل منهم دورًا يعرفه، لا يحقر كبيرهم من صغيرهم، ولا يتطاول صغيرهم على كبيرهم.

عادت إلى غرفتها بعدما تملك منها التعب، وجدت وسط الفراش ما فاجأها واستجلب دهشتها؛ القلادة التي انتزعها منها «رعد» في أول ليلة لها بالجبل،

لماذا قرر إعادتها؟ هل كانت تخصها؟ هل جاءت بها إلى الواحة أم أهديَت إليها؟ ولماذا لدى المرأة الميتة بالبئر قلادة مماثلة؟

تحسستها قليلًا ثم فتحتها، لم تعثر بداخلها على صورة «سراب» الحفيدة، لماذا أزالها؟ فكرت ثم تهامست لنفسها: «لأنها لم تكن موجودة بداخلها من الأساس، أضافتها الجدة بنفسها».

افتقدت القلادة التي لازمتها طويلًا، حتى وإن جهلت مصدرها، أعادت ارتداءها، وهي تفكر في المعنى المقصود بتلك البادرة. ولما أعجزها التخمين، خرجت تبحث عنه في ممرات الجبل وساحاته، إلى أن أشَّر أحد الحراس صوب الحظيرة دون أن يوجه لها كلمة.

رأت «رعد» من مبعدة يقف إلى جوار حصانه الأسود كما كانت تفعل في البكور، يرتدي الملابس التي يرتديها عادة، باستثناء كنزة من الصوف البني الداكن، تكسر حدة الأسود الذي اعتاده.

لم ينتبه لدخولها إذ كان عاكفًا على فرك جسد الحصان بالفرشاة والماء، يهمس له بالكثير كما لو كان يفضي ما في نفسه إلى رفيق مخلص. صهل الحصان بشدة، فربت «رعد» فوق عنقه الطويل قائلًا بنبرة راجفة: «لقد تركتْنا، لا تشتَق إليها».

بدا أن للحصان رأيًا آخر، التفت صوبها يصهل مرة أخرى، فانتبه «رعد» لوجودها. لم تلتقط أذناها من تلك المسافة ما كان يهمس به لحصانه، لكنها فطنت إلى الوجوم الذي أصابه ما إن رآها داخل الحظيرة.

ألقى نظرة خاطفة على القلادة، ثم أكمل فرك جسد الحصان بجدية بالغة، كما لو كانت المهمة الأهم في تاريخ المهمات. ربتت فوق ظهر الحصان من الاتجاه الآخر، وقالت لمن أحسن استقبالها: «تبدو مبتهجًا الآن».

التفتت لفارسه تشكره على إعادة القلادة؛ إما أنه لم يسمعها، وإما تظاهر بأنه لم يفعل، إذ ظل منغمسًا في عمله دون أن يوليها شطرًا من انتباهه. اغتاظت بشدة، وطفقت تسأله بحدة: «ظننتكَ لن تعيدها كما أخبرتني، ما الذي بدل رأيك؟».

توقف عما يفعله، غيَّر موضعه كي يكون تمامًا في مواجهتها. وعندئذ تمكنت من رؤية الكنزة البنية بوضوح أكبر، التقطت عيناها المدربتان

تفاصيل الغُرز المنسوجة بمهارة متناهية، دقة لم ترَها في أسواق الواحة، ولا فيما يرتديه رجالها.

لم تكن دقة الحياكة فحسب هي ما استرعت تركيزها، بل الغرزة نفسها، التي كانت مميزة في التصميم، فريدة من نوعها.

تعرف ذلك لأنها الغرزة التي تستخدمها عادة في غزل الصوف بنفسها!

دفعتها الغرزة صوب ذكرى استفاقتها قبل ثلاث سنوات في المشفى، كانت ثمة ممرضة منهمكة في غزل الصوف تلازمها إلى أن يأتي «مشتاق» أو الخال لزيارتها.

وفي غير مواعيد الزيارة كانت الممرضة تلازمها كظلها بإيعاز من خالها، ذات مرة تركت ما تشغله فوق المقعد، وتوجهت إلى الحمام الصغير الملحق بالغرفة. فدفعها الضجر لأن تمسك بالخيط والإبرة، تلعب بهما بين أناملها، إلى أن فوجئت بأنها تجيد الغزل بمهارة فائقة.

وعندما عادت الممرضة أدهشتها الغرزة المبتكَرة، وطلبت منها أن تعلمها إياها. ففعلت بسعادة غامرة.

الغرزة نفسها التي تجمع خيوط الصوف البنية في كنزة يرتديها «رعد» أمامها.

هل يحاول إخبارها بشيء؟ هل يحاول تذكيرها؟

عندما التقت أعينهما تأكدت من ظنونها، لم تواجهها تلك النظرة الغامضة، أو تلك اللامبالية، أو حتى الغضوب القاسية.

تسرب شيء من الدفء والتبسط إلى عينيه ليغزل بغرزة مميزة حديثًا قصيرًا مقتضبًا، دفع بنبضها لأن يضطرب، وبلسانها لأن يتساءل في حيرة: «تلك الغرزة أعرفها، أحفظها، أحيك الطواقي بها، من أين أتيتَ بتلك الكنزة، من الذي غزلها؟».

سمعت أنفاسه التي تتردد، وأحست بشوقه الذي يتخبط، تتكسر كلماته على حواف صخرة حادة، ثم تتهادى مخارج أحرفه عرجى ومكاسير: «غزلتها امرأة أعرفها، رأيتها تبنيها غرزة غرزة، قالت إنها هدية، ولم تُسمِّ صاحبها، مع كل غرزة كنتُ أتقلب بين خوف ولهفة، خوف ألا أكون المُهدى إليه، ولهفة لأن أكون هو».

احتشد في صوته كلا الشعورين؛ الخوف واللهفة، كأن الزمن يدور به، ويقذفه مرة أخرى عند مبتدأ الطريق، أردف بصوت أجش مستريب: «هي الآن تغزل الأيام، وتحيك الساعات، دقيقة بدقيقة، وثانية بثانية، لا أعرف لمن ستقدم العُمر كهدية، أراقبها من جديد، وأنتظر أن أعرف».

تتهادى نظراتها بين عينيه والغُرزة، تتخبط بينهما، تضل الطريق وتتشوش الرؤية، يصهل الحصان بخفوت، فتعود إلى مفترق الطرق، بين عينيه والغرزة.

- ليتني أتذكر.

كانت أمنية أجمل من أن تتحقق، ليت الأماني قابلة للتجسد ما إن تُلفَظ؛ لتحدثت حتى يشقشق الفجر، عن أمانيها الغارقة في بحور العتمة.

- ليتكِ.

قالها باقتضاب ثم تولَّى، تاركًا الحصان على حاله، دون أن يتم ما بدأه. التقطت الفرشاة، ومررتها فوق جسده تتم المهمة التي بُترَت من منتصفها. تتحرك يدها بآلية، تفكر، تتساءل، إلى متى ستظل غصنًا منزوعًا عن الشجرة؟

إلى متى سيتحملها سكان الجبل، وسيده الغضوب العجول، الذي يريدها أن تتذكر كما لو كانت تتجرع النسيان عمدًا؟

مع عبرة منفلتة توقفت، تتبعها عبرات أخرى نزقة، أمسكت بعنق الحصان تميل صوبه، تحتضنه، وتبكي.

- لا تبتعد أنتَ أيضًا، لا تملَّني، لا تيأس.

- لم أبتعد، ذهبتُ لأحضر هذه.

انتفضت ما إن سمعت صوته، رجفت أناملها وأوقعت الفرشاة أرضًا. مسحت عبراتها سريعًا تواري ضعفًا ألمَّ بها، نظرت إلى يده الممتدة، وقبضته التي تخفي بداخلها شيئًا.

رمقت أنامله بترقب وهي تنبسط شيئًا فشيئًا، ثم تتبدى في منتصف راحته حفنة من حبات البندق!

لما تطلعت إليه بدهشة قال بهدوء وألفة: «هذا شيء تحبينه كثيرًا».

- البندق؟

انزلقت حبات البندق من كفه إلى كفها كقطرات المطر، قلبت واحدة بين أناملها، تشممتها للحظات، ثم وضعتها في فمها.

لم تكن جائعة، كانت تحاول تحفيز الذاكرة، بملمس البندق، ورائحته، ونكهته.

- عندما أتيتِ إلى الواحة، لم تعرفي البندق.

- حقًّا؟

سألته مدهوشة، ومتعجبة كيف لإنسان ألا يعرف البندق؟ تلوك الحبة في فمها، تبتلع عصارتها، وتولي جُل انتباهها إلى الرجل الذي يتحدث، منصتة، بقلبها لا بأذنيها.

- عندما تذوقتِه أول مرة، قلتِ لا بُد وأنه من طعام أهل الجنة.

لاحت على شفتيها ابتسامة صغيرة، فقد كانت تشعر في تلك اللحظة أنها بالفعل تختبر إحدى ملذات الجنة، استطرد ببسمة تسورت عينيه من غير ممانعة: «لا ينمو شجر البندق إلا عند مدخل النفق، حيث كانت دارنا، أكلتِ منه خلال ستة أشهر ما طرحته شجرة ضخمة معمرة».

بضحكة قصيرة مرحة بددت الانشراح الذي كانت عليه نظراته، ظللت عينيه غمامة حسرة ولوعة، وذلك لما سمع ضحكتها التي كان يأنَس بها، وإليها يسكن.

أخبرها «مطر» أن ما بينهما كان كافيًا لقتله حين ظن أنها هجرته عمدًا. وضعت نفسها حيث يقف، ماذا إن كانت هي التي تعرف من تكون، وهو الذي لا يتذكر؟

اغتمت للفكرة، أشعرتها بوحشة؛ مؤلم أن يكون المرء نسيًا منسيًّا أمام من عرفه. كررت ما قالته قبل قليل، هذه المرة بحرقة أكبر: «ليتني أتذكر».

تناسى كل شيء بغتة؛ الاتهامات، والأدلة، والمحاكمة التي عقدها في رأسه قبل ثلاث سنوات وأصدر فيها حكمًا نافذًا غير قابل للطعن أو التسويف.

- ستتذكرين.

لأول مرة منذ التقته شعرت في كلماته بأمل يتوهج، وهدف يتوحد، ورغبة تتجانس مع رغبتها. ولأن هذا الشعور كان طيبًا وباعثًا على الحماس والبهجة، أرادت أن تسرع وتيرته، وتستجلب كل ما يواريه عنها.

- ثلاث حبات من البندق نبتن من غصن واحد!

كأنها بعبارتها تلك عبرت الممر الضيق الذي يُفضي إلى الصمت المُطبِق.

لم يسكت «رعد» وحده، شعرت أن كل ما حولها قد حُبس صوته، كأنها قُذِفت إلى عالم لم تولد فيه الأصوات بعدُ. حتى صوت تنفسها، ما كان بإمكانها أن تسمعه، امتص الصمت كل الأصوات بداخله، وأبقاها في عصمته لدقائق متتالية، سرَّحها أخيرًا بطلقة بائنة، مع زفرة حارة خرجت من صدر الرجل الذي تتقاذفه الدهشة: «تذكرين!».

رنَت إليه عاقدة مع الصمت اتفاقًا أطول، لم تنفِ ولم تثبت، تركته أمامها يتبدل، تمامًا كما أخبرها «مطر» أنه سيفعل.

لانَت نظرته وتهادت فوق قسماتها، تفتش عن أثر المرأة التي كانت عليها؛ المرأة التي غزلت من أجله كنزة من الصوف البني، دون أن تخبره بأنه المهدى إليه، تركته يتقلب بين خوف ولهفة، كما تفعل الآن عمدًا.

اختزل المسافة بينهما لخطوة، وقد كانت من قبل تبدو باتساع مدينة، وارتفاع جبل، اختزل كل مساحات الغياب، وليالي الأرق، وسنوات الانتظار، أمسك بكتفيها يشد عليهما بقوة شريد عثر أخيرًا على وطنه.

- أنتِ هنا.. أنتِ هنا حقًّا.

أرخى درعه، وأطلق الشوق يمرح في ساحات اللهفة، كأنها بتلك العبارة السحرية خلعت رداء المرأة البعيدة الناسية، وصارت تلك القريبة التي تتذكر. استحال الألم إلى نبرة، عزف عليها بقوله: «لماذا تركتِني؟.. أخبريني السبب.. أي سبب.. سأقبل به.. سأصدق».

لم يكن رجلًا لئيمًا حاقد القلب كما ظنت، كان يائسًا يقاسي جرحًا غائرًا في قلبه. وكل ما يريده هو أن ينسى، بكلمة هشة منها، تبرير هارٍ وإن خالف المنطق.

تخدعه، تخجل لأنها تفعل، لكنها مثله، في توقٍ لأن تستعيد تلك المرأة الضائعة بين دروب العتمة، ولم يكن من سراج منير سوى كلماته التي تهتدي بها، ومعها.

- لم أرحل بإرادتي.

لا تعرف إن كانت صادقة أم تُسمِعه بُهتانًا وكذبًا، هذا ما نطق به لسانها، أو لعله قلبها، لا تعرف.

- هل تعرفين كم انتظرتُكِ رغم كل ما فعلتِه؟.. هل تعرفين شعور أن يكون المرء مُحبًّا ومبغضًا في الوقت نفسه؟.. كان داخلي يتمزق، وما يزال يتمزق.. لماذا رحلتِ؟ لماذا دمرتِ كل شيء خلفكِ؟ رأيتِني أحترق وسط الدار.. كنتِ هناك.. أعرف.

كان مخطئًا حتمًا، يستحيل أن تبادل هذا الرجل حبًّا بقسوة. لم تكن هي بالتأكيد، كما قال «مطر»، العين تخدع.

الباب الذي ولجه، ما عاد قادرًا على غلقه، استمر في حديثه يسترسل: «اشتقتُ إليكِ منذ عرفتُ للشوق اسمًا.. أما أنتِ فنسيتِ.. لثلاث سنوات طويلة نسيتِ.. ألم تشعري أن ثمة شيئًا غائبًا عنكِ.. ينقصكِ.. ألم تشعري أنكِ تركتِ بعضكِ خلفكِ.. لماذا هجرتني يا «*****»؟».

الاسم الذي نطق به توارى خلف صهيل حصانه الأسود، كأنه ينبه فارسه أن الفتاة الماكرة تغشك، لا تخبرها بالاسم الذي لطالما رددته بلهفة، لا تستحق أن تعرف.

كان لا يزال ممسكًا بكتفيها، يضم ويثبِّت، وللغرابة لم تجد في ذلك غضاضة، كأن هذا مكانهما منذ أن نبتَت للإنسان يدٌ تمسك وتتشبث.

الممسوس الذي أخاف الواحة وحرم الليل على أهلها، لا يخيفه إلا فراقها، وترى في عمق عينيه ليلًا سرمديًّا هي نجمه. الجاذب الذي يشدها إليه كان قويًّا، مباغتًا، كما لو كانت تسقط وسط تربة متحركة في بحر الرمال الأعظم.

كأنها حواء جديدة لم تُخلق قبلها أنثى، وهو آدم الذي نبتت من ضلعه الأعوج.

لم يكن ما بينهما حبًّا شغوفًا، أو تَيمًا وهيامًا وجوَى، أو هوى تواقًا للذة، هذا ما تعيه الآن، كان شيئًا أكبر. أحبت أن تكون المرأة التي تستحق أن تُحَب، وتُنتظَر، رغم أنها الهاجرة التي فتحت في القلب جرحًا.

- هلا نزعتَ اللثام؟

كانت في توق شديد لأن ترى وجهه، يساورها شعور قوي أنها برؤيته ستتذكر. حتى وإن لم يكن وجهًا كامل المعالم، تشوهه آثار حرق أرعن. بينما أصابت أناملها رعدة أخذت طريقها إلى وجهه، تمسك بأطراف اللثام دون ممانعة صاحبه، وقف بين يديها رجل طيع اشتاق لأن يتبدى أمام عينيها دون أقنعة.

- أريد أن أرى وجهكَ بعد كل هذا الفراق.

جهلها بما ينتظرها خلف اللثام، دفعها لأن ترنو إليه متوجسة، حيرى، تترقب. وشعور بالذنب يلازمها، لا تعرف كيف فطن لخدعتها قبل أن تنزعه، ربما لأنه يعرفها حقًّا.

ترك كتفيها فجأة، دفع كفها بسرعة مباغتة، ثم نهرها: «لم تتذكري شيئًا!».

على العكس منه لم يمسها السخط، كانت فرحة لأنه عرف ما تخفيه بنظرة، يحفظها كخطوط كفه، يعرفها حقًّا.

- من الذي أخبركِ عن حبات البندق؟

سأل بغضب متنامٍ يجتاح صدره، تفور الدماء في عروقه، وينسف الحنين نسفًا، مسك برأسه، وضرب عمودًا خشبيًّا بقبضته وصاح هادرًا: «هو من أخبركِ.. التقيتِ الأحدب».

لم تفهم سر هذا الغضب العظيم الذي أحرق الهدوء الذي سبقه. لماذا يزعجه لقاؤها مع «مطر»؟ لم يجرم الرجل في حق أحد.

- انتظر.. سأخبركَ بما حدث.

لم يدع لها فرصة للتوضيح، تابعت حركته الدؤوب المنفعلة بقلب واجف، وحيرة متنامية، ودهشة، استحالت إلى شرارة غضب عندما نعتَ «مطر» بالأحدب، لا يستحق أي إنسان أن يُنعَت بمنقصة في جسده، أو بما يبغض في نفسه. لا يستحق «مطر» هذا أبدًا.

- الرجل الذي تتحدث عنه له اسم.. وهذا الاسم هو «مطر».. أخبركَ في حال لا تعرفه.

- أعرف اسمه اللعين جيدًا.. كيف لي أن أنسى؟

انتقل انفعاله إليها كعدوى، لم تمرر له ما قال بسهولة، جابهته محتدة: «لعين؟.. لماذا تقول هذا عن «مطر»، لم أرَ رجلًا يحمل قلبًا مثله، شفاف كالماء الرائق لا شيء يُعكِّره».

كانت كل كلمة توقد جمرة لغضبه، لاحظت كل ذلك بعين الدهشة. لماذا يحمل كل هذا النفور تجاه الرجل الذي لم ترَ منه إلا خيرًا؟

ترك بينهما مسافة أكبر، كأنه لا يحتمل البقاء قريبًا بينما تتحدث عن الأحدب، يقول بكلمات لها شفرات حادة، تشق وتجرح: «هذا الأحدب الذي لم تَرَي رجلًا مثله، هو الذي عاون ساحرة الغابة على سحري».

وقفت ذاهلة مما تسمع، تقلب كلماته في رأسها، فلا تصدق ولا تقتنع.

- مستحيل، «مطر» لا يفعل ذلك.

- رأيته بنفسي، رأيت ملابسه وظهره، لا أحد غيره في الواحة لديه ظهر أحدب.

- أقول لكَ مستحيل، كيف لكَ أن تصدق ذلك؟ أنتَ لا تعرف «مطر» جيدًا.

عند هذه النقطة لم يتحمل. دفاعها عنه، وثقتها به، كانا كالخنجر في ظهره. رفع سبابته أمام وجهها يصول ويجول ويحذر: «أعرفه أكثر مما تظنين، إياكِ أن تخبريني من أعرف ومن أجهل، أنتِ لستِ فردًا من أهل الواحة، لستِ أحدًا».

أطاح بكل ما طالته يداه من أغراض، قذفها صوب الجدار، بينما يصيح ويهدر. ثم غادر الحظيرة بالصخب نفسه، يعنف الحراس على شيء فعلوه، أو لم يفعلوه، ويدفع من يقف في وجهه.

لم ترَ من قبل غضبًا كالبركان، يثور بغتة، ويقذف حممه الملتهبة. لم تصدق أن لـ «مطر» يدًا في سحره، كما لم تصدق أنها تركته وسط النيران دون أن تتحرك.

أخبرها «مطر» أن العين تخدع، لا بُد أن السحر الذي أكله «رعد» هو الذي كان يُهيئ له مشاهد مزيفة لم تحدث؛ تبعده عمن يحبونه، ويهتمون لحاله.

كل شيء يبدأ بالسحر وينتهي إليه.

شعرت أن عليها الآن أن تضيف ثقلًا إلى ميزان «رعد» المختل، وتُحدث فرقًا.

على هذه الحكاية أن تنتهي بطريقة أجمل.

***

(2)

- هل لدينا في الواحة زفاف قريب؟

كانت «سلام» مبتهجة للخبر الذي تسرب على استحياء، كأنه بذرة في طور الإنماء، تحب الأفراح وليالي السامر التي تسبقها.

- عمك «طوفان» سيتزوج بالرابعة، أعرف العروس، هي من أبلغتني الخبر، ما زال الأمر طي الكتمان، لا تخبري أحدًا يا «سلام».

بُهتت لِما تسمع، لوهلة ظنت أن المرأة تمزح، ولما تأكدت من جديتها غادرت مجلسها في عجالة.

كيف له أن يتزوج؟ ألم يخبرها عن قلب يفيض بحبها، وأنها سره الذي طواه طويلًا إلى أن كشفت ستره؟ كيف يتخطى ذلك ويقرر الزواج بسرعة كأن شيئًا لم يحدث؟

لم تشعر بالطريق رغم طوله، ولم ترَ أمامها أحدًا رغم الزحام. بينما وقفت أمام المعصرة تراقبه عبأ السائل الزيتوني لزبائنه، وعندما رآها كلف غيره بالمهمة، وأتى صوبها حاملًا قدرًا من زيت الزيتون في وعاء.

- أول عصرة.

يعرف أنها تحب زيت العصرة الأولى، الذي يكون لاذعًا، وقويًّا، تناولته منه متبرمة، ومنزعجة.

- ما بكِ يا «سلام»؟

بذلت جهدًا لتهدئة أنفاسها المتسارعة، وقلبها الذي ينبض رجفًا. قالت: «بين «هلال» وزوجته مشكلة، لجأ إلى «أم الرمال» بحثًا عن حل عندها، لكن الوضع تفاقم أكثر، لا تخرج «فلك» من الدار وترفض استقبال الزوار، هلا تحدثت إلى «هلال»؟ يبدو أنه بحاجة إلى المساعدة».

التهبت أعصاب «طوفان» بدوره، هز رأسه قائلًا بحدة: «هذه المرأة تفسد ولا تصلح».

- «أم الرمال»؟ لا أظن، الجدة طيبة جدًّا.

ببسمة هازئة أنهى الحديث عن الجدة، ثم أعاد سؤاله عليها، ولا يزال القلق يساوره: «ما بكِ يا «سلام»؟».

لم تكن مشكلة «هلال» هي مصدر عبوسها، ثمة سبب آخر، سبب أكبر. دقت بأظفارها فوق وعاء الزيت، ثم تحاملت كي تقول كلمة واحدة: «ستتزوج».

استوقفه الانزعاج الذي أبدته، ولوهلة انشرح لهذا صدره، أردفت منفعلة: «فقط لا أستطيع أن أتخيل أنكَ منافق لهذه الدرجة».

- منافق!

- نعم، لك وجهان تخفي كلًّا منهما عن الآخر، أو ربما أكثر.

انتقل إليه سخطها، لم يكن ناقمًا عليها، بل على «أم الرمال» التي وضعته في هذا المأزق.

- أخبرني حقًّا لماذا تتزوج؟ في كل مرة لا تكون سعيدًا بعروسك، لا تشعر بوجودها حتى، كأنكَ مجبر.

هل كانت مشاعره واضحة إلى هذا الحد؟ أم أنها فقط عين «سلام» التي تهتم لأمره منذ أن تعلمت الاهتمام؟

- ثمة أشياء لا تعرفينها.

- وأنا أريد أن أعرف، لأن الخيار الآخر هو أن أراك رجلًا منافقًا لا ذمة له.

سخط مرة أخرى على الجدة، وحلولها التي لا تنجح في شيء سوى إفساد حياته أكثر فأكثر. لم يكن إخبارها بكل هذا سهلًا، ربما لأنه لم يعتَد أن يسكب نفسه أمام أحد، أن يفسر، أن يتوجع. «طوفان» المفوه في المجالس والساحات لم يعثر على طرف الخيط الذي يستهل به الحديث عما تفعله به «أم الرمال». خاف أن يبدو ضعيفًا في عينَي «سلام»، أن تظن أنه هش يرضخ.

- حسنًا، سأرحل.

- انتظري.

استوقفها بلهفة، لن تذهب بهذه الصورة التي كونتها عنه في رأسها، التي لا تشبهه في شيء.

- كانت تهددني، إما الزواج وإما تفضح سري.

- من التي تهددك؟

- ومن غيرها؟ «أم الرمال».

وقفت أمامه مشدوهة، لا تصدق أن الجدة تؤذيه بهذا الإصرار المفرط. ليس وحده، بل ونساء لا ذنب لهن، ولسن طرفًا في الحكاية، أُقحمن بداخلها من غير دعوة.

- ألهذا السبب ستتزوج؟ لأنها تهددكَ؟

- ليس لأنني أخاف لأجلي، بل لأجلكِ، إذا أفشت تلك المرأة سري لن تتوقف ألسنة الناس عندي، سيتردد اسمك فوق لسان كل طيب وفاجر بالواحة، وأنا لن أسمح لمكروه أن يصيب «سلام».

رنَت إليه بنظرة مختلفة عن التي أتته بها؛ امتنان، وتقدير، وأشياء أخرى ليس من بينها ما يكره. بينما تهدج صوتها رددت بخفوت: «لأجلي!».

- صدَّقتُ أن الطريقة الوحيدة لانتزاع مسمار هي الاستعانة بمسمار آخر.. جربتُ وعرفتُ أن الجروح التي تتخلف عن ذلك أكبر من تلك التي كانت موجودة من البداية.

- ما ذنب تلكن النسوة؟.. كانت كل منهن تسعى لبناء حياة مديدة معكَ، لا تعرف أنها مسمار تستخدمه لنزع آخر، ألم تفكر في الظلم الذي توقعه عليهن؟

- فكرتُ، كثيرًا، صدقيني حاولتُ أن أتأقلم، سعيتُ لأن أنسى أن لي قلبًا، إلا أنه لم يسكن لحظة.

شدت بأناملها على هديته، ثم قالت تناشده: «لا تكرر الخطأ إذن، لا تظلم امرأة أخرى».

فكر لوهلة، ثم هز رأسه، يزفر بقوة: «لا أستطيع الرفض يا «سلام»، ستخبر الجميع عني، سينبذونني، سيخرجونني من الواحة إلى الجبل الأسود، كل هذا لا يهم، لكن لن تتوقف ألسنتهم عندي، سيطالك أذاهم أيضًا، سيؤلفون الحكايات وستصبح تلك الحكايات هي فاكهة المجالس، لا أرضى لكِ بهذا».

ثم هزَّ كتفيه بعصبية قائلًا من غير قناعة تُذكر: «سأتزوج، سأحاول هذه المرة أن أتأقلم».

- ثمة ما تجهله.

تطلع إليها متسائلًا بريبة، فقالت بنبرات محذرة: «زوجتك الأولى ألمحت لي أنها تعرف، قالت نصًا، إن تزوج الرابعة سأكشف سره».

صار بين فكَّي المطرقة والسندان، إحداهما ستفضحه إن تزوج، وأخرى ستذيع سره إن لم يتزوج. لم يسبق له أن شعر بكل هذا العجز، والقهر، وقلة الحيلة.

تطلعا إلى بعضهما بترقب من ينتظر الكارثة، عندئذ بينما اتسمت قسماته بجدية بالغة قال لها: «اسمعيني إذن، إذا حدث ما أخشاه عندئذ ستقولين للجميع إنكِ لا تعرفين شيئًا، ستندهشين، وتثورين، وتسبينني معهم، إن قال عني مخلوق كلمة ستزيدين بعشرة، اطمئني لن أغضب منكِ، أسامحكِ من الآن حقًّا».

أنهى كلماته بقسمات منبسطة، تغفر الذنب قبل أن يحدث، تساقطت عبراتها متتابعة، وتحشرج صوتها يختنق بكلمات لم تُنطق.

احتشدت مشاعرها في كلمة واحدة، بحروفها الخمسة.

- «طوفان»!

همست باسمه منفردًا ومتخففًا من ألقاب لم تكن على مقاسه. طاف البِشر فوق وجهه، يشعر أنه لم يسمع اسمه قبلًا، كأن اسمه خُلق للتو، لا قبل ذلك ولا بعده.

تطلعت إلى الناس من حولها، ثم ركضت صوب الدار تهرب، تضع كفًّا فوق القلب الذي ينبض، لا تعرف لماذا هنا والآن يتزعزع.

***

- كيف تفعلين هذا بـ «فلك»؟

وقف «هلال» في مجلس «أم الرمال» يغلي غضبًا، عندما لجأ إليها حسب أنه يلتمس عندها حكمة، لكن ما آلت إليه الأمور صعَّب موقفه. دقت الأرض بعصاها تقول بقوة: «هذا علاج مشكلتك».

لجم «هلال» غضبه توقيرًا واحترامًا وقال بسخط مكظوم: «كيف يكون تعنيف زوجتي أمام نساء الواحة علاجًا لمشكلتي يا جدة؟».

أشرت «أم الرمال» صوب الأريكة وقالت بحنكة: «اجلس يا «هلال»».

بينما امتثل وإن كان غير راغب في الجلوس، استطردت: «اسمعني يا بني.. لا يخفى عليكَ أنني لم أجد «فلك» مناسبة لك من البداية، أحببتُ لكَ الزواج بابنة عمك «سلام»، لكنكَ ظللت تتحدث عن القلب الذي لا يتحرك،

المهم، اسمع من امرأة معمرة ومجربة، الحياة التي يسيِّرها القلب تفسد سريعًا، عليك أن تستخدم عقلك فقط.. لماذا فعلتُ هذا بـ «فلك»، تسألني؟ لأنها فتاة طائشة لا ترى الواقع ولا تعيشه، فتاة معجونة بالخيال تحتاج إلى صفعة، لم أحضرها إلى مجلس النساء كي أهينها، لا يا بني لم يكن هذا ما أضمره في صدري، أتيتُ بها لتُسمِعها النساء حكاياتهن الخاصة والعقبات التي واجهنها في بداية الزواج، لتفهم أن الحياة على الأرض غير التي نعيشها وأيادينا بين السحاب».

- لكنها تبكي منذ أن عادت، لم أرها في هذه الحالة من الحزن من قبل.

- الحياة مرة كالعلقم، لن تسكب الخبرات في أفواهنا بملاعق مغموسة بالسُّكر، عليها أن تنضج قليلًا، وتكف عن هذا الدلال الذي يفسد، عليها أن تتعلم كيف تكون امرأة حقيقية، إن لم تخبرها أمها كيف تصبح زوجة جيدة، فـ «أم الرمال»، أم الواحة كلها كفيلة بدور المعلم.

- كان بإمكانكِ محادثتها على انفراد يا جدة.

- كي تتدلل وتتغنج وترد الكلمة بعشر؟ صدقني يا بني زوجتكَ كانت تحتاج إلى صفعة.

فارقها وهو في حيرة من أمره، ما يزال منزعجًا من الطريقة التي اتبعتها، وفي الوقت نفسه يفكر في حديثها المستفيض وتبريرها لما فعلته.

وعندما كان على مشارف الطاحونة، وجد عمه «طوفان» في انتظاره، لم يتحدث معه منذ شجارهما الأخير بعد أن طلق خالته «مندورة». بادره «طوفان» مندفعًا تجاهه: «هل أنتَ أحمق يا «هلال»، لماذا تخبر الناس عما يدور في دارك؟».

لم يكن «هلال» في مزاج رائق للحديث عن هذا الأمر، وبخاصة مع «طوفان» الذي تدور الشائعات عن زواجه القريب المدبر.

- ليس الآن يا عمي.

- بل الآن يا أحمق.

بينما سحبه «طوفان» إلى شجرة قريبة استظلا بأوراقها الوارفة أردف بحدة: «هل تريد إفشال زواجك قبل أن يبدأ؟ هل هذا ما تسعى إليه؟ إن كان الأمر كذلك فأحسنتَ يا «هلال» أنتَ تسير في أقصر الطرق المؤدية إلى ذلك».

- أنتَ آخر من يتحدث عن الزواج الفاشل يا عمي.

تجاهل «طوفان» ما سمعه من كلمات هازئة، ولف أنامله حول رقبة «هلال» يستطرد: «أريد لكَ الخير يا أحمق، أخطأت حين أفضيت بما في صدرك إلى امرأة تحول المشكلات إلى درس وعبرة، قد تكون «أم الرمال» امرأة حكيمة في نواحٍ عدة، لكنها لا تنظر إلى قلوب الناس يا «هلال»، لا ترى هذا الضعف الذي يتخلل تكوينهم، لا تفهمه، ولا تحترمه، قد تكون امرأة مجربة تملك خبرات تفوقنا عددًا، لكنها تريد من حولها بشرًا لا يخطئون، مسيرين بآلية وفق قوانين الواحة وعاداتها، تريد منا أن نكون نسخًا متطابقة يُتعامَل معها بكيفية واحدة».

- لمن ألجأ إذن؟

- إلى من يرى الاختلاف بين البشر نوعًا من التفرد، إلى من يسمع من الطرفين ثم يحكم، إلى من تتوجه إليه غاضبًا فيطفئ هذا الغضب قبل أن يحرق.

زفر «هلال» بقوة قائلًا بيأس: «لا أعرف ماذا أفعل، تبدو الحياة بعد الزواج مختلفة كثيرًا عما تخيلتها».

- وهذه مشكلتك، لم تتهيأ لهذه المرحلة بشكل كافٍ، ظننت أنك ذاهب مع أصدقائك في نزهة، لا يتطلب الأمر سوى طعام وشراب وغطاء وفَرشة.. الزواج ليس دارًا تُبنى يا «هلال»، بل حياة تُزرَع، بذرة بذرة، ونبتة نبتة، يلزمها عمل ووقت ومشقة، تنجح مرة، وتخفق مرات، ثم تتعلم كيف تنجح، لا تنتهي الضغوط على عتبة ليلة الزفاف ثم يبدأ المرح، بل هي في الحقيقة تبدأ.

- ولماذا لا تكون الحياة بسيطة، هادئة، تسير وفق خطة؟

- لأنها حياة لها تاريخ صلاحية، وليست خلودًا وأبدية، والحياة تسيِّرها الرياح، والرياح مختلفة درجاتها، تهب من المشرق كما تهب من المغرب، لو تمكنت من تسيير الرياح وفق خطة، عندئذ ستتجمد الحياة في طريق مصمت.

- أيقول هذا رجل فشل في ثلاث زيجات متتالية؟

- بل يقوله رجل يحبك، لا تلقِ بالنصيحة خلف ظهرك لأن قائلها لا يعجبك، خذ الحق وإن كان من فم عدوك.

- ماذا يجب أن يحدث الآن؟

- اذهب إلى دارك، تحدث مع زوجتك، واكتشفا معًا ماذا يجب أن يحدث.

أنهى «طوفان» حديثه ثم تولَّى، تاركًا من خلفه «هلال» المتخبط في همه.

***

- اذهب من هنا فورًا.

صاحت «فلك» في وجه «مشتاق» بشعره الأشعث، يطالعها من وراء نافذة دارها، يرفض الانصراف ويصر قائلًا: «أريد أن أطمئن عليكِ، انظري إليَّ».

بينما كانت يداه ترتجفان تحدث: «لا أستطيع أن أهدأ منذ أن عرفتُ ما فعله الحقير زوجكِ».

تتجدد بداخله مشاهد لأمه، تتألم وحدها وتبكي، بينما أبوه يمزق الآذان بصوته الجهوري، يصرخ ويسب ويعنِّف.

تخفي أوجاعها عن الزائرين، وتتظاهر أن شيئًا لم يحدث، تمامًا كما تفعل «فلك» الآن، محاوِلة إقناعه أنها بخير، وأن عليه أن يذهب.

- أرجوك ارحل من هنا، سيراك أحد، يكفيني همي.

- لم أجدكِ بسهولة حتى أتركَكِ.. أنتِ تستحقين حياة أفضل.

تبكي وتستحلفه أن يبتعد عن النافذة كيلا يوقعها في مصيبة أكبر. يستجيب لا لشيء إلا لأن خطة الإنقاذ التي أعدها أوشكت على الاكتمال. توجه إلى الشجرة القريبة وأخرج الهاتف الذي أخفاه بين غصونها، وأعاد تشغيل الفيديو الذي التقطته العدسة قبل قليل.

صار بإمكانه أن يجبر زوجها على تركها، يعرف جيدًا الرجال الذين على شاكلته، يهتمون بصورهم أمام الناس، أكثر من حقيقة جوهرهم.

سيتركها زوجها مرغمًا حفظًا لكرامته وماء وجهه، ويخرج بها «مشتاق» من الواحة، هربًا من هذه الجحيم المستمرة.

سيتخير بقعة جديدة لم تطئها قدماه يومًا، يعيش فيها مع ذات الضفائر الذهبية عمرًا هانئًا، وينجب أطفالًا يجهلون ما تعنيه الخراطيم البرتقالية.

تفكر «فلك» في المجنون الذي يرفض الابتعاد عنها، كأن نهاية العالم حلَّت وهي آخر من تبقَّى. تتذكر ما قرأته أمها في طالعها، عن الخير الذي يجب عليها ألا تصده.

تتشوش أفكارها، تصدق بنصف عقل أن «مشتاق» هو الملجأ، والمهرب الوحيد من الواحة التي تخنق أحلامها في المهد، وتضيق الخناق عليها يومًا بعد يوم، هكذا يقول طالعها.

تسمع طرقات على الباب فتنتفض «فلك»، وما إن يبلغ سمعها صوت أمها حتى تطمئن وتفتح. لم تكد ترحب بها حتى انهالت أمها فوق وجهها بصفعات تترى.

- يتحدث الجميع عن ابنة قارئة الصخور التي لا تعرف كيف تكون زوجة.

تبكي «فلك»، ترجوها أن تتوقف، يعمي أمها غضب مستعر، يدفعها لأن تفرغه فوق جسد ابنتها المنهك.

تصيح «فلك» مستجيرة بأناس لا وجود لهم، تحمي وجهها بكفيها، وتنزوي في ركن قصي تبكي.

ترى انفراجة في يدين تحاولان نزعها من براثن أمها نزعًا، وصوت حاد يهتف: «اتركيها، ماذا تفعلين؟ ابتعدي عنها».

تتعرف على صوت «هلال»، تفتح عينيها على اتساعهما، تتشبث به، تحتمي خلفه. تحاول أمها جذب شعرها وضفائرها العشر. يقف «هلال» كالدرع أمامها لا يسمح بيدها المعتدية بالوصول إليها، فتتشبث «فلك» به أكثر.

يطلب من أمها المغادرة، ويصر على ألا تتدخل، فترحل سريعًا مع وعيد تلقيه على أذنَي «فلك». يغلق من ورائها الباب، ويمسك بـ «فلك» التي تخونها ساقاها فتهوي. تبكي بحرقة، كأن مخزون العالم من الدم يصب في عينيها، يمسح عن ذراعها قطرات الدم التي سالت، ويلملم الرداء الذي تمزق.

- آسف يا «فلك»، لم أظن أن الأمر سيصل إلى هنا.

لم تكن بحاجة إلى حديث مكرر، أو أسف لن يبدد من أوجاعها شيئًا، هذا ما فكر فيه حين أحاط بها معانقًا بشدة، دون أن يطالبها بألا تبكي.

تخفت حدة نشيجها ما إن يدندن بموال اعتاد أن يُطرب به الشباب في ساحة المرح. تجذبها الكلمات التي تحكي عن امرأة تطوف العالم بحثًا عن مرآتها، إذ فقدتها في عاصفة أذهبت بدارها. حُرمت من رؤية نفسها منذ العاصفة، ولم تعثر في مدن العالم على واحدة مثلها، ومنذ ذلك اليوم عبس وجهها ولم يضحك.

إلى أن جاء رحالة اعتاد أن يجوب الصحراء وقد استقر عند سفح جبل، سألته إن عثر على مرآة كانت ترى فيها نفسها، وما إن نظر إليها الرحالة حتى

شعرت بقلبها يتحرك، وأنفاسها تتهدج، وحنين إليه يشدها. منحها نظرة مطولة سخية، وفي مقلتيه رأت وجهها يلمع بسعادة لم تعكسها مرآتها يومًا.

يتوقف نشيج «فلك»، إلا من رجفات متفرقة، يرتب «هلال» شعرها المشعث، ويخبرها أنه يحب ضفائرها حين تزداد عددًا، وعندما يستيقظ على عينيها العسليتين يشعر أن الشمس أشرقت على الدنيا مرتين.

ترفع رأسها وتنظر إليه مستطلعة، بحيرة بالغة كأنها تراه لأول مرة، وفي مقلتيه ترى انعكاسًا صغيرًا لنفسها، كتلك المرأة التي فقدت مرآتها، ووجدت انعكاسها أجمل في عين رجل مغرم.

يقودها إلى غرفتهما، ويتركها تنعم بنوم حُرِمت منه يومًا وليلة، ثم يتمتم قائلًا: «عندما تستيقظين سيكون لدينا الكثير لنتحدث بشأنه».

***

في قاعة القرار بينما يسمع «رعد» طرقات فوق الباب، يأذن للقادم بالدخول، يوليه ظهره، ويتطلع صوب السماء المتبدية من فتحة جدارية واسعة.

لا يسمع صوتًا فيلتفت، يباغَت، ويندهش، تقف أمامه «صدف» باضطراب ملحوظ، وفي يدها قارورة صغيرة، موضوعة فوق قطعة قماش من المخمل.

- هل تحتاجين إلى شيء؟

يتزايد اضطرابها، تزامنًا مع سؤاله عن «قوس»، وما إن كانت تبحث عنه. تدخل الساحرة، وتقول ما عجزت عنه ابنتها.

- سيدي، ابنتي الماهرة أعدَّت لأجلك دواءً شافيًا، أكثر قوة وتأثيرًا من تلك القوارير التي أعدها بنفسي.

شبك كفيه خلف ظهره ولا يزال حائرًا، مترددًا في ردة الفعل التي عليه أن يبديها.

- هل هي أيضًا ساحرة؟

- ساحرة متمرسة علمتها منذ أن كانت رضيعة في المهد، لكن أباها كان يمنعها من ممارسة ما تجيده بفنها.. هل تعرف يا سيدي أن هذا الأب الغليظ زوَّجها غصبًا برجل لا تريده ولا يريدها؟

لم تند عنه كلمة ولا حركة، فيما الساحرة تردف بنبرة ذات مغزى: «لكنها ستحصل على حريتها قريبًا، والآن بما أن النوبات أصبحت تصيبك على فترات

متقاربة، صرتَ تحتاج إلى ساحرة ماهرة تلازمكَ، ولن أجد لكَ مطببًا خيرًا من ابنتي الحبيبة «صدف».. هي أيضًا تجيد معالجة الجروح وصناعة السلال، ابنة أمها متعددة الموهبة».

رأته يطرق برأسه مفكرًا، فتهامست بعقل يدبر: «خطتي تسير بشكل ممتاز».

لم تستطع «صدف» حمل القارورة أكثر، رغم أنها لا تزن إلا جرامات معدودات، باتت ثقيلة جدًّا كأنها تحمل بين يديها صخرة صماء ضخمة، تشكلت لتكون هضبة.

نظر «رعد» بتردد إلى القارورة الموضوعة فوق الطاولة، ثم أومأ برأسه شاكرًا دون كلمة. وعندئذ انصرفت الساحرة، ساحبة «صدف» التي عجزت ساقاها عن الحركة لفرط رجفتهما، عنفتها بشدة: «لماذا لم تتحدثي عن مهاراتك كما اتفقنا؟ هل قطعت ساحرة الغابة لسانكِ؟».

كرهت ضعفها، ومن بعده نفسها، والخوف المسيطر على قراراتها، خوفها حاضر، سريع التأثير، ترجف كلما رأت أمها أو سمعت لها صوتًا. لا تستطيع بعدُ أن تتحرر، ليست قوية كفاية لتعارض أمها التي تهددها بـ «قوس»، الرجل الذي لا يستحق أن يؤذى.

- لن يسامحني «قوس» أبدًا.

قبضت أمها على معصمها وسحبتها إلى غرفتها، غلَّقت الأبواب وقالت لها محتدة: «انسي هذا الرجل، أخرجيه من عقلكِ وابني معي مستقبلًا مشرقًا يليق بنا».

- لا أريد مستقبلكِ هذا، أريد «قوس»، ألا يمكنكِ أن تحبيني فقط لأنني ابنتكِ، دون أن أسير معكِ في الطريق الذي اخترتِه».

- إما أن تطيعيني وإما تنسي أن لكِ في الجبل أمًّا.

ثم تردف بقسوة: «سبق وأن سرتِ معي، ما عاد بإمكانكِ التراجع، كما قلتِ، لن يسامحكِ «قوس» أبدًا، سيتأكد الآن أنكِ ابنة أمك».

في غرفتها بكت بحرقة، تلوم نفسها كلما طاف «قوس» بخيالها، لن يغفر لها إعدادها لمشروب سحري مع أمها، من طلاسم معقدة. نفثتا فيه بأنفاسهما معًا، ثم قدمته إلى صديقه الذي يحب، زعمًا أنه دواء ناجع لسحر معقود بناصيته.

بينما الحقيقة أنه يزيده وهنًا على وهن، ليظل بحاجة إلى ساحرة الجبل!

التي فشلت تمامًا في شفائه من السحر الذي أكله على يد ساحرة الغابة، سحرًا بقوة لم تختبرها من قبل.

لن يتفهم «قوس» خوفها، لن يتجاوز تلك الزلة، تعرف «قوس» من حديث أبيها عنه؛ رجل يصون الأمانات، شهم أصيل، عطوف كريم، إذا أوصد قلبه أمام أحد لخطأ رهيب اقترفه في حقه دون سبب مقنع؛ لا يفتحه مرة أخرى بعدها، يلفظه قلبه أمدًا.

تساءلت في حسرة: «هل خسرتُ «قوس» حقًّا؟».

***

جلست الفتاة التي لا تتذكر اسمها حول طاولة الطعام، يؤرقها ما حدث في الحظيرة، تعبث بالملعقة في طبقها دون شهية.

تخرِج من جيبها ثلاث حبات من البندق أبقت عليهم، تحاول أن تستنبط ما تعنيه تلك الحبات الصغيرة، التي مهدت لها ممرًّا سحريًّا إلى قلبه، مكَّنها من رؤية «رعد» آخر غير الذي تعرفه؟

يخفيه بداخله، لا يظهر إلا حين يطمئن إليها.

كان المطبخ مزدحمًا، والأصوات فيه صاخبة فأمرتهم الطباخة أن يلتزموا الهدوء قليلًا. جاورتها «فضة» حول الطاولة تسألها إن كان الطعام لم يرُقها، فقالت بسرعة نافية: «بالعكس مذاقه طيب».

- لماذا لا تأكلين إذن؟

- لا شهية لي، ربما آكل لاحقًا.

ظلت جالسة إلى أن تسربت الفتيات من المطبخ رويدًا، وخلا إلا منها و«فضة»، ألقت على الطباخة تحية المساء ثم توجهت إلى غرفتها تتجهز لسهرة طويلة يجافيها فيها النوم ويرافقها الأرق. تبعتها «فضة» ترنو إليها بنظرات مشفقة، رحيمة، أمومية، ثم قالت ما يبدو أنها فكرت فيه طويلًا: «قلتِ أنكِ بحاجة إلى شيء يساعدكِ على التذكر».

- لا تعرفين شعور أن يجهل المرء منا نفسه.

- لا أعرفكِ كما أخبرتكِ، لكن حديث «صدف» معكِ في المطبخ ذكرني بشيء سمعته.

أقبلت نحو الطباخة بلهفة، ترجوها أن تخبرها بأي شيء مهما بدا على بساطته، فاستطردت «فضة»: «قالت «صدف» إنكِ بدوتِ كأنكِ تهربين إلى الواحة، تحتمين بها من شيء ما».

- نعم، قالت ذلك.

- حسنًا، هذا ما سمعتُه من القاضي أيضًا، عندما كان يعيش في الواحة قبل الحريق، قال إنه فتح لكِ داره لأنكِ لجأتِ إلينا، وأن الشهامة تحتم عليه أن يحميكِ.

- ممن يحميني؟

- من رجل يطاردكِ.

- ماذا فعلتُ ليُطاردني؟

- بينكما قضية دم، يريد قتلكِ.. هذا ما أخبرني به القاضي حين سألته عن سر إصراره على إبقائك في الواحة من غير رغبة أهلها.

- من يكون هذا الرجل؟ ولماذا يريد قتلي؟

- هذا كل ما أعرفه، صدقيني.

ألجمتها المفاجأة، كان لها وقع مزلزل أفقدها اتزانها، فجلست فوق الفراش متخبطة، حتى إنها لم تسمع «فضة» التي تحدثت قليلًا بحنو قبل أن تخرج.

هل هذا ما جعلها تلجأ إلى الواحة؟ تحتمي بها من رجل يطاردها ويرغب في قتلها بسبب قضية دم بينهما؟

كان هذا أشق من أن تحتمله.

هبت تذرع الغرفة مجيئًا وذهابًا بعصبية، على «رعد» أن يشاركها بكل ما يعرفه عنها، يساعدها ويثق بها مرة أخرى. ولن يحدث ذلك ما دام يصدق أنها خذلته وتركته يحترق عمدًا، لن تنفعها شفاعة «مطر» إذ يظن أنه أذاه بدوره، وجلبه إلى ساحرة الغابة بنفسه.

لا حل سوى أن ترفع الغمامة عن عينَي «رعد» بنفسها، ليرى الحقيقة كما هي، دون أقنعة، بلا مراوغة. ولا سبيل لذلك إلا بإبطال مفعول السحر الذي أطعمته إياه ساحرة الغابة.

كل شيء يبدأ وينتهي عند تلك المرأة الآثمة.

لفت بعجالة شالًا حول كتفها، ثم توجهت من فورها إلى الحظيرة، دنت من الحصان الأسود تمسح فوقه هامسة: «هيا يا صديقي، حان الوقت لأن نكون فاعلًا لا مفعولًا به».

وضعت السرج فوقه، وكررت المحاولات الخاطئة إلى أن نجحت في أن تمتطيه كما ينبغي. تمسكت بلجامه بحزم، وتشده من غير عنف، يسير بها متمهلًا، كأنه يختبر قدرتها على امتطائه. مالت صوب أذنه تهمس: «لا تقلق، سأتذكر، فقد ساعدني قليلًا، اتفقنا؟».

تحرك بوتيرة أسرع، وفي المساحات الواسعة بين الجبل والغابة ركض الحصان بخفة، يستمتع بالشعور الذي اشتاق إليه، وهو يحملها فوق ظهره.

تساءلت في نفسها من قبل إن كانت تجيد ركوب الخيل، الآن صارت تعرف.

انطلقت بالحصان تقوده بدقة ورشاقة فوق العشب الأخضر، صهل بقوة استرعت انتباه «رعد» من الأعلى.

انقبض قلبه من إن رآها تمتطي الحصان وتتوجه به صوب الغابة، حيث أمهر الساحرات حنكة وأشدهن قوة وبطشًا.

لماذا تتوجه وحدها إلى هذا المكان الخطر؟

هل ذهبت هناك لأجله؟

***

وعند البوابة الحجرية التي تفضي إلى واحة زرزورة، ظهر رجل ضخم الجثة، في وجهه جروح متفرقة، لم يُرَ في الواحة قبلًا.

يحمل مسدسًا في طيات ملابسه، يخطو داخل أرضها مفتشًا فيها عن امرأة بعينها.

امرأة هاربة، بلا هوية، جاءت إلى الواحة قبل ثلاث سنوات ونصف؛ تلبس رداءً طويلًا مطرزًا بخيوط حمراء، تلف حول رأسها وشاحًا أسود، وتسدل فوق وجهها برقعًا من خيوط مجدولة شبكية.

تُسمي نفسها بألف اسم مزور، ولا تخبر اسمها الحقيقي أحدًا!

دُنيازاد

لكل ليلة رائحة ونكهة
وحدَث آسِر وآخَر نكبة
نخزنها في بيت الشعور الكبير
كل واحدة في غرفة منفردة
بعض الليالي نتذكرها ككبوة
نحاول محوها فتعاند محتدة
الحياة لا تعطي البشر ممحاة
يطمسون بها الأخطاء بحركة
وبعض الليالي نراها كنزوة
تسبح في فضاء الزمن بلا جدوى
لا شيء في الحياة يسير دون وِجهة
والفوارِغ بالهواء متسعة وممتلئة
وبعض الليالي في جمالها سطوة
وأخرى مفخَرة ومَكرمة وحظوة
أجملها يثير بداخلنا الحنين
ويثير أعاصير الشعور بجلبة!

الليلة الثامنة والثلاثون

هل يمكن لقلبٍ أن يقع في حب الشخص نفسه مرتين، أم أن سريان الزمن، وتغير الذوق، وانقلاب المزاج عوامل طاغية التأثير؟

(1)

خلال السنوات الثلاث الفائتة لم يسبق لها الوجود وسط الغابات.

عاشت حبيسة الكتل الخرسانية الصماء، وأسيرة علو البنيان الذي يحجب الطبيعة عن الأنظار. تبغض السير في شوارع ضيقة، وعبور طريق تتسابق عليه السيارات، وركوب المواصلات، وزحام المحال التجارية.

يزعجها الصخب، والعوادم، والنجمات المتوارية وراء العتمة.

تهرب منهم إلى المكتبة وعالم الكتب، حيث ما تشتهي معايشته، ترشف الخيال على جرعات محسوبة، لا تفصلها عن الواقع، بل تغذيه وتجدد روافده.

ما إن تحرك الحصان الأسود بها داخل الغابة، حتى شعرت بالخفة، وتحررت من أثقال غير مرئية. تتماوج قمم الأشجار بفعل الرياح، تميل صوب بعضها كأنها تتصافح، وتهمس إحداهن للأخرى بما خفي عليها من أحداث جاريات.

اشرأبت بعنقها تتأمل القمر الذي كان بدرًا في تمامه، تصطف من حوله نجمات عاليات الكعب، مشعات البريق، يعملن من فوقها كمصابيح، ينِرن الدرب ويشرن إلى الوجهة.

أبطأ الحصان من ركضه ما إن بلغ أرضًا غير ممهدة، تتقارب فيها سيقان الأشجار من بعضها، يتقدم بحذر، خوفًا على فارسته التي لا بوصلة لها.

لم تنسَ ما قالته «فضة» عن عمق الغابة واتجاهاتها الملتوية كأنها متاهة بالغة الاتساع، كانت قد أحضرت معها مسحوقًا ملونًا يشع في الظلام، عثرت عليه في غرفة المؤن.

شرعت تدس إصبعها في الكيس القماشي، ثم تمسح بها فوق الأشجار التي تمر بها، لتأمين طريق العودة لنفسها، لا نية لها لتتوه في الغابة، وبخاصة عندما يتأخر الوقت، وتخرج الهوام من مخابئها وجحورها.

ثمة رائحة زكية تلوح في الأجواء، منعشة، ومسكرة، لعل مصدرها إحدى تلك الأزهار التي تنبت وسط الحشائش الخضراء؛ زاهية الألوان، متنوعة الأشكال.

توقف الحصان وأطلق صهيلًا عاليًا ما إن بلغ مفترقًا، يتفرع عنده الطريق إلى أيمن وأيسر، لا يتمايز أحدهما عن الآخر في شيء، كأن كليهما يقود للنهاية نفسها.

وقفت حائرة من أمرها، تبحث عن إشارة تسوقها إلى تفضيل أحد الطريقين على الآخر.

وعندئذ حام الطير فوق رأسها.

استجلب صوته انتباهها، طاف ثلاث دورات كاملة ثم طار صوب اليمين، فاستبشرت به واسترشدت. انتهت حيرتها باختيار المسار الذي ذهب فيه الطير، حيث خمنت أنه يحتوي على ماء صالح للشرب، إذ لم تحمل معها أيًّا منه.

فقط سكين أخذته من المطبخ في غفلة من «فضة»، التي كانت تجالس بعض الأطفال حول طاولة صغيرة تعطيهم ما خبزته من فطائر، وتقص عليهم حكاية فارس مغوار يرتدي لثامًا أسود مثل سيد الجبل.

باستثناء السكين، كانت تحتفظ في جيبها بنبلتها وعدد من الحجارة الصغيرة. كان الطريق الذي اختارته ممتلئًا بالأشجار المعمرة، متداخلة الأفرع، سامقة كأنها تلامس السحب، وتتكئ النجمات ليلًا على قممها.

ترنو ببصرها صوب الأعلى وتتساءل: *تُرى فوق أي من تلك الأشجار يختبئ «مطر»؟*

الطريق الأيمن كان يحرسه على الجانبين نباتات عشبية زكية الرائحة، نزلت عن الحصان واقتطفت بعضها.

وعندما بلغت مساحة واسعة تتباعد فيها سيقان الأشجار، جذبت اللجام بشدة، فتوقف الحصان بغتة.

في الميمنة كانت ثمة هضبة بديعة التكوين، أحد جانبيها حلله التآكل، رأتها على ضوء القمر.

متدرجة كأنها خُلقت على مراحل، كل مرحلة في زمن مغاير. نحتتها قوى الطبيعة من رياح ومطر، تجمعت عدة ألوان في بدنٍ واحد؛ أحمر، وأخضر

وأزرق كألوان أساسية، يتدرج بينهم؛ أصفر، وبرتقالي، وسماوي، وأرجواني كأنها قطعة من قوس قزح.

ترجلت عن الحصان وقد انجذبت إلى الهضبة بشدة، لا لجمالها فحسب، بل لأنها تمثل شيئًا مهمًّا، لا تتمكن الآن من تذكره!

طاف بخيالها لحظة أن كانت تتحدث مع الدليل «مسعود» في الفندق، ورأت بينما تتوجه إلى الحمام هضبة متدرجة استرعت انتباهها ولم تتمكن من إشاحة النظر.

الآن تشعر أن الهضبة في الفندق لم تجذبها لجمالها وبراعة تكوينها، بل لأنها تذكِّرها بتلك التي أمامها الآن، فشعورها تجاه الهضبة الملونة كان أقوى وأعمق.

أرادت الاقتراب أكثر، يفصلها عنها جسر طويل من سلمات خشبية، مقيدة إلى بعضها بحبال ثخينة، وأسفل هذا الجسر المتحرك جرف صخري شديد الانخفاض والوعورة، ذكرها بالهاوية بين الجارة السوداء وواحة زرزورة.

مسحت فوق عنق الحصان هامسة: «أليست جذابة؟ أسمعها تناديني، هيا، سنذهب إلى تلك الهضبة أولًا، ثم نستكمل المهمة التي جئنا لأجلها».

تراجع الحصان خطوات صغيرة، ربتت فوقه مطمْئنة: «لا تقلق، سنعثر معًا على ساحرة الغابة، ونبطل السحر الذي أطعمته لسيدك».

رفض الحصان التحرك بعناد، هزمته بأن أخرجت من جيبها مكعبات صغيرة من السكر، رسمت بها طريقًا يصل إلى بداية الجسر.

قادت الحصان صوب الجسر المتحرك، اختبرته أولًا بعدة خطوات بسيطة، بدا متينًا قادرًا على الصمود إلى أن تعبر إلى الاتجاه الآخر حيث الهضبة البديعة.

لم تكن حساباتها دقيقة، كان الجسر معدًّا لمرور الأفراد لا أحصنة مفتولة العضلات ذوات أوزان ثقيلة.

أدركت هذا متأخرة، وذلك عندما بلغت منتصف الجسر تقريبًا، الذي ما فتئ يتأرجح يمنة ويسرة، بينما صوت أنين الألواح الخشبية يعزف سيمفونية مفزعة في الخلفية.

الظلام حالك، والفراغ تحتها يبدو كفم شديد الاتساع، عليها اتخاذ قرار سريع قبل ألا يعود بوسعها الاختيار.

أدركت أن خطورة الاستمرار تتساوى مع خطورة العودة، وفي لحظة حاسمة قررت أن التراجع لن يفيد، وسيحرمها الاقتراب من الهضبة التي تجذبها نحوها بشكل عجيب.

ألقت نظرة خاطفة إلى الأسفل فأصابها الدوار، لم تكررها بعدها، سددت النظر أمامها، وانطلقت بالحصان بثبات ومن غير ركض إلى الأمام، إلى أن بلغت الطرف الآخر بسلام.

وذلك في اللحظة التي سمعت فيها تمزق الحبال الثخينة، عندئذ أدركت بحسرة، أن الجسر لم يعد آمنًا كطريق للعودة.

***

ما إن رآها «رعد» تدخل الغابة على صهوة الحصان الأسود حتى انطلق من فوره إلى الإسطبل، يتخير فرسة بيضاء خفيفة الحركة، رحبت به شوقًا ما إن مسح فوق عنقها بكفه.

قاد الفرسة صوب الاتجاه الذي رآها تسير فيه، قبل أن تختفي عن ناظريه. بغضبٍ ممزوج بالقلق طافت بخياله نهايات شتى، أكثرها فزعًا أن تضل الطريق وتعثر عليها قبله ساحرة الغابة، ثم عاد ليذكر نفسه أنها برفقة الحصان الأسود، الذي يعرف بدوره الطرق التي يجب عدم السير فيها.

- لكنها عنيدة، ستجبره على السير حيث أرادت.

ذكَّر نفسه مرة أخرى بقلب واجف، وعينين تفتشان عنها بين الأشجار الوارفة، وخلف الصخور المتفرقة، يناديها: «أين أنتِ؟.. أجيبيني».

آملًا أن يتلقى صوتها حاملًا حروف اسمه، أو جواب سؤاله، فلا يرجع إليه سوى أصداء كلماته، يتبعها مناديًا بصوت أجش عالي النبرات: «كحيل».

فلا يسمع للحصان صهيلًا!

يفتش عنها مستعينًا بنور القمر الذي يطل عليه بفضول من شرفة الليل، إلى أن انتبه لوجود المسحوق الفسفوري فوق إحدى الشجيرات الصغيرة.

تتبع الأثر الذي خلَّفته وراءها بلهفة وحماس، حتى بلغ المفترق، أدار الفرس حول نفسها دورة كاملة، يتساءل، أي الطريقين سلكت؟

لا مسحوق ينبئه عن الوجهة، لا شيء سوى فراسته، وهاجس تحيكه الذكريات في صدره، جعله يدير لجام الفرس صوب الاتجاه الأيمن، حيث الهضبة الملونة.

سار إلى أن بلغ الجسر المتحرك، ترجل عن الفرس، ومسح المكان بعينين شغوفتين وقلب يرتعد.

رصدت عيناه حركة في الاتجاه الآخر من الجسر، ولما دقق النظر أدرك أنها هناك حيث توقع، رفقة الحصان الأسود. ترك اللجام، ثم ربت فوق الفرس يوجهها صوب طريق العودة ويأمرها: «عودي إلى الجبل».

تمسَّك بحبال الجسر على الجانبين، وخطا إلى الأمام خطوات واسعة بثقة، فاهتز بأكثر مما كان يفعل عادة، عندئذ سمع صراخها من الجانب الآخر: «احذر، الجسر متهالك».

أيقن الخطر ما إن سمع صوت طقطقة، واهتزازة قوية ورجرجة، تميل به صوب اتجاه واحد. تمزقت الحبال من جانبه، فتمسك سريعًا بسلمة خشبية قبل أن يسقط الجسر هاويًا، عندئذ صاحت باسمه عاليًا.

صهل الحصان واقترب من الجسر المتدلي، الذي لا يزال مثبَّتًا من الجهة التي يقف عندها، يتطلع إلى فم الظلام الذي ابتلع فارسه. جثت فوق الأرض، تمسك بحبال الجسر المتدلي من أحد طرفيه، وتشرئب إلى الأسفل بعنقها، تحاول البحث عنه في ثنايا العتمة.

نادته فلم يستجب، فأصابها الهلع، شعرت بحركة الجسر تحت كفها، فاطمأنت لكونه لا يزال متمسكًا به.

همت بالتمسك بالجسر نزولًا إلى الأسفل، لولا خشيتها ألا تتحمل الحبال وزنيهما معًا.

- «رعد»، هل أنتَ بخير؟.. قل شيئًا.
- ابقي عندكِ، ولا تحاولي شيئًا مجنونًا وإلا سقطنا معًا.

كيف علم أنها تفكر في النزول لنجدته؟ دقائق مرت عليها بوتيرة مهلكة للأعصاب، تضطرب، وتحتشد في عينيها العبرات.

تمسك بالحبال المتهالكة بجل قوتها، تجذبها، كأنها تملك قوة جبارة قادرة على منع الجسر من التفلت والانزلاق، إلى أن تمكن «رعد» من بلوغ الحافة.

- ماذا تفعلين هنا؟ وكيف تسيرين بالحصان فوق الجسر؟

كان هذا أول ما قاله بأنفاس لاهثة، ونبرات مستصرخة، ونظرات تجلد وتصفع، كعقاب عليها يُنزل. سعدت بنجاته، وقد كانت منذ لحظات تحسب أنها على وشك خسارته، كان هذا الاختبار فارقًا ومؤلمًا بأكثر مما تصورت.

- لم أعلم أن الجسر بهذا الحال، اختبرته أولًا وبدا متماسكًا.

- كم أود تقييدك في تلك الحبال المعلقة، ماذا لو سقط الجسر بكِ؟ ماذا لو لم أركِ تدخلين الغابة خلسة فأتتبعكِ؟

- لم يقل لكَ أحد أن تتبعني.

- وفوق كل ذلك كنتِ تحاولين النزول فوق الجسر.

- كنتُ أفكر في مساعدتكَ، لم أفكر في شيء آخر.

هذا ما هي عليه من خصال وعزيمة، تسبق مساعدة الآخرين تفكيرها في نفسها. لا تكثر الحساب، ولا التفكير في الخسائر المتوقعة، عندما ترى أحدهم في مشكلة تهم بالمساعدة.

فلماذا إذن تركته وسط النيران يحترق؟ أخدعته عيناه حقًّا؟

بدا هذا مقبولًا الآن، وقد كان أشد المعارضين لتلك الفكرة. ماذا يفعل المرء حين يفقد الثقة بحواسه، بماذا عليه أن يثق حينها؟

هدأت أنفاسه، وسكن غضبه، وإن لم يلملم عنها نظراته.

وقفت تطعم الحصان حشائش انتزعتها من جوار الهضبة الملونة، تواري اضطرابها، وتصارع شعورًا مباغتًا كادت تفقده، لماذا لهذا القدر تكترث؟

منذ حديثهما في الحظيرة صار تفكيرها مشوشًا، ثمة جاذب قوي يشدها إليه منذ هذا الحديث المحتدم.

- لماذا أتيتِ إلى هذا المكان؟ إلى تلك الهضبة بالذات؟

قام ينفض عن ملابسه التراب، يبتعد عن الحافة، ويتخير موضعًا للجلوس أسفل شجرة.

- بدَت ألوانها جميلة تحت ضوء القمر.

- فقط؟

سأل يفتش عن سبب آخر يعرفه، فالتفتت له غير متفاجئة، إذ كانت بدورها تحاول تذكر السبب.

- هل جئتُ إلى هذا المكان من قبل؟

ظننت أنه سيحجب عنها الجواب كما هي عادته، لكنه فاجأها بقوله: «كثيرًا».

ولم يضف كلمة بعدها، فتحدثت هي، تمسح بيدٍ فوق شعر الحصان، وبالأخرى تطعمه: «هكذا شعرتُ حين رأيت تلك الهضبة، كانت.. مألوفة جدًّا، رغم أنني لم يسبق لي أن رأيتُ شيئًا مماثلًا خلال السنوات الثلاث الماضية».

- أحببتِها.

كلمة أخرى جديدة، تخبرها عن نفسها، تنضم إلى السلسلة التي يضيف إليها في كل مرة حلقة واحدة.

لا يزال غاضبًا من الخدعة التي مارستها عليه داخل الحظيرة، باستعانتها بالعبارة التي أخبرها بها «مطر» ليظن أنها تتذكر.

لكنه كذلك لا يستطيع أن يتغاضى عن جهودها الحثيثة للتذكر، وتؤلمه نظرة الضياع في عينها، كل ما يراه منها الآن، كل كلمة، وكل ملمح، هو جزء أصيل من تكوين المرأة التي عرفها؛ التي هي أهل للثقة.

المرأة التي لا تعض اليد التي امتدت لها بالمساعدة، لا تتركها وقت حاجة.

- كيف سنعود الآن؟

أخرجته من شروده، فالتفت نحوها يقول مطمْئنًا على الفور: «سيبحث الحراس عنا».

- هل سيطول ذلك؟

- أتخشين البقاء برفقتي؟

كادت تجيبه: لا أخافكَ.

مسح الحصان خطمه في كفها، وألقت عليها إحدى النجمات شيئًا من ألقها.

- من حديث أهل الواحة تخيلتُ الممسوس رجلًا غليظًا ظالمًا، كنتُ أبغضكَ بشدة، لا شيء يستفزني مثل مقهور بين يدَي صاحب سُلطة، ومستضعَف لا يجد بين العالمين من ينصره.

استوقفه الفعل «كنتُ» فمكث قليلًا عنده، وبشغف غير مستتر سألها: «والآن؟».

رنَت صوبه هنيهة، كان لا يزال جالسًا أسفل الشجرة، مسترخيًا رغم الوضع الخطر.

- لا أعرف، لم تعد الصورة التي كونتها عنكَ ملائمة، لكن في الوقت نفسه ما زلتَ بالنسبة إليَّ عصيًّا على التفسير.

تذكَّر صراخها باسمه عندما هوى به الجسر المتحرك، مر بين شفتيها باعتيادية محببة، كما كانت تفعل في أيامهما الجميلة التي خلَت من سوء الفهم والجروح الغائرة.

خنقه شعور مباغت بالحسرة على ما فقد كلاهما.

بادرها ساهمًا: «كل شيء يولد صغيرًا ثم يكبر، إلا الثقة التي نمنحها للآخرين، تولد كبيرة ثم تثبت، أو تتناقص إلى أن تختفي».

هل يود أن يقول إنه لم يعد يثق بها؟ ليس بحاجة إلى التصريح، تعرف ذلك بالفعل، أما الذي لا تعرفه، كيف ينمو شعورها هي في الاتجاه المعاكس، في الاتجاه الذي يجعلها تثق به؟

دفعتها النسمات الباردة لأن ترتجف، تقترب من الحصان علها تلتمس عنده شيئًا من الدفء الذي ينقصها. سمع «رعد» صوت اصطكاك أسنانها، فهب يجمع الغصون من فوق الشجرة التي كان يستند إليها، يضعها في المنتصف، ثم يمسك بحجرين محاولًا إشعال شرارة صغيرة.

يفعل ذلك بصبرٍ كبير، كأنه يملك الزمان كله.

ذكَّرها هذا بـ «رماح» حين كان يجمع شظايا الإناء، في الحقيقة شعرت بأن الصبر الطويل سمة أهل الواحة لطبيعة حياتهم التي تخلو من السرعة المفرطة.

في العاصمة، كل شيء يسير بسرعة مبالغة، لا يتوقف المرء ليلتقط أنفاسه، لئلا يتأخر عن أشغاله، أو موعد متفق عليه، وسط الزحام والرطوبة والعوادم الخانقة.

في العالم الخارجي لا يتوقف المرء ليسأل نفسه ما يجب عليه سؤالها. يمضي في الحياة حابسًا في صدره كلمات كان عليه أن ينطق بها، في المكان المناسب والوقت المناسب، إلا أن قطار الحياة السريع لا يتوقف لأحد، ولا ينتظر أحدًا، يمر بالجميع دون أن يراهم حقًّا، ولا هم يرون أنفسهم، وما عليه أحوالهم.

في العالم الخارجي سرعة مفرطة يعتادها الإنسان ويصير ترسًا في ماكينة الحياة التي لا تأخذ فسحة. لم تصبح ترسًا قط، لطالما شعرت أنها غير مبرمجة على هذه المعادلات الكبيرة من السرعة التي تسير بها حياة المدينة.

كانت الصحراء أقرب إلى تكوينها النفسي من أي مكان آخر، لذلك أصبحت الآن أكثر ثقة من ذي قبل أنها قبل أن تفقد الذاكرة كانت تنتمي إلى هذه الرمال الصفراء وتلك الطبيعة الساحرة.

- أحسنتَ.

قالت ذلك للرجل الذي نجح أخيرًا في إشعال النار للتدفئة، لم ترَ وجهه، لكنها شعرت به كما لو كان يبتسم.

- فلنبحث عن شيء نأكله.

قالها بحماس ثم التفَّ حول الهضبة، يلقي كل حين نظرات مستطلعة خلفه، يتيقن من كونها تتبعه، تجاور الحصان في المسير، وتحرص على البقاء قريبة من بدنه.

تتعثر في الحجارة، وتنزلق صوب نباتات شائكة مثل القصوان والخرشوف؛ توخز وجهها، وتخدش ذراعها، يتوقف «رعد» عن المسير ثم يقول بنبرة حاسمة: «ستبقين أنتِ حول النار ريثما أحضر ما يؤكَل».

لم تعارضه؛ كانت شهيتها للأكل أكبر من شهيتها للجدال؛ وفرت طاقتها، إذ شعرت أن هذه الليلة ستكون طويلة عليهما، وأكثر أهمية من كل الليالي السابقة.

***

(2)

آخر من كانت تحب رؤيته على عتبة دارها كان والدة «هلال»، لكن هذا ما حدث.

لم تستطع غلق الباب في وجهها كما فعلت مع أخواتها، الدار التي كانت وجهة للمهنئات صارت الآن قِبلة للناصحات، اللاتي يدَّعين أنهن يتفهمن شعورها. هكذا استهلت والدة «هلال» كلامها: «أفهمكِ كثيرًا يا «فلك»».

- ماذا تشربين يا خالة؟ سأحضر لكِ عصير دوم طازجًا.

هربت إلى المطبخ تزفر بقوة، تتذكر ما قالته أمها عن المرأة التي ستسعى لإفساد حياتها. تبعتها والدة «هلال»، وقفت تراقبها دون أن تتدخل فيما تفعله، قالت وإن كانت تدرك أن الفتاة لا تود سماعها: «ألم تسألي نفسكِ يا «فلك» لماذا اخترتكِ من بين بنات الواحة لتكوني زوجة «هلال»؟».

في الحقيقة سألت نفسها، لا مرة واحدة بل عشرات المرات منذ أن عرفت أنها اختيار تلك المرأة، لا اختيار زوجها.

ذكَّرها هذا بجرح غائر في كرامتها، وحسرة شعرت بمذاقها فوق اللسان. توقفت عما تفعله، والتفتت للمرأة قائلة بزهو مصطنع: «لم تعثري في الواحة على من هي أجمل مني غالبًا».

لم تكن تصدق ما تلفظت به، اهتزت ثقتها بنفسها، وتشوهت الصورة المنعكسة في مرآتها. لم تقل ذلك إلا لحفظ ماء الوجه، أمام المرأة التي جاءت لانتقاصها.

- أنتِ جميلة حقًّا، لكن لم يكن هذا هو السبب الأهم لاختياري لكِ.

عقدت «فلك» ذراعيها أمام صدرها، محتمية بهما مما ستقذفه والدة زوجها على سمعها. أردفت «أم هلال» دون أن تبرح مكانها: ««هلال» تربية امرأة، هذا ما اعتاد الناس قوله، تعرفين، مات والده وهو لا يزال طفلًا صغيرًا لا يُحسن الكلام، لم يقضِ برفقته الكثير، لم يتشرب منه الخبرة التي تنتقل عادة من الآباء إلى أولادهم، لو سألتِه عن ذكرياته معه سيجيبكِ بأنه لا يتذكره».

اغرورقت عينا المرأة بالعبرات، هزت رأسها سريعًا تنفض ما علق بها من تأثر، ثم تردف: ««هلال» رغم قوته وضخامته، كان فتى وديعًا خجولًا، لا يرفع عينه في فتاة تماثله في العمر، ولا يتحدث إلا لمامًا، يمضي وقته في صحبة أقرانه، وبخاصة «قوس» اليتيم، بالتأكيد تعرفينه، كبر قبل أوانه وصار رجل الدار، أُلقيَت فوق كتفيه الغضتين مسؤولية فردين، لم يقبل الإحسان من أعمامه، له نفس عزيزة أبية، لم أغضب عليه قط، لم يرهقني في البحث عنه في الصحاري كما أمضت النساء أوقاتًا عصيبة في إحكام الخناق على أبنائهن، لم يتخلف عن موعد عودته إلى الدار، لم يسهر من غير سبب، لم يخالف أوامري.. «هلال» لم يكن له أخت يعرف منها ما يؤهله للتعامل مع فتاة أو امرأة، لم يحب قط بشكل صاخب، ضبطتُ قلبه مرة يرجف في وجود فتاة بعينها، تزوجَت الفتاة وأنجبت ولدين قبل أن يفصح لي عن مشاعره».

أطلقت ضحكة خفيفة، شاركتها فيها «فلك» وقد انبسطت القسمات التي كانت متزمتة.

- «هلال» يعرف كيف يطحن الحبوب، وكيف يبني الدار ويعمرها بالزاد، وكيف يعتني بأمه جيدًا، لكنه لا يعرف كيف يكون سعيدًا، مشعًّا، متوهجًا.. لطالما أردتُ أن أراه يطرح الحمل عن كتفيه، ويسترخي قليلًا، يستمتع، يفعل شيئًا مختلفًا يسعده.

اقتربت منها ثم أمسكت إحدى ضفائرها الذهبية قائلة: «عندما رأيتكِ شعرتُ أنكِ ملونة، فتاة مفعمة بالحياة والمرح، ستُكملين هلاله وتمنحينه الشيء الذي ينقصه».

عاد البريق إلى عينَي «فلك»، ومرة أخرى تسربت الألوان رويدًا إلى الموجودات من حولها؛ الجدران، والطاولة، والسقف، والأواني المتناثرة. نظرت إلى زهرة وضعتها عند النافذة، كانت حمراء قانية تتراقص بفعل الرياح المداعِبة.

لم تطِل والدة «هلال» البقاء، شربت العصير الذي أحضرته «فلك»، ثم قالت وهي على شفا المغادرة: «إذا أردتِ في أي وقت أن تتحدثي، فكلي آذان مصغية».

عندما أغلقت «فلك» الباب شعرت بحيرة بالغة، لماذا لم تتحقق كلمات أمها عن طالعها المرسوم فوق صخورها؟ ومن هذه الحيرة نبتَ سؤال جديد، أيهما الخير الذي عليها أن تسمح له بالاقتراب؛ «هلال» أم «مشتاق»؟

أدركت في تلك اللحظات أن ما تخبرها به قارئة الصخور من جمل تبدو بليغة وموجزة، هي في الحقيقة عامة ومربِكة، يستطيع السامع تكييفها كما شاء قلبه، وكيفما ساقه الهوى.

استرجعت بعض ما قالته لها قارئة الصخور خلال سنوات حياتها؛ وجدت أن كل قراءاتها حمَّالة أوجه، تحمل النفي والإثبات، القبول والاعتراض، اليمين واليسار في عبارة واحدة.

قراءاتها مثل طمي لين قابل للتشكيل، يصنع منه كل سامع التمثال الذي ينشده، هذا هو السر الذي يجعلها تصدَّق في ادعاءاتها.

قال «هلال» إنهما بحاجة إلى حديث طويل، والآن تشعر برغبة قوية في التحدث. عندما عاد من الطاحونة في منتصف النهار كان التعب قد تملك منه، ولم يكن وقتها بحاجة إلى تبادل الحوار، بل الاسترخاء.

انزعجت «فلك»، وبدا هذا جليًّا فوق قسماتها، حضَّرت له الطعام فوق صينية من الخوص، وما إن دنَت من الأريكة حتى وجدته يغط في نوم عميق. تركت الصينية فوق الطاولة، وخرجت من الدار دون أن توقظه، تسير من غير وجهة محددة.

كانت ناقمة، ومنزعجة، من «هلال»، ومن نفسها.

تجهل سر الشعور الغريب الذي سيطر عليها مؤخرًا، أصبحت لا ترضى أبدًا، ولا حتى بالأشياء التي كانت تسعدها قبلًا. سعادتها معكرة، والسخط يملأ قلبها، كانت تقذف الرمال بمقدمة حذائها في أثناء السير، وذلك عندما فوجئت بـ «مشتاق» أمامها.

صاحت به تبعده، وترجوه أن يكف عن ملاحقتها.

جن جنونه ما إن رأى الكدمات ترسم خريطة زرقاء وأرجوانية في مواضع متفرقة من الوجه الذي يحب، ظن أن «هلال» ضربها، فأقسم أن يرد له الصاع صاعين.

- سأريه كيف يكون الضرب.

أمسكت به تمنعه من الذهاب إلى دارها، حيث «هلال» الذي لا ذنب له.

- «هلال» لم يؤذِني، أقسم لكَ.

لم يصدق «مشتاق» إنكارها، استنادًا إلى خبراته السابقة مع الضحايا اللاتي يكتمن ما يتعرضن له من ضرب وإساءة. صرخت به وقد ضاق عليها خناقه، لم تعد ترى هذا الجنون مميزًا، أو رومانسيًّا باعثًا على الابتهاج.

صار جنونه مؤذيًا، لا يتوقف ليسأل نَفسه إن كان يلحق بها الضرر.

لم يكن مثل «هلال» في شيء؛ لا يفكر مرتين، بل لا يفكر من الأساس، أغاظها هذا واستجلب نفورها.

- أقول لكَ إنكَ تؤذيني، أرجوكَ كف عما تفعله.

- بل أنا أنقذكِ.

أخرج الهاتف النقال بانفعال أهوج، وعرض أمامها المقاطع الصوتية والصور، شهقت «فلك» عاليًا، ثم غطت فمها بكفها تكتم صرخة فزع.

- كيف اختطفتني وحبستني داخل هذا الحجر الذي تمسكه؟.. كيف جعلتني صغيرة هكذا.. ما هذا السحر الذي تجيده؟

بينما شرعت في البكاء فزعًا وهلعًا، حاول «مشتاق» تهدئتها، شرح ماهية الهواتف النقالة وفيما تُستخدم. لم تصدق من كلامه حرفًا، فقط رجته أن يعيد بعضها الذي اختطفه.

- هذا لأجلكِ، عندما يرى زوجكِ هذا سيتركِكِ، وعندها سنرحل معًا.

لم يعد جنونه يثير فيها إلا الخوف والنفور والضجر، صاحت به معنِّفة: «أنتَ حقير لا ذمة لكَ، كيف تقول هذا لامرأة متزوجة؟».

- أنتِ من فتحتِ الباب يا «فلك».

تجسدت أمام عينيها الثغرة التي نفذ منها كل شعور تبغضه، وكل رضا منقوص، وكل موقف عصيب تعايشه.

لو لم تفتح الباب لما دفعه ودخل، لم يعد يكتفي بالتنزه داخل المنطقة المحرمة، تنامَت أمانيه وترعرعت، صار عازمًا على تدنيسها.

هرولت عائدة إلى الدار تحتمي بها، لا يزال «هلال» نائمًا على الأريكة حيث تركته، وصينية الخوص قابعة فوق الطاولة. دخلت غرفتها تغلق بابها، تبكي بصوت مكتوم، وبقلبٍ ينبض كالمجنون.

لا تستطيع الاستعانة بـ «هلال» لردع هذا المخبول الذي صنع السحر لأجلها، لن يصدقها، سيظن أنها خانته بينما كانت على ذمته.

لا تستطيع أن تفضي بهذا السر لأحد؛ لا «هلال» ولا أمه، لا أخواتها ولا أمها. شعرت بوحدة شديدة، كأنها الشخص الأخير في هذا العالم الموحش، لا أحد تثق به، لا أحد حولها.

طوَّقها خوف لم تتذوقه قبلًا، ولم يكن من قبل شيء يخيفها.

تخاف «مشتاق» وجنونه، وترجو أن تفتح صفحة جديدة مع «هلال» بعد ما عرفته. الكِبر الذي فيها انكسر، ولا شيء يكسر غرور الإنسان مثل الخوف والرجاء.

فتحت النافذة تتطلع إلى السماء الصافية بنظرات مستغيثة، وشفاه تناشد الملك في عليائه، ولا شيء يحبه الملك مثل أن يُتعبَّد بالخوف والرجاء معًا.

الخوف من غضبه، والرجاء فيما يملك في خزائن رحمته.

وقفت ترجو الآمِر الناهي المُعز المذل، أن يساعدها على تخطي تلك المصيبة التي حلت على رأسها.

***

جمع «رعد» ثمار القشدة دون غيرها، أتى من خلفها فلم تنتبه، كانت مستندة بظهرها إلى الهضبة، وتدير بين أناملها بشرود ثلاث حبات من البندق.

شعر «رعد» بلمسة حانية تمسح على قلبه؛ يراها تبذل جهدًا لفك الشيفرة التي كانت تتردد بينهما، تحاول التذكر.

جلس بالقرب من الهضبة، وعندما سألته إن كان يعرف طريقًا آخر للعودة، أخبرها أنهما لن يبرحا هذا المكان لئلا يضلا الطريق، وليسهل على الحراس العثور عليهما.

كانت ليلة ضاحكة، كتلكُن الليالي التي يباغَت المرء فيها بشعور رائق؛ يود معانقة الموجودات، والحديث عن الأشياء الجميلة وحدها.

لا تعرف سر تبدل مزاجها، ضبطت نفسها تبتسم من غير سبب، هل في هذا المكان سحر لا تعرفه؟ كانت تحبه، هذا ما أخبرها به، لكن لماذا تحبه؟ أبسبب الهضبة الملونة وحدها، أم الصحبة المرافقة لها؟

- أكنتُ آتي إلى هنا وحدي؟

توقف عن تقشير ثمرة قشدة بالسكين الذي أخبرته أنها أخذته من المطبخ، كان يجلس على بعد خطوات منها، ومواجهًا لها حين قال: «هذا المكان خطر».

لوهلة لم تفهم جوابه المقتضب، ثم في التالية فطنت لما لم يصرح به مباشرة؛ تحتاج إلى رفقة لتأتي لمثل هذا المكان الخطر، وبدا واضحًا هوية هذا المرافق العارف بالغابة.

يقشر الثمرة ببطء من لا يرغب في أكلها، فقط ليعيد رسم مشهد سابق؛ ثمار القشدة، والنار، والليل، والهضبة الملونة.

يطيل النظر إلى الفتاة التي تجلس قبالته فتضطرب، وبينما تقضم فص قشدة تعض من غير قصد لسانها. يخيفها هذا الشعور الغامض الذي يهزها من الداخل، ويجدد كل قناعاتها، ما عاد بإمكانها أن تتجاهل، أو تظن أنها بمأمن عن الحقيقة الواضحة.

- هل تشعرين هنا بشيء مختلف؟

- مثل ماذا؟

أراح ظهره ثم قال بشجن: «لطالما آمنتُ أن الأماكن التي تستضيفنا هي صناديق أمينة تحفظ ذكرياتنا، ما نراه، ونشمه، ونشعر به، ونسمعه، تعيد تلك الذكريات إلينا ما إن نُكرر الزيارة، كمكافأة».

تركت الثمرة من يدها ثم قالت بانفعال محتدة: «لماذا لا تتحدث صراحة؟ تعبتُ من هذه التورية».

- لماذا تبحثين عن الساحرة؟

كعادته يباغتها بسؤال لم تتوقعه، لم تطل التفكير إذ قالت: «لأن كل شيء يبدأ عندها، هذا السحر الذي أطعمتكَ إياه جعلكَ تظن السوء عني وعن «مطر».. أريدك أن ترى كل شيء على حقيقته».

- ولماذا يبدو هذا مهمًّا لكِ؟

- لأنكَ تعاقبني على جُرم لا أتذكره، تخفي عني هويتي وتستمتع برؤيتي أعاني.. هل هذا ما تريد سماعه؟ حسنًا، أنا أعاني.. وأتألم.. ومن داخلي أحترق.

ارتعد صوتها وتحشرج في نهاية حديثها، كان بإمكانه رؤيتها تحترق. في هذا الظلام وتحت أعين القمر، ورغم لسعة البرودة، كان كلاهما يحترق، وإن اختلف السبب.

- لا تعرفين كم أرغب بشدة في أن أصدقكِ.

ملأت العبرات أربعة أزواج من الأعين في اللحظة نفسها، وفي تلك المقل الندية كانت ثمة غيوم رمادية، وعاصفة تزأر وتقترب.

ترك السكين والثمرة، ومن موضع جلوسها دنا، يتأمل الوجه الذي لطالما كان كتابًا مفتوحًا بين كفَّيه، يقرأ ويكتب ويضيف ويحذف.

الحزن الذي قرأه والألم الذي يرافقه، ود لو يمسك بالقلم ليحذفهما، ثم يضيف شيئًا من الانبساط والمرح.

لم تسمح له بهذا القرب المستعر، نهضت بغتة تقطع وصالًا جعل قلبها يتقافز بقوة في موضعه. يلتقط ثلاث حبات من البندق تركتهم خلفها، يتبعها، يلتف حولها ليواجهها، ثم يقول بصوت أجش: «لماذا تهربين كلما امتد بيننا جسر من الحنين؟ ممَّ تخافين؟».

انتزعت نفسها من إيحاء السؤال وتقهقرت، ثم قالت برجفة ظاهرة: «لا يمكن أن يكون هذا حقيقيًّا.. أنا وأنت.. ما بيننا.. لا يمكن أن يكون».

- لطالما أعجبتُ بشجاعتك، وقوتكِ، وقدرتكِ.. كأن في داخلك يدور عالم منفصل، له موازين قوة مختلفة عن تلك التي نعرفها نحن أهل الواحة.. لا شيء يخيفكِ، لا شيء يغلبكِ.. إلا أمر واحد فحسب.

رنَت إليه بحذر فاستطرد: «التسليم بما تشعرين به الآن».

كيف يعرف ما تشعر به؟ هل يبدو شعورها ظاهرًا للعيان؟ أم لأنه يعرفها كخطوط كفه يستطيع أن يرى القلب الذي يرجف في حضرته؟

- أنتَ رجل لا يمكن أن.. أنتَ لا يمكن أن تكون.. أنا، أنت.

ما زالت الكلمات عصية على التلفظ، تتوارى مختبئة خلف الصمت والمفردات العشوائية. بينما تسور الألم عينيه، ويسيل الحزن من نظراته قال: «لأنني بالفعل رجل مختلف، رجل فتكَ به الغياب وأهلَكه.. عندما تثقين كثيرًا، تتضررين كثيرًا».

تلاقيا عند الموجة نفسها، صار حديثهما بالصمت أكثر من الكلمات المتلفظة. حديث أبلغ من أن يقوله مفوه فصيح اللسان مهما بلغ مركَزه.

جدلا من الصمت جسرًا معلقًا، تهادت الخطوات عليه تدنو وتستجيب، لنداءات الحنين وصرخاته التي لا تنقطع.

مد إليها قبضته، فبسطت كفها بتردد، عندئذ أسقط بداخله حبة واحدة من البندق، وقد بات متأهبًا ليكشف لها حقيقة الذكرى الضائعة التي تنشدها. تطلعت إليه بحيرة، فقال بخفوت: «رعد!».

نطق باسمه، فانعقد جبينها بشدة، أضاف بصوت مختنق وبمرارة لا تخفى: «كنتِ تحبين الرعد أكثر».

يذكِّرها بحديثهما عن المطر، أيحسب أنها كانت تلعب بالألفاظ وتقصد رجلًا بعينه لا السيل المنهمر؟

يزعجها أن تكون دومًا في موضع شبهة، تبدَّى هذا الضيق فوق قسماتها، وفي نبرتها الباردة إذ قالت: «لا أحد يحب الرعد».

- كنتِ تقولين إنه آية كونية مذهلة تستحق التأمل والتدبر، وفي كتاب الرحمن سورة كاملة باسمه.. كنتِ تقولين إن صوت الرعد لا يخيفكِ بل يسعدكِ، تشعرين أنه نغمة كونية في لحن الطبيعة المذهل، لم يسبق لي أن أحببتُ اسمي مثلما أحببته في تلك اللحظة.

تلوح في خاطرها صورة مباغتة، تظهر فجأة ثم تختفي كأنها ومضة في ذاكرة معتمة، مثل ديجافو.

كأن هذا الحديث يدور بينهما للمرة الثانية، كانت في هذا المكان من قبل، في الموضع القريب من الهضبة، حول نار موقدة، من فوقها كان رعد السماء يزأر، بينما رعد الأرض يجاورها حيث تجلس، ويسقِط في كفها حبات البندق.

استفاقت من الشرود ما إن أسقط الحبة الثانية في كفها، وانتظر ريثما ترفع إليه وجهها، ثم قال: «مطر!».

أتى على ذِكر الرجل الذي يزعجه، ويحسبه ضليعًا في المؤامرة. انتظرت أن يقول شيئًا عن المطر مثلما قال عن الرعد، فلم يلحق الاسم بشيء سوى صمت مطبق.

ما زالت لا تفهم ما يفعل، وفي الوقت نفسه كانت في شوق لمعرفة ما تمثله الحبة الأخيرة، التي أسقطها أخيرًا في كفها، ثم تباطأ قبل أن يهمس بثالث الأسماء وآخرها: «برق!».

نظرت إلى الحبات الثلاث المتجاورة تحدوها دهشة ظاهرة، وقبل أن تسأله كان الجواب حاضرًا: ثلاث حبات من غصن واحد.. ثلاثة توائم في رحم واحد.

عندئذ ألجمتها المفاجأة!

***

«رعد» توأم «مطر»! لماذا لم يخبرها بهذا أيٌّ منهما؟ لماذا أخفى عنها «مطر» هويته التي تربطه بالممسوس والقاضي معًا؟ شعرت كمن تعرض لخدعة محكمة، ذكرتها بما فعلته بـ «رعد» في الحظيرة.

- أنت و«مطر» ابنا القاضي من زوجته الثانية؟ هل ما فهمته صحيح؟

بدا غير مَعنِي بسؤالها، ينظر إلى القلادة المتدلية من عنقها، مغمورًا بالذكريات التي تهادت أمام عينيه، شهدت عليها جدران داره قبل أن تحترق. قال بنبرة مغموسة بالعاطفة: «كانت تحبكِ كثيرًا، أمي أقصد».

لماذا تذكَّر أمه حين سقطت نظراته على القلادة؟

- كانت مريضة نفسية لا ساحرة.

- أنتِ من أخبرنا بذلك، بذلتِ جهدكِ لمساعدتها.

بدا ممتنًّا لها، وتبدى هذا الامتنان في امتناعه عن قول ما يزعجها منذ عثر عليها في الغابة. قناعاته بشأنها تتبدل، ومشاعره تجاهها تتشكل، لتتخذ القالب نفسه الذي كانت عليه سابقًا.

- لماذا لم تخبرني أنكَ توأم «مطر»؟

بينما تلقي عليه بسؤالها، كانت تفكر في تقاسيم الوجه المختبئ خلف اللثام الأسود، صار بإمكانها أن تراه بعين الخيال.

أصبحت قادرة على تفهُّم الألفة التي تغمرها ما إن تسقط عيناها على وجه «مطر»؛ كلاهما يحمل الوجه نفسه، لو كان قد خلع اللثام منذ البداية، لسهل عليها الشعور بالألفة نحوه، لكنه تمسك به، ولا يزال.

أيظنها لا تستطيع تحمل حروقه كما تتحمل حروق «مطر»؟ ألهذا الحد بالغ التأثير أصابته النيران بالضرر؟

ألا يعرف أنها امرأة تنظر إلى قلوب الناس لا إلى وجوههم؟

لم تتذكر السؤال الذي طرحته قبل قليل، إذ كانت الأفكار المتلاحمة تروح في رأسها كأمواج تقذفها بين مد وجزر، قالت باهتمام بالغ: «أين ثالثكما «برق»؟ لم أره لا في الواحة ولا في الجبل».

بدا أنه يبذل جهدًا شاقًّا لمعالجة ذكرى قديمة بائسة، ثم قال بأسى: «عندما رحلتْ زوجة أبي الأولى عن الواحة، تلك الحية الخبيثة المؤذية.. أخذت معها طفلين وتركت خلفها جثة!».

قبض كفيه وقال بغضبٍ مكظوم: «اختطفَتْ «برق» من الدار يوم مولده، وألقت به في الهاوية، عقابًا لأبي على زواجه بالثانية».

- هل أنتَ واثق؟ هل ثمة شاهد؟

- رجل كريم له ابن اسمه «رماح» كان صديق صبا، أقسَم إنه رآها تلقي بـ «برق» الرضيع في الهاوية، قبل أن تغادر الواحة متشبثة بطفليها.

ثم أردف يلوك مرارة الذكرى في فمه: «منذ تلك الليلة فقدت أمي عقلها، صارت تتحدث إلى الأشباح، تجيبهم ويردون عليها، تدَّعي أن ثمة رجالًا صغارًا يسكنون رأسها، حسبهم الناس الجن الذي يسكن الجبل فنعتوها بالساحرة.. في تلك الليلة التي راح فيها «برق»، لم تعد أمي تلك المرأة التي يعرفها أهل الواحة، تحولت إلى أخرى غريبة، لها تصرفات عجيبة، ظل أبي إلى جوارها، ولم يتخلَّ عنها لحظة».

أخذ نفسًا عميقًا ثم أردف بحنان بالغ: «لكنها أحبتكِ، أحبتكِ كثيرًا».

شعرت بالأرض تميد بها، كأنها تقف فوق ظهر سلحفاة تتحرك ببطء صوب العدم.

***

لم تتفاجأ «أم الرمال» برؤية زوجة «طوفان» الأولى على عتبة دارها، اختلت بها في ركن قصي بعيد عن مجلس النساء بالداخل.

ما فاجأها حقًّا هو جرأة المرأة على أن تقول في وجهها: «لن أدعكِ يا جدة تفسدين حياة امرأة رابعة».

دقت الأرض بعصاها بقوة تسربت إلى أسماع النساء، فتوقفن عن الحديث برهبة. قالت «أم الرمال» وهي تشير بعصاها بكفٍّ مرتعشة: «من أنتِ لتعارضي ما تقره «أم الرمال»؟».

- أنا امرأة تضررت عندما زوجتِها برجل خبيث لا يراعي عاداتنا، وصمتَت حين زوجتِه بالثانية والثالثة، وبعد ما قصته عليَّ «مندورة» أدركتُ أن هذا الرجل الفاسد لا علاج له.. لا تفعلين شيئًا يا جدة سوى إلحاق الضرر ببريء، وتتركين المذنب يرتع كما شاء.

- لا أحد يخطئ في الواحة دون أن يجد من يردعه، «أم الرمال» تعرف كيف تطهر «طوفان» من الخبث.

- لم تنجحي يا جدة، اعترفي بذلك، فشلتِ في تقويمه وإصلاحه، على هذا العشب الضار أن يقتلَع من الواحة، لا أن ننميه في إحدى دورنا، وفي مخدع امرأة من نسائنا.

لا تحب الجدة من يراجع قراراتها، ما تريده الزوجة المطعونة في قلبها وكرامتها سيفسِد أكثر مما سيصلِح، إذ سيدع الأذى يطال «سلام» المسكينة.

وعندما أفضت بذلك إلى المرأة، صاحت الأخيرة بلوعة: «من المسكينة.. «سلام»؟.. إنها تعرف أن «طوفان» يهيم بها».

سقط هذا الخبر مثل دلو من الماء البارد فوق رأس الجدة، أردفت المرأة بالانفعال والحدة ذاتيهما: «جاءت تتحدث معي لأجله، كل حديثها له وعنه، تلك اللئيمة تعرف بمشاعره، يلتقيان في دار «أبو الأحناش» أمام أنظار الجميع، يلعبان دور العم وبنت الأخ، وفي الغرف المغلقة تهتم لأمره كما تهتم الحبيبة بحبيبها».

- يكفي هذا.

- إنهما معًا طوال الوقت يا جدة، تضعين النار بجوار أختها، لن تحصدي من ذلك سوى بركان ثائر يحرق الواحة بأسرها.

- قلتُ كفى.

دقت الجدة بعصاها أرضًا بقوة أكبر من سابقتها، وقد سرت الدماء تغلي في عروقها. أكانت طوال هذا الوقت تخفي سر «طوفان» و«سلام» معًا؟

عليها أن تتأكد قبل أن تقرر كيف ستتعامل مع تلك الكارثة؛ خرجت في الحال تستند إلى ذراع إحدى النساء، وتتوجه مباشرة إلى دار «أبو الأحناش»، تسأل عن «سلام» بانفعال، فيسوقونها إلى غرفتها، حيث ترقد نائمة.

عندما عادت «سلام» من المعصرة كانت في ذروة التخبط، يدهشها متى وكيف ولماذا يحمل لها «طوفان» كل هذا الشعور الطاغي في قلبه؟ في الواحة عشرات الفتيات اللاتي هن أجمل منها، وأكثر صحة وعافية، ماذا فعلت لتستحق رجلًا يصب عليها الحب صبًّا؟

لا تعرف أن المشاعر ليست مرهونة بالاستحقاق، بل لكونها هي، بكل مأثَرة فيها ومنقصَة.

تدرك بشكل بطيء ملموس، أنها كانت تكن تجاهه شعورًا غامضًا منذ البداية، لا اسم له ولا تعريف، باتت تتعرف إليه من جديد، بروية من يلتقي غريبًا.

لا تسعها الغرفة، تجهل ما تصنعه بهذا القلب الذي ينبض باهتياج، لا لعلة أصابته منذ الصغر، بل لمرض جديد يصيب القلوب من حيث لا تحتسب.

ولما أدركها التعب نامت بعدما أخذت الجرعة المحددة من مسحوق الدواء.

لكن نومتها لم تكتمل، جذبها صوت «أم الرمال» من وسط حلم كانت تتحدث فيه إلى «طوفان»، ويجلسان معًا فوق تلة الرمل الكبيرة خارج الواحة، التي تستطيع رؤيتها من البوابة الحجرية.

- أهلًا بكِ يا جدة.

رحبت بها «سلام» بفتور ولا يزال النوم يحوم حول عينيها، لا تستطيع التغاضي عن الألم الذي سببته طوال هذا الوقت لـ «طوفان»، كيف لها أن تبتزه بسره الذي تعرفه؟

- قولي الحق لأنني أستطيع تمييز الكذب.. أخبريني يا «سلام»، هل تعرفين بالشيء الدنيء الذي يخفيه عمكِ «طوفان»؟

حتى وإن أرادت الكذب، ما كانت تستطيع «سلام»، يتبدى عليها الارتباك سريعًا، تقرض أظفارها في محاولة فاشلة للاختباء.

من نظرة واحدة تأكدت الجدة من صحة ادعاءات الزوجة الأولى، لم تحتمل دماؤها الثائرة كل هذا القدر من الوضاعة، وازدراء أعراف الواحة التي توارثها الأجداد.

- كنتُ أحسبكِ فتاة طيبة، متى أصبحتِ تحملين في صدرك مثل هذا القلب الفاسد؟

- لم أخطئ في شيء يا جدة، هو أيضًا لم يخطئ.. «طوفان» ليس عمًّا من دمي.

- تنطقين باسمه دون ألقاب!.. بل عمكِ يا «سلام»، عرفناه أخًا لأبيكِ منذ الصغر.

- الأعراف لا تصنع الشرائع يا جدة.

- الأعراف مقدسة كالشرائع.

- الشرائع سماوية يا جدة، حُكم الله في خلقه، أما الأعراف فهي حُكم الإنسان في الإنسان.. كيف يستويان؟

- أنا أثور غضبًا هنا وبدلًا من اعتذارك المنتظر، تعاندين وتكابرين.

- أنتِ متعصبة للأعراف بشدة، إنها حِمية الجاهلية يا جدة.

- تتحدثين مثل المرأة التي نكره ذكرها!

- لماذا على الجميع أن يفكر مثل الجميع؟ لماذا لا تسمحون لأحد أن يرى الحياة من نافذة مختلفة؟.. قلتم عن المرأة المسكينة التي احترقت في دارها إنها ساحرة تسخِّر جن الجبل لتلبية أمرها وتتحدث إليهم نهارًا جهارًا، بينما أنا لم أرَ فيها إلا امرأة بائسة، كنت ألتقيها فوق الأرض في السوق فأجد الناس يتحدثون إليها عما تجهله، يحرمونها الماء والطعام زعمًا أنها ساحرة.. أنظر إلى شفتيها المتشققتين عطشًا، أجاورها وأعطيها الماء، فتميل برأسها نحوي وتقول: أنا متعبة يا «سلام».. وعندما بلغني أن ذات البرقع تقول إن تلك المرأة مريضة لا ساحرة، أنا صدقتها يا جدة، صدقتها لكنكم أعدتم تشكيلي، لأقول ما تقولون، وأفكر كما تفكرون.

- لا، هذه ليست «سلام» التي أعرفها، أصابكِ هذا الرجل الفاسد بالعدوى، انتقل المرض من قلبه إلى قلبكِ.. أصبح كلاكما قُبحًا يشوه جمال الواحة.

- لماذا تقولين هذا يا جدة؟ لقد عرفتُ مؤخرًا ما أخفاه عني عمرًا بأكمله، ومنذ عرفتُ وضعنا الحدود بيننا، لا أخرج أمامه دون غطاء رأس، لم يعد يعانقني ولا يصافحني.. فيمَ أخطأنا يا جدة؟

- اللعنة عليكِ يا «سلام».. اللعنة عليكِ يا «سلام».

خرجت الجدة من الدار تردد عبارتها الأخيرة بصوت جهوري استرعى انتباه الجميع، واستجلب فضول الجيران.

غلَّقت «سلام» الباب في وجه الأعين المستطلعة، والأفواه المتسائلة عن سبب غضب «أم الرمال» عليها.

تمسك بقلبها الواجف، الذي يعتصره ألم مباغِت، لم يسبق لها أن شعرت بقلبها يتمزق بهذا الشكل، كأن شفرات حادة اخترقت صدرها وصارت تعيث به فسادًا.

تتحامل لتصل إلى الفراش بأنفاس لاهثة، وأنين لا ينقطع، بينما العبرات تتسابق فوق وجنتيها، وتسقيها ماء مالحًا.

التماهي كان يسيرًا، لكنه ضد ما فطرَت عليه، فأبَت ألا تتبع إلا المسار الصحيح.

ماذا فعلَت لتستحق كل هذا التعنيف؟

لا تعرف «سلام» أن الجدة التي خرجت من عندها للتو غاضبة وناقمة، التقت بعد ساعة أحد حراس الممسوس في مكان معلوم اتفقا عليه بالأمس!

أعطته ما طلبه من عملات ذهبية، فأفصح لها عن أمر بالغ الأهمية: «ذات البرقع ما زالت على قيد الحياة، إنها الفتاة التي كانت تقيم في دار «أبو الأحناش»، هي بشحمها ولحمها يا جدة!».

***

(3)

لا يقوى قلبها على خسارة «قوس»، كيف لها أن تمحو ما فعلته؟

عاد «قوس» إلى الغرفة فتسرب الخوف إلى قلبها، ماذا لو أن أمها أخبرته؟ عندما تطلع إليها بتلك النظرة المرحبة، وافتر ثغره عن ابتسامة مشرقة، أدركت أنه لا يزال يجهل، كيف لها أن تمحو ما فعلته؟

حاولت الابتعاد عن مرمى بصره، لئلا يفطن لحالها، ويسألها، فتتعثر الحقيقة فوق لسانها. ذهب إلى الحمام يغتسل، فاستلقت «صدف» في الفراش تتظاهر بالنوم، لم تجد حلًّا سوى الهرب، كالجبان الذي يعجز عن المواجهة.

تخبئ رأسها تحت الغطاء، وتتجرع مرارة الذنب وحدها، لن يسامحها، أقدمت على الخطأ الذي لا صفح بعده.

نفث الشيطان اليأس في صدرها، وحُجبَت عنها المخارج للمأزق الذي أوقعت فيه نفسها، ظل ينفث يأسه إلى أن ثقل قلبها بحمله، وفاضت عيناها بعبرات القنوط والخيبة.

ناداها «قوس» فلم تجِب، ظن أنها نامت فتحرك بخفة داخل الغرفة، كان متعبًا بدوره، فبدل ملابسه وأطفأ المشعل.

لم يتوجه إلى الأريكة، بل إلى الفراش جوارها، حبست بإحكام أنفاسها، وقبضت على قلبها المضطرب. من حولها لف ذراعًا معانِقة، سمعت أنفاسه تتردد، وشعرت بالسكينة تغمره.

فأزاحت الغطاء عنها والتفتت تواجهه. جلس على الفور يسألها مهتمًّا: «هل أزعجتكِ؟».

وقبل أن تجيب انتبه لبكائها، مسح العبرات التي تنسكب، ثم تساءل عن الألم الذي تكابده، الذي يجعلها في هذه الحالة من الوجع.

- أريد أن خبركَ بشيء لا أستطيع إخبارك به، لأنني إن أخبرتكَ لن يعود هناك ما تخبرني به.

مسح «قوس» عن وجنتيها الدفقة الجديدة من العبرات ثم قال متمهلًا: «تحدثي ببطء كي أفهمك.. ما هذا الذي ترغبين في أن تقوليه لي يا «صدف»؟».

شبكت أناملها ببعضها، تقرص وتفرك، تسبح نظراتها في الغرفة، تحط فوق كل شيء إلا وجهه. كانت خجلة وخائفة، كيف لها أن تمحو ما فعلته؟

خُلقت الحياة من غير ممحاة، وعليها أن تحاول إصلاح ما أفسدته.

- لا أريد أن أفسد الاتفاق الذي بيننا.

- أي اتفاق؟

- الأسرار إذا دخلت بين اثنين أوقعت بينهما.. لا أسرار بيننا.

- هذا صحيح، أنا رجل لا يحتمل الأسرار.

استجماع شجاعتها لتقول ما تود قوله كان عصيًّا في البداية، وكلما تذكرت أنها بهذا السر قد تخسر «قوس» إلى الأبد، تسربت الشجاعة إلى صدرها شيئًا فشيئًا.

لم يتعجلها، صبورًا كعادته، منحها الوقت الذي تنشده، إلى أن ازدردت ريقها وقالت أخيرًا: «أمي أجبرتني على فعل شيء يغضبكَ».

اعتدل «قوس» في جلسته، انعقد جبينه، وتقارب حاجباه، يوليها اهتمامًا بالغًا، ونظرة مترقبة متوجسة.

أخبرته بكل شيء كما وقع؛ بدءًا من إعداد الشراب المسحور إلى النفث في عقدته، ثم ذهابها إلى «رعد» في قاعة القرار، وحضور أمها، وكل ما قالته.

حررت الحديث الذي كان في طور التحول إلى سر خبيث يفسد علاقتهما، ثم أخذت تتطلع إلى «قوس» في رهبة، تنتظر ردة فعله التي تأخرت. ظل صامتًا، لا تسمع منه إلا صوت أنفاس متتابعة، لم تحاول استعجاله، كان بحاجة إلى تقليب ما سمعه في رأسه، للخروج بردة فعل مناسبة.

- كيف تفعلين ذلك برجل أخبرتكِ أن أمره يهمني؟

لم تملك لذلك ردًّا سوى كلمات أسف تتابعت فوق شفتيها، بصوت خافت هامس: «كنت خائفة منها، أنا دومًا أخافها».

- قلتُ لكِ إنني أستطيع حمايتكِ.

- لكنها هددتني أن تؤذيكَ.. حدثتني عن أشياء رهيبة هي قادرة على أن تفعلها بكَ.

- لماذا لم تثقي بي كفاية لإخباري بهذا منذ البداية؟

- أنا أثق بكَ، صدقني، لكنني عشتُ عمري أخافها، وأخاف كل ما أجهله، أنا، لا أعرف كيف أتخلص من هذا الخوف، أحاول، لكن.. أنا حقًّا آسفة.

كان غاضبًا، تستطيع أن ترى هذا في نظراته، وتقطيبة جبينه، وفكه المشدود، وانقباضة أنامله فوق الغطاء.

أدرك أنه إذا تحدث في لحظة غضب مستعر، سيتفوه بما قد يندم عليه لاحقًا؛ أزاح الغطاء بهدوء، ثم غادر الفراش قائلًا: «سأتجول قليلًا، نامي ولا تنتظريني».

لم تنم «صدف»، ظلت تنتظره لدقائق امتدت إلى ساعات، دون أن يعود.

هل خسرت «قوس» إلى الأبد؟

***

نقمت على الجدة التي ملأ الحقد قلبها، وجعلها تقدم على إزهاق روح بريئة انتقامًا من زوج فضَّل عليها امرأة أخرى.

أشفقت على طفلين عاشا في بيت واحد مع أم مثلها، لم ترَ ابنة الجدة التي زعموا أنها أمها، لكنها التقت الابن، أبا «مشتاق» والخال المزيف.

لا تستطيع أن تتجاهل ما لمسته فيه من اضطراب كبير، وتذبذب في طباعه وشخصيته، تتمثل في نوبات غضب لا يستطيع السيطرة عليها.

«مشتاق» نفسه الذي تربى في بيت الجدة، لم يكن كما تمنت له أن يكون؛ شاب أهوج لا يفكر إلا في ملذات الحياة، وما يستطيع أن يغتصبه من لحظات لهو ومتعة.

لا يملك منظومة أخلاقية راسخة، ولا قوانين داخلية تردعه وتحاسبه.

الإنسان لا يرتدع بالقوانين الوضعية وحدها، تتقدم عليها القيم الأخلاقية التي تعمل كبوصلة يهتدي المرء بها وإليها.

أما الجدة نفسها فلم ترَ منها ما يثير استهجانها، عجوز في أواخر أيامها، فتك المرض بجسدها الهزيل، تمضي الأيام في صمت رتيب بلسانٍ مقطوع، كيف تحولت تلك المرأة المُهلِكة التي يتحدث عنها «رعد» إلى صورة الجدة التي لا حول لها ولا قوة؟

هل انتُزِعت منها تلك القوة عمدًا، أم تخلت عنها بعد ندم وحسرة؟

بينما تكاثرت الأسئلة في رأسها تطلعت إليه في ألمٍ ممزوج بفهم كبير هذه المرة. تستطيع أن تتخيل ما عاناه طوال عمره؛ من أم فقدت عقلها، لأخ خسره يوم مولده، لأخ يعاني ظهرًا محدودبًا، لأب يتمزق بعذاب الضمير لكونه سببًا، لو لم يأتِ إلى الواحة برفقة زوجته الأولى لما حدث ما حدث.

تستطيع أن تتخيل كيف تربى «رعد» و«مطر» في بيئة مضطربة، وأنقاض بيت يحاولان رأب صدعه. لكن ما لا تستطيع أن تفهمه، وما يعجزها تقبله، هي الطريقة التي يعامل بها «رعد» توأمه.

- لماذا لم تبحث عن براءة «مطر»؟ ألم يكن هذا أفضل من محاولة إثبات جرمه؟ أصدرتَ حكمًا متسرعًا ثم عاقبته.. كيف لكَ أن تفعل هذا برجل ذي قلب كبير مثل «مطر»؟

عندما تشنجت عضلاته، وانقبضت أنامله، فهمت أخيرًا السبب الذي يجعله متحاملًا على توأمه.

- سينتزعكِ مني.

هكذا قال لها «مطر» في الكوخ، ثم تراجع عن تلك النبرة يوم أن تلاقيا في الجبل، هل حمل لها كلا الأخوين مشاعر متشابهة، فأفسدت ما بينهما بتفضيل أحدهما على الآخر؟

أصابتها الفكرة بالسقم.

يجب ألا يحدث هذا النوع من النزاع بين الإخوة، تمنت بشدة أن تخيب ظنونها.

- ما موقعي من خطة الجدة للانتقام؟

سألته تلتمس عنده الجواب هذه المرة، قال بنبرة حيرة تلمسها فيه لأول مرة: «كنتِ ضربتها الثانية لعائلتنا».

- أرجوك لا تكرر الحديث عن كوني بيدقًا في حرب تلك المرأة معكم، أنا لا أمت لأيكم بصلة دم، لا يمكن أن أكون طرفًا، لماذا أتسلل إلى واحتكم وأدَّعي حاجتي إلى المساعدة، ثم أقيم في دار القاضي بناء على خطة سابقة، لماذا أساعدها في انتقامها؟ ما الذي سيعود عليَّ من ذلك؟

- ستفوزين بالذهب الذي تقتتلون لأجله، ألا يحركم المال في عالمكم ويشكل عقائدكم ومشاعركم وأفكاركم؟

- أي ذهب؟

- قبل أن تهرب تلك المرأة بطفليها من الواحة، سرقت من مخزون الذهب الذي نصنع منه عملاتنا.

- لم أسمع أن في الواحة مخزونًا من الذهب.

- سمعتِ بذلك عندما كنتِ تعيشين بيننا، أريتكِ بنفسي مكانه الجديد الذي غيرناه بعد سرقتها الأولى، كشفتُ لكِ سر الواحة الذي نخفيه عن كل الغرباء ولا يعرفه إلا أبناؤها، كنتِ أداتها التي نجحت في سرقة بعض ذهبنا للمرة الثانية.

قالها باتهام مبطن، ولوم صريح جرحها، يحسب أنها عاشت في دار القاضي تتصيد المعلومات عن مخزن الذهب، وما إن عرفت به حتى استدعت الجدة لتقاسمه.

- كل شيء في عالمكم قابل للشراء، حتى الذمم والضمائر.

- لا تتحدث كأن الواحة مدينة فاضلة، أنتم تقدسون السحر، وتؤمنون بالخرافات، تخافون من الساحرات أكثر من خوفكم من خالقهن، وتصدقون تنجيم قارئة صخور مقززة تلعقون صخورها بحماس.

التقطت أنفاسها ثم أردفت بالانفعال ذاته: «أنت تعيش وسط عقول لا تستطيع أن تتعرف المريض عند رؤيته، لا تعامله كما يليق به من رحمة وإشفاق، تغضون البصر عما يصيب الناس من جروح غير مرئية، وتشوهات نفسية».

لم يغضب عليها كما حسبت، تطلع إليها بنظرات مبهمة، لم تفسرها إلا حين قال: «تلك المرأة التي تتحدث الآن هي التي فتنتني بسحرها».

استحال انفعالها سكينة ودهشة، لم يجادلها فيما تؤمن به من قناعات، بل يشاركها إياها، رغم الساحرة التي يؤويها في الجبل. ليس مختلفًا كثيرًا عنها كما حسبت، بل ربما كان الأقرب إليها من بين كل مَن تعرف.

لم يخدعها كتلك العائلة التي زورت هويتها، كان واضحًا منذ التقته أمام الكوخ.

في اللحظة التي تخلى كلٌّ منهما عن درعه، وأوشكا فيها على التلاقي عند نقطة محايدة في المنتصف، أطلق أنينًا خافتًا وتجلى الألم في نظرته. أمسك

ببطنه يعتصر، مال بجذعه يرتجف، تراقبه هي بقلق متنامٍ، ولهفة، وشيء من الجزع.

- ما بكَ؟

يتمسك بالهضبة من خلفه، ويجلس مستندًا إليها بظهره.

تدنو منه، تلتقط أذناها أنينه الخافت، وتكشف الألم الذي يكتمه.

يشتد تأثير السحر المأكول، والخبث الذي يرتع في جسده. تجلس على مقربة، وتسارع في البحث عن سُبل المساعدة.

- ماذا بإمكاني أن أفعل؟ هل من شيء يخفف الألم؟

- ساحرة الجبل لديها دواء مؤقت لحالتي.

لا يقنعها الجواب، فتهز رأسها قائلة بخفوت كي لا تزعجه: «أنتَ تبحث عن الدواء في المكان الخطأ».

ثم تنهي الحديث إذ لم يكن في حال تحتمل المجادلة. تسمع أنفاسه اللاهثة تتردد بشكل متسارع خلف اللثام، وترصد عيناها صراعه مع عدو مجهول يسكن جسده.

يتفصد جبينها عرقًا، وتتجعد قسماتها كأنها هي التي تتجرع كؤوس الألم تترا. تلتقي نظراتهما في لحظة ممتدة كامتداد الجسور المعلقة، ترى عنده الشوق الذي يجذبها، ويرى عندها الخوف الذي يسعده.

يراقب كل خلجة من خلجاتها، يشعر بقلقها وجزعها. يخلع قفاز يُمناه، ثم يقبض على كفها في لحظة مفاجئة، يتمسك بها، ويجذبها.

تباغتها الخشونة في باطن كفه، والقوة التي تتعلق بها تلك اليد الآسرة. تقول بحزم وبنبرة واجفة: «لستُ «سراب» الحفيدة، ولستَ خالي.. ظننتنا حسمنا تلك المسألة».

تحاول الإفلات من غير أن تؤذيه، فيتشبث بها أكثر رغم الإعياء والوهن. تسمع ما يشبه ضحكة صغيرة مفعمة بالمرح، ترى أثرها في عينين تتهاديان فوق وجهها.

يقول بصوت خافت أرهقه النصَب: «ما زلتُ أملك حق القُرب والأُنس والمُساكَنة».

يفزعها المعنى الذي بلغها، تحاول الإفلات بهمة أقل، وعزيمة خائرة، تتعلق نظراتها به تسائِله، وتحاسبه عما تعنيه كلماته المبهمة.

تخاف أن تسمع ما تظن أنها ستسمعه، تقبض على يده من غير قصد، كما لو أنها تلتمس عنده القوة للمجابهة.

يميل برأسه نحوها، ومن بين أنفاس مضطربة، ومشاعر مؤججة، يردف قائلًا: «مثلما يتقارب اسمانا ويأنسان بالسُّكنى معًا فوق ورقة واحدة!».

***

يُقتطَع المشهد من الكون بغتة ويسبح في فضاء منفصل، لا تسري عليه قوانين المكان والزمن.

يمران خلال ثوانٍ معدودات بفصولٍ أربعة، تهب الأعاصير وتثور البراكين، تشتد الحرارة ويسقط المطر.

تنظر بدهشة إلى اليد التي يقول إنها وقَّعت بها مكتوبًا مقدسًا، يجمعه وإياها بوعود وعهود ومواثيق مُغلَّظة.

ترتدي الإنكار درعًا تود لو تكذبه، لكن شيئًا في مستقر الأعماق يردعها، تتخبط الكلمات فوق لسانها، تضل الطريق إلى المعنى الذي تريد أن تبلغه.

- هذا ليس حقيقيًّا.

اكتشف أن الإنكار الذي ركَنت إليه كان درعًا من ورق، مزقه بكلمات متتابعة: «تعرفين أنني لا أكذب، لذلك تبقين».

ينظر إلى يدها الساكنة في يده، تنتبه، فتسحبها بقوة مباغتة.

- لا أصدقكَ.

- وكَّلتِ القاضي عنكِ.. وشيخ الواحة سجل هذا في دفاتره.

- لا أصدقك.

- صاحب دكان التوابل كان أحد الشاهدَين.. والآخر هو «قوس» الرجل المشهور بأمانته.

يخفت صوته مع آخر كلماته، يميل برأسه، يجاهد كي يبقي عينيه مفتوحتين دون جدوى، يسقط نائمًا فجأة من غير حول ولا قوة.

- رعد.

تنادي باسمه مكرِّرة، تهز ذراعه بخفة، فلا تند عنه كلمة ولا حركة. يدفعها الجزع لأن تنهض، وتقف عند الحافة التي كان الجسر معلقًا بها، تصنع من كفيها بوقًا، وتنادي الحراس بعلو صوتها.

يرتد إليها صوتها خاسئًا حسيرًا، تغمر جسدها قشعريرة مزعجة، وتهب نسمات باردة تطفئ النار التي لا تجد ما تأكله.

تعود إلى حيث تركته، تكرر محاولات إيقاظه، بلمسات خفيفة مترددة، لكن النوم يربط جفنيه بعقدة تحمل أنفاس إحدى الساحرات النفَّاثات في العُقَد.

***

ممسوس الجبل الذي يرعب الواحة ويحرم أهلها الليل كتب عليها بعقدٍ غير مشهَر في ربوع الواحة.

ظل سرًّا لا يدري عنه سوى أشخاص بعينهم؛ القاضي والشيخ وصاحب دكان التوابل، و«قوس» الذي تزوج بابنته «صدف».

ضبطت نفسها تبكي بحرقة، وهي القوية التي لا يخيفها أحد، لماذا قاست كل هذا؟ الاحتراق قبيل الزفاف لم يكن بسبب لعنة أصابتها كما ادعت الجدة، كان بفعل فاعل، هذا ما ظلت تفكر فيه طوال الفترة الماضية، فقط كان ينقصها معرفة السبب.

قدم لها «رعد» الآن سببًا قويًّا لتلك الخدعة، فمن الذي كان يشعل النيران في غرفتها في الليلة التي تسبق زفافها؟

شخص يعرف الحقيقة، ويحاول منعها من الإقدام على تلك الكارثة؛ الجدة، أم الخال، أم «مشتاق» الذي أطفأ الحريق في المرتين؟

إن كان أحدهم هو الفاعل، فكيف عرف بأمر هذا العقد الذي ظل طي الكتمان؟ هل أخبرته بنفسها؟

هل هي حقًّا شريكة في الجرم كما يظن «رعد» بشأنها؟

لم تفلح محاولاتها الحثيثة في إيقاظه، ولم تتمكن من إسماع صوتها للحراس حول الجبل. قاست ساعات مرت ببطء متلف للأعصاب، أمسكت بالحجارة تحاول إشعال النار، وذلك عندما رأت يده ترجف في حركة غير إرادية.

لوقت طويل حذَت حذوه، وأخيرًا اشتعلت الجذوة، تراقصت النيران ترسل الدفء، وتُسمِع الآذان هسيسها.

انتفض «رعد» فجأة ينهض في حركة سريعة جعلتها تجفل، يمسك ببطنه، ينحني للأمام، لا يمتد ظهره على استقامته.

بدا تائهًا لا يعرف في أي مكان هو، اقتربت منه تحاول طمأنته، فأشاح عنها سريعًا بوجهه، كأنه يخشاها، أو يخشى أن تراه في تلك الحالة.

سالت عبرة دافئة فوق وجنتها، لما تشهده من حال الرجل المسحور الذي يعرفه الجميع كجبل لا يركع.

دار رأسه، وتهادى جسده، وسقط في نومته مرة أخرى، فظلت إلى جواره ترقب أنفاسه إلى أن انتظمت.

عادت تستند إلى الصخرة، تستأنس بالقمر ووصيفاته الساهرات دون أن تغمض لها عين، إلى أن رأت السماء تخيط شريطًا من اللون الأبيض في ثوبها الأسود.

فاجأها صوت فحيح ينبعث من مكان قريب، هبت واقفة تفتش عن مصدره في هلع، وبعين ثاقبة استطاعت رؤية حية تسعى فوق الصخرة، رأسها مختفٍ وراء ظهر «رعد»، تتجهز للانقضاض عليه بلا رحمة.

من غير تفكير أمسكت بجسد الأفعى بيدها العارية من قفاز يحميها. انزعجت الأفعى ذات القشور الخشنة، ولوت عضلات جسدها إلى الأعلى، تخترق بنابيها تلك اليد المزعجة التي تقيد حركتها، ألقت بها بجُل قوتها في الجرف الصخري، وأمسكت موضع العضة تقبض عليه بقوة تتحامل على الوجع.

أصوات أقدام قريبة استرعت انتباهها، التفتت حولها تبحث بلهفة عن الاتجاه الذي تنبعث منه، إلى أن رأت أمامها «قوس» وفي صحبته بعض الحرس.

- ساعدوني، يجب أن نعيده إلى الجبل.

ما إن رأى «رعد» في هذا الحال حتى ترجل «قوس» عن الحصان وتشارك مع رجلين في حمله فوق ظهر أحد الأحصنة.

لا يستطيع أي منهم ركوب «كحيل» الذي اهتاج ما إن ازدحم المكان. تساءَل «قوس» إن كان قد أصابها الضرر، لما رآها تعتصر معصمها بقوة، أخبرته بما حدث، طلب منها وصف الأفعى فأخبرته بما تتذكره.

- اطمئني، هذا النوع لا يحمل السم في فمه.

تبعتهم فوق صهوة الحصان الأسود، لم يكن الجسر هو الرابط الوحيد بين الحافتين، كانت ثمة مساحة من الأرض الممهدة.

- ألا يعرف «رعد» تلك المنطقة؟

وما إن تهامست لنفسها بذلك حتى سمعت أحد الحراس يقول لصاحبه: «لماذا لم يعُد الممسوس من الطريق الذي يعرفه؟».

عادت مرة أخرى إلى المفترق، وفي ضوء النهار الذي يكشف أكثر مما تكشفه مصابيح القمر، ألقت نظرة متفحصة في اتجاه الطريق الأيسر، الذي لم تختر السير فيه.

على مبعدة رأت سلة معلقة فوق إحدى الأشجار، لم تكن بحاجة إلى الاقتراب كي تعرف أنها السلة التي جمعت فيها الطعام لـ «مطر».

لو كانت قد ذهبت في هذا الاتجاه لالتقت «مطر»، لكنها اختارت دون عمد الذهاب إلى الهضبة الملونة، حيث الذكرى المشتركة لها مع «رعد».

الاتجاهات التي نختار هي التي ترسم لنا أقدارنا، هذا ما فكرت فيه بينما تسير بـ «كحيل» خلف الحرس، ترنو بقلق إلى «رعد» الغارق في سبات عميق.

ما إن بلغوا الجبل حتى رأت من بين المتجمهرين «كسار» الذي أفرج عنه من محبسه، لم تسترح لنظرته الخبيثة المتحدية. يحاول رسم التأثر والحزن فوق قسماته عبثًا، لا تعرف لمَ في تلك اللحظة تحديدًا مرَّ سؤال غريب بخاطرها: لم يرَ أحد من قبل ساحرة الغابة، ولا «رعد» نفسه تمكن من رصدها، فما الذي يثبت أنها امرأة، لا رجل مندس بين سكان الجبل، يبغض الممسوس، ويتمنى القضاء عليه؟

***

عبرت ساحرة الجبل الممرات بقوة وخيلاء، تتفتح الدروب أمامها، وتفسَح لها الأمكِنة. بلغت الممر المؤدي إلى غرفة «رعد»، فأمرت الحارسين اللذين يقفان على بابها: «لا تسمحا لأحد بدخول غرفة الممسوس بينما أنا برفقته».

وقبل أن تند عن أيٍّ منهما حركة، انفتح باب الغرفة أمامها.

أمالت برأسها في دهشة تستطلع هوية الشخص الذي خرج، أغلق الباب ووقف في مواجهتها.

امتلأ صدرها غيظًا، واشتعل لهيب الغضب في نظرات ترسلها كالحمم إلى وجه الفتاة المعادية. هتفت الساحرة: «ماذا تفعلين في غرفة الممسوس؟».

وقفت الفتاة التي لا تعرف اسمها، لكنها باتت تعرف من تكون، وإن انزلقت جميع الأسماء من جرف الذاكرة.

في جوهرها ثمة حقيقة مؤكدة، تخبرها كيف عليها أن تتعاطى مع هذه الأحداث الجارية.

أمرت ساحرة الجبل الحراس بحدة: «أبعِدوها من هنا، وإياكم أن تسمحوا لها بدخول غرفة الممسوس ثانية».

نظر الحراس إلى بعضهم للحظات استجلبت حنق الساحرة التي صاحت بهم: «لماذا لم تتحركوا؟ قلتُ أخرجوها من هنا».

قال أحدهم: «منعنا الممسوس من أن نمسَّها».

- إذا لم تستجِب لأوامري سأخبر الممسوس أنكَ عصيتني، وأخَّرت عليه العلاج الذي يحتاج إليه ليتعافى.
- معذرة يا ساحرة، لا يستطيع أيٌّ منا إخراجها.

تلاقت عينا الساحرة الغاضبتان بزوجين من الأعين يماثلانها في الإصرار والقوة، تتساءل في نفسها بحسرة: *هل تذكرت الفتاة من تكون، وما هي قادرة على فعله؟*

أخرجت صاحبة العينين اللتين لا تخافان ولا تُزجَران النبلة من جيبها، ثم مدت الحبل المطاطي إلى آخره، توجه حصاة صغيرة صوب الساحرة، وتقول بنبرة قاسية: «اغربي عن وجهي، لا أريد أن أراكِ بجوار تلك الغرفة ما دامت في صدري أنفاس تتردد».

سواء تذكرت الفتاة أم لم تتذكر، تيقنت الساحرة من كونها تجابه المرأة نفسها التي مرت بالواحة قبل ثلاثة أعوام.

تقدمت الساحرة عدة خطوات، صاحت وقد أصابت عقلها لوثة: «ألا تعرفين من أكون؟ أنا ساحرة الجبل التي لا يعصي أحد أمرها».

لم تهتز شعرة من جسد الفتاة التي بدت غاية في الجدية والحزم، تردف بحسم: «خطوة واحدة، وأقسم بمن رفع السماء من غير عمَد أن أخرجكِ من هنا بعين واحدة».

أدركت الساحرة من قسماتها، ووقفتها، ونبرتها أنها لا ترمي بتهديد أجوف، ستُفقِدها إحدى عينيها إن حاولت دخول الغرفة. لم تشعر بهذا الغضب من قبل، تساقطت هيبتها أمام الحراس كأوراق خريف لا نفع لها.

وأكثر ما أغاظها، أن تشهد «صدف» الواقفة في بداية الممر على هذا الذي حدث، بعين مفعمة بالحماس والأمل.

انطلقت الساحرة تغادر الممر، بغضب مستعر قادر على حرق الأخضر واليابس.

دخلت الفتاة الغرفة ثم أغلقت بابها، وقفت أمام فراش الرجل الذي لا يزال ضائعًا داخل عوالمه المظلمة، تسترجع ما أخبرها به عن حقيقة الرابط الذي يجمعهما، تستطيع الآن وبذهن أكثر وعيًا أن تتذكر لحظة مشوشة، بدت ككابوس قصير قابل للنسيان.

كانت خلالها تغادر الفراش في الليلة التي تسبق زفافها، تخطو فوق الأرض في أثناء نومها، تمسك بأعواد الثقاب التي تبقيها بجوار الفراش تحسبًا لانقطاع الكهرباء، تشعلها من غير وعي كأنها مخدَّرة، تسير في نومها وتحسب أنها داخل حلم في الصباح لن تتذكره!

تدني الشعلة من الستارة والسجادة وفرش الأريكة الصغيرة المجاورة، ثم تعود إلى فراشها مستكملة ما تظنه كابوسًا لا يحدث إلا داخل رأسها.

يتسرب الدخان إلى أنفها، لا تستيقظ إلا عندما تسمع صيحات «مشتاق» الذي يقتحم الغرفة بعدما اشتم رائحة دخان وأثاث يحترق، ورأى من أسفل الباب ضوء اللهب.

كان اللاوعي يعرف طوال الوقت حقيقة زواجها الذي غاب عن عقلها الواعي، فيحاول أن يبصِّرها في شكل كوابيس تتكاثف كلما اقترب موعد زفافها.

وكلما تعاظمت الضغوط داخل العقل الذي يحميها من ذكرى الحريق الأول، سيَّرها في أثناء النوم لتحقق بيدها اللعنة التي تحسب أنها تقيدها بسلاسل أبدية.

كانت هي التي تلعن نفسها بنفسها!

تفصد جبينها عرقًا، وشعرت بحرارة تتصاعد من بدنها، بعدما أدركت أخيرًا أنها هي نفسها مُشعِل النيران المجهول الذي كانت تبحث عنه.

دنت من الفراش تود لو تنزع عن وجه «رعد» ذلك اللثام الذي يحول بينهما، مثل درع غير قابل للاختراق.

هل يمكننا السير في الطريق نفسه وبلوغ نهاية مختلفة؟

هذا ما قررت أن تكتشفه.

***

في ممر منعزل عن الأعين، وضعت الساحرة كفها في كف «كسار» مصافحةً، بعد أن توحدت أهدافهما من جديد.

الساحرة ترغب في القضاء على الفتاة التي تهدد وجودها، و«كسار» يسعى للإطاحة بالممسوس الذي يحتل المكانة التي ينشدها.

في هذا الممر المنعزل حيكت خطة خبيثة التفاصيل، وُضعَت في الحال قيد التنفيذ!

دُنيازاد

وفي القرآن سورة اسمها البقرة

هي في الحياة خير وبركة

يتوه تاركها في دوائر مفرغة

ترهق قلبه وتذيقه حسرة

فيها شفاء من عين حاسدة

مذمومة مدحورة وبضاعة كاسدة

ترجو للنعمة زوالًا واندثارًا

ولها في النوايا أسهم فاسدة

هي للعالمين دواء ورحمة

وطرد لشياطين وخزي وسَقرة

إحدى الزهراوين ولصاحبها تشفع

ولا تستطيعها البطلة السحرة

هي من كلام الله سنام

وفي أواخرها آي حِسان

تمنع الخناس ليالي ثلاث

من المبيت فوق الأثاث!

الليلة التاسعة والثلاثون

هل الإنسان مخلوق قابل للتغيير، أم أن الكلمة الأخيرة لما جُبلَ عليه؟

(1)

هل يمكننا السير في الطريق نفسه وبلوغ نهاية مختلفة؟ هذا ما قررت أن تكتشفه.

بينما كانت على وشك أن تنزع اللثام عن صاحبه النائم في سبات عميق، أوقفتها طرقات متتابعة على الباب؛ وجدت «قوس» أمامها، يسألها بقلق بادٍ على مُحياه: «كيف حاله الآن، هل استيقظ؟».

- ليس بعدُ.

قالتها بأسى ثم بادرته في لهفة: «هل أخبرتكَ «صدف» عن محتويات القارورة التي أعطتها له؟».

في أثناء عبورهم الغابة وعودتهم إلى الجبل، أخبرها «قوس» برأس مطأطئ وخجل يكاد أن يفتك به، أن زوجته أعدت مع أمها شرابًا مخلوطًا بالسحر، يزيد من معاناة «رعد» ولا يمنحه الشفاء المرجو. أخرج من جيبه قارورة صغيرة، ثم قال ببشاشة: «عثرتُ عليها في قاعة القرار، لم يشرب منها ولو قطرة».

استرقت النظر خلف ظهرها إلى «رعد» الراقد في استكانة فوق الفراش، بأسى أفصحت عنه قسماتها بوضوح. أفصح «قوس»: «ساحرة الجبل كانت تحرص على تجديد السحر كي يبقى في حاجة دائمة إليها، لكنها أضعف من أن تستطيع شفاءه، لا أحد يفوق براعة ساحرة الغابة».

التفتت له تقول بثقة عجيبة: «ساحر الغابة، رجل لا امرأة!».

- كيف؟ من أخبركِ بذلك؟

- لم يخبرني أحد، منذ أن خرجنا من الغابة ثم عدنا إلى الجبل ورأيتُ سكانه يتجمهرون للاطمئنان على «رعد» راودني هذا الشعور الغريب، حاسة سادسة توجهني بشدة ناحية التفكير في أنه رجل لا امرأة.. أخبِرني، ماذا تعرف عنها، ساحرة الغابة أقصد؟

- امرأة معمِّرة، عمرها ألف سنة، تجيد فنون السحر، لا تأكل ولا تشرب، وكي تمنع سكان الواحة من المغادرة فإنها تُلقي في مياه البئر بسحر أسود مربوط بتعويذة نارية، مخبأة في بطن مومياء أثرية.. أسطورة نتحاكى عنها في الواحة منذ كنا صغارًا.

- هل رأيتَ من قبل شخصًا تضرر من سحرها؟

- كلها مزاعم وحكايات، لا أحد ظهر عليه آثارها قبل «رعد».

- وهذا ما يؤكد ظنوني.

انتظر «قوس» أن تخبره بما يدور بخلدها، ففعلت بعجالة وهي تسترق النظر مرة أخرى باهتمام؛ تطمئن على الرجل الذي انزلق إلى مملكة النوم ولم يعد منها بعدُ: «شخص ما استغل معرفتكم بأسطورة ساحرة الغابة التي يتجاوز عمرها متوسط عمر الإنسان العادي بشكل غير منطقي، شخص يجيد السحر ببراعة تفوق براعة ساحرة الجبل، رجل لا امرأة كما تظنون، يستطيع العيش بمفرده في الغابة لفترات طويلة، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يندس بين سكان الجبل دون أن يشك أحد بأمره».

أحدثت كلماتها أثرًا مدويًا في نفس «قوس»، الذي تجعد جبينه، وشردت نظرته، وتجهز عقله في محاولة لمعالجة تلك المعلومات الجديدة. تمتم معترضًا بوهن: «لكن لم يسبق أن كان للواحة ساحر، النساء دائمًا من ينشغلن بهذه الأمور».

- ولهذا لم يعثر «رعد» على ساحرة الغابة رغم تكرار الحملات والتفتيش عنها، فالمعتاد فوق أرضكم أن النساء هن من يمارسن السحر، وقد تحرى «رعد» عنهن ولم يعثر بينهن على ساحرة الغابة، لذلك فالأكثر منطقية أنه رجل لا امرأة، استطاع الإفلات من المراقبة.

ثم بادرته بجدية بالغة: «ساحرة الجبل تلك، يجب ألا تُترك على سجيتها، تلك المرأة الخبيثة ستسعى لتدمير ما لم تستطع الحصول عليه، عليكَ مراقبتها جيدًا».

أومأ «قوس» برأسه مؤكدًا، ثم تولى منصرفًا والشرود يتملكه، يطوف برأسه حديثها عن الساحر المندس بين رجال الجبل. لا يعرف طوال حياته رجلًا أبدى اهتمامًا بتعلم السحر وفنونه، إلا واحدًا فحسب، طافت صورته برأسه، بينما لسانه يردد: «مستحيل أن يكون ساحر الغابة هو...!».

يحرك رأسه بقوة كي ينفض عن مخيلته صورة الرجل التي ظهرت وتشبثت بتلافيف عقله، يعجز عن تصديق تلك الفكرة التي نبتت من رحم المستحيل، تتباطأ خطواته إلى أن تتوقف، ثم يتمتم بلسانٍ ذاهِل: «أم تُراه ممكنًا؟!».

***

تدنو من الفراش بروية، تخشى أن تزعجه، وفي الوقت نفسه تود لو تجمع كل ضجيج العالم داخل الغرفة كي توقظه.

تتذكر سؤالها لـ «قوس» في أثناء عودتهم من الغابة عن العقد الذي شهد عليه قبل ثلاث سنوات، يصمت قليلًا ثم يؤكد: «نعم، كنتُ شاهدًا».

- ولماذا لم تخبرني بذلك عندما تحدثنا تلك الليلة في المطبخ؟
- لأن عقدكما كان سرًّا محفوظًا عندي، وأنا رجل لا يخون الأمانات.
- لماذا كان سرًّا، لماذا لم يعرف بهذا الزواج كل من في الواحة؟
- من الأفضل أن يخبركِ «رعد» بنفسه.

وبقدر ما أزعجها شح المعلومات التي استطاعت تحصيلها منه، بقدر ما احترمت قدرته على حفظ السر، واحترامه لقرارات صديقه.

تتطلع إلى «رعد» الراقد، فتكره تلك النسخة الجديدة منه، لم تعتده إلا وهو يتحدث ويتحرك، يتحداها ويستفزها. كيف يجمعها به هذا الرابط القوي ويتركها طوال هذا الوقت تتخبط في التيه والعتمة؟

لماذا لم يخبرها منذ البداية فيقصر عليها الطريق الذي يقودها إليه، ويقوده إليها؟

فكرت قليلًا، ثم قدرت أنها لو كانت مكانه لربما انتظرت، إلى أن تتأكد من كل الشكوك التي تساورها. كان يظن أنها تركته يحترق عمدًا، قتلت ابنة أخته، أعدت خطة لسرقة الذهب، وهجرته هربًا.

لو كانت محله، لما أخبرته بالحقيقة، ولقررت أن تتريث.

همست وإن كان لن يسمعها: «هيا استيقظ، لدينا الكثير لنتشاجر بشأنه».

ودت لو يخوضان معًا حوارًا محتدمًا، يتهمها بأنها هاجرة، وبالعناد تتهمه. تلقي عليه حمم غضبها لأنه أخفى عنها الحقيقة بينما يسعى لاستفزازها أكثر، المهم أن يستيقظ.

تنتبه لتركها الباب مواربًا، وعندما تعود لتغلقه تجد شخصًا يقتحم الغرفة باندفاع أهوج؛ أقبل القاضي على فراش ابنه ملتاعًا، يتحسس رأسه وكتفه بطول ذراعه، كما لو كان يتفقد كل خلية في جسده، يسأل في لهفة عما حدث، فتجيبه أنه سقط نائمًا فجأة بعدما قاسى ألمًا مزلزلًا.

يجلس جوار الفراش ولا يترك كفه، ينظر إليه مناشدًا تلك العينين المغلقتين أن تعودا إلى الحياة مرة أخرى.

ترقُب هي بأسى لوعة الأب المفجوع في ابنه، تود لو تمسح فوق كتفه، وتقول ما تخفف به همه. يسألها في غلظة، يفرغ عليها من قهره: «ماذا تفعلين في هذه الغرفة؟».

تقف معتدلة، تعقد ذراعيها أمام صدرها، تنظر إلى عمق عينيه، ثم تقول بقوة من غير حدة: «أعتني بزوجي!».

تخرج الكلمة منها مرتعدة، تفض عنها المغلف لأول مرة، فتبدو لامعة بين شفتيها، فاتنة على أذنيها، ككل الكلمات التي تُلفظ لأول مرة.

تتبدى أمارات الانزعاج فوق قسمات القاضي، يهتف بحنقٍ يسبح وسط أنهار الدهشة: «هل أخبركِ؟».

ثم يعود ليسأل محتدًّا: «لماذا أخبركِ؟».

يهز رأسه المثقل بالهموم عاجزًا عن معرفة ما يقول أو يفعل، يتأمل ابنه النائم، وبوهنٍ يمسح بكفيه فوق وجهه المغضن، يزيل ما علق به من حزن ولوعة. تباغتُه: «لماذا «مطر» ليس هنا إلى جوار أخيه؟ لماذا تفرق بين توأمين نبتا في رحم واحد؟».

يمنحها نظرة جامدة، قاسية، مفرغة من المشاعر، تدفعها لأن تقول منفعلة: «أنت تظلم كليهما معًا، «رعد» بحاجة إلى «مطر»، و«مطر» بحاجة إلى «رعد»، كل منهما يكمل ما ينقص الآخر، ألا تستطيع أن ترى ذلك؟».

ثم صارت أكثر لينًا وهي تردف: «أرجوك فكر، ثم قرر، خسرت ابنًا، وبنتًا، وحفيدة، وزوجة، ألا تكفي كل تلك الخسائر؟.. ما زال لديك ثلاثة أبناء، اثنان بالواحة، وواحد خارجها، وحفيد محكوم بالتيه يحتاج إلى من يقوِّمه، ضمهم إلى صدرك، وأفض عليهم من حبك وحنانك ما سلبتْهم إياه تلك الحياة العتيدة».

تلمح في عينه نظرة انكسار رهيبة، فتتوقف عن الحديث رحمة بضعفه، الذي تسرب إلى مسامه يغزو جسده الواهن.

يستعيد شيئًا من قوته، يشير برأسه صوب ابنه، ثم يبادرها مستغيثًا ومناشدًا: «ألا تستطيعين مساعدته؟».

تقترب من الفراش أكثر، لا تحتمل ساقاها المزيد من الهموم فترتعد، تجلس على طرف الفراش، ثم تتطلع إلى القاضي الذي قال بمشقة، محاولًا استعادة ذكرى بعيدة: «أخبرتِنا أن الطريق إلى شفاء «رماح» يبدأ بالعثور على العمل المدفون بمكان ما بالواحة، وعندما أعجزنا التفكير اقترحتِ أن نبدأ من المقابر، كانت أمه قد ماتت حديثًا، فعثرنا على العمل المدسوس بالقرب من موضع دفنها، كانت الأرض غير المستوية في هذا الموضع تشي بأنها قد حُفرَت قريبًا».

بينما تسارعت أنفاسه أردف بوهن شيخ سرقت منه الحياة كل ما يملك: «وفي الوقت نفسه كنتِ تقرئين شيئًا من القرآن على «رماح» مستعينة بغصن صغير كي لا تضطري إلى لمسه، تطلبين منه ترديد أذكار وابتهالات ونظامًا صارمًا يسير عليه في العبادات، أشياء من هذا القبيل، ألا تستطيعين تكرار ذلك مع «رعد»؟ ألا يمكنكِ أن تُخفيه؟».

- أخفي من؟

- السحرة هم أعوان الشياطين، يرسلونهم إلى المسحور كي يؤذوه، كنتِ تحصنين «رماح» كي يبحث عنه الشيطان فلا يجده.. إن كان محصنًا سيصبح مخفيًّا عن أعينهم فلا يؤذونه.

ثم اختتم حديثة بحدة وانفعال مباغت: «إنه زوجكِ وعليكِ مساعدته».

كان متخبطًا لا يعرف هل يدنيها أم يبعدها، يستنجد بها، أم يستنجد منها. كل ما كان يدور بخلده هو إنقاذ ابنه، حتى وإن وضع كفه في كف الشيطان نفسه، كما تقبَّل وجود الساحرة في كنفه.

لم يكن الأمر بسهولة نطق القاضي لتلك التعليمات المقتضبة، كما لو أنه يصف خطة علاجية تستغرق ثواني معدودات، لكنها في الحقيقة رحلة طويلة شاقة. سألته مدهوشة: «لماذا لم تفعل هذا لأجله؟».

صمت القاضي طويلًا، أطول مما تسمح به الفترة التي يحتاج إليها لحشد الجواب، ثم أخيرًا قال باقتضاب ممزوج بالخجل: «لأنني لا أملك اليقين الكافي».

استوقفتها الكلمة للحظات طالت، اليقين، نعم، هذا هو الشعور المفقود في أرجاء الواحة.

منذ أن دخلت الواحة وهي تتساءل في نفسها، عن أكثر ما يفتقده هؤلاء الناس في حياتهم، إلى أن أتى القاضي بكلمة واحدة شاملة وجامعة، تلخص العنصر الغائب عن قلوبهم.

اليقين بأن الله هو الضار النافع، وأنهما صفتان مقترنتان تعامَلان كصفة واحدة، الله ليس الضار، بل الضار النافع، إن شاء أعطى وتفضل، وإن شاء منع وابتلى.

لو كان لديهم اليقين في ذلك لما سقطوا في مستنقع الشرك الظاهر، بلجوئهم إلى أحجبة ورقى وتعاويذ السحرة التي يزعمون أنها تحمي من يحملها، وتؤذي من توجه ضده، فيسندون صفة الضار النافع إلى غير أهلها.

ويغيب عنهم اليقين بأن الله هو الشافي للأرواح والقلوب والأبدان، وإنما الدواء والرقى والأطباء هم عوامل تُسخَّر، وأسباب تقود بمشيئته إلى نتائج.

ولأن القاضي المتخبط في غفلته، لا يعرف كيف يستعيد اليقين المفقود، ويخمش صدره الشك والالتباس والريبة، لم يتمكن من الاستعانة بالله ليُتم على ابنه شفاءً لا يحققه سواه.

بنظرات القاضي المشجعة، اقتربت أكثر من «رعد» في جلستها، تمد يدًا مترددة عازمة على نزع اللثام عن وجه كانت في شوق كبير إلى رؤيته، يراودها هاجس قوي أنها ما إن ترى وجهه، حتى تستعيد ذكرياتها الغائبة أو بعضها.

الوجه خلف اللثام يمثل القطعة المنقوصة من الأحجية، أثارها هذا الهاجس بقوة، رغم أنه الوجه ذاته الذي يحمله «مطر»، فإنها تشعر أنه بشكل ما سيُحدث فيها أثرًا مختلفًا.

ألهذا السبب امتنع «رعد» عن كشفه أمامها، لأنه لم يرِد للجرح الذي بينهما أن يلتئم بسهولة، يتركها متخبطة في الظلام كما تركته قبل ثلاث سنوات؟ أوقفها القاضي بغتة بنبرات حازمة: «لا تفعلي، ليس قبل أن يأذن «رعد» لكِ».

أزعجتها ممانعته الحاسمة، تركت اللثام على حاله وصبت تركيزها على «رعد» نفسه. بلا تردد هذه المرة تمد يدًا إلى رأسه، تقرأ بعضًا مما تحفظه غيبًا من كتاب الله، بينما القاضي ينقل بصره من ابنه إليها، بترقب ممزوج باللهفة.

تمر ساعة كاملة، يغمرها التعب فتتوقف، لا يستيقظ «رعد» ولا تند عنه حركة.

ينهض القاضي الناقم، ويترك الغرفة على عجالة دون كلمة، يقدم قلبه وليمة جاهزة على مائدة القنوط والسخط.

تتأكد في تلك اللحظة من كونه محقًّا؛ إنه رجل لا يملك اليقين الكافي، لا أحد في الواحة يملكه حقًّا.

***

تغفل عيناها المتعبتان لدقائق، بينما تجلس فوق المقعد الذي كان يجلس فوقه القاضي قبل قليل، يوقظها صوت صرير الباب فتنتفض، تقبل عليها «فضة» بنظرات شغوف مستطلعة، ووجه مشع بالبهجة، تنقل بصرها بينها و«رعد» المستكين في رقدته.

تتخبط الكلمات فوق لسانها، ولا تجد مبررًا تمنحه للطباخة يفسر وجودها في غرفة الممسوس، تنتظر بجواره إلى أن يستفيق من نومته. تمنحها «فضة» ابتسامة رحبة، وتسقط عنها الحاجة إلى التفكير في حجة ملفقة.

- أخبر القاضي الجميع.

تضطرب قسماتها، وتنهض عن المقعد متسائلة في وجل: «ماذا أخبركم القاضي؟».

تنقل الطباخة نظراتها الحانية بينهما، ثم تجيب: «أشهَر القاضي زواجكما، صار كل من بالجبل يعرف».

سقطت الفتاة التي صارت زوجة الممسوس علنًا فوق المقعد لا تحتمل ساقاها الوقوف أكثر. تسير الأحداث بوتيرة أسرع من قدرتها على التأقلم، ما زالت تجهل الكثير عن هذا الزواج المفاجئ، متى وكيف بدأ، وأين وكم استمر؟

ولماذا تغادر الواحة وتترك مِن خلفها زوجًا؟

ما زالت تجهل الكثير عن الرجل الذي يجمعها به رابط مقدس، عليها أن تتأكد إن كان يليق بقلبها حقًّا، أم أنه مجرد زلة قلب.

إن كان زلة فهي قادرة على تصويبها، لا ضعف فيها لتستمر في غلطة، حتى وإن صرخ قلبها ألمًا.

تخرِجها «فضة» من شرودها بيد ممتدة تحمل ورقة بيضاء مجعدة. ترفع إليها عينين متسائلتين فتفصح «فضة» بنبرة أمومية حانية: «هذا يخصك».

تلتقط منها الورقة ببطء وريبة، وقبل أن تسقط نظراتها فوق الكلمات المكتوبة بداخلها، تردف «فضة»: «إنها الرسالة التي تركتِها قبل رحيلكِ.. في اليوم التالي للحريق عثرتُ عليها مكورة ومجعدة وملقاة على بعد عدة أمتار من نافذة دار القاضي».

- هل أنا من كتبتها؟

تسأل مدهوشة، فتهز «فضة» كتفيها وتقول بنصف يقين ونصف شك: «أظن ذلك، لا أجيد القراءة، لكن أستطيع التخمين».

- لماذا احتفظتِ بها.

- لأن رحيلك كان لحظة فارقة في عمر الواحة، بدءًا من الحريق، وانتهاءً بانقسامنا ورحيلنا إلى الجبل، أشياء كثيرة حدثت، واللحظة التي حولت «رعد» إلى ممسوس الجبل كانت لحظة قراءته لما كتبتِه في هذه الورقة.

- كيف تعرفين أنها مِني وأنتِ لا تجيدين القراءة؟

- انظري إليها، إنها بيضاء تحوي أسطرًا محبرة بالأزرق، بينما ورق الواحة أصفر ومن غير أسطر نكتب فوقه بفحم أسود.

ثم تستطرد بحنان وتفهُّم: «ربما أخطأتِ قبل ثلاث سنوات، لكن من منا لا يخطئ؟ ربما الآن تستطيعين تصحيح خطئكِ، قبلتِ به زوجًا وقبل بكِ زوجة، كان بينكما شيء رابط قوي يستحق المحاربة لأجله، ويستحق فرصة أخرى».

تقول ذلك ثم تغادر الغرفة، بعد أن تسألها إن كانت بحاجة إلى ما تأكله أو تشربه، تهز رأسها نفيًا باهتمام منصب على الرسالة التي بين يديها.

تفتحها بحذر، فتسقط نظراتها على ما تحمله الأسطر من كلمات بلون أزرق، إنها لا تتذكر، لكنها تستطيع التعرف على خطها، وبخاصة أنه رشيق مميز.

استرقت النظر إلى «رعد» باهتمام، دثرته بالغطاء ما إن ندت عنه رجفة، ثم جلست تقرأ ما خطته أناملها قبل ثلاث سنوات:

(إلى المرسَل إليه الذي لا يعرف ما ينتظره، الذي ستتغير حياته ما إن يقرأ تلك الكلمات، ولن يعود الشخص نفسه.

لستُ أنوي أن أفسر كيف ولماذا وافقتُ على أن أكون شريكة في تلك الخطة، ولست بصدد تقديم مبررات أو أعذار صماء لن تُحدث الأثر المرجو، لأن الحقيقة دائمًا تؤلم، مثل شوك في ساق وردة.

فقط أردتُ التوضيح قبل الرحيل، لئلا تظنوا أنني قد أعود يومًا، أكتب هذا الآن لأقتل الأمل في مهده، أنا لن أعود إلى الواحة أبدًا.

ستُلقي جبال الملام فوق عاتقي لأنني ساعدتُ زوجة مكلومة تتألم، على الانتقام من أخرى سرقت منها حياة وزوجًا.

للموت وجه واحد، وللحياة وجوه عدة، لسنا واحدًا، بل عقول وقلوب مختلفة، ومن اختلافها نتلون ونتنوع، لهذا ربما لا تستطيعون فهمي أو مسامحتي يومًا.

لكن هذا أنا، وهاكَ ما فعلته.

عشر سبائك من مخزون الواحة من الذهب ثمنًا لحياة فرد من عائلة القاضي، لن أخبركم من سيخسر، لن يعرف القاضي أي فرد من عائلته سيُحرَم منه الليلة، سيُفجع فيه فجأة.

تغير المكان الذي تخبئون فيه مخزون الواحة من الذهب، الذي عرفته بالتسلل إلى حياتكم بخطة محكمة وحكاية تُصدَّق، والآن أريد ما جئتُ لأجله.

لكل فِعل ثمنه، وعلى القاضي أن يدفع، وإلا سيمضي عمره يتجرع مرارة الندم، الندم وحده).

انتهت من قراءة الرسالة بقلبٍ واجف، وعقل يتخبط، الخط خطها، والكلمات من جعبتها، هكذا تبدأ الرسائل وهكذا تُنهيها فجأة.

تدور في الغرفة مثل مجنون لا يعثر لنفسه على مأوى، تهذي بكلمات تعاتب فيها نفسه، تلومها، وتتشاجر معها.

كيف كتبت هذه الكلمات، ولماذا فعلت ما فعلت؟

هل هي التي ألقت بـ «سراب» في البئر عندما امتنع القاضي عن تقديم الذهب ثمنًا لإنقاذها؟ هل هي شريكة في الإثم حقًّا؟

تعود لتجلس، تشعر بأشواك توخزها فلا تعرف موضعًا يريحها من ألم يقبض على قلبها ويعتصره.

الخط خطها، هذا يقين لا شك فيه.

بينما تحتشد العبرات في عينيها تتطلع إلى «رعد» مستشعرة مرارة القهر الذي أطعمته إياه كَرهًا، تود لو تصيح فيه: يجب عليك ألا تسامحني أبدًا.

***

(2)

كانت «فلك» تتلمظ الخوف والحسرة، لا يدخل جوفها طعام أو شراب إلا وشعرت بشفرات حادة تمزق أحشاءها.

ماذا لو لم يعِد «مشتاق» بعضها الذي سرقه؟ ماذا لو ظلت حبيسة الحجر الأسود؟ والأسوأ، لو جعل «هلال» يرى ما حدث داخل بلورته السحرية كما أقسم.

سيلفظها «هلال» فورًا، لن ينظر إلى وجهها مرة أخرى، رغم أنها لم تخطئ، هو الذي كان يطاردها، وهي كانت تزجره وتهرب. لكن «هلال» لن يتفهم، وبخاصة إن كرر «مشتاق» على سمعه أنها من فتحت الباب الذي ولجه.

ماذا عليها أن تفعل؟

يستيقظ «هلال» فزعًا، يبحث عنها في الدار إلى أن يعثر عليها في المطبخ، تتظاهر بالانهماك في إعداد الطعام ما إن تسمع خطواته تدنو. يعتذر عن سقوطه في بئر النوم قسرًا، وعن تعب قاساه يومًا طويلًا في الطاحونة وحده.

تتمتم بشيء تخفف به من حدة ندمه، فلا يقنع؛ يظنها تتظاهر بالتفهم بينما في داخلها تتلوى غيظًا، لأنها هكذا كانت تفعل.

يقترب أكثر، فتهرب، وكلما اقترب أبقت على مسافة بينهما لا تسمح له برؤية عينيها المحمرتين من أثر البكاء. ينتبه، فيديرها نحوه ويسأل: ««فلك» هل أحزنكِ نومي إلى هذا الحد؟»».

تجيبه نفيًا، فلا يصدق، يحاول استنطاقها، فتخبره بأنها تشعر بتوعك منذ الصباح لا تدري له سببًا. يحمل معطفه ثم يقول بلهفة: «فلنذهب إلى أمكِ، ربما عندها وصفة تنفعكِ».

- لا أريد الذهاب إليها.

- إذن فلنذهب إلى أمي.

- وهذه أيضًا لا أريد الذهاب إليها.

- إذن فلنلتمس الدواء عند المطبب.
- لا داعي، بعد قليل سأتحسن.

لم يركن إلى ادعاءات أن حالها صار أفضل، أصر عليها أن تخرج، فتمسكت بعناد وقررت أن تبقى؛ تخاف أن يتقابلا مع «مشتاق» في الطريق فيطيش عقله.

يتبدى الغم جليًّا فوق قسماتها، يجاورها فوق الأريكة وقد كف عن طلب الخروج، يرنو إليها بنظرات حانية، تزيد من شعورها بالذنب والوهن، ثم ينهض فجأة. يمد يده في جيب معطفه ويخرِج منه قارورة، ثم يعود ليجاورها فوق المجلس، ومن يديها يدنيها.

تتأمل «فلك» القارورة في حيرة، ثم تسأله عن السائل الأحمر بداخلها. فيقول مبتهجًا: «عصير رمان».

تندهش «فلك» قائلة: «من أين أتيتَ به؟».

- أخبرتِني منذ أيام أنكِ تحبين الرمان لكن يزعجكِ بذره، تمنيتِ أن يكون بالواحة معصرة تستخرج السائل اللذيذ من داخله دون أن تضطري إلى أكله.. ذهبت إلى معصرة الزيتون التي يملكها عمي «طوفان» وعصرته بنفسي.

فتحت الغطاء واشتمت رائحة الرمان ممزوجة بالزيتون، استنشقها بدوره، فقال بضيق: «نظفت أداة العصر جيدًا لكن أبَت رائحة الزيتون أن تخرج».

لم تعبأ بما خالط الرمان من أثر الزيتون الواضح، استوقفها تذكره لأمنيتها السخيفة التي راودتها عن عصر الرمان دون أكله. تمسكت بالقارورة كأنها حلم مستحيل يتحقق، مشروب سحري صُنِع لها وحدها، اجتهد «هلال» في إعداده لأجلها، فقط لأنها اشتهت وتمنت.

لم يقل لها كلمات مُسكرة كما ودت دائمًا أن تسمع، إلا أن ما فعله كان له الأثر نفسه.

فكرت، منذ أن تزوجها وسكنا دارًا واحدة، ماذا قدمت له هي؟ بماذا فاجأته؟ ما تعترف به لنفسها أنها لم تقترب منه كفاية، لم تعرفه حقًّا.

إذا أرادت إسعاد إنسان عليها أولًا أن تفهمه، وهي لم تستطِع إلى الآن أن تقف مع «هلال» فوق أرض مشتركة.

تراه يحاول، يبذل جهدًا للتلاقي في منتصف الطريق، بات بإمكانها إدراك هذا، وعليها أيضًا أن تسعى. بينهما اختلافات كثيرة هذا مؤكد، لكن أحيانًا يكون الاختلاف بوابة للعبور إلى عالم أكثر رحابة، تتعلم فيه ما تجهل.

تشكره ممتنة، ثم ترفع القارورة إلى فمها، تتجاهل النكهة اللاذعة للزيتون، وتحاول الاستمتاع بنكهة الرمان المسكَّرة.

هكذا الحياة، مزيج من النكهات المتنافرة، عليها أن تتخير أيها تريد أن تبقى في فمها، وأيها تحاول التعايش معها، أو تتجاهلها، أو تمزجها بمذاق أقوى.

خرج «هلال» من الدار تغمره راحة لم يذقها منذ فترة، التقى أسفل شجرة وارفة «طوفان» الذي يستظل في كنفها، شاركه الجلوس دون تحية، زاحم الصمت المجلس بينهما، إلى أن قال «هلال» مباغتًا: «عمي أريد أن أسألك شيئًا، كيف تسعد امرأة؟».

كان «طوفان» غارقًا في همه، يتقاذفه التفكير يمنة ويسرة، يلقيه بين أمل مرجو وقنوط يلوح في الأفق، رغم ذلك انفجر ضاحكًا بصخب ما إن سمع السؤال الذي قيل بجدية، ثم التفت صوب «هلال» ولا يزال يضحك: «هل سقطتَ على رأسكَ؟ لم أعتدكَ تسأل مثل هذه الأسئلة.. لو لم تكن أمك امرأة لظننتُك تجهل أن النساء يعشن معنا في الواحة».

هب «هلال» واقفًا في غضب، يثير الغبار من حوله، يقول منفعلًا: «تضحك؟ أنا المخطئ، جئتُ ألتمس النصيحة عند رجل تسبب في تعاسة ثلاث من نساء الواحة ويعتزم إفساد حياة الرابعة».

جذبه «طوفان» جذبة قوية أخلت بتوازنه وأسقطته إلى جواره حيث كان يجلس. نزع «هلال» ذراعه بعصبية، ثم شرع يزيح الرمال التي علقت بملابسه، بينما «طوفان» يستطرد: «اجلس ولا تتصرف مثل الصِّبية، اسمع يا فتى، لكي تسعِد امرأة عليكَ أولًا أن تفهمها، النساء كحديقة فواكه غنَّاء، كلٌّ منهن ثمرة مختلفة، فريدة، لا مثيل لها مهما تشابهت النكهات والروائح».

اعتدل «طوفان» في جلسته، ثم أردف آمرًا: «تخيل زوجتَك ثمرة بعينها، أي ثمرة تجد أنها تليق بها، فكر، ولا تخبرني بما اخترته».

أطرق «هلال» للحظات ثم رفع رأسه يهزها، في إشارة لكونه قد عثر على الثمرة المتخيلة، استطرد «طوفان» بالجدية ذاتها: «والآن أمسك هذه الثمرة

بين يديك، قلِّبها جيدًا، افحصها، ثم تشممها، هل للثمرة قشرة؟ حسنًا، الآن مزق القشرة بالاستعانة بسكين متخيَّل، لا تفسد الثمرة، فقط قشرها من الخارج، واحتفظ بلبها متماسكًا، هل انتهيت من تقشيرها؟ حسنًا، الآن ألقِ بالثمرة ثم تذوق القشرة».

تطلع إليه «هلال» مدهوشًا يتساءل في حيرة: «لماذا أترك الثمرة وآكل القشرة، أليس من المفترض العكس؟».

شد «طوفان» بكفه فوق كتف «هلال» القريب منه، ثم قال: «لقشور الفاكهة فوائد جمة، النساء يخفين أسرارهن في القشور المرة، تفسد الزيجات عندما ننظر إلى ما نشتهي أن نراه في الآخر، لا ما يجب علينا أن نراه حقًّا، تفسد العلاقات عندما نتجاهل القشور ونظن أنها لا تنفع.. لا تغفل القشور يا «هلال»، ولا تلقِ بها أرضًا».

أومأ «هلال» برأس شارد، يعيد تدوير كلمات «طوفان» داخل عقله. لم يعرف «فلك» حقًّا، رأى ما ود أن يراه من جمال ونسب وسُمعة، ولم ينتبه إلى ما يجب أن يراه في المرأة التي اختارها زوجة».

غفل عن التفاهم، والتآلف، والاتفاق الذي يمهد دروب الوِد ويعد بحياة سعيدة مشتركة.

كان عليه التحدث إليها قبل أن يجمعهما بيت واحد، مرة وعشرًا، يفهم فيما تفكر، وبما تشعر، من أي نافذة تتطلع إلى الحياة، وبأي عين ترى نفسها والآخرين، وأين مكانه من حياتهما المشتركة.

كان عليه أن يقرأ نظراتها وهمساتها ونبراتها وحركاتها وحتى سكناتها؛ كان عليه أن يرى ما يختبئ داخل القشور، إن فسدت القشور تفسد الثمرة، كان عليه أن يراها حقًّا.

رغم أنه تأخر كثيرًا، لكن لا يزال بإمكانه تصويب الخطأ، ما دامت الشمس تشرق وتغرب، تمنحه يومًا جديدًا، وفرصًا تتجدد.

أخرجه من شروده مزاح «طوفان» المفاجئ: «هل تشرب شاي قشور المانجو؟».

احتقن وجه «هلال» غيظًا، فأطلق «طوفان» ضحكة مجلجلة كأن قلبه خالٍ من الهموم.

أدرك أن «هلال» اختار المانجو من بين حديقة الفواكه المتخيَّلة، لأنها أكثر ثمرة يحبها، خمن أنه سيلتقط الثمرة الأقرب إلى نفسه دون أن يحاول إجهاد عقله.

- أنتَ شخص متوقَّع كثيرًا يا «هلال»، كثيرًا.

ثم قبض بيده على مؤخرة عنقه، يستطرد بجدية بددت المزاح الذي كان حاضرًا قبل لحظات: «إن ذكرت زيجاتي مرة أخرى سيكون رد فعلي عنيفًا يا بن أخي».

حرر «هلال» عنقه بقوة، ثم ازدرد ريقه يتجرع مرارة الصفعة. يقول بنبرة مستفزة: «أراكَ مرحًا على غير عادتكَ، خيرًا إن شاء الله؟».

لم يكن قلب «طوفان» يحمل شيئًا من البهجة كما يظن الرائي، بل تملؤه الهواجس والخيبات والحسرة. يحاول البحث عن حل يمكِّنه من الخروج من هذا المأزق؛ سقط عنقه بين أنياب «أم الرمال» وأسنان زوجته الأولى، إحداهما ستعضه لا محالة، ستمزقه، وتنهش لحمه، هذا إن لم تتحدا معًا ضده.

الأبواب مغلقة، لا عاصم له اليوم ولا مهرب، لكنه لن ييأس، ولن يستسلم.

الطوفان قادم لا محالة، وعليه أن يصنع سفينة النجاة بنفسه، لأجله ولأجل «سلام». التفت إلى «هلال»، يقول بقوة: «اسمعني جيدًا، أريد أن أخبركَ أمرًا».

أصاخ «هلال» السمع، ورغم تأهبه لسماع شيء غير عادي نظرًا لما أبداه «طوفان» من جدية وحزم، فإنه لم يتوقع قط ما سمعه.

أخرج «طوفان» السر من الصندوق الخشبي، وبكلمات واضحة صنع له رئتين وسمح له أخيرًا أن يتنفس: «أنا أحب «سلام»!».

***

كانت الساحرة تجوب قاعتها بعصبية بالغة.

لا تستطيع تحمل فكرة أن غريمتها تقدمت عليها في تلك الجولة. انتشر خبر الزواج بين سكان الجبل كالنار في الهشيم، استقبله الجميع بحيرة ودهشة.

لو لم يكن القاضي هو المعلن، و«قوس» الشاهد الذي يؤكد، لظنوا أنها خدعة. توالدت الأسئلة في عقولهم وفوق ألسنتم؛ لماذا يتزوج الممسوس بالغريبة التي لا يعرفون عنها شيئًا؟

لماذا يفضِّلها على بنات الواحة معلومات الأصل والنسب؟ لماذا تركته طوال هذه السنوات، ولماذا عادت؟

أسئلة كثيرة لا يعثرون لها على إجابة، نبتت في أعينهم وهم يتطلعون إليها في أثناء سيرها في الممرات ومن خلفها ثلة من الحراس. تدرك الفضول النابت من تلك الأعين التي تتبعها حيث ذهبت، تجاهلت كل ما يؤخرها عن الهدف العاجل الذي تركت غرفة «رعد» لأجله.

اقتحمت قاعة الساحرة دون أن تطرق الباب أو تستأذن للدخول، فما كان من الساحرة إلا أنها تركت عرشها ودنت منها في غضب مستعر، تصيح في وجهها: «كيف تجرئين على اقتحام قاعتي؟».

تشير الفتاة إلى الحراس القادمين من خلفها وتلقي بأوامرها على مسمع ومرأى من الساحرة: «اجمعوا كل أغراضها، القوارير، والأوراق، والكتب، كل تعويذة وكل تميمة، وكل عشبة حتى وإن كانت إكليل الجبل».

جن جنون الساحرة، خطت صوب الفتاة باندفاع ناهرة: «كيف تجرئين؟ من أنتِ لتأمري الحراس بالعبث في أغراضي؟».

تقدمت الفتاة من الساحرة حتى ابتلعت المسافة الفاصلة بينهما إلا خطوة، في إشارة واضحة لكونها لا تهابها كما يفعل الآخرون، تقول بحزم مشوب بالقسوة: «رغم أنني متأكدة أن الخبر وصل إليكِ، لكن كما يقال في الإعادة إفادة، أنا زوجة سيد الجبل، أفعل ما أشاء، وليس عليكِ سوى السمع والطاعة».

يتسرب إلى قلب الساحرة شيء من الرهبة، الرهبة ذاتها التي كانت تشعر بها وهي تواجه الفتاة قبل أن تفقد الذاكرة.

من أين تستمد تلك القوة، وكيف لا تخافها؟

شرع الحراس في تلبية أوامر المرأة التي صارت زوجة لقائدهم، دون تردد أو مساءلة. في تلك اللحظة أيقنت الساحرة أنها لم تخسر الجولة فحسب، بل هي على شفا خسارة المعركة؛ تنامى في داخلها غضب كالنار ينهش أحشاءها، ودت لو نفثت لفحاته في وجه الفتاة التي تنظر إليها في تحدٍّ وغطرسة، إلا أنها أحجمت، أبقت النار بداخلها تلتهب، لوقت معلوم ستتمكن فيه من حرق كل ما لم تستطع أن تتملكه.

جمع الحراس كل الأغراض التي تستخدمها في حَبك أعمالها وتعاويذها، ثم خرجوا من القاعة تتبعهم زوجة قائدهم بعد دقائق.

إذ وقفت أمام الساحرة تجابهها عينًا بعين، تقول محذرة: «لو مارستِ خبثك مرة أخرى في هذا الجبل، ستُطرَدين منه إلى الأبد، لن تعودي إلى الواحة، بل ستُقذَفين إلى الصحراء محكومة بالتيه فيها، إما يعثر عليكِ قدرًا دليل متقفٍّ للأثر، وإما تموتين جوعًا وعطشًا.. هذا إن لم يسبقهم إليكِ حيوان هائم يبحث عن وليمة».

هذه المرأة الآثمة كانت تمارس على «رعد» النُّشرة؛ فك السحر بالسحر. وما تؤمن به الفتاة من صميم قلبها أن النُّشرة من أعمال الشيطان.

ولما أعجزها أن تحل السحر بالسحر، قررت أن تزيد من أسقام «رعد» ليظل بحاجة إليها في الجبل.

لن تسمح بعد الآن إلا بممارسة النُّشرة الجائزة التي تخلو من السحر، وترتكز على البحث عنه واستخراجه ومعالجة المسحور بكلمات ربه. ستنشُر عن «رعد» السحر، وتزيل عنه ما خامره، وأول الطريق إلى ذلك هو تقييد سلطة تلك المرأة التي تتقرب إلى الشيطان بما يحب ويسعد.

كان بإمكانها أن تغادر بعدما أنهت تحذيرها، إلا أنها وإمعانًا في التقليل من شأن الساحرة، ولتوضح من منهما الآمِر، ومن المأمور، أردفت بنظرة قوية مسددة: «مفهوم؟».

ظلت مكانها غير عازمة على المغادرة إلا بعدما تلفظت الساحرة بالكلمة من بين أسنانها التي تصطك ببعضها: «مفهوم».

غادرت القاعة تغلق الباب من خلفها بقوة، بينما الساحرة تنظر إلى الباب بعين يطوف بها الحقد سبعة أشواط ثم تبيت آخر الليل بين ذراعَي شيطان الانتقام.

***

يقف ماضيها على حافة النسيان، يطوف حولها، يأبى العودة إلى مستودع الذاكرة.

تقبض على الرسالة بكفٍّ، وبالأخرى تمسك بيد «رعد» بعد أن نزعت عنها القفاز، تحاول أن تقرأ في خشونة كفه وما بها من شقوق ما ينشط حواسها، ويعيد إليها ذكرى ضائعة.

لم تحاول كشف اللثام ثانية، ليس لأن القاضي نهرها، بل لكونها كانت جد متوجسة، تود أن يكون واقفًا أمامها حين تراه، ويقرأ في عينيها نظرة لا تعبأ بجروح وجهه الغائرة وآثار الحريق الشائهة.

- أنتِ هنا حقًّا أم أنني أهذي؟

تطلعت إليه ذاهلة، تتأمل من وجهها كل ملمَح، تميل صوبه وتسأله في لهفة: «هل أنتَ بخير؟ بماذا تشعر؟».

يتململ في موضعه، يقاسي شيئًا من الألم يتبدى في أنين خافت، يتريث في الجواب مستمتعًا بما يراها عليه من اهتمام ولوعة: «أشعر بالسخط».

تمنحه نظرة حائرة عاجزة عن فهم السبب، فيستطرد موضحًا: «إن كنتُ في الجنة فلماذا لدي حورية واحدة لا دزينة كاملة؟».

تسدد له نظرة زجرة موجعة، تدس الرسالة في جيبها في غفلة منه، ثم تبتعد باضطراب مشيرة إلى الباب المغلق: «هل آمر الحراس باستدعاء القاضي؟ أتى لزيارتك مرتين، كان قلقًا».

- تأمرين الحراس!

اعتدل في جلسته، وضع وسادة خلف ظهره، ثم أمال عنقه يتطلع إليها من رأسها إلى أخمص قدميها. قال متفكهًا، كأنه لم يقاسِ ألم السحر لساعات بل أتى من نزهة: «هل غفوتُ طويلًا إلى هذه الدرجة؟ منذ متى يتلقى رجالي أمرًا منكِ؟».

قبل أن تعثر على جواب مناسب أوقفها بإشارة من سبابته، يتأمل الشمس القائظة وهي تتوسط السماء من فتحة جدارية واسعة، ثم يقول متخابثًا: «لحظة لحظة، هل أمضيتِ الليلة معي في الغرفة؟».

- ليس معكَ.

تصيح بحدة، تتحسس الحجارة الصغيرة في جيبها، تود لو تقذف إحداها في منتصف جبهته.

- بما أنكَ استعدتَ قدرتكَ على الاستفزاز إذن فقد صرت بخير، ويمكنني أخيرًا العودة إلى غرفتي.

- غرفتكِ؟ تتحدثين كأن الجبل بيتكِ؟ يبدو أن نومي قد طال حقًّا.

تطلع إلى بطانية إضافية فوق المقعد، ومنشفة مسندة إلى المشجب، فأشار برأسه صوب الخزانة ثم أردف: «هل وضعتِ ملابسكِ في خزانتي أيضًا؟».

- أنت حقًّا لا تُطاق.

قالت ذلك بلا غيظ توحي به كلماتها، كانت سعيدة برؤيته يتحدث ويتحرك. أمسك بها قبل أن تضغط فوق مقبض الباب لتفتحه، كان يلهث، ويسعل سعالًا خفيفًا يحاول كبحه، ما زال يتألم، تستطيع أن تعرف ذلك دون حاجة إلى أن يفصح.

صار أفضل، لكنه لم يشفَ بعدُ، ما زال الخبَث يرتع في جسده، ويذيقه صنوفًا من الألم والعذاب يكابدهم وحده، كانت مدركة لقدرته الجبارة على أن يضبط نبرات صوته ليبدو بخير حين لا يكون كذلك.

- أنتِ هنا، بقيتِ معي، لماذا؟

- قلقتُ، ليس أكثر.

- كان بإمكانكِ أن تطمئني على أحوالي من «فضة» مثلًا.

يتقلب به الشوق مرة أخرى بين خوف ولهفة، يريد أن يسمع منها أنها تهتم لأمره، أنها ستبقى هذه المرة ولن تذهب.

- انظري إليَّ ولا تبعدي عينيكِ.

يدير وجهها بأطراف أنامله التي نزعت عنها قفازها، بحنين يفيض، وشوق لترميم كل ما تهدم. سبقت لهفته خوفه، لم يعد يطيق الانتظار أكثر: «عندما كنا نتحدث معًا في الغابة، وقبل أن أسقط في النوم، كنتُ جاهزًا لإخبارك بكل شيء، ولاستعادة كل شيء».

كان مستعدًّا لتكذيب عينيه وتصديقها، أن يلقي بكل الحقائق التي يعرفها خلف ظهره، ويختار الكذبة التي لا تكون فيها الطرف الذي أضر وتخلى. يجهل أنها من صارت تشك في براءتها، وتحمل في جيبها دليل الجرم الذي يعرف جيدًا بشأنه.

كيف بعد كل ما رآه وقرأه لا يزال قادرًا على منحها فرصة؟

سعت للهرب من اللحظة المتخمة بالعاطفة، أشَّرت برأسها صوب الجدار المعلق فوقه الرمح الطويل، ثم تساءلت: «عثرتُ على سرك».

أدار عينيه حيث تنظر، ثم التفت لها وقد ضاقت عيناه في نظرة مستمتعة، يقول: «يبدو أنكِ فتشتِ كل شبر بغرفتي كما لو أنها تخصك».

- وجدته صدفة، كنتُ أتفحص الرمح عندما لاحظت انبعاجًا في الجدار المعلق فوقه، في المكتبة التي أعمل بها قرأتُ روايات عدة عن قصور قديمة بها ممرات سرية، فخطر لي أنك لربما صنعت لنفسكَ واحدًا، سيد الجبل الذي حفر مدينة من الحجر يستحيل أن يفوت تلك الفرصة، لكن ما لم أستطع معرفته، إلى أين يقود هذا الممر السري؟

- وماذا تظنين، هل أتلصص مثلًا على خصوصيات سكان الجبل سرًّا.. أم أمارس هواية غريبة شاذة؟

تطلعت إليه لائمة، فهذا لم يخطر ببالها لحظة. أدرك أنه تمادى، فهز رأسه موضحًا بنبرة تحمل من الشجن الكثير: «الواحة جزء أصيل مني، ترابها وسماؤها ونخيلها وكل شبر في أرضها.. أحبها رغم أنني لم أعد أثق في أهلها.. هذا النفق الطويل والعميق لا يعرف أحد بشأنه إلا أنا والقاضي.. يقود مباشرة إلى الطرف الآخر من الهاوية.. حيث الواحة وما عليها، بداية الممر هنا في غرفتي، ونهايته عند المكان الذي فارقته بقلب محترق.. حيث الدار القديمة.. والأماني المجهَضة».

ودت لو تمحو كل ألم ينبض في ذاكرته، لكن كيف لها وهي منبع هذا الألم ومنشئته؟

- تقول لا أحد يعرف بشأن هذا النفق، كيف استطعت بناءه وحدك؟

سمعَت من خلف اللثام ضحكة مرحة، مسحت على قلبها بأيادي البهجة، تبعها بقوله: «بالتأكيد لست عفيًّا لهذه الدرجة، هذا النفق حُفِر منذ زمن بعيد.. كانت الهاوية بحيرة ممتلئة بالماء تفصل الواحة عن الجبل قبل أن تجففها الحرارة، حفر أجدادنا نفقين يصلان بين الحافتين؛ أحدهما معلوم للجميع وهو الذي ردمته بالحجارة، والآخر سري كان يستخدمه الكبراء وأرباب التجارة، وعندما تخير أبي الموضع القريب من الحافة الذي تظلله أشجار البندق لبناء الدار له ولأمي، لم يعرف أنه يقف فوق فتحة النفق السري الذي استخدمه الأجداد من قبله.. حفرت من غرفتي ممرًّا يصل مباشرة إلى هذا النفق، وصار بإمكاني دخول الواحة والخروج منها دون أن يراني أحد».

- وماذا تفعل في الواحة؟ وكيف لم يرَك أحد؟

- يروقني أحيانًا المكوث منعزلًا في الدار القديمة المحترقة في غفلة عن الجميع، أذهب إليها تحت أعين القمر عندما يكون أهل الواحة في دورهم، حرمتهم المساء.. وصار لي وحدي.

أدركت أن هذا الرجل يعيش في عزلة رغم كثرة أتباعه وحراسه ومن يأتمرون بأمره، تمزق الوحدة نياط قلبه، وترتع الأفكار المسمومة في رأسه. يرنو إليها بحنوٍّ ويردف بنبرة مختلجة: «كنا نحب الليل، كان القمر شاهدًا على كل جميل يجمعنا».

تساقطت عبرة فوق وجنتها دون أن تشعر، يمسحها برفق، يحسبها بائسة لعدم قدرتها على التذكر، يقول بنبرته المفعمة بالعاطفة والحماسة التي باتت تحبها وتألفها: «سنُحبِّر تلك الصفحات البيضاء من جديد كلمة كلمة وحرفًا حرفًا، حتى وإن تطلب ذلك أن نبدأ حكايتنا من الصفر، سنذهب إلى الأماكن التي ذهبنا إليها، سنكرر الأحداث كما وقعت، والحوار كما قيل، والمشهد بتفاصيله كما رسمه الزمن بريشته.. سنرسم فوق خط الزمن خطًّا جديدًا يقودنا إلى النقطة التي كنا عندها قبل الحريق.. سنعيش الذكريات مرة أخرى، لتكون ذكرياتكِ مرة أخرى».

أحبت الطريقة التي ينظر بها إليها، لا ترغب في تذكر أي شيء عن المرأة التي كانت عليها، كأنها وُلدت للتو، بلا ماضٍ، بلا هوية. راقتها فكرة أن تعود طفلة كيوم ولدتها أمها؛ بلا ندم، أو حقوق عباد متعلقة في رقبتها.

لكن كيف لها أن تنسى ما قرأته في رسالتها، الكلمات التي طعنت «رعد» في ظهره، وبترت يد القاضي التي امتدت لها بالإحسان والرحمة؟

تنظر إليه بعين تقول: آسفة، بينما ينظر إليها بعين تهتف: اشتقتُ إليكِ. تتمتم بوجه محتقن يتلوى غيظًا: «كيف يسمحون لي أن أُخطَب مرتين بينما أنا في عصمة رجل؟».

تتجمد أنامله فوق وجهها، يميل برأسه وبصوت أجش يسأل: «من التي خُطبت مرتين؟».

قصت عليه بشكل مقتضب حكاية اللعنة، وإصرارها على الخطبة كي تثبت لنفسها أنها فتاة طبيعية تستطيع متى شاءت أن تتزوج. قذفت نظراته لهبًا، شعرت بسخونته فوق بشرتها، أحكم قبضتيه ثم دار حول نفسه يتلمظ

غيظًا. يعود ليقف أمامها ويصيح بقوة: «كيف تُخطبين إلى غيري؟ كيف سمحتِ لهذا أن يحدث؟».

كما لو كان قد تناسى للحظات أنها غير ملامة لفقدها تلك الذكريات التي يتحدث عنها، لم تقدم تبريرًا يعرفه جيدًا، فقط صمتت، إلى أن تعبر العاصفة ويهدأ.

تقف معه على الدرجة نفسها من الغضب، لا من نفسها فحسب، بل من العائلة التي خدعتها، وأجرمت في حقها.

تنهش الغيرة قلبه، وتطبع بصمات غائرة في عينه.

- أريد أن أعرف كل شيء، كل تفصيلة صغيرة منذ رحيلك عن الواحة وحتى عودتكِ إليها، كل شيء.

- ليس الآن.

- بل الآن.

- أنا حقًّا متعَبة.

قالتها بوهن ثم تركته وتولت، بينما هو يفكر: هل مالت لأيٍّ من الرجلين، هل دق قلبها لغيره؟

ألقى بجسده المنهك فوق المقعد الذي أمضت فوقه ساعات طويلة تنتظره، وما إن استيقظ حتى هربت من جديد، تاركة له هواجس مخيفة، وخيالات مؤرقة.

يتجرع الألم وحده، على رشفات صغيرة متساوية، إلى أن استدعى أحد حرسه، وأمره أن يقص عليه كل ما وقع خلال غيبته.

أخبره أنها ظلت إلى جواره ولم تفارقه لحظة، نقل له حديثها مع «قوس» في الغابة عن زواجهما، والسائل الذي كاد يشربه، كيف اقتحمت غرفة الساحرة وجردتها من كل ما تملك، ووقفت أمام غرفته تهددها بحجارة ونبلة أن تفقِدها عينًا إن حاولت الاقتراب منه.

وكلما تحدث الحارس شعر بالحياة تعود إليه رويدًا رويدًا، وبالأمل يزهر ويفوح عطره؛ أدرك أنها كانت ولا تزال خط دفاعه الأول.

- ... ثم أعلن القاضي خبر العقد الذي كان بينكما يا سيدي، وقال «قوس» إنه يشهد.

شعر بالحياة تنبض بداخله مرة أخرى، وبالأمنيات تتهادى في خطواتها. عليه أن يفعل شيئًا لأجلهما، لأجل استعادة ما فقده.

باغته دخول القاضي معانقًا إياه بقوة ولهفة، إلى أن أبعده عنه وتطلع إلى وجهه مستعيدًا رباطة جأشه، يقول بحزم: «أعرف أنكَ استفقت للتو يا بني، لكن علينا أن نتحدث».

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص «مطر».

تشنجت عضلات «رعد» وتجمدت نظرته، أضاف القاضي بينما يشير للحارس بالخروج ويغلق الباب خلفه: «أصبح أبوك في نظركَ مخرفًا عليه أن يجهل ما يدور حوله، تخفي عني ما يحدث في الواحة وتأمر رجالك بحجب الكثير عني، وتخفي عني ما يدور بعقلك وقلبك.. رغم ذلك عرفتُ، التقيتُ «مطر» في غرفتي يا «رعد»».

تلقى «رعد» اعتراف أبيه مصدومًا ومنزعجًا، مضطربًا وقلقًا، قاده القاضي بحنو لا يخلو من الحزم وأجلسه قبالته، ثم قال بصرامة: «منذ الحريق المشؤوم فعلنا كل شيء على طريقتك يا «رعد»، كنتَ مكلومًا مفجوعًا في أم وحبيبة وحريق التهم من روحك أكثر مما التهم من وجهك، لكن هذا لم يساعد في شيء، بل راكم الألم حتى صنع منه جبلًا، وزادك مرضًا على مرض، والآن اسمعني جيدًا، اسمعني يا بني».

***

حشدت «أم الرمال» كبراء الواحة في دارها، تتباحث معهم في أمر الفتاة التي خدعتهم، وعادت من الموت كأنها لا تحمل في جسدها روحًا واحدة.

تتجاذبهم الأفكار ويعجزهم القرار بشأن ما يجب أن يكون، وما يستطيعون فعله. قالت «أم الرمال» وهي تطرق بعصاها غضبًا: «خدعنا القاضي اللئيم، الفتاة التي في البئر هي حفيدته، لا ذات البرقع كما ظننا».

صاح «أبو الأحناش» محتدًا: «وخدعنا الممسوس أيضًا، كيف انطلت علينا تلك الحيلة؟».

ردت «أم الرمال» بحنقٍ: «لولا نظري الضعيف لتمكنتُ من رؤية وجه فتاة البئر ولأدركتُ أنها ليست من ظننا.. عندما رأيت الفتاة في دارك يا «أبو الأحناش» عرفتها، لكنها أنكرت وادعت أنها فتاة أخرى، صدقتها، كانت جد

بارعة في الكذب، اللعنة على نظري الواهن وعيني الضائعة، صدقتُ أنني توهمت بشأنها».

هتف أحد الرجال من الميمنة: «خسرنا الساحرة القديمة للواحة، افترق شملنا وأذاقنا الممسوس العذاب وحرم علينا الليل بسبب تلك الفتاة الغريبة، لن يبرد ناري سوى بقطع رأسها وتعليقه فوق البوابة الحجرية».

أيد بعض الرجال مقالته، فيما صاح آخر من الميسرة: «ما تطالبون به سيفتح علينا أبواب الجحيم السبعة، هل سيسمح لنا الممسوس بالمساس بها؟ ألم يصل إليكم الخبر؟ هذه الفتاة زوجته، عقد عليها في غفلة منا، وشيخ الواحة سجل هذا في دفاتره».

اتجهت الأعين صوب شيخ الواحة الذي قال باضطراب ملحوظ، وقد كان رجلًا لا يهش ذبابة، وليس له في القافلات ناقة: «طلب مني الممسوس أن أبقي هذا سرًّا، خاف أن تؤذوها أو تثوروا على القاضي وأهل بيته، كان قد قرر الرحيل معها، لولا الحريق الذي منعه».

- كان سيرحل عن الواحة لأجلها؟

- ولأجل أمه، تعرفون أنها أوهمته أن ساحرتنا مريضة تحتاج إلى دواء غير موجود عند مطبب الواحة، كيف صدق هذا الهراء؟

تهامز وتلامز وتنابز الرجال عن الممسوس وما فعله، وثارت دماؤهم تغلي غضبًا، كانت «أم الرمال» تسمع ما يحدث وهي مستغرقة في التفكير فيما ينبغي فعله. طلبوا منها الإدلاء برأيها، قالت بعد برهة: «ظلت واحتنا خالية من المشكلات حتى عكر ماءها الغرباء، دنسوا عقول شبابنا، وسخروا من عقائدنا وعاداتنا، سرقوا منا الذهب والسكينة والأمان، إنها واحتنا وعلينا حمايتها، لا أرى حلًّا سوى طرد الغرباء عن أرضنا وعدم السماح بدخولهم ثانية، لن تصبح واحتنا قِبلة التائهين بعد الآن، لن تُفتح البوابة الحجرية في وجه أحد مهما كان».

لاقت كلماتها استحسان الرجال، وطفق كل منهم يدلي بدلوه في كيفية تسيير تلك القوانين الجديدة. استطردت «أم الرمال»: «أما فيما يخص الفتاة الملعونة فعلى الممسوس أن يختار، إما البقاء معنا، وإما الرحيل معها».

- كيف سنجبره على ذلك يا جدة، تعرفين أن من خلفه الرجال والسلاح والمؤن والعدة؟

دقت بعصاها فوق جبين الأرض مرات ثلاثًا، ثم قالت بقوة تفوق سنوات عمرها المائة: «عليه أن يختار وإلا ستقوم بيننا وبينهم حرب لا تضع أوزارها إلا بهلاك أحد طرفيها، إما هم، وإما نحن، لا نكون خلفًا للأجداد إلا إذا قضينا على كل ما يدنس واحتنا ويهدم أعرافنا وعاداتنا، لا يكون بيننا رجال إن سمحنا بهذا بعد الآن».

دام المجلس المنعقد بسرية ليلة كاملة، اتفقوا فيها على كيفية إعداد الرجال والسلاح تحسبًا لمواجهة حتمية مع الممسوس ورجاله. ضاقوا ذرعًا بقوانين جائرة تحرمهم الليل وخلوته، وتمنعهم من العبور للجارة والتنزه في الغابة كعادتهم، وفوق هذا تسلط رجال الممسوس عليهم، وأخيرًا عودة الفتاة التي يبغضونها كالموت، ويفرون منها كالطاعون.

ما عاد بإمكانهم الصمود، ما عاد بإمكانهم السكوت، على هذا الوضع أن ينتهي، إما غالب وإما مغلوب.

***

استلقت فوق فراشها تعيد قراءة الرسالة عشرات المرات، تبحث عن ثغرة تثبت بها أنها ليست كاتبة الرسالة، أو أنها لم تقصد ما كتبت، لكن دون جدوى.

تخرج إلى الشرفة حيث الشمس التي تميل صوب الغروب، تفرد الطيات الصغيرة للورقة بعناية، لترى الأسطر بوضوح أكبر.

ترفع الورقة في عين الشمس، علها ترشدها لما غفلت عنه عينها. تدرك الشمس رغبتها، تخرج من رأسها شعاعًا مستقيمًا لامعًا، وتشير به صوب كلمة ممسوحة في أقصى طرف الرسالة.

بخط صغير كانت، محتها اليد التي غضبت وسحقت، وربما تساقطت فوقها قطرة مطر، أو دمعة عين، جعلت الحبر يختلط ببعضه، فتتشوه الكلمة، وتمتزج أحرفها.

دققت النظر أكثر، لم يكن باستطاعة عينها ولا عين الشمس نفسها استخراج الكلمة التي محاها الزمن بممحاته التي لا تصدأ.

فجأة تفتق ذهنها عن فكرة، توجهت إلى حقيبتها وأخرجت منها إحدى الزجاجات الثلاث البلاستيكية التي كانت تعبئها بالمياه قبل دخول الواحة، ثم عرجت بسرعة على المطبخ، كان خاليًا كعادته في هذا الوقت من اليوم.

التقطت سكينًا صغيرًا، ثم جلست فوق الطاولة تقتطع من الزجاجة البلاستيكية دائرة مقوسة إلى الداخل. وما إن انتهت من قص واحدة حتى صنعت أخرى تماثلها حجمًا.

وبمادة لاصقة تحتفظ بها «فضة» في دولاب المطبخ شرعت تلصق الدائرتين ببعضهما، بحرص شديد، تاركة فتحة صغيرة جدًّا تكفي لضخ الماء بداخلها عبر سرنجة كانت تحتفظ بها في علبة إسعافات أولية صغيرة في حقيبتها.

بعدما تأكدت من امتلاء الفراغ بين الدائرتين بالماء أغلقت الفتحة الصغيرة بالمادة اللاصقة، ثم قفزت في اتجاه الفتحة الجدارية الكبيرة تستقبل ضوء الشمس الساقط فوق الورقة ببهجة.

وضعت العدسة التي صنعتها يدويًّا فوق الكلمة الدقيقة، فبدت حروفها الممزوجة أكبر حجمًا، وبعد عدة ثوانٍ فحسب تمكنت أخيرًا من قراءتها. اتسعت عيناها دهشة، وتمتمت لنفسها في ذهول ولوعة: «برق!».

هكذا كتبت بخطها المميز في آخر أطراف الورقة، لماذا تكتب اسم الأخ الذي مات قبل ثلاثين عامًا على رسالة تهديد موجهة إلى أهله؟

لم يكن الاسم مكتوبًا كتوقيع، بل كشيفرة، كأنها رسالة صغيرة مدسوسة داخل الرسالة الكبيرة.

رسالة لن يفهمها إلا قارئها، فهل فهمها «رعد» حقًّا؟

عندما همت بالذهاب إلى غرفته لتسأله، سمعت صوتًا تعرفه يناديها همسًا.

- «مطر»، ماذا تفعل هنا؟ هل جئتَ للاطمئنان على «رعد».

اقترب من الحافة بحذر كيلا يسقط، ثم تساءل في وجل: «ما به «رعد»؟».

أدركت أنه لا يعرف فلم يطِب لها أن تتركه قلقًا: «لا شيء، وعكة صغيرة، إنه بخير الآن، اسمع يا «مطر» تحدثتُ مع القاضي بشأنكَ، أظنه استمع لي، هكذا أشعر، قريبًا سينتهي هذا الخصام الذي طال بينكما، «رعد» بحاجة إليكَ مثلما أنتَ في حاجة إليه».

- حقًّا؟ هل سيسامحني «رعد» حقًّا؟

سقط قلبها أرضًا، علام يسامحه «رعد»؟ بماذا أخطأ «مطر» في حقه؟ قبل أن تسأله كان قد ضرب قبضتيه في جانبي رأسه، وتمتم في اهتياج: «غبي «مطر»، غبي «مطر»».

- ماذا فعلتَ كي يغضب «رعد» منكَ؟ أجبني يا «مطر».

- فعلتُ شيئًا سيئًا لا يستحقه «رعد» أبدًا.. شيئًا سيئًا جدًّا.

أطرق برأسه خجلًا رافضًا الحديث مهما ألحت عليه ليخبرها عما فعله، ولما يئست من أن تنطق الشفتان المطبقتان بكلمة أخرى قالت له: «كلنا نخطئ، ربما يسامحكَ «رعد» يومًا».

- حقًّا؟

سألها بلهفة إن كان هذا ممكنًا وقبل أن تجيب ضرب رأسه بقبضته مرة أخرى: «غبي «مطر»، نسيتُ ما جئتُ لأجله».

تمسك في الصخرة جيدًا، ثم مال صوبها مفصحًا بقلب ينبض هلعًا: «إنه هنا، أتى لأجلكِ، الرجل الشرير الغليظ هنا».

- من الشرير الغليظ الذي جاء لأجلي، اهدأ وأخبرني، عمن تتحدث يا «مطر»؟

- الرجل الذي يريد قتلك.

تذكرت ما أخبرتها به «فضة» فانتفض قلبها هلعًا.

- هل أنتَ واثق أنه هو؟

- رأيته بعيني، كنت ذاهبًا إلى الكوخ لأحضر بعض الأغراض عندما اصطدم بي وسألني عنكِ، رجل ضخم غليظ له سمت مخيف.

- وبماذا أخبرته؟

- لم أخبره بشيء، لم أتحدث، ورحتُ أركض.

ثم استطرد بلوعة: «على «رعد» أن يحميكِ، عليه أن يصير أقوى، السحر يأكل روحه، لا يستطيع حمايتكِ بينما هو ضعيف من غير حول ولا قوة».

- لماذا لم تخبر «رعد» بنفسكَ؟

- لن يستمع إليَّ، لكنه سيستمع إليكِ.

أطرق للحظات ثم أردف ببسمة خفيفة جزلة، ونظرات تصدق وتؤكد: ««رعد» يحبك».

تقافز قلبها فرحًا، تعرف، لكن سماعها كان له وقع ممتع.

أشاحت بوجهها تخفي ابتسامة صغيرة خجلى.

قبضت على الرسالة وعادت تلتفت إلى «مطر» تسأله بحماس: «هل تذكر توأمكما الثالث «برق»؟».

هز «مطر» كتفيه وقد مسح الحزن أياديه في وجهه، قال بعذوبة يشير إلى كفه: «لا أذكر «برق»، مات صغيرًا، أخي كان صغيرًا جدًّا بهذا الحجم».

- لماذا إذن أكتب رسالة تتضمن اسمه؟

أخرجت الرسالة من جيبها وعرضتها أمام عينيه، أمسك بها يقلبها بين كفيه، يتمتم بشجن: «إنها الرسالة التي تركتِها لنا قبل الحريق، كيف عثرتِ عليها؟ ظننتها احترقت، لا، لا، لم تحترق، قرأها «رعد» ثم ألقى بها من النافذة، كان حزينًا وغاضبًا، لم يكن قبلًا بهذا الحزن والغضب، نعم، هذا ما حدث، كيف عثرتِ عليها؟».

- ليس مهمًّا، ما يهم الآن هو أن أعرف لماذا كتبتُ اسم توأمكما الميت؟.. انظر، الاسم مكتوب بخط صغير على طرف الرسالة، كأنه شيء غير متعمد، أو ربما متعمد، لا أعرف.

- أنا أيضًا لا أعرف.

قالها «مطر» بأسى لعجزه عن تقديم المساعدة بينما يراها على هذه الدرجة من الحيرة والاضطراب.

- لا بأس يا «مطر»، سأسأل «رعد» أيضًا، لعله يعرف.

- نعم، اسأليه، «رعد» سيعرف.

قال بثقة من يؤمن أن أخاه أكثر علمًا منه وقدرة، غابت الشمس وحلت الظلمة، شعرت ببرودة الهواء توخز بشرتها، قالت مشفقة: «ألا تريد الدخول؟ الجو أكثر دفئًا داخل الجبل».

- كوني بخير.

قالها مبتسمًا ثم التفت عائدًا من الطريق الذي أتى عبره، ظلت تتابعه باهتمام إلى أن اختفى. راح عقلها يعمل في سرعة، من هذا الرجل الذي يريد قتلها؟

وكيف عرف بعودتها؟

***

أُرسِل أحد الحراس إلى الواحة في مهمة، رآه «قوس» فطلب منه على عجالة أن يصحبه فوق حصانه، لأن لديه عملًا مهمًّا لا يحتمل التأخير.

وما إن قفز الحارس فوق الهاوية، واستقرت أقدام الحصان فوق أرض الواحة، حتى افترقا كلٌّ إلى وجهته.

اتجه الحارس إلى الميمنة حيث الدار التي بُنيت حديثًا، اختبأ وحصانه لساعاتٍ بين النخيل، إلى أن أبصر «مشتاق» قادمًا من بعيد، في أذنيه طنين، وفي عينيه نظرة هجين، مزيج من الجنون واليقين، يلتقي و«هلال» أمام دار هذا الأخير، ثم يقول مستهلًّا حديثه: «أنتَ يا هذا أريد أن أخبركَ بأمر سيطيش له صوابكَ».

استنفرت أعصاب «هلال» واحتشد الغضب في قبضتيه، يتذكر الفتى الذي حط مثل الغراب وسط ساحة المرح يوم الزفاف المشترك، وطلب الزواج بـ «فلك».

لم يتحدث مع «فلك» في هذا من يومها، ظنًّا أن الخبر لم يبلغ علمها، فقد أخذه أبوها وبعض الشباب إلى دار قريبة، وكالوا له الضرب ليكف عن هذيانه وضلالاته.

ومن وقتها لم يسمع منه أو عنه، صادفه مرات قليلة في أماكن مختلفة من أرجاء الواحة، وقد صار مختلفًا عن الحال التي أتى عليها قبل أسابيع، بشعره المشعث المعفر، وملابسه المغبرة، حتى إن «هلال» نما لديه شعور تجاهه بالشفقة.

والآن بينما يقف أمامه متحديًا، ومعلنًا عن شيء سيطيش به صوابه، لم يكن من الصعب التخمين أنه يرمي بذلك إلى زوجته، فتأجج في صدره الغضب.

من نافذة الدار وقفت «فلك» ترقب المشهد في فزع، تشعر أن النهاية صارت حتمًا مقضيًّا، لا سبيل للهرب، ولا فرصة للمراوغة.

سيريه «مشتاق» في بلورته السحرية كيف حبس بعضها في الحجر، وكيف تحدث إليها واقترب، واتهامه إياها بأنها من فتحت الباب على متسع.

لن يسمع منها «هلال»، ولن يشفع لها أحد.

كان مذاق الخسائر مرًّا في فمها، وخسارة «هلال» كانت أشدها قسوة. أرادت بالفعل أن تحاول، أن تبدأ معه صفحة جديدة بِفكر مختلف، وشعور ممهد لإنجاح الزواج لا لإفشاله.

راودها شعور قوي أن محاولة صادقة منها ومنه كافية لبلوغ أرض محايدة، يتشاركان فيها مبهجات الحياة، ويتقاسمان أوجاعها، كلٌّ على اختلافه.

ستكتشف أوجهًا جديدة للسعادة، إذ أدركت أخيرًا أن لا شيء في الحياة يحمل وجهًا واحدًا. لا توجد طريقة مثالية يجب أن تحدث بها الأشياء، أو تتعامل بها مع الأحداث، أو تتعايش بها مع الوقائع، أو تستمر بها العلاقات.

كلٌّ منا يخلق طريقته المثلى بنفسه.

وكانت في هذه اللحظة أكثر من مستعدة لأن تكتشف مع «هلال» الطريقة المثالية لتسيير حياة جيدة بينهما.

لولا حضور «مشتاق» المفاجئ ليقتل أملها في مهده، ويقطع دابر أحلامها وأمانيها.

ليلة أمس لم تتوقف عن البكاء لحظة، دعت القدير وابتهلت. تمنت بشدة أن يكون كل شيء مختلفًا، وأن تجد الحياة منحنيات أخرى مفاجئة تجنِّبها العار والفضيحة، وتمحو تلك الزلة من دفاترها.

لم يحتمل «هلال» تلميحات «مشتاق» الخبيثة بينما يخرِج هاتفه من جيبه ويهتف إلى أن برزت عروق وجهه: «سأستعيد منكَ ما سلبتني إياه، أنتَ لا تستحقها، تجعلها تعيسة، لا تفهم سوى لغة الضرب والإهانة وتنسى أنها إنسانة، أين تحتفظ بالخرطوم البرتقالي، داخل خزانتكَ أم أسفل فراشك؟.. هل تخفي أيضًا أعواد الثقاب في جيبك؟ تخافني، أليس كذلك؟ تخاف أن أشعل النار في دارك، عليكَ أن تخافني لأنني سأشعل النار دون حاجة إلى أعواد ثقاب، لن أسمح لكَ أن تؤذيها».

سدد له «هلال» لكمة قوية أفقدته توازنه، وأسقطت هاتفه أرضًا، لم يكد «مشتاق» يدنو من «هلال» مترنحًا عازمًا على الرد حتى عاجله الأخير بلكمة أخرى جعلته يشعر بصفير حاد في أذنه.

أدرك «مشتاق» أنه لا قِبل له على مواجهة بدنية مع هذا الباب المصفح؛ حاول بلوغ الهاتف الذي سيُنهي النزال لصالحه، ويُفجر كل باب لا يستطيع فتحه.

عندئذ تدخل الحارس وأفسد عليه المشهد.

قبض الحارس على «مشتاق» وقيَّده بالحبال رغم محاولاته المضنية للإفلات وصراخه الذي شق الأسماع، يحمله فوق الحصان مثل جوال الخيش، يتدلى رأسه من جهة، وساقاه من أخرى.

التقط الحارس الهاتف وأداره بين كفيه معجًبا ومدهوشًا، دون أن يدري ماهيته دسه في جيبه، ثم انطلق به صوب الجارة السوداء، دون أن يقدم لـ «مشتاق» الذي يرغي ويزبد تفسير ما يفعل.

اتسعت ابتسامة «فلك» من بين دموعها، انفرجت أساريرها وشعرت بهم كالجبال يتزحزح، تمنت أن يذهب بلا رجعة، أو يصنع به الممسوس ممسحة لقدمه.

فتحت الباب بسرعة تستقبل «هلال» الذي بُهتَ وجهه. عاجلته بلهفة: «ماذا حدث؟ ماذا قال لك حتى ضربته؟».

- ظل يهذي، لا أعرف أصلًا لماذا وقفتُ أستمع إلى هذا الأجرب.

- ولماذا أخذه حارس الممسوس؟

- مؤكد فعل شيئًا أحمق.

تطلع إليها باهتمام متسائلًا بصرامة: «هل حاول مضايقتكِ؟».

تريثت قليلًا، تفكر في جواب يطفئ النار ولا يزيد من إشعالها، قالت: «كما قلتَ إنه يهذي، لن يسبب لنا مشكلة الآن، صار مشكلة شخص آخر، لا تهتم به، إنه لا أحد».

ثم جذبته إلى الداخل تقول بدلال وجزل: «أعددتُ لكَ الطعام الذي تحبه، هيا، أنا جوعى كثيرًا».

شعر بها اليوم مختلفة، مبتهجة، لها بريق خاطف، ومثل رحالة ينظر إلى نجمة، تتبع ضوءها ولديه حس بالمغامرة، ساعيًا لاستكشاف ما يشير إليه ضوء النجمة من أراضٍ جديدة، لم تطئها قدماه قبلًا.

***

إلى الميسرة ذهب «قوس» في عزم، حيث المقابر، توجه إلى موضع يستودعون فيه أدوات حفر يدوية، التقط واحدة ثم توجه إلى قبر بعينه.

شعر بثقل ما يفعل، ليس من الصواب أن ينبش قبرًا، لكنه السبيل الوحيد لمعرفة الوجه الصحيح للحقيقة التي توارت طويلًا وسط أقنعة زائفة مختلفة.

حفر طويلًا، لا يكل ولا يتعب، دفعته هرمونات الإثارة إلى بذل مجهود يفوق ما اعتاده، إلى أن بلغ أخيرًا أطراف الكفن الأبيض.

اصطدمت أداة الحفر مع محتويات الكفن فأصدرت صوتًا يصلح لأن يكون عظامًا أو حجارة، تتشابه الأصوات وتتمازج، وعليه أن يفتح الكفن بنفسه ليتأكد!

جثا فوق ركبتيه، يحاول تجاهل شعور غامر بالذنب راوده، لتدنيس حرمة الميت.

استغل لحظة شجاعة، ثم باعد أطراف الكفن، كاشفًا عما يحوي بداخله، عندئذ اتسعت عينا «قوس» دهشة، وتقهقر إلى الخلف في جزع، يمسك رأسه بين كفين معفرتين ويغمض عينيه في ألم.

هو أول من أبصر وجه الحقيقة المقيت، ويستطيع أن يؤكد أنها لا تحمل وجهًا جميلًا.

دُنيازاد

الأسرار شوك في ساق وردة
تخنق الحب والشوق والمودة
السر لصديقين كالسد بينهما
وبين حبيبين حريق بلا نجدة
تربة الأسرار خوف خادع
ترويها الهواجس والفواجع
تسلسل عنق صاحبها
وتستعبده بلا ضابط ولا رادع
فكن لمن تحب كتابًا مفتوحًا
بكلمات محبرة ومعانٍ مشروحة
فسوء الفهم بركان ثائر
يلقي الحمم فوق حب حائر!

الليلة الأربعون

أيهما يخنق الحب أكثر: الأسرار، أم الإفراط في الوضوح؟

(1)

ما توصلت إليه بعد أن أضناها التفكير، أن اسم «برق» المكتوب في طرف الرسالة يحمل معنى في غاية الأهمية، وبما أن «مطر» لم يساعدها في التوصل إلى هذا المعنى، فلعل «رعد» هو الذي يبصرها بما غفلت عنه.

عرفت من « فضة» أن القاضي يزور «رعد» في غرفته، وأن حديثهما طال لساعتين ويزيد، فوقفت في الشرفة تعيد قراءة الرسالة بانهماك شديد، أعجزها عن سماع باب غرفتها في أثناء فتحه وإغلاقه.

انتبهت لحركة خلفها فانتفضت ما إن رأت ظل رجل يمر أمامها فوق الجدار.

أخرجت حجارة صغيرة من جيبها وشدت بها النبلة المطاطية بقوة، ثم خرجت من الشرفة في حركة سريعة تباغت بها المتسلل، وقبل أن ينطلق الحجر نحو الهدف، رأت أمامها «رعد» يرفع كفه قائلًا: «هذا أنا».

خفضت النبلة وأرخت ذراعيها محتدة، سألت وقلبها تتسارع دقاته: «ماذا تفعل في غرفتي؟ ثم كيف دخلت وقد أغلقتها بالمفتاح؟».

لوح بحزمة من المفاتيح أمام عينيها، يقول ببساطة: «أنا من بنى مدينة الجبل، هل نسيتِ؟».

كانت سعيدة برؤيته في صحة كافية لأن يقف ويتحرك، شعرت خلال نومته الطويلة بالحياة تتوقف، والآن عادت إلى سريانها، شقشق الصباح، وغردت العصافير في أعشاشها. عقدت ما بين حاجبيها، تقول باعتراضٍ واهنٍ: «ماذا لو رآك أحد تدخل غرفتي؟».

- بات الجميع يعرف بما يجمعنا، ألستِ أنتِ من كنتِ تصرخين في الممرات قائلة: أنا زوجة سيد الجبل؟

صفعها الخجل على الوجنتين، قالت باندفاع تبرر: «أولًا لستُ أنا من أشهَر العقد بل أبوك الذي تطوع بذلك دون سؤالي، ثانيًا أنا لم أصرخ بذلك في

الممرات بل في غرفة الساحرة، ثم أنني لم أصرخ أصلًا، كنتُ فقط أحاول إخافتها كي تمتثل لأوامري».

تأملها من رأسها إلى أخمص قدميها ثم قال متخابثًا: «لا أراكِ مخيفة، قولي ثانية: أنا زوجة سيد الجبل، لربما أشعر بتلك القوة».

سددت له نظرة زاجرة، فأردف: «تشكو الساحرة من أخذك لأغراضها، وتقييدك لحركتها وحبسك لها في غرفتها، كما أنكِ منعتها من دخول غرفتي، وهددتها بفقء عينيها الاثنتين إن حاولت الاقتراب مني».

عقدت ذراعيها تسأله بنبرة متحدية: «ولماذا يزعجك ذلك؟».

- لم أقل قط إنه أزعجني.. لقد أسعدني.

يرمقها بنظرة إعجاب صارخ ثم يردف: «تلك هي المرأة التي تليق باسمي».

لم يسعها سوى الابتسام في رضا وهز رأسها في قناعة.

رغم الاسترخاء الظاهر، كانت نبرته متغيرة عما كانت عليه من مزاج رائق وقت استيقاظه، بدا أن حديثه مع القاضي أثار في نفسه الشجون وأيقظ همومه من مرقدها، بالإضافة إلى شيء من الغضب يعكر صفو وداده، هذا ما وضحته نبرته إذ قال بصرامة: «يجب أن نتحدث كما أخبرتكِ في غرفتي، أنتظر سماع كل ما حدث منذ خروجكِ من الواحة وحتى عودتكِ إليها، آه ولا تنسي أمر الخِطبتين بكل تفاصيلهما الدقيقة، الدقيقة جدًّا».

أنهى عبارته بغيظ مكظوم، تمنت لو لم يزل لسانها فتخبره بذلك وبخاصة في هذا التوقيت الحرج. يجاهد كي يكبح نارًا تتأجج في صدره، ليس مصدرها حديث القاضي كما ظنت، بل حديثها معه، ومعرفته بأنها كانت على وشك الزواج بينما هي في عصمته. عقد ذراعيه ثم حثها متململًا بعصبية: «أنا أنتظر».

طرقات خفيفة على الباب قطعت عليها الحديث الداعي إلى المكاشفة، انفتح فظهرت من خلفه «فضة» تحمل في يدها غرضًا ما، وما إن رأت «رعد» في الغرفة حتى ارتبكت، ثم تنحنحت، ثم اعتذرت. تقدمت منه لا منها، تعطيه الغرض قائلة: «كنتُ قادمة لأعطيها هذا كما أمرتَ يا سيدي».

أخذه منها «رعد» ثم فرد طياته، وقبل أن تعي زوجة سيد الجبل ما يحدث كان قد وضعه بإحكام فوق وجهها.

يشبه البرقع الذي أخبروها أنها كانت ترتديه منذ دخولها الواحة أول مرة، اجتهدت «فضة» في حياكته كما أمرها سيدها.

- هذا لأجلكِ.

قالها بخفوت لا يخلو من الحزم، يشي بأنها ليست هدية قابلة للرفض، تمنت لو تعيد إليها تلك القطعة الصغيرة شيئًا من ذاكرتها المفقودة؛ ملمح، صورة، أو حتى مجرد إحساس بأنها ارتدته من قبل، بينما كانت تعيش في الصحراء مع أناس يشبهونها وتشبههم.

ترتدي جلبابًا أسود مطرزًا بخيوط حمراء وبرتقالية، وتستطيع ركوب الخيل البرية. كانت «فضة» لا تزال واقفة أمام الباب الموارب، تتأملهما بابتسامة متسعة، ومن خلفها يتقدم أحد الحراس ينادي «رعد» لأمر يخص مدينة الجبل.

أطبق «رعد» بيده فوق معصم زوجته، ثم ساقها إلى الخارج، دون أن يقدم لها توضيح ما يفعل، سألته محتدة، مستشعرة حرجًا بالغًا وهو يسير معها يدًا بيد أمام الأعين المتطفلة، والرؤوس التي تتقارب متهامسة.

- ماذا تفعل؟ إلى أين تأخذني؟ الجميع ينظر إلينا.

- إلى أي مكان نعثر فيه على شيء من الخصوصية في هذا الجبل اللعين.

تحاول أن تفلت ذراعها عبثًا، يطبق عليها بقوة غير قابلة لأن تتزحزح، يسوقها في الممرات بسرعة وهمة، إلى أن بلغ فجوة جدارية في ممر بعيد خالٍ من الحركة، وجَّهها صوبها وأمرها: «اقفزي».

تطلعت إليه مصدومة تسأله: «هل تريدني أن أقفز من الجبل، هل ترغب في أن أدق عنقي؟».

- فكرتُ في هذا منذ أن سمعتُ بأمر الخطبتين، لكن لا ليس هذا ما يدور بخلدي.

قربها لترى المساحة الممهدة في الأسفل، صخرة كبيرة مستوية تبرز من الجبل كشرفة من غير أسوار، تبعد عنها بأقل من نصف متر، قفزة خفيفة وكانت تقف فوق الصخرة الضخمة المستوية، تستطيع من هذا المرتفع أن ترى رؤوس أشجار الغابة وهي تتعانق كلما مرت ريح قوية، والمفترق الذي يتفرع عنده الطريق إلى أيمن وأيسر.

تستطيع كذلك أن ترى الهضبة، بألوانها البديعة المتناسقة.

سحرها المكان بشدة، حتى تمنت لو كانت تعرفه قبلًا، للازمته وما فارقته لحظة.

جاورها «رعد» مقتربًا، يحتل المكان الذي كان محجوزًا له منذ عرفها، فابتعدت تاركة بينهما مسافة خاصة، يبادرها بما قاله داخل الغرفة، وهذه المرة بانفعال أقل، وحزم أكبر: «ما زلتُ أنتظر».

لا يدرك أن ما يود سماعه يتعسر عليها صياغته في جمل مترابطة، من الصعب أن تسرد على سمعه كيف خُدعت وسُلبت هويتها وحياتها وكل ما تملك. تتألم كلما مر بخاطرها ما فعله بها «مشتاق» والخال والجدة.

يقرأ فوق قسماتها آثار هذا الصراع المحتدم، وما تجتره من مشاعر كالأشواك توخزها، يمسك بيدها التي تطرق أناملها فوق ساقها بعصبية، ولا يسمح لها أن تتفلت؛ تستكين يدها في راحته، تنظر إليها كما لو كانت يد امرأة أخرى لا تعرفها، تحاول أن تحث خلاياها كي تتذكر تلك المرأة التي اعتادت أن تجاوره، وتحاوره، يدًا بيد، ونفسًا بنفَس.

تنزعج لملس القفاز المحبب، يشعر بذلك، فيسحب يده، يخلعه، ثم يعود ليمسكها.

يتشاركان صمتًا طويلًا، وتنهيدة عميقة تتخلله كل فترة، تحاول البحث عن طرف خيط تبدأ به القسم الذي يجهله من حكايتها.

ويخشى هو ما سيسمع.

- ماذا لو عدتِ ووجدتني وقد نسيتكِ وصرتُ زوجًا لغيركِ؟

كان سؤالًا عسيرًا استجلب حنقها، لكان ذلك كطعنة في الظهر، تعبر القلب ثم تنفذ. شعرت بالمرارة التي يتجرعها منذ ثلاث سنوات وحده، التي أُضيف لها الحنظل منذ عادت وقد نسيت كل شيء عنه.

لو كانت مكانه، لماتت قهرًا.

تفاجأت بنفسها وهي تتذوق مشاعر جديدة تستكشفها في نفسها لأول مرة؛ مثل الغيرة، والتملك. تستهل حديثها بـ: «عندما فتحت عينيَّ في المستشفى كان كل شيء من حولي أبيض».

أصاخ لها أسماع قلبه، وصنع من حنانه رئة تتنفس، يتسارع نبضه كلما تطرقت إلى حدث مؤلم؛ الوجه الذي احترق، والألم الذي كابدته خلف قناع من الشاش لازمها لأشهر.

تضيق عيناه، ويتجعد ما حولهما، إذ تنقبض قسماته خلف القناع الأسود، بينما تحكي عن نفسها كان هو الآخر يتذكر أسواط النيران التي يعرفها كاسمه، ويحفظها غيبًا. تشتد يده فوق كفها يؤازرها، والعبرات في عينيها تحتشد، وتسيح نظراتها في الفضاء السماوي الأزرق.

- وجهكِ لم يتغير، إنه هو الوجه نفسه.

يتخير لحظة تتوقف فيها عن الحديث لتلتقط أنفاسها، ثم يخبرها بذلك همسًا، تنظر إليه في حيرة، ثم تقول: «لا أعرف، هذا ما قيل لي، هذا ما شعرتُ به».

لا تملك ذاكرة، فاتكأت بقوة على ذاكرته، وثقت بها، لأن ذاكرة المحب لا تخطئ. يمنحها بضع لحظات من الصمت كانت بحاجة إليها لتستجمع نفسها ثم تستطرد. تقص كل شيء كما وقع، تتمادى في رسم التفاصيل لتتضمن الروائح والأصوات والصور، تصف له بعين سينمائية الفصول التي لم يعِشها معها، كأنها تمنحه الفرصة لأن يشاركها سنوات الغياب.

يرسمها من خلال كلماتها وحيدة في غرفتها، لا تعرف نفسها ولا الوجه الذي تعكسه مرآتها، تخاف أن تحترق مرة تلو أخرى إذ تصدق أن لعنة ما قد أصابتها.

يضغط على يدها بقوة لا تؤلمها، بينما يده الأخرى تقبض فوق صخرة، كما لو كان موشكًا على تفتيتها، يود لو يحولها ترابًا ثم يدسها في حلق كل من شارك في سرقة امرأته.

تنهي حديثها الطويل بكلمات خافتة، مرتجفة: «تظن أنكَ تعرضتَ للخيانة من شخص واحد، مني، بينما أنا خانني كل مَن أعرف».

تزقزق من فوقهما العصافير وتحوم في دوائر رحبة، يتخطى ثلاث سنوات من الفراق ويضمها في عناق خبير يعرف كيف يشد دون أن يقسو، وكيف يطوِّق دون أن يقيِّد، وكيف يدعم دون حاجة إلى أن يتحدث.

سكنَت إليه مثل ظل عثر أخيرًا على صاحبه، تغيب الشمس فيلتحم به ويذوب بداخله. تتجرد السماء من رداء الشفق الأحمر، وتلقي فوق كتفيها رداءً ليليًا أسود، مطعمًا بنجمات لامعات متأنقات كأنهن ذاهبات إلى حفلة.

كانت في القاهرة مثل نقطة تبتلعها أمواج البشر، تروح وتغدو دون أن تترك أثرًا، أما هنا وسط الصحراء وإلى جوار فارسها تشعر أنها نجمة مرئية،

وأميرة متوجة. سعيدة، لا تود لتلك اللحظة أن يكون لها عمر، أن تكون خالدة أبدية.

يغمض عينيه، تنسكب سنوات الفراق من ذاكرته شيئًا فشيئًا، حتى وكأنهما يصلان اللحظة التي كانا فيها معًا قبل الحريق، بتلك اللحظة الآنية. يشعران باستيقاظ شعور قديم يسكبانه في كأس ويتناوبان على شربه.

- «برق».

فتح عينيه بغتة، وتجمد في موضعه يحبس أنفاسه، أبعدها ببطء، فسددت في وجهه نظرات ذكرته بالمرأة التي كانت عليها، التي تملك قلبًا بقوة صخرة، وبنعومة سحابة.

أجلى صوته ثم سألها: «ماذا قلتِ؟».

أخرجت من جيبها الرسالة وقربتها من عينيه، لم تكن بحاجة إلى رؤية قسماته كي تدرك صدمته وألمه، قالت كي تزيل سريعًا ما علق به من خطاف الذكرى: «أعرف أنكَ لا تحب أن تعود إلى تلك اللحظة القاسية، لكن لدي ما أود سؤالك عنه».

رأت ارتعادة خفيفة أصابت أنامله، بينما نظراته متعلقة فوق الأسطر التي تحمل كلمات من خناجر حادة، يسألها بنبرة باردة خالية من الشعور: «كيف حصلتِ عليها؟».

أخبرته عن «فضة»، لم تسمح له بالانغماس مرة أخرى بين طعنات تلك الأسطر، أشارت صوب كلمة صغيرة بحبر باهت، أخرجت العدسة المكبرة التي صنعتها ثم أردفت: «هنا تمامًا، اسم «برق» مكتوب بوضوح، انظر بنفسك، هل تراه؟».

تفاجأ بشكل جعلها تدرك أنه يرى الكلمة لأول مرة، قال والحيرة تتلقفه: «إنه خطكِ».

- نعم خطي، لماذا أكتب على رسالة موجهة لكَ اسم توأمكَ الميت؟

انقبضت عضلاته، وحرك ساقه في عصبية، ثم شرع يوضح: «لم تكن الرسالة موجهة لي وحدي، كانت لنا جميعًا».

- أعرف، لكن لماذا أكتب اسم «برق» مثل شيفرة؟

التفت يسأل في دهشة: «شيفرة؟».

- انظر، لم يُكتَب الاسم كتوقيع، أو كلمة إضافية، أو ملحق للرسالة، بل كأنه مكتوب كي لا يقرأه أحد، أو ليقرأه شخص بعينه.

- تعرفين أن «برق» مات يوم مولده، قتلته تلك المرأة.

- وهذا ما أريد التحدث معك بشأنه، قتْل الجدة لـ «برق» مفهوم حقًّا.

تحركت ساقه بعصبية أكبر، يصارع تحديًا كبيرًا في مواجهة أشباح الذكرى، وما كان يظنه من اتحادها مع الجدة، فأضافت بسرعة: «لا أقصد أنه مبرر لا تسئ فهمي.. لا شيء في هذه الحياة يبرر قتل طفل في مهده، أو إزهاق روح بريئة من غير جريرة، لكن من وجهة نظر الجدة ترى في قتلها لـ «برق» عقابًا لأمك وأبيك.. فما الذي جعلها بعد سنوات تدبر مؤامرة وتقتل فيها «سراب»؟.. «سراب» لم تكن حفيدة القاضي فحسب، كانت أيضًا حفيدة تلك المرأة، هذا لا يبدو مقنعًا لي يا «رعد»، ثمة شيء في غير موضعه».

- الذي في غير موضعه هو عقل تلك المرأة، لا تعرفين أي شر تحمله في قلبها، أي سواد، أي خبث، هذا إن كان لها قلب، ثم في رسالتكِ لم تقولي إن «سراب» ستكون الضحية إذا لم يسلمكم أبي ذهب الواحة، بل قلتِ إنه لن يعرف أي شخص سيفقد، ربما سقوط «سراب» في البئر كان حدثًا عارضًا، لكن المؤكد أن تلك المرأة كانت تنوي بنا شرًّا.

- كيف عرفتم أن التي في البئر هي «سراب» إن لم يكن أيٌّ منكم قد رآها سابقًا؟

- كانت ثمة صورة مرفقة مع الرسالة، احتفظ بها أبي.

- صورة لمن؟

- لتلك المرأة وابنتها وابنها وحفيدها وحفيدتها، وبخطك مكتوب اسم كل شخص فوق وجهه.

أراحت كفها فوق عضده، عندئذ توقف عن تحريك ساقه، والتفت إليها بنظرة متأملة رحبة، تختزل شوق ثلاث سنوات وساعات الأرق الطويلة. تضيف بخفوت وقوة: «لا أحاول تبرئة الجدة، أحاول فقط فهم ما حدث.. كنتُ قد بدأت الشك في نفسي مرة أخرى، هل تعرف ذلك؟ ما إن رأيتُ الرسالة وتعرفتُ على خطي، لكن اسم «برق» في آخرها كان مثل ضوء هزيل لنجمة وسط سماء شديدة الظلمة، حتى وإن كان يبدو هذا بالنسبة إليك ضربًا من

العبث، أنا أريد أن أتبع هذا الضوء، لربما، أقول لربما كان كل شيء مختلفًا عما تظنه، ربما لم أكن بهذا السوء الذي تحسبني عليه».

تلاقت رغبتهما في نقطة، تمسكا بالبقاء فيها لفترة، نظر إليها وتفكَّر، إذ يود مثلها لو كان بالفعل ثمة ما يجهله، عامل مساعد مجهول أجج هذه النار بينهما، ونفخ فيها من سمومه ولهبه.

- معكِ حق، لا ينبغي أن نتجاهل تلك الإشارة المهمة.
- بما أنكَ لا تعرف، و«مطر» كذلك لا يعرف، إذن لم يتبقَ سوى القاضي لنسأله.
- «مطر»!.. هل التقيتما مرة أخرى؟ عمَّ تحدثتما؟.. بماذا أخبركِ عني؟
- أعرف أن هذا يزعجكَ، لكنه أتى ليخبرني عن شخص صادفه في الواحة، لكن قبل أن أتطرق إلى ذلك ثمة ما أريد أن أوضحه لك.

منحها جل انتباهه، فأردفت بصوت متهدج: «خِطبتي كانت بسبب العناد وحده، كي أثبت أنني فتاة طبيعية من غير لعنة، لم تكن لدي حقًّا رغبة حقيقية للزواج بأيٍّ منهما، لذلك كنتُ أفشل، حتى وإن كنتُ لا أتذكرك، كنتَ بداخلي مثل جرس إنذار، ما إن يحين موعد الزفاف حتى يضيء بنور أحمر».

أخبرته عن الحريق الثاني الذي ترك أثرًا فوق كتفها، والثالث الذي ترك بصمة في حجم حبة بندق فوق ربلة ساقها. توقف ذهنه عند الحريق الأول الذي تتذكر فحسب لهيبه فوق بشرتها، يتساءل في نفسه، أمن الممكن أنها لم ترحل كما ظن، بل بقيت.. تحاول دخول الدار ومساعدته، أمن الممكن أن يكون هذا هو الحريق الأول الذي لا تتذكره؟

طاف ذهنه بالذكرى التي يبغضها، عندما التقت أعينهما عبر نافذة الدار المشتعلة، كانت جامدة، لا تتحرك، يصرخ بها، فلا تجيب كأنها خُلِقت بلا حواس تستجيب، ثم تختفي من أمام ناظريه عندما يحول بينهما الدخان واللهب. يخرج بعد أن تلتهم النار جانبَي وجهه، فلا يجد لها في الواحة أثرًا وهو في أكثر لحظاته ضعفًا واحتياجًا.

هل حاولت أن تنقذه فآذت نفسها، وما رآه منها من رد فعل جامد كان من هول الصدمة؟ هل تجمد عقلها من فظاعة المشهد، ثم عاد ليتحرك فسعت إلى محاولة إنقاذه، إلى أن أصيب وجهها بحروق طفيفة تحسبها من هول الألم حروقًا جمة؟

إذا كان الأمر كذلك فما كان بإمكانها مغادرة الواحة وحدها جريحة تتألم، ما كان بإمكانها أن تغادر بإرادتها، فمن الذي أخرجها من الواحة، من الذي سرقها؟

عاد يتطلع إلى الكلمة التي كتبتها في طرف الرسالة، التي لم تقع عيناه عليها قبلًا، لماذا تكتب اسم توأمه الميت؟

تقول إنها شيفرة لن يفهمها غيره، بماذا أرادت أن تخبره؟

سألته بغتة: «هل كان اسم «برق» يتردد بيننا؟ هل كان لنا حديث عنه؟».

رنا إليها بنظرة مطولة غامضة، جعلتها تجزم أنه يخفي عنها أمرًا، حثته كي يخبرها بما طاف بعقله للتو، فتهرَّب، أشاح بوجهه المختبئ خلف اللثام الأسود. قال بكلمات مختنقة مديرًا دفة الحوار لاتجاهات أخرى: «أمرت الحراس بإحضار «مشتاق» إلى الجبل، سأجعله يدفع ثمن ما فعله هو وأهله».

لم يكن «مشتاق» سبب تلك النظرة التي مرت في عينيه مثل سحاب أسود، لم تنطلِ عليها تلك الخدعة؛ اتسمت نظراتها تجاهه بالحدة، لا يزال لديه ما يخفيه عنها، لم تخرج جميع الأسرار من مخبئها داخل الصندوق بعدُ. أقسمت ألا تغمض لها عين حتى تعيد إلى الحقيقة وجهها الضائع، وتستعيد كل ما فقدت.

قالت بحدة تثير بها غيظه: «ولماذا لم تحضره بنفسك بالطريقة التي سحلتَ بها «عبد البر»؟».

لم تنجح في إثارته، ظل ساكنًا، مسترخيًا، مما أغاظها بشدة، فأردفت: «لا تظن أنني نسيتُ ما رأيتكَ تفعله بهذا المسكين، فله بيننا مساحة من الخلاف المحتدم، كيف تفعل هذا برجل في عمر والدك؟».

- استحق ما حدث له.

- لا أحد يستحق القتل دون محاكمة، دون دفاع أو مساءلة، لستَ إلهًا تفعل ما شئتَ في خلقك، هؤلاء رعيتك وأنت مسؤول عنهم، من أخطأ يحاكَم، لا يُسحل حتى تزهق روحه، لا يمكن للرجل الذي أكون في عصمته أن يكون قاتلًا بدماء باردة، هذا لا يليق بقلبي أبدًا.

التفت صوبها محتدًّا وقد نجحت أخيرًا في استنطاقه، كيف تقول إنه لا يليق بقلبها، وهو الذي وُلِد من جديد داخل هذا القلب الذي اتخذه بيتًا؟ قال منفعلًا: ««عبد البر» ما زال حيًّا يُرزق».

- رأيتكَ تقتله.

- رأيتِني أسحبه بالحبال فوق الرمال، وما إن توقفت في مساحة خالية من المشاعل حتى فككته ورفعته فوق «كحيل» ثم قفزت به فوق الهاوية.

- أين هو الآن؟

- ملقى مثل القمامة في إحدى زنازين الجبل ولن يخرج منها قبل أن يعترف.

- بماذا يعترف؟ ماذا فعل هذا الرجل كي يثير بداخلك كل هذا الغضب؟

- هذا الخسيس هو التاجر الذي أراد شراء ميراث «رماح» من الخشب، وأطعمه السحر كي يخضِعه، ورغم ذلك سامحته، لاعتبارات كثيرة ومحبة كنتُ أكنها له، إلى أن عرفتُ أن هذا الأثيم هو الذراع اليمنى لساحرة الغابة، يساعدها في سرقة أغراض المسحور من بيته، وكتابة الطلاسم فوق لوح الكتف لحيوان مذبوح، ثم يدفنها في مكان مجهول.

أذهلها ما تسمعه، تقلب ما قاله في رأسها، وتمرره على قوانين العدالة، ومفاهيم المنطق، ثم تعود لتتطلع إليه بنظرة متخففة من الحدة والانفعال.

- لماذا يساعد «عبد البر» ساحرة الغابة؟

- من أجل الذهب طبعًا، بعد الحريق فوجئنا أننا فقدنا جزءًا كبيرًا من مخزون الذهب، أكبر من أن تستطيعي حمله وحدكِ، أخذته ساحرة الغابة خلسة، يتلقى «عبد البر» منها ما لا يستطيع جمعه خلال سنوات عمره، عثرنا على بعض هذا الذهب في بيته، كان ينوي مغادرة الواحة والعيش في عالمكم مرفهًا، ليلة دَق المسمار في بابه، كانت تلك هي الليلة التي اعتزم فيها الهرب.

- إذن النفوس الجشعة لا تعيش في عالمنا فحسب، أينما وُجد الإنسان ظهرت أطماعه، حتى وإن كان يعيش داخل واحة مسحورة لا يعرف طريقها أحد.

هز رأسه مصدقًا على قولها، ثم عاد ليحرك ساقه بعصبية، يفرك كفيه في بعضهما، يقول بحدة: «لا أستطيع فك السحر الذي يسلسلني قبل العثور على العمل المدفون، الذي يضعفني ويسقطني نائمًا في مواقف حرجة، هذا الرجل يعرف من تكون ساحرة الغابة، لكنه يلتزم الصمت، لا يخرج منه سوى أزيز مزعج مثل ذبابة».

أراحت كفها فوق كتفه تؤازره وتدعمه، تقول بحماس مؤكدة: «سنفك السحر ولن تسقط مرة أخرى في نوم بلا قيعان، سننجح في هذا لا تقلق».

- هذا إن بقيتِ معي.

قالت بعينيها: «سأبقى»، استرخى مرة أخرى، وأحست بانفراجة في صدره، وبابتسامة تنبت فوق ثغره، لم تستطع رؤيتها، فقالت منزعجة: «لمَ لا تنزع اللثام؟ لماذا تختبئ خلفه؟».

منحها نظرة طويلة لم تفهمها، نظرة تؤطر مشاعر شتى؛ الخوف، والتردد، والضعف، والخذلان، والوحدة.

مست اللثام برؤوس أناملها دون أن تحاول نزعه، تقول بخفوت: «هل تظن أنني سأنفر مما سأراه خلفه؟ هل تظن أن ما أصاب وجهك سيشكل عندي فرقًا؟ هل هذا ما يخيفكَ؟ هل هذا ما يؤرقك؟».

- ليس لهذا السبب.

- ما السبب إذن؟ أنت توأم «مطر»، أعرف ملامحك، وأعرف ما أصابها، ماذا تخفي عني إذن؟ ما الذي لا أزال أجهله؟

أمسك بأناملها التي تمررها فوق اللثام، يحبسها بين كفيه كلؤلؤة وسط محارة، ثم يقول همسًا: «امنحيني القليل بعدُ، وسأعود مرة أخرى «رعد» الذي تعرفينه، الذي لا يخفي عنكِ شيئًا».

رأى في وجهها قبولًا ممتعضًا، وموافقة من غير رغبة، أطلق زفيرًا طويلًا ثم استطرد: «والآن أخبريني، ماذا قال لكِ «مطر»؟».

روَت له ما قصه عليها عن الرجل الغليظ الذي يطاردها ويسعى لقتلها، انتفض «رعد» من مجلسه، وقف أمامها يهتف بانفعال صارخ: «وهل تخبرينني بهذا الآن؟».

التفت حوله يمسح الأرض بنظراته، يفتش عن مندس بين رجاله رغم بعد المسافة وعسر الرؤية، يقف أمامها مثل درع، كأن سهمًا مسممًا في الطريق إلى هدفه.

يجذبها ويستدير بها عائدًا إلى داخل الجبل، تستوقفه وتسأله: «من هذا الرجل؟ لماذا يريد قتلي؟».

- سأخبركِ بكل شيء، لكن عليَّ حمايتكِ أولًا، ستبقين في غرفتي حتى أعود.

- إلى أين ستذهب؟ أخبرني، «رعد» أريد أن أعرف.

ركض في الممرات بسرعة أعجزتها عن المواءمة، كادت تتعثر، فعاونها على السير من جديد. أمر الحراسَ بالنفخ في البوق لإعلان حالة استنفار قصوى.

- أريد جميع حراس الجبل في الساحة، حالًا.

لم يتركها إلا في غرفته، سمعته يأمر الحراس بصرامة بعدم السماح بدخول أحد حتى عودته، ولا حتى القاضي نفسه. وقبل أن يختفي خلف الباب المغلق أمسك بكتفيها، ومال صوبها، لا يقوى على فقدانها بعدما عثر عليها بشق الأنفس.

- انتظريني هنا، عندما أعود سأخبركِ بكل شيء، عليَّ الآن تأمين الجبل.

أخرج الخنجر من طيات ملابسه وضعه في راحتها وشد عليها يردف بحزم محذرًا: «لا تغادري الغرفة مهما حدث، ولا تسمحي لأحد بالدخول مهما كانت هويته».

أفزعها صوت النفير الذي يسري في أرجاء الجبل مثل إعلان بالحرب. سألته بلهفة: «وأنتَ؟».

- انتظريني، سأعود.

***

- أنا أحب «سلَّام».

يؤمن «طوفان» أن السر إذا خرج من فم غير صاحبه تقبَّح، وأن صاحب السر هو الأَولى بإفشائه، ليصبح في موطن قوة، لا الضعيف الذي تكشَّف.

- ماذا تقصد بأنك تحب «سلام» يا عمي؟ لماذا تخبرني بما أعرفه؟ كلنا نحب «سلام».

- ليس الحب الذي تعرفه يا «هلال»، أنا أحب «سلام» كامرأة، كحبيبة أصِلها، وزوجة آنس بها.

احتاج «هلال» إلى ما يربو إلى عشر ثوانٍ كي يعي ما يرمي إليه «طوفان»، وإذ به ينتفض من مجلسه يبعثر الرمال يمنة ويسرة، يواجه «طوفان» الذي وقف بدوره: «هل جننتَ يا عمي؟ هل تدرك ما تقوله؟ هل أنتَ في وعيكَ؟».

يصمت قليلًا ثم يردف بريبة: «أم تراكَ شربتَ من منقوع التمر المُسكِر الذي يتداوله بعض الشباب سرًّا؟».

- الزم الأدب يا «هلال» أنت تتحدث إلى عمك.

- وهذا ما أقوله، أنتَ عمي وعم «سلام» كيف تفكر فيها كامرأة؟

- لستُ عمًّا لـ «سلام»، تعرف أن رابطة الدم بيننا بعيدة جدًّا، وعندما أقول إنني عمك أنت فأنا أقول ما أشعر به نحوكَ، لا ما هو واقع حقيقة.

أرغى «هلال» وأزبد، ولم يكن من شيء قادرًا على إذهاب غضبه، ولا حديث «طوفان» إذ قال: «أحببت أن أخبركَ بنفسي، لا أن يبلغك الخبر على لسان غيري».

ثم تولى تاركًا «هلال» يتخبط في غضبه، ساخطًا على الرجل الذي كان يحترمه.

عزم «طوفان» على قراره، يؤمن أن الطوفان القادم لن يدع تحته أرضًا ثابتة يقف عليها، سيجرفه التيار مهما تمسك، لكن على الأقل فليسعَ لإنقاذ «سلام» من الوقوع في ألسنة الخلق وحكاياتهم التي تلتهب حول النار المشتعلة في ساحة المرح.

توجه من فوره إلى أهل العروس الرابعة، يعتذر عن خطبتها، قائلًا بوضوح إنه لم يكلف «أم الرمال» لتخطبها له، وأنه فوجئ كما تفاجؤوا بتلك الواقعة.

أخبرهم أنهم نسب يتشرف به، ومفازة لأجلها يتجهز، لكن لا رغبة له ولا نية، وليفُز بها من هو أولى، ثم مضى من فوره وتوجه إلى دار «أبو الأحناش» يشاركه المجلس مع باقي إخوته.

- ما الأمر المهم الذي جمعتنا لأجله يا أخي؟

تساءل أحدهم باهتمام، فأطرق «طوفان» قليلًا، وعندما دخل «هلال» المجلس، جلس في آخره والحنق ينطق من قسماته، يتطلع إلى «طوفان» بحدة، يود لو يفصح لأعمامه عن اعترافه الذي قاله أسفل الشجرة، لكنه تريث، بدا أن «طوفان» عازم على كشف تلك الحقيقة بنفسه.

رفع «طوفان» رأسه لمواجهة أول دفقة من الأمواج ستصطدم بوجهه، قال من غير مواربة، وبوضوح لا يحتمل التأويل: «تربيتُ بينكم كما لو كنت واحدًا منكم، بل أحيانًا كان أبوكم يميزني في طعام أو كسوة نظرًا لفقداني أبَوَيَّ مبكرًا، لم أشعر بينكم أنني غريب، بل كنتُ صاحب الدار أكثر من صاحبها، وأخًا لكلٍّ منكم أكثر من أخيه نفسه».

تبسمت الوجوه إثر ما قال، إلا وجه «هلال» العابس، ووجه «أبو الأحناش» المتوجس خيفة، لم يعتد أن يسمع من «طوفان» حديثًا مؤثرًا مغموسًا بالمشاعر، وما لاقاه منه مؤخرًا في تعامله مع «سلام» كان مصدر إزعاج وقلق.

والآن بينما يتحدث عن علاقات الدم وروابط القلوب التي تجمع الناس وتقربهم، كان وجه «أبو الأحناش» يسود شيئًا فشيئًا، وكلما استرسل «طوفان» في حديثه وحام حول العلاقة التي تجمعه بكل فرد فيهم، شعر «أبو الأحناش» بأنفاسه تختنق في صدره، وتوقع ما هو آتٍ بقلب واجف، ينبض فزعًا.

- والآن أريد أن أخبركم بسر كتمته طويلًا إلى أن سممني، وسمم حياتي وأفسدها.

ود «أبو الأحناش» أن يدس الرمال في أذنيه، أو يسكب بداخلها شمعًا مذابًا، يكتمهما، فلا يعود يسمع.

توقع الكلمات التي سينطق بها «طوفان» قبل أن تمر عبر شفتيه، قوية لكن مرتجفة، واضحة لكن مغموسة بمشاعر يتأجج بها صدره.

- «سلام» لا تعرف شيئًا، ليس لديها علم بما سأقوله، أنتم الأَولى بإخبارها، أنا يا إخوتي أرغب في الزواج بـ «سلام».

ران على المجلس صمت ثقيل كالجبال، حتى «هلال» نفسه لم يتوقع أن يبلغ به الجنون هذا المبلغ. ومثل الهدوء الذي يسبق العاصفة، توقع «طوفان» ما سيحدث، انتظره بصبر من يعرف أن العواصف مثلما تثور فجأة فإنها حتمًا ولا بُد ستهدأ.

لم تترك له «أم الرمال» فرصة ليحلم، قتلت آماله في المهد مثلما قتل الثور أبويه في مهده. حتى وإن كان ثمن اعترافه هو النفي بعيدًا عن «سلام»، ستبقى هي من بعده في سلام، كان هذا يكفيه ليصمد.

هبت العاصفة أشد قوة مما تخيل، يد امتدت لتمسك بتلابيبه، وأخرى لتصفع، يد تمزق رداءه، وأخرى تنزع العمامة عن رأسه، يد تخمش صدره، وأخرى تلصقه بالجدار من خلفه.

رغم كل الأيادي التي تطاولت واستقوت، لم يرفع في وجوههم كفًّا، لم يقابل السباب بمثله، ولم ينكأ لأحدهم جرحًا. وعندما عيَّره أحدهم بيُتمه وتفاخر عليه بما تفضَّل، لم يوجه «طوفان» سهام غضبه صوب نقاط ضعفه التي يعرفها، ولم يهتك له سترًا.

في الوقت الذي كان يظن فيه «طوفان» أنه يجابه العاصفة وحده، كانت «سلام» عند نهاية الدرج تسمع ما يحدث، ترتجف مثل ورقة في مهب الريح، يُعتصَر قلبها، وتترنح، تعيش عاصفة عاتية من الألم لا تُبقي ولا تذر.

تنادي أباها وأعمامها، تناشد عقولهم أن تتريث، فلا يخرج منها سوى صوت هزيل لا يكفي لصعود الدرج وبلوغ المجلس.

تدرك أنها تفقد أثمن ثوانيها ودقائقها وساعاتها، وأن القلب الذي ينبض بهذيان داخل صدرها ضاق بحمله وأوشك على أن يستسلم.

لا تود أن تودع الحياة بينما تشهد تلك القطيعة التي تحدث في عقر دارها، يؤلمها ما يكيله الجميع لـ «طوفان» والتهم التي يبصقونها في وجهه، لا يستحق «طوفان» هذا، لا يستحق هذا أبدًا.

كان أحد أعمامها قد طاش عقله، أمسك بتلابيب «طوفان» رغم فرق القوة التي كانت لصالح هذا الأخير، ثم جذبه إلى خارج المجلس، ومنه إلى السلم، يتبعه إخوته كلٌّ يتحدث في اللحظة نفسها، فلا تسمع ما يقوله الناصح مِن المحرض.

يمرون أمامها فتحاول منعهم من العبور، تعمى أعينهم عن رؤيتها، وإدراك حالتها، يتعالى الصياح داخل الدار إلى أن يبلغ أسماع من هم خارجها.

تصطدم كفها بكف «طوفان» عرضًا، تشعر باندلاع الحب في دمه، ويشعر ببرودة جلدها وشحوب بشرتها، ينسلخ عنها وتنسلخ عنه. تتلاقى نظراتهما لوهلة مجتزأة من المشهد، كأنها نبضة نافرة لخط سريان الزمن الثابت.

كافية لتكون نظرة وداع قاسية، من طائر نورس مهاجر إلى سمكته الوحيدة، تحطم خلالها قلبان بمطرقة واحدة.

تسقط «سلام» فوق الدرج بعد أن تشهدهم يجرونه إلى الخارج، تدق فوق قلبها عله يستعيد شيئًا من القوة تكفي لتتبع «طوفان» حيث يأخذونه، وتقول في حقه شهادة قد تخفف من قبح ذنبه.

لا يستجيب قلبها مهما تمنت، تطلق أنينًا متصلًا، وشهقة كانت آخر ما تذكر، قبل أن تتدحرج فوق آخر سلمات الدرج، وينطفئ وعيها مثل شمعة مرت بجوارها نسمة متسارعة.

***

يعود الجمع إلى دار «أم الرمال» ويطول بهم النقاش، إلى أن يبلغ أسماعهم شجار وقع في دار «أبو الأحناش»؛ يحوم الهرج حول المجلس، تشعر «أم الرمال» بزمام الأمور يتسرب من بين يديها، فتأمر الجميع بالمكوث في أماكنهم إلى أن ينتهي اجتماعهم.

تطلب من قارئة الصخور قراءة طالعهم، يتناوبون على لعق الصخور وإلقائها وسط إناء الرمال الكبير. تقلبهم قارئة الصخور ثم تخبرهم بعد فترة تأمل التهبت خلالها الأعصاب وتحمست الأفئدة: «انصروا الغريب ينصركم، أراه قادمًا من سفر طويل يستنصركم، أعطوه سؤلَه يتحقق مرادكم».

فالتفتوا إلى بعضهم في دهشة، من الغريب الذي تتحدث عنه؟ سألوها فجمعت رمالها وصخورها تقول باقتضاب: «هذا ما تقوله الرمال، لستُ أفاقة لأضيف تفاصيل من وحي الخيال».

تنهض «أم الرمال» وقد أعجبها حديث قارئة الصخور، واستبشرت به واسترشدت، دخلت غرفة بدارها تنادي الرجل الذي تخفيه بداخلها، ثم تدعوه إلى حيث يجلس الرجال.

يظهر من خلفها الغريب غليظ القسمات الذي يفتش عن امرأة بعينها، لها ألف اسم، ولا تخبر أحدًا باسمها الحقيقي أبدًا!

التقاه بعضهم عرضًا في الواحة وظنوا أنه غريب ضل السبيل، وما أدهشهم هو السبب الذي دفع بـ «أم الرمال» إلى دعوته إلى مجلسهم الذي يتباحثون فيه أمر الواحة، وكيفية طرد الغرباء والوقوف في وجه الممسوس ومن خلفه.

تساءل أحد التجار بغلظة عن سبب دعوة غريب إلى أهم مجالسهم، فألقت «أم الرمال» على أسماعهم ما استجلب عظيم دهشتهم: «هذا الرجل الكريم سيساعدنا على إنقاذ الواحة ممن يحاولون تدنيسها».

راحوا يتأملونه في شك ولسان حالهم يتساءل عما يتفضل به هذا الغريب عليهم. تبتسم قارئة الصخور متخابثة، فالغيب الذي تتظاهر بمعرفته هو ماضي شخص آخر، إذ تنصتت من نافذة الدار من الخارج على حديث الغريب مع «أم الرمال» قبل انعقاد المجلس.

تصاعدت الهمسات وتكاثرت الهمهمات، إلى أن قطعتها «أم الرمال» بدقة قوية من عصاها تبعتها مردفة: «هذا الرجل هو المسمار الأول في نعش الممسوس الذي فضل غريبة على بنات الواحة، غريبة تبغضكم وتتكبر على قوانينكم وأعرافكم وفوق كل هذا سرقت ذهبكم.. هذا الرجل سيكشف لكم الخبث الذي وقع.. تتساءلون عن هويته؟ فليخبركم بنفسه».

أشارت برأسها صوب الرجل الذي ما إن تحدث بصوت غليظ كهيئته، حتى انطلقت الحناجر بشهقات تشي بأوجاعهم، من هول ما بلغ أسماعهم!

***

تقف «صدف» على باب غرفة الساحرة، تسارع بسؤالها بلهفة لم تخفِها: «هل أنتِ بخير يا أمي؟».

تتقدم منها الساحرة بغيظ بادٍ على محياها، تنهرها: «لماذا تأخرتِ في الحضور؟».

- كنتُ أنتظر عودة «قوس» كي أستأذنه، لكنه لم يعد بعدُ.

يكاد قلبها يتفطر حزنًا، لم ترَ «قوس» منذ أن باحت له بما فعلته، عاد في الصباح يبدل ملابسه دون أن يتبادل معها سوى كلمات معدودات، ثم خرج مرة أخرى دون أن يخبرها عن وجهته.

طوال النهار كانت تحاول توطين نفسها على الانفصال الوشيك، عجزت عن تحمل مرارة الفكرة، لا تود أن تخسره، أو تستبدل به غيره، لا أحد قادر على الحلول مكان «قوس» في قلبها، ستعيش عمرًا طويلًا تتجرع الندم وحدها. أخرجتها أمها من شرودها بطلب مستحيل: «أريد أغراضي التي أخذتها زوجة الممسوس، كاملة دون أن ينقصها شيء».

- وكيف أحضرها لكِ؟

- سمعتها تطلب من الحراس أن يأخذوا تلك الأغراض إلى غرفتها، غرفتها بلا حراسة، ستدخلين وتخرجين دون أن ينكشف أمركِ.

هتفت «صدف» بقوة: «بالطبع لن أفعل هذا يا أمي، هذه سرقة».

- وما أخذَته هي مني ليس سرقة؟ اسمعي يا «صدف» لن أقبل برفضكِ، أريد أغراضي حالًا، ولا أحد غيرك يستطيع دخول غرفتها دون إثارة الشبهات، لو طلبتُ ذلك من تلك الطباخة «فضة» لن تطيعني.

- وأنا أيضًا لن أطيعك.

اتسعت عينا الساحرة درجة، وعضت «صدف» شفتها مستشعرة شيئًا من الندم. باغتتها الساحرة بصفعة قوية ألهبت بشرتها، وفتحت شقًّا صغيرًا أعلى شفتها. وقفت «صدف» أمامها ترتجف خوفًا، وفي الوقت نفسه تتمسك برفضها لأوامر الساحرة، فهي حتمًا تعتزم إيذاء شخص آخر بالجبل، لن تكون أداة في يدها، لن تسمح لها هذه المرة.

خرجت دون كلمة، عادت إلى غرفتها تعقد ذراعيها أمام صدرها محتمية، تحاول إيقاف رجفة اجتاحتها. لم يسبق لها أن قالت «لا» بتلك القوة، دفعتها خسارة «قوس» أخيرًا إلى أن تتمرد.

تذكرت حين قال لها: أنتِ لا تهزمين أمكِ برفض أوامرها الخبيثة، بل تنصرينها، نصرة المظلوم تكون بدفع الضرر عنه، ونصرة الظالم تكون بحجز ظلمه، ودفعه لأن يكف أذاه عن غيره.

أعجبها المعنى الذي علمها إياه «قوس»، لم تشعر وهي ترفض أوامر أمها أنها تتحداها وتعاندها، بل تنصرها وتساعدها، خفف هذا من خوفها، وبدد ترددها.

لم تكن المرة الأولى لقول «لا» صعبة كما تصورت، تستطيع التعايش مع تبعاتها، فكرت في ذلك بينما رجفة جسدها تهدأ شيئًا فشيئًا.

***

ظن «مشتاق» أن النهار لن يشرق فوقه ثانية، ها هو في الجارة السوداء داخل عرين الممسوس، الطاغية الذي لا يرحم.

لكن ما الذنب الذي اقترفه؟ حبه لـ «فلك»، أم بغضه لـ «هلال»؟ لم يفعل ما يستوجب العقوبة، فلماذا اختطفه حارس الممسوس وأدخله الجبل عنوة؟

سيق تحت أنظار سكان الجبل، يتساءلون فيما بينهم عن هويته، ويتقززون من مظهره ورائحته، يرغي ويزبد، فلا يولون لصرخاته اهتمامًا يُذكر.

لم تتحمل زوجة سيد الجبل البقاء في الغرفة بينما كل هذه الأخطار محاطة بهما، عليها أن تمد لـ «رعد» يد المساعدة، حتى وإن كانت تجهل أكثر

مما تعرف. عزمت على زيارة «عبد البر» في زنزانته، تثق أنها تستطيع أن تستنطقه، وتعرف منه ما عجز «رعد» عن معرفته.

وما إن اقتربت من الباب تفتحه حتى ترددت، لا تريد إغضاب «رعد»، أو تعكير صفو الوداد بينهما.

كانت يدها المترددة تلمس المقبض عندما تنامى إلى سمعها صراخ شخص تعرفه، فتبددت الحيرة واستقر العزم وحده. خرجت تتبع مصدر الصراخ من ممر إلى آخر إلى أن وقع بصرها على «مشتاق» مجرورًا من قِبَل حارسين قويين.

- «مشتاق!».

ما إن سمع صوتها حتى تعلق بها تعلق الغريق بقشة: ««سراب»، أنقذيني أرجوكِ».

أوقفت الحراس بإشارة من يدها، لم تعثر في جيبها على حجارة تسددها إلى منتصف جبهته، فخلعت نعلها ونزلت به فوق رأسه في ضربات متتابعة. تفاجأ «مشتاق» بردة فعلها، اعتذر منها، وهتف بها أن تتوقف كي يخبرها بما تود معرفته.

كانت في حالة اهتياج أخافته، لم يرها في هذه الحالة من قبل، إلا في أيامها الأولى بالمستشفى. توقفت ما إن شعرت بالخدر يسري في ذراعها، ثم صاحت منفعلة: «يا لكَ من حقير، أنتَ وأبوك وجدتكَ، لماذا فعلتم بي ما فعلتم؟ لماذا سرقتم حياتي؟ لماذا منحتموني هوية زائفة، لماذا يا «مشتاق»؟ لماذا؟».

طأطأ «مشتاق» برأسه مستشعرًا خزي الموقف، قال وهو ينزف ندمًا: «معكِ حق في كرهي».

- أنا لا أكرهكَ فحسب، أنا أتقزز منكَ، أجبني، لماذا آذيتموني بهذا الشكل؟ ماذا قدمتُ لكم غير الحب والرعاية؟ أي شر وجدتموه عندي كي تقابلوني بشر مثله؟

رفع رأسه يقسم بأغلظ الأيمان أن نفسه لطالما راودته على أن يخبرها بالحقيقة، لكنه كان أجبن من أن يفعل، يؤكد أنه أحبها كما أحب «سراب» ابنة عمته، ووضعها في منزلة أخته، ثم أردف: «لم أستطع إخباركِ، كنتُ جبانًا أعرف، لستُ بقوتكِ، عجزتُ عن أن أكون مثلكِ، ألا يمكنكِ مسامحتي؟».

- أبدًا، لن أسامحكَ أبدًا.

ثم تضيف بقسوة: «كيف تخفي عني أنني في عصمة رجل، كيف تسمحون لي أن أخطَب وأوشك على أن أتزوج؟ ألهذه الدرجة أصبحتم عائلة بلا شرف؟».

قال موضحًا بكلمات تتسابق فوق لسانه: «صدقيني لم أكن لأدعكِ تتزوجين، كل مرة كنت أخطط لإفساد الزفاف قبل العقد، في المرة الأولى استأجرتُ بلطجية لتحويل الفرح إلى مأتم، وفي الثانية خططتُ مع ثلة من أصدقائي لانتحال صفة عساكر والقبض على خاطبكِ قبل مجيء المأذون.. لكنكِ في كل مرة كنتِ تسبقين خططي وتشعلين النار في أثناء نومكِ، كنتِ تعرفين وتشعرين رغم فقدان ذاكرتكِ، لم أكن لأسمح بزواجكِ برجلين، أنا خسيس لكن ليس لهذه الدرجة».

التقط أنفاسه قبل أن يستطرد: «عندما رأيتُ «مطر» في الكوخ عرفته من الحدبة فوق ظهره، عرفت أنه عمي، وعرفتُ من تكونين بالنسبة إليه، كنتُ أود أن يخبركِ بنفسه، لأنني كنت أجبن من أن أعترف على نفسي».

- نعم أنتَ خسيس، وعائلتك لا شرف لها، أخفيتم عني أنني زوجة «رعد» ممسوس الجبل، ابن جدك من زوجته الثانية، لكن انظر ها أنا قد عرفتُ، وبقي القليل حتى أستعيد كل شيء سلبتموني إياه قسرًا.

تأملها «مشتاق» بنظرة ذاهلة، قسماته تنطق بالصدمة. عجزت عن فهم ما أصابه بغتة، تململ أحد الحارسين وهو يقول للآخر: «أمرنا الممسوس أن ندخله الزنزانة بسرعة قبل أن يراه القاضي، هيا، أسرع».

حاولت تغيير وجهتهم، أو مد فترة حديثها معه، لكن كلا الأمرين كانا أبعد ما يكون عن المسموح به.

سيق مرة أخرى في الاتجاه الذي يقود إلى الزنازين، تقف هي من خلفه تشيعه بنظرات الغضب. يلتفت إليها «مشتاق» الذي نجح أخيرًا في الخروج من شرنقة الدهشة، قبل أن يختفي داخل أحد الممرات فجَّر في وجهها قنبلة مدوية كان لها بداخلها أثر مدمر: «هذا الرجل يكذب عليكِ، لستِ زوجة الممسوس، لجدي «أبو العيون» ابن بالواحة له ظهر أحدب، أنتِ زوجة «مطر»!».

***

ما قاله «مشتاق» جعلها تتجمد في موضعها، لا تند عنها حركة، كأنها خُلِقت بلا حواس تستجيب، تمثال صُب من شمع، وُضع في منتصف الممر، تمامًا كما وصفها «رعد» حين رآها عبر نافذة الدار المشتعلة.

لا تعرف كم طال بها الوقت وهي تقف بلا حراك؛ لا تشعر، لا تسمع، لا تتكلم، ثم رويدًا أصبحت حواسها قادرة على العمل من جديد. رددت لنفسها ذاهلة: «زوجة «مطر»!».

شرعت تركض في الاتجاه الذي سيق إليه «مشتاق»، كان الحارسان قد أدخلاه الزنزانة وغلّقاها بالجنزير، طرقت الباب، وأمرتهم بفتحه مرات ومرات، لم يستجب لها أيهما، وقد ذكَّر أحدهما صاحبه: «أمرنا الممسوس ألا ندع هذا الأجرب يقترب من زوجته».

كان أمرها نافذًا إذا لم يتعارض مع أوامر سيد الجبل، أما وقد حدث التعارض، نفذ الحارسان أوامر سيدهما دون مناقشة.

كانت الزنزانة ذات جدران سميكة حجبت عنها صوت «مشتاق» بالداخل، لم تتمكن لا من رؤيته ولا سماعه.

مضت في الممرات عازمة على البحث عن «رعد» ليأمر حراسه بفتح باب الزنزانة أمامها، عليها أن تفهم لمَ قال «مشتاق» ما قاله، ما هدفه هذه المرة؟ ولماذا يختلق تلك الكذب المفضوحة؟

بدا جادًّا ملتاعًا، يحاول منعها من اقتراف خطأ قاتل، الممسوس يخدعها، و«مطر» زوجها ذو الحدبة، هل هذا أمر يُعقل؟

تشتت انتباهها، فلم تدرك في أي الممرات تسير، عبرت أمام العديد من الزنازين الفارغة، عاجزة عن إيجاد الطريق. استجلب انتباهها فمٌ تصطك أسنانه ببعضها، صوت كأزيز كالذبابة، ولم يكن الجو داخل الجبل بهذه البرودة. تتبعت مصدر الصوت إلى أن بلغت إحدى الزنازين، لم تكن مغلقة بباب مصمت كزنزانة «مشتاق» بل بقضبان من حديد.

تمكنت خلالها من رؤية الشيخ الكبير المكوم على نفسه، والراقد في إحدى زواياها الأربع.

- من أنتَ؟

سألته فرفع رأسه فزعًا ينظر نحوها، لم ترَ «عبد البر» سوى مرة واحدة، ليلتها حجب عنها ستار الظلام ملامحه، فلم تتمكن من تعرفه. قال متوجسًا: «أنا «عبد البر»، من تكونين أنتِ؟».

- أنا من اعتدتم نعتي بذات البرقع.

ارتعدت فرائصه بينما يدقق النظر إلى البرقع الذي ترتديه، ينهض مستندًا إلى الجدار من خلفه، ويتحامل كي يجر ساقًا مصابة إلى قضبان الزنزانة، فيصدر خفه البالي صوتًا يخترق هدوء الممر. يسألها غير مصدق: «ذات البرقع؟ كيف؟ من التي في البئر إذن؟».

لم تأتِ هنا لتقدم إجابات بل لتنتزعها، كانت في أكثر حالاتها ثورة، كأن الدماء على وشك حفر ممرات جديدة في رأسها، قالت بصوت محتقن بالغضب: «تستطيع أن تصمت كيف شئتَ، وتكذب كيف شئتَ، لكنني سأعثر على سيدك عاجلًا أم آجلًا، وأمنعه من إلحاق المزيد من الضرر».

تحشرج صوتها وهي تهتف به: «أعرف يا «عبد البر» أنكَ يد ساحرة الغابة، وأعرف أيضًا أنه ليس امرأة بل رجلًا، هذا هو السر الذي تبقيه طي الكتمان، أليس كذلك؟».

اتسعت عيناه دهشة في وجهه المنكمش، ثم قال بنبرة مرتجفة: «تعرفين أنه رجل؟ كيف؟ لم يلتقِه أحد غيري».

شعرت بإثارة بالغة ما إن بلغت هذه النقطة، كان مجرد حدس راودها، ليس لديها عليه دليل دامغ أو أمارة لا تقبل التأويل، منحها «عبد البر» بذهوله الحقيقة على طبق من فضة، ودون مجهود يُذكر.

- نعم أعرف أنه رجل، وأنه يعيش في الغابة، ويندس سرًّا بين سكان الجبل من حين لآخر، وربما كان يعبر إلى الواحة عن طريق النفق الذي سده الممسوس بالحجارة، فيعيش في ثلاثة أماكن مختلفة دون أن يكتشفه أحد.

اتسعت عينا «عبد البر» أكثر حتى وكأنهما ستخرجان من محجريهما، فقد كان كل كلامها حقًّا لا مراء فيه أبدًا. أردفت: «والآن لم يبقَ لي سوى الإمساك به، وكف أذاه عن الخلق، وأنت ستخبرني بهويته، ستخبرني يا «عبد البر» كي أستطيع أن أشفع لكَ عند الممسوس والقاضي، لا أحد غيري قادر على إخراجك من هذا المأزق، لو ندمتَ، وتبتَ، واعتذرتَ، وحاولت تصحيح خطئك بإخباري هوية الساحر ستخفف من عقوبتك».

ثم أضافت بقسوة متوعدة: «وإلا ستبقى في هذه الزنزانة إلى أن تتعفن وتتفتت عظامك».

سالت عبرات شفافة فوق وجنتي «عبد البر» المتغضنتين، يهمس ملتاعًا: «لا أستطيع إخبارك».

هزت القضبان بقوة وهي تصرخ به إلى أن ركض صوتها عبر الممرات الفارغة: «ستفتح فمك الخبيث هذا وتنطق بحروف اسمه، لا أريد أكثر من اسمه، هيا تحدث».

- لا أستطيع إخبار أحد.

- لماذا؟ هل تخاف منه؟ نستطيع حمايتكَ، ستكون شاهدًا ملكًا، والشخص الذي ساعد الممسوس على فك السحر عنه، ستحظى بحماية الممسوس ولن يطالك أذى تحت جناحه، أستطيع أن أعدك بذلك.

صرخ «عبد البر» وهز القضبان بقوة محاولًا إسكاتها: «لا أستطيع أن أنطق باسمه، لأن لا أحد سيصدقني».

- أنا سأصدقكَ، فقط أخبرني.

- لماذا تهتمين لأمر الممسوس، لماذا تسعين لفك سحره؟

- لأنه زوجي.

ابتعد «عبد البر» عن الزنزانة خطوات ثلاث، يميل برأسه ويسدد إلى عينيها نظرات دهشة حقيقية، كتلك التي رأتها في عينَي «مشتاق» قبل قليل. وعندما فتح «عبد البر» فمه كي يتحدث، نزع فتيل قنبلة أخرى كانت أشد قسوة من سابقتها: «ماذا تقولين يا امرأة؟ ألا تعرفين زوجكِ؟».

اقترب الخطوات التي ابتعدها، ثم كشر عن بقايا أسنان نخرة وهو يهتف بحدة: «لماذا تدَّعين أنكِ زوجة الممسوس، من تخدعين؟».

- زوجة من إذن؟

خرج منها السؤال بجمود صخر الجبل وبرودته، يخفق قلبها بعنف حتى لتكاد تسمعه. يجيبها «عبد البر» مؤكدًا: «أنتِ زوجة «برق» طبعًا!».

يصفعها الذهول في مكانها، تردد دون أن تسمع صوتها: «برق!».

يفصح «عبد البر» عن الشيء الذي يكتمه، الذي لن يصدقه أحد: «أنتِ زوجة «برق» ساحر الغابة!».

دُنيازاد

يقولون إن الصمت جلال ووقار
ورد الكريم الحامي لبيت الأسرار
إنه مهابة في قلوب الآخرين
ومجلبة لاحترام السامعين
يقولون إن صمت الفتاة إقرار
وقبول ورغبة وإصرار
إنه أقوى من اللفظة
وأحدُّ من خنجر ومسمار
لكن في بعض الأحيان
والمواقف والأحكام
يستجلب لصاحبه مذمة
وفيه خسة ومذلة
الصمت كالكلمة له وقت معلوم
لا يزيد ولا ينقص بقدرٍ محسوم
فالاعتدال شيمة الكرام
والاتزان مفازة للأنام!

الليلة الحادية والأربعون

كيف يمكن لرجلٍ أن يفتح مدينة من غير سلاح؟

(1)

لم تتخلص «فلك» من القلق رغم اختفاء «مشتاق» من الواحة منذ أن أخذه الحارس فوق حصانه؛ تخاف أن يعود من جديد ليمهد لها دروب المستحيل.

لا تزال تشعر بشيء ينقصها لا تستطع تسميته، ربما لحظة إبهار، أو تجديد، أو لون إضافي يزاحم ألوان الطيف السبعة، لا تزال تحلم كل ليلة بدروب مفاجئة تسير فيها، هذه المرة بصحبة «هلال».

قالت لها أمه إنها اختارتها لتضيف إلى حياته الألوان، وتُكمل هلاله المنقوص، عزز هذا بداخلها العثور على مساحة مشتركة تجمعهما، لم تعد تصب تركيزها على الاختلافات بينهما، ولا تغض الطرف عنها كذلك، لأنها موجودة أمامها ولن تتزحزح.

صارت تولي اهتمامًا أكبر بما تحققه بتلك الاختلافات التي من شأنها أن تمهد أمامها دروبًا جديدة.

تدرك أنها متسرعة التفكير، مندفعة التصرفات، طائشة المشاعر، ليست بحاجة إلى شخص مثلها، بل إلى النقيض الذي تصطدم سرعتها ببطئه، وهوجها برزانته، وحرارتها ببرودته، فيتعادلان في منطقة وسط، بينها وبينه.

أدركت أنها لن تحصل على ما تريد بالكيفية التي تريد كأنها تخط الأقدار بريشتها، وأن ثمة قلمًا فوقها يدبر ويكتب. عليها أن تتعلم كيف تتجاهل نكهة الزيتون لتتلذذ بعصير الرمان الطازج، وتنحِّي المنغصات لتتذوق لذائذ الحياة ومحاسنها.

عندما اجتمعت مع «هلال» على الغداء كانت أكثر قابلية لأن تتحدث، نبهها بلطف أنها تسأل وتجيب، تبادر وتدير الحديث، فشدت لجام السرعة، وأبطأت من وتيرتها.

وعندما أخبرته أنه يتعامل معها مثل صديق لا كامرأته، فكر أنه بالفعل يرى أن الصداقة جزء لا يتجزأ من الحياة، وأن صداقته لها على الدرجة نفسها

من محبتها. ولأن هذا كان يدور فحسب داخل عقله، أدرك أنها ليست معه على الموجة نفسها، ولكي يتماوجا معًا عليه أن يفكر بصوت مرتفع، أن يفصح.

كان غداءً هادئًا خاليًا من المشاحنات، تبادلا خلاله أحاديث كثيرة لا يقطعها سوى شروده المتتابع؛ كادت أن تغادر الطاولة الأرضية غاضبة، لولا أنها حاولت أن تتعلم كيف تتريث. سألته مباشرة: «ما الذي يشغلكَ؟».

وبدلًا من حديث وهمي مع نفسه، يتجادل فيه حول ما أخبره به «طوفان» أسفل الشجرة، أفصح لها باقتضاب عما أزعجه من حديث عمه.

أطلقت آهة صغيرة كتمتها سريعًا بأطراف أناملها، وقبل أن تقول شيئًا منحت نفسها لحظات من التفكير ثم بادرته: «لحظة، إنه ليس عمها فعلًا، أليس كذلك؟ أخبرتني أمي في صغري أن «أبو الأحناش» و«طوفان» ابنا خالة».

- ولكننا نعرفه كعم لنا، كيف يفكر بها بهذا الشكل؟ لو عرفَت «سلام» لبصقت في وجهه.

لا تظن أن «سلام» سيصدر عنها رد فعل عنيف، لا يخفى عليها اهتمامها بـ «طوفان»، وعنايتها بشؤونه. إن كان «طوفان» يشعر بها بشكل مختلف، فحتمًا شعرت «سلام» بذلك، أو على الأقل راودها الشك، أي امرأة مكانها كانت ستعرف.

- «سلام» فتاة مريضة لا يريدها أحد، لماذا تستكثر عليها رجلًا أحبها؟

- ماذا تقولين يا «فلك»؟ وهل «طوفان» أي رجل؟ إنه عمنا.

- ليس عمكم بالدم، يستطيع الزواج بها يا «هلال».

راحت تتخيل قصة حبهما المستحيلة، والقادرة على إضفاء دماء متجددة إلى عروق الواحة الراكدة. شعرت بإثارة بالغة، وتمنت أن تبادله «سلام» حبًّا بحب، ورغبة برغبة.

- لا شأن لكَ بهما يا «هلال»، كلاهما راشدان، إن أحبا بعضهما حقًّا وأرادا الوصال فمن أنتَ لتفرق بين قلبين استمال كل منهما الآخر؟

- توقفي يا «فلك»، لا تأتي على ذكر ذلك مرة أخرى.

انفعل بشدة حتى أراق المرق فوق الطاولة، تعكر مزاجه بشدة، غسل يديه ثم أخبرها أنه عائد إلى الطاحونة. لكنه لم يذهب إليها، قادته قدماه صوب دار

«أبو الأحناش» وهناك فوجئ بـ «طوفان» يجتمع بأعمامه وسط المجلس. وما إن طلب «طوفان» الزواج بـ «سلام» دون مواربة حتى قامت قيامته.

لم يستطع تخليصه من الأيادي الغاشمة، ولا منعهم من سحبه خارج الدار يسوقونه وسط ساحة المرح.

وهناك بين نخلتين، صلَبوا «طوفان» بحبال ثخينة خشنة، ثم راحوا يحثون الرمال في وجهه، ويخبرون المتفرجين بسره الذي كشفه بنفسه، فتغلي الدماء في عروق كل من يسمع، يقذفون الأقذار في وجهه، ويزداد الهرج.

يجتمع كبراء الواحة في الساحة، وتأتي «أم الرمال» في أعقابهم، يضرب الجميع كفًّا بكف وتثور ثائرتهم. تأتي زوجات «طوفان» السابقات راكضات من مبعدة، يشاركن الجمع في قرار رجمه، ويتناوبن على ذمه.

يتأمل «طوفان» ما يحدث بنفس مشمئزة، وتواتيه رغبة عارمة في الرحيل عن وجوههم المغبرة، لولا أن هذه الأرض تحمل «سلام» فوقها، لطالب فورًا بمفارقتها.

التقط كل منهم حجرًا وقذفه في بدنه، إلى أن تمزقت ملابسه، وتخضبت الرمال بدمه. لما شاهد «هلال» ما حدث انخلع قلبه، هرول نحو «طوفان» يقف أمامه ويحميه بجسده، يناشد الجميع أن يتوقفوا عن رجمه؛ طالته بعض الحجارة التي أصابت كتفه وصدره، رغم ذلك لم يتزحزح عن موضعه قيد أنملة، ظل يصرخ فيهم: «إنه «طوفان» الذي تعرفونه وتحبونه، ألا تذكرون ما يشفع له عندكم؟».

الناس يمسحون الخير بزلة، وينسون الجميل ما بين غمضة عين والتفاتتها، تناسوا أفضالًا جاد بها «طوفان» عليهم؛ نسوا أنه يتكفل ببضعة أيتام في الواحة، ويمنح الأرامل زيت الزيتون دون مقابل، نسوا أنه يدفع الديون سرًّا عن كل متعسر، وأن أحدًا ما قصده في مطلب إلا وحقق له فوق ما تمنى.

تعجب «طوفان» وذهل عقله، كيف يتناسى الناس الفضل بينهم وينقلبون على أعقابهم في لحظة؟

تذكر قول الفتاة الغريبة التي مرت ذات يوم بواحتهم، أن الله أحق بأن تتعلق به القلوب والآمال، من أعزه الله فلا مذل له، ومن رفعه الله فلا خافض

له، أما البشر فيرفعون ويخفضون بموازين الهوى. استصغر الدنيا في عينيه، احتقرها واستهان بها، جردها من كل أوسمة العدالة والنزاهة والشرف.

تختلط فوق جسده قطرات الدم والعرق، يرفع رأسه إلى السماء ويطيل النظر، يسلِّم قلبه تسليمًا خالصًا لا ريب فيه، إلى إصبعين من أصابع الرحمن، يقلِّبه كيف يشاء.

***

الحارس الذي باع خبرًا لـ «أم الرمال» بعدة عملات من الذهب عرف أنه مطارَد، إذ انكشف أمره للمسوس القادم في أثره؛ لن يرحمه الممسوس، سينزل به عقابًا رادعًا يتحاكى حراس الجبل بشأنه.

يغفر الممسوس كل زلة، إلا الخيانة لا شيء يمحيها.

جمع ما كان يدخره من عملات ذهبية، وأغراض خاصة، وقدر من الماء داخل ملاءة واسعة، عقدها فوق ظهره، ثم انطلق من فوره صوب البوابة الحجرية.

لا يعرف ما ينتظره داخل الصحراء الغربية، ربما لا يعبرها سالمًا إلى حيث يعثر على بشر أو عمران، لكن البقاء في الواحة يُعَد انتحارًا.

حث الخطى صوب البوابة الخالية من الحراسة، يلقي إلى الخلف بنظرة وداع امتلأت خلالها عيناه من بئر الندم، باع حياته ومستقبله لقاء ثمن زهيد من عملات ذهبية، لن تجعله يصمد طويلًا في العالم الخارجي.

عض أصابع الندم بينما يعبر البوابة في وجل، وما إن خرج من الواحة وتجاوزها بخطوات معدودات حتى سقط أرضًا تضرب جسده مطارق الألم، كأن السماء جثمت بصدرها فوقه، وحقن الهواء حرارته في عروقه.

يهذي ويرى خيالات تسوقه، يضرب رأسه بقوة غاشمة، يشعر أن دبيبًا من النمل الناري يجوس في رأسه، ويرتع في بدنه؛ يصرخ فلا يُسمع له صوت، يستنجد بما حوله من رمل وحجر، فلا يجد منهم ما يهب لإنقاذه.

تشويه حرارة الشمس، وتتدحرج قارورة الماء بعيدًا عن مرمى كفه، يزداد لهيب عطشه، يجف جوفه، ويرتجف فوق الرمال لساعاتٍ تطول، وسط الألم والوحشة، تخبت الحياة في عروقه شيئًا فشيئًا، إلى أن يخلو منها جسده.

كانت الأسطورة حقيقة، صنع ساحر الغابة سحرًا باسم كل فرد في الواحة، ليحبسهم بداخلها، ويمنعهم من الخروج إلى رحابة العالم الخارجي.

ولأن الحارس أراد التكفير عن ذنبه قبل أن يلاقي ربه، أخرج من أغراضه قطعة فحم وورقة صفراء، ثم كتب بخط متعرج شائه:

الأسطورة حقيقية!

***

عندما قفز «رعد» فوق ظهر «كحيل» عابرًا الهاوية، كان لديه داخل الواحة هدفان لا ثالث لهما؛ العثور على الغريب الدخيل الذي يضمر الشر في قلبه، وإلقاء القبض على الحارس الخائن.

قسم رجاله إلى فريقين أحدهما بقي في الجارة السوداء، يمشط الجبل والغابة، واصطحب الآخر معه لتمشيط الواحة. بدأ من الكوخ الذي يجاور البوابة الحجرية، إذ إنه يصلح لأن يكون ملاذًا آمنًا لكلٍّ من الدخيل والهارب.

كان الكوخ خاليًا، فعكف ورجاله على تفتيش كل متر مربع ابتداءً من الحدائق وانتهاءً بالبوابة الحجرية.

- انظر يا سيدي.

هتف أحد الحراس يشير إلى جثة الخائن التي تبعد عن البوابة خطواتٍ قليلة. ترجل «رعد» من فوق ظهر «كحيل» ودنا من البوابة إلى أن حذره أحدهم بوجل: «انتبه يا سيدي، لا تغادر حدود الواحة».

جثا «رعد» فوق ركبتيه، ومن موضعه استطاع رؤية الجثة بوضوح أكبر، أمر من حوله: «اجذبوه للداخل».

استخدموا في ذلك الحبال والخطافات والعصي، وبعد محاولات مضنية تمكنوا من جر الجثة إلى داخل حدود الواحة. اقترب «رعد» يفحصها مدققًا، وقرأ الرسالة القصيرة المقتضبة. قال بنبرة مشدوهة: «أضعفه السحر، وقتلته الشمس».

انتفض الرجال من حوله وقد أيقنوا أن كلًّا منهم مربوط بالواحة بسحر خبيث، ينشط إن حاول تجاوز بوابة زرزورة. اندلع الغضب في عروق «رعد»، يضرب قبضته في الجدار الحجري بقوة ويصيح هادرًا: «علينا العثور على تلك الساحرة!».

***

في تلك الأثناء كان «قوس» لا يزال في الواحة بعدما فتح القبر ورأى الحقيقة من غير أقنعة؛ أصابه الذهول، وكادت المفاجأة أن تصيب عقله بلوثة لا براء لها.

عملت رمال الصحراء على حفظ العظام فتباطأ تحللها؛ تحسس برؤوس أنامله ما تبقى من عظام داخل الكفن، لطفل صغير!

أمسك بالقلادة الفضية التي جاورت العظام والتفت حولها، يتأمل الشجرة ذات الأفرع الثلاثة المحفورة فوقها، ثم راح يتحدث إلى نفسه بذهول ويجيب عليها: «هل ممكن؟.. يستحيل.. لكن ها أنا أرى المستحيل بعيني».

كانت الشمس تفرك رأسه بأشعتها الملتهبة، فراح يجلس في ظل شجرة وقد طال به التفكير إلى أن مالت الشمس ميلة شديدة. قرر العودة إلى الجبل على جناح السرعة، ليكشف للقاضي وجه الحقيقة التي عرفها مهما كان قبحها.

وبينما كان يبحث عن أحد الحراس كي يتمكن من العودة برفقته إلى الجبل، اجتذبته أصوات صياح وهتافات عالية، فانطلق في أعقاب الهرج الذي ساد ساحة المرح.

وهناك رأى «طوفان» مصلوبًا بين نخلتين، تنز الدماء من جروحه، وتتساقط الحياة من أطراف أنامله.

رأى الناس وقد أصابهم الهياج، ونزعوا عنهم أردية الإنسانية، إلا «هلال» الذي يتخذ من جسده القوي درعًا لعمه، درعًا طاله الأذى بدوره، فاندفع «قوس» إلى وسط الناس يصيح بهم: «تعقلوا يا قوم، ماذا تفعلون بالرجل؟ يكفي هذا، ستقتلونه».

ثم التفت إلى «هلال» يأمره أن يتخذ لنفسه ساترًا من رشقات الحجارة، لكن «هلال» بقي في موضعه واقفًا كالسد المنيع أمام الطوفان.

توقفوا عن رشق الحجارة مخافة إصابة «قوس» بأحدها، لا لشيء إلا لعلمهم بأنه صديق مقرب من الممسوس، يبقيه إلى جواره بالجبل. انتهز «قوس» هذه الفرصة السانحة، وقف على صخرة كي يبلغ صوته الأسماع ويهتف بهم: «ما الذي أصابكم، كيف تنسون أفضال هذا الرجل وأياديه البيضاء على الواحة بأسرها؟».

- لا تعرف ماذا أراد هذا الملعون، لو عرفتَ يا «قوس» لرجمته بنفسك.

تحدث عشرة من الرجال في نفسٍ واحد، تمكن «قوس» بصعوبة من فهم ما حدث، فضرب كفًّا بكف وهو يصيح بهم: «يعني الرجل جاء بنفسه يقول أشعر بكذا وأريد منكم كذا وكذا.. جاء يرجو ما أحل الله له، أفتحرِّمونه عليه أنتم؟».

تزايد الهرج من جديد فاستطرد: «حتى وإن رفضتم أن تعطوه سُؤله، حتى وإن عزفتم عن مصاهرته، حتى وإن عجزتم عن فهمه، ما كان يجدر بكم معاقبته، لم تضبطوه متلبسًا بفعلٍ شائن، ولا كشفتم سوءة أخفاها عنكم، جاءكم بنفسه مفصحًا ومصارحًا ومكاشفًا، أفقدتم يا أهلي رشدكم؟».

هدأت فورة الدماء في عروق البعض، فيما بقيت على غليانها في أخرى، وبخاصة «أم الرمال» التي اندفعت تطعن «قوس» في ذمته: «ماذا نتوقع من صديق الممسوس، الطيور على أشكالها تقع، ولقد وقع الممسوس على شاكلته».

نزل «قوس» من فوق الصخرة ودنا منها يقول بأسى: «لماذا تقولين هذا يا جدة؟ هذا أنا «قوس» الأمين، تعرفينني مثلما يعرفني الجميع».

رفعت «أم الرمال» عصاها ودفعت بها صدره، ثم قالت بازدراء: «كنتَ شاهدًا على زواجه بالغريبة، من يضع يده في يد الممسوس لا كرامة له بيننا».

صدَّق البعض على حديثها، وبخاصة الكبراء الذين كانوا مجتمعين في دارها. تطلع إليهم «قوس» في مزيج من الدهشة والريبة يسأل: «ماذا فعل «رعد» كي تثوروا عليه الآن هكذا؟».

- ليس هذا وقته، لنحل هذه المسألة أولًا.

أشارت بعصاها إلى «طوفان» بتقزز من يشير إلى جيفة ثم قالت: «هذا المخلوق لا نريده بيننا، لن يبقى فوق أرضنا، ولن يخالط رجالنا، ولن تقع عيناه الخبيثتان على نسائنا، خذه معكَ إلى الجبل، سيجد هناك من هم على شاكلته».

زفر «قوس» بقوة ثم قال: «سآخذه كي أنهي هذا النزاع، لكن سيكون لدينا حديث آخر يا جدة».

- لا مزيد من الأحاديث، ما أقوله واجب التنفيذ.

ثم دارت على عقبيها مبتعدة عن الساحة ومن فيها.

يتعاضد «قوس» و«هلال» على فك الحبال عن أطراف «طوفان» الأربعة، يعاونانه على الجلوس، يعطيانه الماء، وينظفان جروحه بخرقة نظيفة. يقول من بين أنفاسه اللاهثة، وأناته المتوجعة: «ماذا حدث في بيت عمي؟ لماذا غادر الساحة على عجالة؟».

التفت «هلال» حوله فلم يرَ أثرًا لـ «أبو الأحناش»، عاون «طوفان» على النهوض يقول: «لا أعرف، لم أنتبه».

يقول «طوفان» متحاملًا على أوجاعه: «رأيت إحدى النساء تتحدث إليه فتغير وجهه، وتبدل حاله».

وضع يده فوق كتف «هلال» وناشده: «اذهب إلى داره يا «هلال»، اعرف إن كان شيء قد أصاب «سلام»».

- استرح أنتَ يا عمي و...

- الآن يا «هلال»، الآن.

استجاب «هلال» لأمره مرغمًا، وقد كان لا يود تركه، أومأ له «قوس» برأسه، فانصرف مطمئنًا وقد أردك أنه أودعه في يد أمينة، عاونه «قوس» على المسير إلى أن استطاع الحركة وحده.

مضيا في طريقهما صوب الهاوية، انتظارًا للحراس العائدين إلى الجبل.

ألقى «طوفان» من فوق كتفه نظرة حزينة مطولة، تخترق الجدر والأبنية، وتستقر بين يدَي «سلام».

أما «قوس» فكانت تشغله الحقيقة التي صفعته للتو داخل القبر، بقايا العظام التي عثر عليها داخل الكفن.

عظام طفل في السادسة!

***

فُجع «أبو الأحناش» بما قاله المطبب، فاندفع يمسك بتلابيبه ويتشاجر معه: «لماذا تقول إنكَ لا تستطيع أن تفعل شيئًا، هل أنتَ مطبب الواحة أم الإسكافي، كيف لم يعد بيدكَ ما تصنعه؟».

- أعرف أن الخطب جلل، لكن ماذا أقول؟ كلنا أموات تسير على قدمين.

صفعه «أبو الأحناش» وقد بدا للرائي أن عقله قد طاش صوابه، أمسك به الرجال وأجلسوه فوق المقعد عندما ترنح جسده وأوشك على السقوط أرضًا.

يلوكه اليأس بين شدقيه، ويتسرب الأمل من مسام صدره الواسعة، يشعر بوخزة مؤلمة في أضلعه، يود لو يطلق صرخة مدوية، يخفف بها من القهر المشتعل بداخله.

أزاح الجميع من أمامه، واخترق صفوف النساء النائحات ثم توجه إلى غرفة «سلام» يغلق بابها في وجه الباكيات، ويصيح بهن أن يكففن عن النواح. يجاورها فوق الفراش بهدوء، يمسح فوق وجهها بكفيه، يحتفظ به طويلًا بين أنامله، يملي عينيه بقسماتها المحببة.

تسعل فيساعدها على الاتكاء، ويدني قارورة الماء من فمها، فتشرب ثلاث جرعات صغيرات. بينما يتصبب العرق من جبينها تميل رأسها نحوه وتقول: «أنا بخير يا أبي، بخير كثيرًا».

يعرف أنها تكذب، وتعرف أنه يعرف أنها تكذب. تتكئ كي تجلس فتخونها قوتها، يساعدها بدس وسادة خلف ظهرها، تناشده بعينين دامعتين وقلب يرتجف: «أرجوك يا أبي لا تسمح لأحد أن يؤذي «طوفان»».

تتساقط الكلمات من أذنيه ويعلق بها اسم «طوفان» المجرد من الألقاب فيسود وجهه، تميل بجذعها وتضع راحتها فوق صدره، تسعل عدة مرات قبل أن تقول: «لم يخطئ في حقي، أقسم لك إنه كان كريمًا نبيلًا كما عرفته».

تلتقط أنفاسًا متسارعة ثم تردف: «ظننتُ طوال عمري أنني لن أعثر على قلب يحبني مثل قلب «أبو الأحناش»، يراني جميلة رغم مرضي، وكاملة رغم نواقصي، كنت أشعر أن نصيب المرء من الحياة قلب جميل واحد لا أكثر، يحب، ويعتني، ويفتدي.. وكنتُ راضية أن يكون نصيبي من القلوب هو قلبكَ، لكن عندما فتح لي «طوفان» قلبه، عرفتُ أنني كنتُ مخطئة، الجوَّاد يحب الجود على خلقه».

كظم «أبو الأحناش» غيظه، وكبح انفعاله، ليقول بهدوء: ««طوفان» عمك يا «سلام»».

- من الذي قرر؟ أنتَ؟ الناس؟ «أم الرمال»؟ لو نطق بهذا الشجر والحجر هذا لا يجعله محرمًا لي.

وقبل أن يبدي اعتراضًا قالت بوهن: «تعرف ذلك يا أبي، لكنك تسير وراء الجميع لأنك تخاف أن تكون مختلفًا».

تتساقط العبرات فوق وجنتيها وهي تقول بصوت مشروخ: «حتى في ليلة الحريق المشؤومة خفتَ أن تكون مختلفًا».

رجف جسدها بين يديه فضمها بقوة إلى صدره، صدته عنها ورفعت عينيها تنظر إلى وجهه المحتقن بالذنب وتستطرد: «حرق دار القاضي كان متعمدًا وليس حادثة، أنا وأنت والواحة كلها نعرف الجاني، وكلنا التزمنا الصمت وما زلنا، أعرف أن هذا الأمر كان يؤرقك لثلاث سنوات يا أبي، أعرف أن زوجة القاضي تزورك في كوابيسكَ منذ موتها، كنتَ أسمعكَ تنهض من النوم في منتصف الليل مفزوعًا تصرخ باسمها، أعرف أن الذنب يأكلك من الداخل، لكنكَ قررتَ أن تسير في رَكب الجميع، لأن الاختلاف كان سيكلفكَ الكثير».

أمسك «أبو الأحناش» بلحيته البيضاء وبكى بقوة زلزلت دواخله، وأطلقت هواجسه من مرقدها. تمالك نفسه ومسح وجهه بأكمامه يقول بصوت متحشرج: «لا تفكري فيما يزعجكِ، ارتاحي يا «سلام»».

- لن أرتاح قبل أن تقول لي إن «طوفان» في أمان.
- سمعتُ أن «قوس» أخذه إلى الجبل، لن نراه مرة أخرى.
- هل أصابه مكروه؟
- إنه بخير.

أجابها باقتضاب وقد أفزعه ما رآه في عيني ابنته، ونبرتها المتلهفة، أخافه ما قرأه في قلبها المفتوح أمامه على مصراعيه. عدل الغطاء فوقها، وأمرها متلطفًا أن تعود إلى النوم من جديد، فقلبها ما عاد يحتمل المزيد. تسدل جفنيها في وهن وهي تردف بخفوت: «يحق للمسوس حرق الواحة، ما فعله بنا قليل».

ثم تستطرد بصوت أكثر خفوتًا وهي على أعتاب النوم: «لا تكن يا أبي مثل الجميع».

تنسكب عبرات القهر من عينيه، بينما أصداء كلمات ابنته تتردد في أذنيه، تطوف على قلبه إلى أن يأذن لها بالدخول بعد قليل من الممانعة.

وهناك تجد مستقرها.

***

(2)

فارقت ممر الزنازين، رغم ذلك ظل صوت «عبر البر» يتردد من خلفها مطلقًا ضحكة ساخرة رعناء: «كيف نجح الممسوس في خداعك بينما أنتِ زوجة «برق» ساحر الغابة؟.. كنتُ مساعده وخادمه ويده اليمنى التي تطول ما لا يستطع بلوغه، عاش في الغابة ولم يفارقها، كنا نحسبه ميتًا لكنه مخادع، ساحر بالسليقة، لم يعرف بنجاته أحد، لم أره ولو مرة، كنت أسمع صوته فحسب، يأمرني فألبي أوامره».

انطلقت صوب غرفة «رعد» مثل طلقة فارقت للتو مسدسًا كاتمًا للصوت، يجهل من تصادفهم في طريقها أنها رصاصة على وشك الاستقرار في صدر سيد الجبل.

وجدت غرفته خالية، لم يعد بعدُ من الواحة، كان الحراس مستنفرين وعلى أهبة الاستعداد لمواجهة الرجل الذي يتقفى أثرها سعيًا للانتقام منها لسبب تجهله.

اقتحمت غرفة القاضي دون أن تطرق بابها، فهب فزعًا من مرقده.

ظن أن خطبًا جللًا أصاب «رعد»، السبب الذي يجعلها في تلك الحالة الثائرة لا بُد وأن يكون طاغيًا، سألها عما يحدث، فوقفت أمامه تجابهه: «زوجة أي من أبنائكَ أنا؟».

تطلع إليها بعينين مشدوهتين ولسان حاله يتساءل عن سبب سؤالها، ران صمت قصير لم تتحمله، قبضت بأناملها فوق جلبابه تصيح به: ««رعد» أم «برق» أم «مطر»؟ أريد أن أعرف».

- ما هذا السؤال؟

- «قوس» يشهد أنني زوجة «رعد»، و«مشتاق» حفيدك يؤكد أنني زوجة «مطر»، و«عبد البر» يقسم بأيمان مغلظة إنني زوجة «برق»، أصدقني وإياك والكذب أيها القاضي، أي من أبنائك الثلاثة وكلتكَ للزواج به؟

- «مشتاق» حفيدي هنا بالواحة؟

- جاء معي من القاهرة، أبقى «رعد» ذلك سرًّا، والآن أحضره إلى الجبل، عندما التقيته قال إنني زوجة رجل أحدب اسمه «مطر»، إذا أخطأ في الاسم، لا يمكنه أن يخطئ الحدبة.

يمر بخاطرها وجه «مطر» وتقاسيمه التي شعرت تجاهها بالألفة منذ رأته في كوخه، فيشعرها هذا بالغثيان، بينما تتذكر جلستها الخاصة مع «رعد» قبل ساعات. أبعد القاضي يديها المتشنجتين عن جلبابه، ودون أن يترك معصميها مخافة أن تطيش حركاتها، قال: «ما الذي تهذين به؟ «مطر» لا علاقة لكِ به، و«برق» مات رضيعًا في مهده».

- «برق» لم يمت، يقسم «عبد البر» إنه لم يمت، وإنه يعيش في الغابة.

- الغابة؟ مستحيل.

- «برق» ابنكَ هو ساحر الغابة الذي أطعم «رعد» السحر.. والآن فقط بدأت في تصديق أن «مطر» هو الذي ساعده، لماذا يريد كلاهما إلحاق الأذى بتوأمهما الثالث؟ أخبرني، هل أولادكَ توائم متشابهة؟

أسقط القاضي جسده فوق المقعد وقد شحب وجهه حتى لكأن عروقه خلت من الدماء بين غمضة عين وانتباهتها، أدركت أنه مصدوم حقًّا، لا تمثيل ولا خداع في ردة فعله.

- «برق» في الغابة!

يكرر اسم ابنه الثالث همسًا، وقلبه ينبض باضطراب لا يتحمله جسده الواهن. تمر بخاطرها الرسالة، واسم «برق» في آخرها، هل الاسم الذي ظنته شيفرة بينها وبين «رعد» كان في الحقيقة اسم المرسَل إليه؟ هل أرسلتها إلى «برق» ووقعت بالخطأ في يد «رعد»؟ أصابها هذا مرة أخرى بالغثيان.

تثني جذعها وتلتقي عيناها عينيه ثم تقول حازمة: «لا تريد أن تخبرني بالحقيقة؟ حسنًا أيها القاضي، سأعثر عليها بنفسي، وأكشف اللعبة التي يلهو بها التوائم المتشابهة».

تخطو بسرعة خارج غرفته، وقد أقسمت ألا تهدأ حتى تجر الحقيقة من أعناقها. تسمعه يقول قبل أن يغلق باب الغرفة ويوصده: «اثنان متشابهان.. ويختلف عنهما الثالث».

تصدمها تلك الحقيقة الجديدة التي أضيفت إلى تل العجائب، اثنان من التوائم متماثلان في الشكل، بينما الثالث توأمهما المتآخي.

تدرك أنها لن تعثر على الحقيقة في أفواه الآخرين، فتتوجه صوب الإسطبل باحثة عن الفرس البيضاء، تمسح فوق جسدها قليلًا وتهمس لها بضع كلمات، ثم تمتطيها صوب الغابة. تتجه تلك المرة إلى يسار المفترق، وتحث الخطى صوب الطريق المزروع بالنخيل على الجانبين.

تشد اللجام بقوة دون قسوة عندما تعترض طريقها بحيرة كبيرة، تستلزم أن تغوص مع الفرس في الماء لأجل عبورها، وإلا استغرقت وقتًا لا تملكه للالتفاف حولها.

أقسمت ألا يحول بينها وبين الحقيقة شيء، حتى وإن أنبتت الأرض في طريقها جبلًا أو أفلتت السماء نهرًا.

تقفز من فوق ظهر الفرس وتتجهز للدخول بها إلى البحيرة، تزيد من إحكام ردائها، ثم تتقدم داخل المياه شيئًا فشيئًا، ممسكة بلجام الفرس في يدها، تسحبها إلى جوارها، تمسح فوق جسدها كي تزيل توترها وتبدِّد خوفها.

توقفت بغتة عندما بلغ مستوى المياه ركبتيها، إذ راودها شعور غريب أعاقها. صورة باهتة قفزت إلى رأسها، أدركت أن هذا ليس عبورها الأول للبحيرة، حدث هذا من قبل، وكادت وقتها أن تغرق!

عادت تشق الماء بخطواتها، وتصنع ممرًّا يسعها والفرس، قل عمق البحيرة إلى أن بلغت الجهة المقابلة.

سارت طويلًا وسط الأحراش، تركب الفرس تارة، وتسير إلى جوارها تارات؛ مبتلة، متعبة، وجائعة، يلفح البرد عظامها، وتذبحها الهواجس من الوريد إلى الوريد.

بلغت شجيرات طويلة القامة جذبت انتباهها بشدة، خشبها بني محمر، وأوراقها خضراء لامعة، تنجذب إليها الدبابير الصغيرة والخنافس وحشرات المن. تتعلق بغصونها زهور صفراء عجيبة الشكل لها أذرع صفراء طويلة كالأخطبوط.

لم تستطع تحديد نوع الثمر الذي تطرحه هذه الشجيرة، كانت مزروعة بالقرب من بيت صغير من البامبو، استرعى انتباهها فربطت الفرس في الشجيرة ثم اقتربت منه محاولة استكشافه.

كان البيت فارغًا، يحوي طاولة وأجولة ومقاعد في مواضع متفرقة، لا يصلح إلا واحد منها للجلوس فوقه، كان البيت ذو الغرفة الواحدة كريه الرائحة، متربًا من الداخل، إلا مقعد نظيف في المنتصف.

وكذلك موضع بجوار أحد الجدر، كان التراب فيه يتجمع حول مساحة فارغة لها شكل إنسان طويل القامة، فقدرت أن ثمة من ينام هنا، يجلس فوق المقعد، ويراقب الغابة من النافذة المحطمة من الداخل.

لا بُد أن «رعد» ورجاله قد فتشوا هذا المكان ألف مرة، دون أن يعثروا على الساحرة، لم يكن باستطاعتها تجاهل رائحة العطر الثقيل الذي اعتاد «رعد» سكبه فوق ملابسه، لا بُد أنه قاد حملة منذ وقت غير طويل للتفتيش عند المجرم الذي أطعمه السحر كَرهًا.

لو كان للهدوء صوت لسمعتْه في بيت البامبو، كانت جدرانه وكأنها عازلة لأصوات العالم الخارجي، فلا تسمع فيه إلا صوت أفكارها.

أسدل الليل عباءته على الغابة، وتوارى القمر وراء رؤوس الأشجار العالية. تحمل معها مشعلًا أخذته من غرفة «رعد»، وأعواد ثقاب أخذتها من حقيبة الظهر التي جاءت بها إلى الواحة.

عندما أشعلت الضوء بدا الكوخ مخيفًا من الداخل، تسترق الأشجار النظر عبر النافذة، تلتقي النار فتسقط ظلالها فوق الجدران.

أطالت البقاء دون حاجة، لا تعرف السبب لكنها شعرت بشيء يجذبها إلى هذا المكان، لا حبًّا، بل اعتيادًا، كأنها كانت بداخل هذا الكوخ من قبل، الشعور نفسه الذي راودها وهي تعبر البحيرة.

بالتأكيد فتش «رعد» والحراس هذا البيت ألف مرة، هي نفسها لم تعثر فيه على شيء، لكن الغبار الممسوح فوق المقعد، وفي الموضع القريب من الجدار، يشي ذلك بأن ثمة من كان هنا منذ وقت قريب جدًّا.

أكد لها «عبد البر» أنه اعتاد لقاء «برق» ساحر الغابة داخل بيت البامبو سرًّا في مواعيد غير ثابتة، وغير محددة، إذ يُكثر «عبر البر» من التوجه إلى بيت البامبو والمكوث لأيام وساعات، إلى أن يتلطف عليه «برق» بالحضور، وأحيانًا كان يمر شهر كامل دون أن يلمس له أثرًا. وحين يحضر، يسمعه «عبد البر» دون أن يراه، بنبرات قوية تُزلزل دواخله، وتجعله يرتجف مثل ورقة شجر. أخدعها «عبد البر» بكذبة ملفقة؟

إن كان يخدعها فهل «مشتاق» أيضًا يخدعها؟ كلاهما أخبرها أن «رعد» كاذب، ليس بالرجل الذي تحسبه، وأنها لم تدخل يومًا في عصمته.

أحدهما يدعي أنها زوجة الأحدب، والآخر ينعتها بزوجة ساحر الغابة.

ثم يصرِّح القاضي بعد كل ذلك أن اثنين من أبنائه التوائم متماثلان، والآخر لا يتشابه معهما، هل حل أحد المتماثلين محل الآخر؟

علقت المشعل فوق الجدار ثم جلست فوق المقعد تنصت إلى أفكارها، وحديث قلبها، تدرك تمام الإدراك أن المعطيات خداعة، والبراهين التي تبدو قوية قد تكون على حقيقتها في أعظم حالاتها هشاشة.

أسكتت كل شيء وتركت قلبها يتحدث، يتذكر كل لحظة قضتها مع «رعد» منذ أن اختطفها فوق حصانه من أمام الكوخ، وإلى أن تركها في غرفته. يحيطها بجناحه، ويبقيها في حمايته، بالقرب من جانبه الأيسر، حيث يسكن خافقه.

الشعور الذي طاف حولهما قبل ساعات فوق الجبل، وجمعهما في حزمة واحدة، يستحيل أن يكون زائفًا.

لن تُلدَغ من الجحر نفسه مرتين؛ العائلة الزائفة، والآن الزوج الزائف.

تسرب إليها الألم من اللامكان، مغلف بذرات الهواء، يضيق به صدرها، وتشعر بالاختناق.

خرجت من بيت البامبو تجر قدميها قسرًا، وتجاهد لتحث الهواء إلى رئتيها، تهتدي بمشاعل الصباح الباهتة، وتمتطي الفرس البيضاء.

قبل أن ترحل اقتطعت عدة غصون مورقة من الشجيرة التي اجتذبتها، ثم دستهم في جيب ردائها، وبينما تشد اللجام لتُسيِّر الفرس، اشتمت في كفها الذي قطعت به الغصون رائحة عطرة فواحة، لا هي بالزهور ولا هي بالفواكه!

***

ودَّع ثلة من كبراء الواحة الرجل الغليظ عند فتحة النفق الوحيد الذي يعرفون أنه يربط أرض الواحة بالجارة السوداء.

ظل لثلاث سنوات مردومًا بالحجارة، بأمر من «رعد» غير قابل للعصيان، إلى أن رأوا «مطر» يزيحها بيديه العاريتين. ربت أحدهم فوق كتفه يقول: «نظف واحتنا ممن دنسها ولن ننسى جميلكَ طوال حياتنا».

تقدم أحدهم يمنحه خنجره، وآخر يعطيه ملابس سوداء تشبه ملابس حراس الجبل، اشترتها «أم الرمال» من الحارس الخائن قبل موته، ودفعوا ثمنها ذهبًا. ارتدى الرجل الغليظ ملابس الحراس، وعلق الخنجر والهراوة في حزامه، ثم انطلق صوب النفق المظلم، لم يكن بحاجة إلى ضوء يرشده، كان الحقد في قلبه متوهجًا، ينير له دروب العتمة، ويزيح الخوف عن كاهله.

عاد ينتقم من الفتاة الذي أفسدت حياته، وقضت على مستقبله، وجعلته أضحوكة في موطن رأسه، كرس السنوات الأخيرة للبحث عنها، وأقسم أن يجعلها تدفع الثمن.

- تزوجت، هذه الحقيرة تزوجت!

أجج خبر زواجها الحقد في قلبه، وزاده بغضًا على بغض، راح يزحف على أربع داخل النفق إلى أن بلغ الحافة الأخرى من الهاوية، عندئذ تريث في الظلام، فحتمًا ثمة حارس أو اثنان يحرسان المخرج، أو يتجولان في ربوع الغابة.

كان مثل فهد يتربص بفريسته، يملك ما يملكه من الصبر والإصرار على بلوغ الهدف. أمسك بحارس على غفلة، كتم أنفاسه، أسقطه أرضًا، ثم شج رأسه بظهر خنجره، وعندما استرعت الجلبة انتباه زميله وجاء لنجدته، كان مصيره كمصير صاحبه.

ألقى الرجل الغليظ نظرة أخيرة على الرجلين المسطحين أرضًا، قبل أن يتخذ من أشجار الغابة وسيقانها ستارًا يحميه من الأعين المتربصة.

تتبع الإشارات التي أعطاها له كبراء الواحة، للذهاب في الوجهة الصحيحة، وهناك رأى مساحة شاسعة مفروشة بالرمال، عليه عبورها مكشوفًا قبل التمكن من دخول الجبل.

كان الحراس يتجمعون بكثرة أمام مدخل المدينة، فرأى أنها النقطة الأصعب لبلوغ الهدف، بدن الجبل الأسود من حجارة بارزة، ولم يكن صعبًا عليه تسلقها كما اعتاد أن يفعل في صباه.

مكث بين الأشجار لحين العثور على لحظة مناسبة، يعبر خلالها المساحة المكشوفة إلى أن يبلغ مؤخرة الجبل.

- بقي القليل، وستسقط الفتاة فريسة بين يديكَ مثل طير بلا جناح، بقي القليل!

***

- لن أذهب معكَ إلى الجبل.

صرح بذلك «طوفان» الذي امتنع عن امتطاء حصان أحد الحارسين اللذين رآهما «قوس» واتفق على العودة معهما.

- كيف يا «طوفان»؟ أهل الواحة لا يريدونك بينهم، تعالَ معي حتى تهدأ الأوضاع هنا.

- لن أتزحزح من أرضي.

دار على عقبيه وغادر، لم يستطع «قوس» اللحاق به إذ كانت لديه مهمة عاجلة، تلزمه بالتحدث إلى القاضي قبل فوات الأوان.

هتف به «قوس» يسأله بقلق: «إلى أين ستذهب؟ إلى دار «هلال»؟».

منحه «طوفان» إشارة بيده دون أن يتوقف عن السير، يهتف من وراء كتفه: «لا تقلق، اذهب أنتَ».

حاول «طوفان» أن يتناسى الشعور الطاغي الذي غمره، والقلق الذي نهش قلبه، عندما التقى «سلام» على الدرج في أثناء جر الرجال له خارج الدار؛ عجز عن إغلاق فم القلق الذي انفتح على اتساعه، وراح يشوش عليه أفكاره.

توجه من فوره إلى دار «أبو الأحناش»، كان قد حل المساء، الوقت الذي يحظر عليه البقاء في الخارج، لكن الواحة كانت خالية من الحراس الذين يتجولون فيها عادة.

سمع و«قوس» نفير البوق ينطلق من الجبل، فعرف أن ثمة أمرًا جللًا جعل الحراس ينشغلون بعيدًا عن مراقبة أهل الواحة. رغم غياب الحراس لم يجرؤ رجل على الخروج من داره، كانوا يتطلعون من نوافذهم إلى «طوفان» الذي يسير بصدر مفتوح صوب وجهته، دون خوف أو وجل، فيتهامسون ويتلامزون ويعضهم السخط.

لا يجرؤ أحدهم على الخروج ومنعه من السير فوق أرض واحتهم.

بلغ دار «أبو الأحناش» فتوقف هنيهة، ثم طرق الباب، اندفع «أبو الأحناش» ليفتح الباب وقد أصابه الفزع، متسائلًا عن صاحب القلب الميت الذي جرؤ على السير في أرجاء الواحة ليلًا.

- أنتَ؟ ماذا تفعل هنا؟

- يجب أن أتحدث إليكَ يا أخي.

- لا حديث لي معكَ.

عندما أوشك «أبو الأحناش» على غلق الباب في وجهه، دفعه «طوفان» بقوة ودخل، ثم أغلقه من خلفه.

يرنو إلى الرجل الذي كبر في عدة ساعات بضع سنوات، ويسأل ملتاعًا: «كيف حال «سلام»؟».

- ما شأنكَ و«سلام»؟

- أرجوك يا أخي، أخبرني، لم تكن بخير حين رأيتها.

أثقل الهم قلب «أبو الأحناش»، فارتعدت ساقاه من أسفله، وكاد أن يتهاوى أرضًا، لولا أن أمسكه «طوفان» وسار به صوب الأريكة، أجلسه فوقها، ومنحه الماء.

- ابنتي.. «سلام».

ظل يردد ذلك بوهن شديد، وإعياء قضى على البقية الباقية من قوته.

- ما بها «سلام»؟

رفع «أبو الأحناش» عينين مثقلتين بالألم، وردد ما سمعه من المطبب قبل قليل: «إنها تحتضر».

شعر «طوفان» بجسده يتزلزل، وقلبه يتهدم، وعقله يطيش، انسحب الهواء من رئتيه واحتشد الألم في مقلتيه.

- ماذا تقول يا أخي؟

جثا على ركبتيه عندما أعجزه الوقوف، يكرر سؤاله على مسمع «أبو الأحناش» الذي أخفى وجهه بين كفيه يتجرع بكاءً مريرًا يرتج له جسده.

- لا بُد أن ثمة دواء.

أزاح «أبو الأحناش» كفيه عن وجه محتقن، يابس، منزوع الأمل، يفصح: «يقول المطبب إنه استنفد ما في جعبته، ولم يبقَ سوى أن ننتظر أمر الخالق كي ينفذ».

- لن أقبل بالجلوس ومراقبتها تحتضر.

نهض «طوفان» يخلخل شعره بأصابعه، ويروح في المكان ويغدو. وما إن عجز عقله عن تحمل كل هذا القدر من الأسى، أجبر جسده على الانصياع لأوامره؛ انهار أرضًا ملصقًا ظهره إلى باب غرفتها، ورأسه مطأطئ في أسى.

يخمش بأظفاره الباب الذي يحول بينهما، ولأول مرة منذ زمن بعيد، تحتشد عبراته وتنهمر.

***

انخلع قلب «رعد» ما إن فتح باب غرفته ووجدها خالية منها، صاح في الحرس يسألهم عن مكانها، فهزوا أكتافهم جهلًا؛ صرخ مهتاجًا يضرب الجدار بقبضته، ويأمرهم بالبحث عنها في الحال.

اندفع بينهم وكان أول الباحثين في نهم، يتلقفه القلق، والهواجس، والهلع.

لم يترك بابًا إلا وطرقه، ولا ممرًا إلا ودخله، ولا مخلوقًا إلا وسأله، وبينما كان يفكر في التوجه إلى الغابة أتاه أحد الحراس يركض ويقول لاهثًا: «سيدي، رآها أحدنا تتحدث إلى الشاب الأجرب الذي أتينا به من الواحة بالأمس، كانت مضطربة بعد حديثها معه، أصرت على دخول زنزانته، وعصى الحراس أمرها».

اندفع «رعد» في اتجاه زنزانة «مشتاق»، يدفع الباب بضربة عنيفة من قدمه، وقبل أن يعي «مشتاق» ما يحدث كان «رعد» قد أمسك بتلابيبه، يدفعه صوب الجدار ويلصقه به، يصيح في اهتياج: «أين هي؟ بماذا أخبرتها؟».

قذفت العينان المشتعلتان غضبًا بالخوف في قلب «مشتاق» الذي قال باضطراب: «هل تقصد «سراب»؟ أقصد الفتاة التي كانت تظن أنها «سراب»؟ لا أعرف مكانها».

خضخضه «رعد» مرات ثلاث قبل دفعه مرة أخرى صوب الجدار، دفعة قوية أنَّت لها عظام «مشتاق» ألمًا.

كرر «رعد» هادرًا: «بماذا أخبرتها؟».

حاول «مشتاق» تخليص نفسه دون جدوى، هتف بدوره مستشعرًا اليأس والمهانة: «أخبرتها بالحقيقة، أنها زوجة رجل أحدب الظهر، وأنكَ خدعتها».

ران صمت طويل على الزنزانة، شعر «مشتاق» خلاله أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة، ولم يكن مخطئًا في حدسه. كانت نظرات «رعد» تتحرك فوق وجه «مشتاق» في لوعة؛ تضطرب، وتنفعل، وتضعف، وتتقوى.

تقاربت الرؤوس في حدة، وامتزجت القسوة بنبرات صوته وهو يتوعد: «اللعنة عليكَ أنتَ وجدتكَ، كنتُ أشعر أن دماءها الخبيثة تجري في دمك، لذلك لم أسمح لكَ بالاقتراب من أبي، أو المجيء بكَ إلى الجبل لرؤيته».

ثم أردف مهددًا: «إن تحدثت إليها مرة أخرى بهذا اللسان الخبيث سأقطعه، هل تسمعني؟ سأقطعه».

- لا خبيث هنا سواكَ يا ممسوس الجبل، مهما كانت أخطائي تجاهها فأنا أحبها كأخت لي، لن أقبل أن يخدعها رجل مثلك، لن أسمح بأن تعيش حياة زائفة من جديد، لماذا تكذب عليها؟ كلانا نعرف الحقيقة جيدًا، كلانا نعرف أنها زوجة «مطر».

صاح «مشتاق» بشجاعة اليائس الذي خسر كل شيء ولم يبقَ له أحد، ثم أردف هازئًا: «لا تستطيع أن تجد ردًّا، أليس كذلك؟ لأنك تعرف أنني أقول الحقيقة، وإلى أن تنبت لكَ حدبة في ظهركَ، ستظل كاذبًا خبيثًا يتلذذ بخداعها».

كاد «رعد» أن يسدد في وجهه لكمة تصدع عظامه، لولا أن قاطعه دخول أحد الحراس وهو يقول بحماس: «عادت يا سيدي، رأيناها تخرج من الغابة».

أطلق «رعد» سراح «مشتاق» من قبضتيه الآسرتين وهو يحدجه بنظرة نارية، ثم يغادر الزنزانة صافعًا بابها.

***

إنها رائحة «مطر»!

رائحة الغصون التي انتزعتها من الشجيرة النابتة أمام بيت البامبو، لها رائحة «مطر» نفسها!

إذن فــ «مطر» يعرف أن «برق» لا يزال حيًّا، والأكثر من ذلك أنه يزوره في بيت البامبو داخل أحراش الغابة، لهذا كلما كانت تزور كوخه تجده معبأ برائحة غصون تلك الشجيرة.

اتحد التوأمان ضد الثالث، وربما نسجا معًا كذبة أنها زوجة لكل منهما، وأقنع «مشتاق» و«عبد البر» بذلك كلٌّ على حدة.

بدا هذا منطقيًّا إلا ثغرة واحدة لا تستطيع أن تسدها؛ كيف يفعل «مطر» هذا بها؟ وكيف يؤذي توأمه بهذا الشكل المخيف؟

هل استغل «برق» طيبته وعلَّقه في أصابعه بخيوط غير مرئية مثل عروس الماريونيت؟ هل هذا هو الذنب الكبير الذي أخبرها عنه «مطر»؟

أم أن «رعد» هو الذي يخدعها وينسج القصص؟

«سينتزعكِ مني».

ما زالت تتذكر كلمات «مطر» في كوخه، وهو يحذرها من أن تدع «رعد» يراها ويعرف بوجودها في الواحة.

ويقفز أمام عينيها في الوقت نفسه اسم «برق» في آخر الرسالة التي خطتها بيديها.

هل كانت تلك الكلمة رسالة استغاثة وجهتها إلى «برق» نفسه؟

شعرت أنها على وشك الجنون وهي تفكر في الشيء وضده، تقنع به ثم تصده.

عندما خرجت من الغابة وبلغت المساحة الفسيحة أمام الجبل تلاقت و«رعد» في المنتصف، أقبل عليها بلهفة المشتاق، وحدة الملتاع، ينهرها: «لماذا خرجتِ من غرفتي؟ ألم آمركِ بالبقاء فيها إلى حين عودتي؟».

لوح بذراعيه ولا يزال يهتف منفعلًا: «هل نسيتِ أنكِ في خطر، ماذا إن أصابكِ مكروه أو عثر عليكِ هذا الدخيل الملعون؟ ثم ماذا تفعلين في الغابة طوال هذا الوقت؟ كيف بقيت بها وحدكِ بينما ساحرة الغابة لا نزال نجهل مكانها؟».

انهمر سيل الأسئلة من فمه، كانت خلال ذلك تعقد ذراعيها وترمقه بنظرة هادئة غامضة لم يستطع ترجمتها، اتسمت نبرته بهدوء أكبر وإن كان لا يزال محتدًّا: «لماذا لا تجيبينني؟ لماذا تنظرين إليَّ هكذا؟».

شعر بوخزة ألم في قلبه، ترمقه بالطريقة ذاتها التي كانت تنظر بها إليه وقت أن أتى بها إليها الجبل؛ متوجسة، وحذرة، وغير واثقة.

تحدثت أخيرًا تقول بهدوء لا يشي بالعواصف الرعناء التي تعتمل بداخلها: «اسمعني ولا تقاطعني حتى أنتهي».

أخذت نفسًا عميقًا ثم أردفت بصرامة بالغة: «مهما كان السر الذي تخفيه عني، ما عاد بإمكاني الانتظار أكثر كي أعرفه، هل تعرف بماذا أخبرني «مشتاق»؟ هل تعرف ما سمعته من «عبد البر»؟ قالا ما يكفي ليجعلني أبغضكَ بغضًا لم يسعه قلب إنسان قط».

تركت فسحة من الصمت تعبر بينهما ثم أردفت: «لا يليق بقلبي رجل يختبئ وراء جدار من الصمت، ويخفي عني صندوقًا كاملًا من الأسرار».

تكسرت نظراته فوق وجهها، واحتدت أنفاسه واضطربت وقفته.

- لن أحاكمكَ غيبًا، لن أكون القاضي والجلاد كما فعلتَ معي، سأترك لك فرصة واحدة تدافع بها عن نفسك فاستغلها، لأنني لا أمنح الفرص الثانية.

فكت ذراعيها ثم أشارت إلى الجبل تقول حازمة مختتمة حديثها: «عندما تشعر أنك شجاع كفاية للتحدث تعرف أين تجدني، أما إن كنت تحب الاستمرار في دور الجبان فلا شأن لكَ معي».

كل كلمة خرجت من فمها نبتت لها أشواك، استقرت في سمعه، وعبرت إلى قلبه، تخمش وتُدمي. عثر أخيرًا على صوته التائه في غابات القلق، أجلاه ثم قال بمرارة: «أخاف أن أخسركِ».

- خسارتك إياي بعد أن أسمعكَ هي مجرد احتمال، أما خسارتك إياي إن لم تتحدث هي أمر مؤكد.

قالت ذلك بقوة ثم تولت، متوجهة إلى الجبل، وتاركة سيده خلفها، يتخبط بين أمواج الحيرة.

***

لا يسعها مكان داخل الجبل، عبرت الممرات إلى أن بلغت الفجوة الجدارية الكبيرة، التي كانت تجالس «رعد» أمامها بالأمس. فوق الصخرة نفسها جلست وحدها، تتأمل رؤوس الأشجار البعيدة، والاتجاه الأيسر للمفترق الذي يفضي إلى بيت البامبو.

حيث يعيش «برق» ساحر الغابة، الذي يدَّعي «عبد البر» أنه زوجها.

ثم اتجهت بناظريها إلى اليمين حيث الهضبة الملونة، التي يدَّعي «رعد» أنها كانت شاهدة على لياليهما الجميلة، لا يشاطرهما فيها إلا الحصان الأسود، والفرس البيضاء، والنجمات في مخدعها.

وعند المفترق ترى بعين الخيال السلة التي أهدتها لـ «مطر»، الرجل الذي يحمل قلبًا ببراءة وليد، وبرقة سحابة، قلب كبير كان بحاجة إلى مكان أكثر اتساعًا من صدره، فنبت له في ظهره بيت، الذي يؤكد «مشتاق» أنه زوجها.

اثنان من التوائم الثلاثية كاذبان لا محالة.

عطست الشمس عطسة قوية تناثرت على أثرها أشعة صغيرة تدحرجت فوق السحب، ثم انزلقت فوق الجبل وأضاءته بمشاعل الصباح المشرقة.

أخرجت من جيبها هاتف «مشتاق» الذي أعطاها إياه الحارس الذي عثر عليه في أثناء إحضاره إلى الجبل.

قلبته بين كفيها، ثم كتبت الشيفرة التي تعرفها، انفتح الهاتف أمامها، فطالعتها عدة مقاطع مصورة، وصور مجتزأة منها، عندما دققت النظر استطاعت التعرف على «فلك».

سبَّت «مشتاق» في نفسها، ثم أخذت تحذف كل ما صوَّره خلسة، تنقذ فتاة من مكيدة، حتى وإن كانت لن تمتن لها، ولن تعرف بكونها المنقذة.

تطلعت إلى ملف الصور، وشرعت تنظر بعين البغض إلى وجه «مشتاق» الذي يحتل جميع الصور. إلا صورة قديمة، بها خمسة أشخاص يقفون إلى جوار بعضهم، ملتفين حول طاولة فوقها كعكة عيد ميلاد.

تعرف أربعة منهم؛ الجدة و«مشتاق» و«سراب» وأمها.. أما خامسهم فكان وجهًا جديدًا لم تره في حياتها!

استوقفتها تلك الصورة كثيرًا، وأخذت تتساءل: من يكون *الرجل الذي يقف إلى جوار «مشتاق»؟ وأين والده؟*

شعرت بحركة من خلفها فاتسعت ابتسامتها، لم يستغرق «رعد» وقتًا طويلًا كي يقرر مصارحتها. ما إن نهضت والتفتت نحو القادم حتى تجمدت ابتسامتها، ثم انقلبت ذعرًا وريبة.

صاحت في الرجل الذي تراه لأول مرة: «من أنتَ؟».

لم تكن بحاجة إلى إجابته، آثار الجروح فوق وجهه، والغلظة في قسماته، والقسوة في نظراته، كانت كافية لتخبرها بهويته، إنه الرجل الذي يجوب الصحراء بحثًا عنها، انتقامًا منها على ذنب لا تتذكره.

تزايد هلعها وهي تراه يسدد نحوها مسدسًا، أخرجه في حركة سريعة من طيات ملابسه التي تشبه تمامًا ملابس الحراس، مما جعله يتجول داخل الجبل كيفما شاء. يغطي وجهه بعدة ضمادات تتوارى خلفها ملامحه كي لا يكتشف الحراس أمره، تبعها ورآها تخرج من الفجوة، تنظر إلى الشمس متأملة.

- لا أصدق أن اليوم الذي عشت لأجله صار واقعًا محققًا، عثرتُ عليكِ، هذه المحطة الأخيرة في رحلة الهرب.
- من أنتَ؟

قفز إلى الصخرة المستوية التي تقف عليها، وأصبح في مواجهتها، لا يفصله عنها غير خطوات، وخلف كل منهما فراغ يقود إلى الموت ممزقًا.

تركزت نظراتها فوق السلاح الذي يحمله، بدا مألوفًا للغاية، لا السلاح وحده، بل المشهد كله؛ هو وهي والسلاح والجبل!

- أنا الرجل الذي هربتِ منه وظننتِ أنكِ غلبته بمكركِ.

- لا أعرفكَ.

كشر عن أسنان فاسدة، وأطلق ضحكة صفراء باهتة، قال بقساوة: «بل تعرفينني جيدًا».

أخرج من جيبه ورقة مطوية، ثم ألقاها عند قدميها، انحنت تلتقطها بأنامل ترجف، تفضها بتوجسٍ، وما إن رأت ما بداخلها حتى اتسعت عيناها فزعًا.

ترتجف مثل ورقة خريف في مهب ريح عاتية، لا تبقي ولا تذر، تتعلق نظراتها بالورقة إلى أن يقاطعها بصوته الغليظ: «لولا أنهم في الواحة أخبروني أنكِ فقدتِ الذاكرة، لقلتُ إنها خدعة ماكرة، لا بُد أنكِ ما زلتِ تحسنين القراءة، وهذه الورقة التي بيننا والصور التي تستقر أعلاها، تخبرك جيدًا بهويتي».

- مستحيل!

قالتها وهي تتحامل على نفسها كي لا تصرخ بأعلى صوتها في وجهه، لئلا تثير غضبه، فيضغط الزناد، وتنطلق الرصاصة.

فجأة وجدت نفسها تتحسس موضعًا ما بصدرها، يحمل آثار جرح صغير غير مخيط بعناية، ترك من خلفه أثرًا بارزًا لطالما تساءلت عن سببه، فكان «مشتاق» يختلق لها حكاية مهلهلة عن سقوطها من فوق الدرج.

الآن تشعر بهذا الجرح يوخزها ويلتهب، كما لو كانت ثمة ذكرى تود أن تخرج من مخبئها المظلم، وتفصح لها عن نفسها. رآها تضغط فوق موضع الجرح فقال بشراسة: «نعم، هذا الأثر فوق جسدك من توقيعي، لم أكن دقيقًا في التصويب، هذه المرة ستستقر الرصاصة في منتصف رأسك».

أمسك السلاح بيد وأسنده إلى الأخرى، يسدد فوهته إلى منتصف جبهتها، عرفت أنها اللحظة الأخيرة، التي لا شيء بعدها. وصلت إلى نهاية حياة لا تذكر منها إلا ثلاث سنوات وبضعة أسابيع، يا لها من حياة قصيرة!

ترتجف في يدها الورقة التي لم ترَ منها إلا صورتين؛ واحدة لها، وأخرى للرجل الواقف أمامها، الورقة التي لم تقرأ من سطورها الكثيرة سوى عنوان المقدمة:

وثيقة عقد زواج شرعي!

***

ما إن حطت حوافر الحصان بـ «قوس» والحارس فوق أرض الجارة السوداء، حتى انطلق من فوره في اتجاه الجبل، تتسابق خطواته وتتسارع في الممرات.

يصطدم بهذا، ويعتذر لذاك، إلى أن وصل إلى قاعة القرار؛ اقتحم القاعة ولم يتوقف عند ممانعة الحراس لدخوله، هب القاضي على قدميه يتساءل: «ماذا هناك؟».

- يجب أن أتحدث إليكَ يا سيدي، موضوع لا يحتمل التأخير.

- ليس الآن.

- بل الآن.

اندهش القاضي من قوة «قوس» وإصراره، وجرأته على معارضة رغبته، أشار للحارس بالانصراف، وأضحى و«قوس» وجهًا لوجه. تقدم هذا الأخير منه يقول بلهفة ممزوجة بالاضطراب: «ثمة ما عليكَ معرفته يا سيدي، لا أحد غيرك يستطيع التعامل مع تلك الكارثة».

أخرج «قوس» القلادة الفضية من جيبه، ولوح بها أمام وجه القاضي، فاندفع هذا الأخير يقول ذاهلًا: «كيف حصلت عليها؟».

- اسمعني يا سيدي، نبشتُ القبر كي أتأكد مما كنتُ أشك به، وعندما وجدت العظام في مكانها داخل الكفن ومن حولها هذه القلادة، عندئذ عرفتُ هوية ساحر الغابة.

أنصت القاضي إليه بينما الشحوب يتسلق قسماته، أكد «قوس» الشك الذي حام في صدره منذ لقائه الصاخب مع ذات البرقع.

والآن عليه التحرك برد فعل سريع قبل أن يخسر ما تبقى من ذريته.

***

أطل عليها اليأس بوجهه القبيح، وحجب كل ما سواه من وجوه وصور. تعلقت نظراتها باستسلام إلى فوهة السلاح، تنتظر الرصاصة التي ستنهي القصة قبل أن تعرف بدايتها.

من جانب فمها، نبتت ابتسامة هازئة، ستكون حكايتها هي القصة الأولى في تاريخ القصص التي لها نهاية ولا بداية لها.

لم تغمض عينيها، لم تشِح بوجهها، أرادت أن تعرف كيف يكون مذاق الرصاصة المفاجئة؛ هل ستقتلها حيث هي، أم ستدفعها من فوق الجبل؟ هل ستموت في الهواء قبل أن تصل إلى الأرض، أم ستتلقفها الصخور البارزة؟

أحكم الرجل الذي هو في عُرف القانون زوجها إصبعه فوق الزناد، وبكل غِل يمتلئ به قلبه أوشك على إنهاء القصة ووضع الخاتمة.

بغتة حام طير فوق رأسه، في إحدى قدميه خيط رمادي ملفوف بإحكام، راح يصدر صوتًا صاخبًا، وينقر بمقاره في رأس الرجل الذي لا يهتم أحد بمعرفة اسمه.

ارتعب الرجل وظن أن صقرًا يهاجمه، أو طائرًا جارحًا ينهشه؛ رفع ذراعيه يحمي رأسه، ويحركه في كل اتجاه يحاول فيه الطير النفاذ إلى بدنه، انزلق من يده السلاح، فتحركت الفتاة بسرعة ورشاقة، تلتقطه وتسدده إلى وجهه.

انتبه الرجل الغليظ إلى كون الطائر المزعج ما هو إلا يمامة بيضاء هزيلة التكوين، فسبها وقذفها بحجر أخطأها؛ ابتعدت اليمامة عن الأنظار، وقد بدا أنها جندي أتم المهمة التي أُرسِل لأجلها.

- ماذا ستفعلين؟

رفع كفيه كأنهما سدَّان من حديد مصفح، قادر على منع الرصاص من النفاذ إلى جسده.

كانت في حالة مضطربة هوجاء، ترتعد كلما مست الرياح وجنتيها وحركت رداءها. سمعت صيحة تأتي من بعيد، ثم رأت «رعد» يقفز من الفجوة ويتلاقى الثلاثة فوق الصخرة المستوية.

- انتبهي.

يردد هذا في حذر بينما نظراته تغلفها من كل اتجاه، يخشى أن تنزلق قدماها بفعل القوة الارتدادية، إن هي أطلقت الرصاص من السلاح، لم يرَ سلاحًا في حياته، لكنها أخبرته سابقًا كيف يبدو، وكيف يقضي به الناس على بعضهم بعضًا في أقل من ثانية.

تشير بفوهة المسدس إلى الرجل الواقف قبالتها، وتقول لـ «رعد» بصوت مختنق: «هذا الرجل يدَّعي أنني زوجته».

تلقي بالورقة عند قدميه، فتراه يميل برأسه صوبها دون أن يحاول التقاطها، دون أن ينفعل، أو يحاول التكذيب!

- هل هذا صحيح؟

تسأله فلا يجيب، تصرخ به منفعلة ومشدوهة وساخطة: «هل هذا صحيح؟ أجبني، قل شيئًا».

يقول «رعد» بصوت خفيض خنقه اللثام، وسرقته الريح: «نعم صحيح».

تشعر بدوار في رأسها، وقرصة في أحشائها، وغثيان يصول ويجول، يرفع يديه مرة أخرى ليقول: «انتبهي».

يقول الرجل الغليظ بشراسة موجهة إلى كليهما: «تزوجتَ زوجتي بينما أنا أبحث عنها فوق الأرض وتحتها، كلاكما يستحق الموت، لن أرحل عن الواحة قبل أن أمحو هذا العار بيدي».

تتحرك يدها المرتعدة يمنة ويسرة، فتصبح الفوهة حينًا موجهة إلى الغليظ البعيد، وحينًا موجهة إلى الملثم القريب. تشعر بصداع مباغت يشج رأسها، وبالدماء تثور داخل عروقها، تسمع صوت «رعد» كأنه قادم من بئر سحيقة: «انظري إليَّ، سأخبركِ بكل شيء، لم تخطئي، لم تجرمي.. عليكِ تصديقي».

- ماذا تقول يا رجل، تزوجتَ زوجتي وتقول إنها لم تخطئ، إنها مجرمة؟

- اخرس أنتَ.

يوجه له «رعد» كلمات معنِّفة زجرة، بينما هذا الأخير لا يتوقف عن كيل السباب لكليهما، ينعتهما بأقذع الألفاظ مع أمنياته بأن تصحبهما اللعنات الحارقة.

يتوجه الرجلان كلٌّ منهما صوب الآخر بنية الهجوم، فتنطلق رصاصة في الهواء تفض النزال المحتوم. يتطلع كلٌّ منهما إليها؛ أحدهما بعين البغضاء، والآخر بعين المحب الملتاع.

يراها «رعد» تحوم حول هاوية التيه المظلمة، التي لا قاع لها، تترنح وحدها، على وشك السقوط والاختفاء. يقول بغتة: «غصون البندق!».

تتنبه حواسها، وتتوقف عبراتها عن الانهمار، لا تفهم مقصده، فيشير برأسه إلى ردائها، وما يبرز من جيبها: «ما تحملينه في جيبك.. غصون البندق».

تخرِج الغصون وتقبض عليها بيدها الخالية من السلاح، ثم تقول باعتراض حاد: «الشجرة التي نزعتُ منها تلك الغصون لم تكن تطرح البندق».

يدنو منها خطوة ويقول بنبرة متلطفة، تغلفها مشاعر رقيقة، تحتوي وتحتضن: «بندق الساحرة.. هذا هو اسم الشجرة، لا تطرح البندق الذي يؤكَل، لكن تُستخرَج من أوراقها وغصونها رائحة فواحة، ألا تذكركِ بشيء تلك الرائحة؟».

تذكِّرها بـ «مطر»، أجابت في نفسها بمرارة. تراقصت الريح بقوة غاشمة، فحملت لها رائحته التي كانت مزيجًا من العطر الثقيل، وتلك المستخلَصة من غصون البندق، وتكاد تُجزم أن ثمة رائحة ثالثة نفاذة لعُشبة كانت قد اشتمتها سابقًا بين أغراض ساحرة الجبل، اعتاد السَحرة الاستعانة بها في أعمالهم الخبيثة، هكذا أخبرتها «فضة». قالت بضحكة عصبية هازئة: «يقول «مشتاق» إنني زوجة «مطر»، ويقول «عبد البر» إنني زوجة «برق»، ويقول «قوس» إنني زوجتكَ، بأيكم من المفترض أن تذكِّرني تلك الرائحة؟».

يصرخ الرجل الغليظ في وجهها بازدراء بالغ: «هل تزوجتِ ثلاثة رجال وأنتِ على ذمتي؟».

يلتفت إليه» رعد» ويهتف به: «اخرس أنتَ وإلا ألقيتُ بكَ من فوق الجبل».

يلتفت نحوها، يمسك بلثامه، ثم يفك طياته متباطئًا، وعيناه معلقتان بعينيها، يسترعي انتباهها ما يفعله، فتستعيد القليل من صفاء التفكير، تجوس نظراتها بلهفة فوق كل شبر يظهر، إلى أن يُنزع اللثام كاملًا عن وجه صاحبه، ويُلقى أرضًا.

تطلق صيحة تفزع الطيور النائمة في أعشاشها، ترتعد، وتضطرب، وتكاد من هول المفاجأة أن تفقد وعيها.

قسماته مثل مطرقة تهدم جدر الظلام التي تختبئ خلفها ذكرياتها المفقودة، تزداد آلام رأسها. تتهدم الجدر مثل قطع الدومينو، سقوط واحدة يؤدي إلى سقوط أخرى.

تزداد وتيرة المطارق كلما دققت إلى وجهه النظر وطافت من ملمح إلى آخر. تهمس: «مطر!».

ثم تأخذ نظراتها جولة أخرى متباطئة فوق قسماته، وتعود لتهمس: «برق!».

ثم ترتحل في جولة ثالثة وأخيرة أكثر بطأ وأشد تدقيقًا قبل أن تهمس: «رعد!».

يناديها أخيرًا باسمها في تلك اللحظات الفارقة، وقد أوشكت على إلقاء نفسها في الهاوية، يستثير فيها الذاكرة الخاملة بقسمات وجهه، وحروف اسمها الذي يتلألأ بين شفتيه: «نعم، هذا أنا يا «مدينة[1]»!».



الرسم لـ «زينب الصيري»

(1) شخصية من رواية «رايات الشوق»، الحكاية الأولى من سلسلة «احكي يا دنيازاد»، للمؤلفة.

دُنيازاد

لكلِّ بوابة اسمها ماضي
تفتح أمامنا دروب التراضي
نتصالح مع ذكرى أليمة مريرة
ونسعد بأخرى بقلبٍ راضٍ
لا يهنأ بالحياة إنسان بلا ذكرى
ألم وشجن وبهجة وفكرة
لكل شعور خبرة ومزية
توسع آفاق العقول كهدية
عندما تصير الأحلام مرة
لا حاضر مستساغ ولا مسرَّة
نجتر الذكرى الجميلة ونلوكها
ننغمس في الخيالات ونعيشها
لكن للحاضر شمسًا غيورًا
تبغض ظلال الماضي الجهول!

الليلة الثانية والأربعون

أيهما أكثر جاذبية؛ ماضٍ بلا آلام،
أم حاضر بلا أحلام؟

(1)

قبل أربع سنوات

جلس القمر متكئًا على وسادة مخملية سوداء، أو ما تبقى منه، إذ التهم الليل بعضه، وتركه دائرة غير مكتملة، كان جذابًا، سرق منها نظرات عينيها.

تهرب من مدينة إلى أخرى بلا وجهة، ولا هوية، كلما سألها سائل عن اسمها، تمنحه اسمًا مختلفًا، وحكاية زائفة، ومعلومات مختلَقة.

تخفي وجهها خلف برقع بدوي، وترتدي جلبابًا مطرزًا بخيوط حمراء وبرتقالية، يدرك الرائي أنها بنت الصحراء، قبل حتى أن يسمع صوتها، ولهجتها المختلفة.

عندما سألها عجوز صاحب بقالة ابتاعت منها البسكويت: «هل أنتِ من بدو سيناء؟» شعرت بالفزع، واضطرت إلى شكره والانصراف في الحال، رغم أنه وعدها بتوفير مكان للمبيت. كانت تنتظر حتى يفرد الليل أستاره السوداء، ثم تصعد إلى سطح أحد الأبنية، متخفية، تنام في العراء، لا يفصلها عن السماء حجاب.

تركت خلفها البيت والأهل والأرض، وهربت من رجل غليظ القلب يسعى خلفها، ويحاول قتلها.

رفضت الزواج به لدناءته، لم تره رجلًا نبيلًا يليق بقلبها.

زوَّجها أبوها به دون موافقتها، وبطريقة غير رسمية، وتقاليد شِركية، فأصبح يملك عليها سلطة زواج رسمية في عرف الناس، وباطلة في حقيقتها لغياب الرضا.

الرجل الغاصب لحق لا يملكه كان شرسًا بطبعه، ولئيمًا في خلقه، أقسم على قتلها إن لم ترضخ لرغبته، ففضلت الرفض على التسليم، والفرار على الخنوع؛ هربت من بيتها، بمباركة أمها، وقبل ذهابها إلى القاهرة توجهت إلى شيخ قبيلتها، القاضي الذي يحكم في رعيته، أخبرته عما كان من تزويج أبيها بغير رضاها، وطالبته بأن يقر أمامها بفسخ عقد النكاح الباطل؛ وكان يعرف

حكايتها ويتابعها عن مقربة، ويشهد المقربون منه على كل أذى طالها، فأقرَّ ببطلان الزواج، وأعاد لها مرة أخرى حريتها المسلوبة عنوة.

وها هي تنتقل من مكان إلى آخر، تعبر صحراء سيناء، ومنها للعريش، ثم القاهرة، لم تشعر أنها تنتمي إلى هذه المدينة الصاخبة، أزعجها كل شيء حولها، ظل قلبها معلقًا هناك بالصحراء؛ رمالها، وسمائها، وجبالها، وهضابها، ووديانها.

باعت السوار الذهبي الذي كانت ترتديه حول معصمها كي تستطع شراء الخبز والجبن، تعتاش عليهما لأسابيع، إلى أن قررت الذهاب إلى وجهتها المؤجلة.

كانت جالسة فوق سطح أحد الأبنية، ترنو إلى السماء الخالية من النجمات، إلى أن غاب القمر خلف رداء من نور.

عندئذ أخرجت ورقة صغيرة مطوية تحملها في جيبها، وأعادت قراءة العنوان البعيد، البعيد جدًّا.

إن كانت لا تستطيع العودة إلى سيناء والصحراء الشرقية مخافة أن تلتقي الرجل الذي يتوعدها بالقتل ويقيدها بزواج باطل فسخه القاضي بكلمته، فستتجه إلى الصحراء الغربية، حيث الواحات التي لا تختلف كثيرًا عن موطن عيشها.

أنفقت آخر ما تبقى معها من مال في الطريق الذي طال لساعات، وعندما حط الأتوبيس أخيرًا في موقف الواحات الداخلة، توجهت بقلب مشتاق إلى الرمال الصفراء الممتدة كأنها تلتقي حبيبًا بعد غياب.

توجهت إلى قرية «تنيدة» ودفعت الأجرة للسائق طاقية وكوفية من الصوف كانت قد غزلتهما بيديها الماهرتين وحملتهما معها في حقيبة السفر.

تحسست موضع الرصاصة في صدرها، التي أطلقها عليها الرجل الغليظ الذي لا تحب أن تذكر اسمه.

حدث هذا عندما تلاقيا فوق جبل بصحراء سيناء بعد هروبها منه ليلة الزفاف، انطلقت الرصاصة تخترق صدرها، وتسقِطها متدحرجة من فوق الجبل.

ظن أنها ماتت فلاذ بالفرار كجبان خسيس، أرسل لها الله القدير راعي غنم كان يمر بهذا الطريق عادة ليسقي غنمه من البئر القريبة.

أخذها وحملها معه إلى بيته الصغير، عكف وامرأته على مداواتها، ونزع الرصاصة من صدرها، وما إن استعادت رشدها حتى استحلفتهما بالله القدير ألا يخبرا أحدًا بنجاتها.

قصت عليهما ما كان من بيع أبيها لها لقاء ثمن زهيد، لرجل لا قلب له ولا ضمير.

استجلبت حكايتها شجون الراعي وزوجته، وقررا مساعدتها على الهرب، لكنها خافت أن يعود لمطاردتها، ولا يصدق موتها إن لم يكن لها قبر معلوم.

فأخبرها الراعي بحماس: «ماتت قبل أيام فتاة مجهولة لا أهل لها، دفناها على أول طريق المقابر، في قبر بلا شاهد، إذا جاءني أحد يسأل عنكِ، سأخبره أن القبر قبرك والجثة جثتكِ».

أعجبتها الفكرة، وشعرت بالحياة تعود إليها من جديد، بعد أن كانت مطارَدة تحمل روحها فوق كفيها. عندئذ أخبرته أن يأخذ الرصاصة التي أخرجها من صدرها ويضعها في قبر الفتاة، حتى إذا ما حاول الرجل اللئيم فتح القبر للتأكد، عثر على الرصاصة بين الرفات.

هكذا فعل الراعي ما إن حل المساء، لكنه أضاف بضعة تفاصيل دون علمها، بحافة سكينه شق في صدر الفتاة الميتة جرحًا صغيرًا، دس فيه الرصاصة بدقة، كي يبدو المشهد أكثر إقناعًا إذا ما حاول الرجل الغليظ التأكد بعد أن تتحلل الجثة وتختفي معالمها.

وعندما استعادت عافيتها ودَّعتها الزوجة بعينين مشفقتين، ودعت لها أن يعمي الله عنها أبصار الأشرار.

- فلتصحبكِ السلامة يا «مدينة».

وها هي تصل إلى قرية «تنيدة» إحدى قرى الواحات الداخلة، لتبدأ حياة جديدة بهوية جديدة. تتوجه إلى العنوان الذي تحمله في الورقة المطوية، تقف على عتبة البيت الذي تزوره لأول مرة، ثم تدق الباب في وجل، تستقبلها امرأة عجوز هزيلة البدن، تسألها عن هويتها، فتجيبها: «أنا «مدينة» البدوية».

ثم تخبرها بخجل عن صلة القرابة البعيدة التي تجمعهما: «خالي هو زوج أختكِ».

ترفع العجوز رأسها وتقول ببشاشة: «خالكِ زوج «نوَّارة»؟.. تفضلي، تفضلي يا بنيتي».

تدخل الدار متوجسة، وتدير عينيها بحثًا عمن يشاطر الخالة «سمارة» دارها. تدرك «سمارة» قلق الفتاة فتقول بابتسامة مشرقة: «لا أحد غيري يعيش في الدار، أبنائي كلهم تزوجوا ونزحوا إلى القاهرة، يفضِّل الشباب العيش في المدينة».

- أحب الصحراء أكثر من المدينة.

تضحك الخالة «سمارة» للمفارقة: «اسمك «مدينة» ولا تحبين المدينة، تلك سابقة».

تمنحها الخالة «سمارة» إحدى الغرف، وتعد لها عشاء خفيفًا من الخبز الشمسي وجبن الماعز. تأكل «مدينة» ثم تسقِط جسدها فوق الفراش نائمة، لا توقظها الخالة «سمارة» ولا تصدر صوتًا يزعجها. تستيقظ في اليوم التالي لتجد الشمس قد أوشكت على المغيب؛ تنتفض من الفراش وتقدم اعتذاراتها إلى الخالة.

تُذهِب الخالة «سمارة» اضطرابها بنظراتها الحانية، وبسمتها المطمئنة. تجلسها جوارها، وتقدم لها أنجر[1] ممتلئًا بالخبز واللحم والمرق، ثم تقول ما إن تنهي «مدينة» طعامها: «لم أسألكِ بالأمس لأنكِ كنت متعبة، لماذا قطعتِ هذا الطريق الطويل لزيارتي؟».

- ذهب خالي لزيارتكِ مع زوجته الخالة «نوارة» قبل سنوات، وكان قد أعطاني عنوانكِ لكي أرسل له طردًا مهمًّا ما كان يستطيع تأجيل السفر وانتظاره.

- نعم، أتذكر ذلك، هل احتفظتِ بالعنوان طوال هذا الوقت؟

هزت «مدينة» كتفيها تقول بخجل: «من عادتي الاحتفاظ بالأشياء».

- ولماذا جئتِ لزيارتي؟ اعذريني لا أقصد إحراجكِ لكن..

وضعت «مدينة» كفها فوق كف الخالة «سمارة» ثم قالت بتفهم: «أعرف يا خالة لستِ بحاجة إلى الشرح، من حقكِ أن تفهمي، أنا في ورطة كبيرة، لا منقذ لي سواكِ، ولا ملجأ لي يسترني إلا جدران داركِ».

قصت عليها «مدينة» قصة هروب فمحاولة قتل ونجاة، وما كان من زواج باطل أقر بفسخه شيخ القبيلة.

---

(1) طبق كبير من الصاج.

أشفقت الخالة «سمارة» على حالها، ووافقت على حمايتها في دارها، اتخذتها ابنة بدلًا لتلك التي تزوجت وسافرت.

أحبتها «مدينة» وخدمتها كما لو كانت في كنف أمها.

تشتاق إلى أهلها وأرضها، لكن ما كان بإمكانها العودة إليها، وإلا لكرر الخسيس محاولة قتلها.

نجت بنفسها، لكن بجرح غائر في قلبها، حاولت مداواته مع الأيام، وانشغلت في حلب بقرة الخالة وصنع الجبن من حليب عنزاتها، تعلمت منها تحضير الجبنة المعطونة كريهة الرائحة لذيذة المذاق، وكيف تعد الطليعة[1] لأجل بيعها في سوق القرية. وعلمتها «مدينة» بعض وصفاتها البدوية المميزة. ظنت أن الحياة ابتسمت لها أخيرًا، تجهل أن الخطر كان يتتبعها خطوة بخطوة.

***

تمر الأيام وفي أعقابها أسابيع وأشهر طويلة، طويلة جدًّا، تتوقف «مدينة» عن عدها بعد عامها الأول في بيت الخالة «سمارة».

تعيش داخل تقويم خاص لا يتألف من دقائق وساعات، مداره الحب والود والإشفاق، هانئة بحياتها البسيطة، واحتياجاتها المعدودة، إلى أن أجبرتها الحياة على العودة إلى التقويم الأرضي.

ذات ظهيرة حارة عادت الخالة «سمارة» من السوق تركض إلى دارها، تفتش عن «مدينة» في حظيرتها.

- «مدينة»، ثمة رجل بالقرية يبحث عنكِ، يقول إنكِ زوجته، إنه هو يا «مدينة»، الرجل الذي يرغب في قتلكِ.

- كيف عرف مكاني؟

- يسأل عن بيتي يا «مدينة»، لا بُد أنه فتش عن أقاربكِ الأحياء إلى أن وصل إلى عنواني، اهربي، اهربي يا «مدينة».

وقفت «مدينة» أمام الخالة «سمارة» مترددة بين البقاء والهرب؛ أحبتها كأمها، وودت لو تمضي معها ما تبقى من حياتها. كان الفراق عسيرًا كأن كلًّا منهما تنسلخ عن الأخرى، بعدما تآلفت القلوب، اعتادتا الصحبة والونَس.

---

(1) لبن مختمر بقوام الجيلي.

فكت الخالة حبال الحصان الأسود الذي يربض في الحظيرة، ثم قالت للفتاة التي أصبحت تحتل من قلبها مكانة خاصة: «خذيه معكِ يا «مدينة»، لن تستطيعي السير في الصحراء وحدكِ طويلًا».

لما اعترضت «مدينة» بشدة ربتت الخالة فوق عنق الحصان قائلة: «حصان بري عنيد، لم يحب أحدًا بعد زوجي رحمه الله، لكنه أحبك، ربما أكثر مما أحبني، هذا الحصان المسكين سيفتقدك إن تركتِه خلفكِ، خذيه هدية من خالتكِ «سمارة»، سيكون عونًا لكِ وصحبة تؤنس وحشتكِ، انتبهي له ولنفسكِ يا «مدينة»».

حملت «مدينة» أغراضها القليلة، وعادت إلى طريق الهرب من جديد، هذه المرة فوق صهوة حصان أسود، تسوقه فوق الرمال الحارقة، دون وجهة، دون هوية.

تتوقف بجوار بئر أو عين مياه جارية، تشرب وتسقي الحصان، ثم تتحدث إليه باسمة، راضية.

- نحن صديقان الآن، يجب ألا تبقى هكذا بلا اسم.

فكرت قليلًا ثم همست في أذنه: ««كحيل»، هذا الاسم يناسبكَ، فعيناك واسعتان جميلتان، نعم، أنت «كحيل»».

صهل الحصان فأحبت أن تتخيل أنه أعجِبَ بالاسم الذي اختارته. تغوص معه داخل الصحراء أكثر وأكثر، وتنتقل من قرية إلى أخرى، ومن واحة إلى أخرى، لا تمكث في إحداها أكثر من أيام قليلة، ولا تخبر أحدًا باسمها أبدًا.

تتفكر في الواحات التي لم تكن سوى بحيرات، ومع عصر الجفاف الذي بدأ فعليًّا قبل 7 آلاف سنة ق.م، تحولت إلى منخفضات التف حول كل منها جماعة من البشر؛ استقوا عاداتهم، وأرسوا قوانينهم.

تسمع «مدينة» من يقول إن ثمة عيونًا حامضة في تلك الواحات، تُستعمل كالخل، وأخرى مُرة، لا تخالط شيئًا إلا ومررته.

وبالقرب من هضبة الجلف الكبير، كانت تائهة، عطشى، وجوعى، تسوقها الريح حيث شاءت، وتمهد لها الرمال دربًا لم تكن تعلم أنه سينتهي بها إلى واحة مسحورة اسمها زرزورة!

ما إن عبرت بوابتها الحجرية حتى سقطت من التعب مغشيًّا عليها.

***

في ساحة المرح تجمع الشباب في حلقة واسعة، ينشدون الأهازيج والمواويل، يتناوبون على أكل الرطَب، وشرب القهوة المعَدة على الفحم.

تقف الشمس في شرفتها مرتدية وشاحًا ذهبيًا، تراقبهم بابتسامة واسعة، ترسل لهم قبلات حارة فوق جبينهم، فيتفصد عرقًا.

تتهلل أسارير الشمس ما إن ترى خيَّالًا قادمًا من بعيد، فوق فرس بيضاء رشيقة، يسوقها بمهارة صوب ساحة المرح، يتطاير شعره الفاحم مع حركة الريح، فتمسح الشمس خدها فوق وجهه الأسمر، وتعكس في عينيه بريقًا يتلألأ.

يقفز الخيَّال بخفة فوق الرمال الساخنة، بابتسامة واسعة لا تفارق ثغره، يحيي هذا، ويمازح ذاك، ويداعب شعر الصغار الذين تجمعوا حوله، يمنحهم قطع حلوى كان يملأ بها جيبه.

يفسح الشباب له مكانًا في الحلقة، فيختار مجاورة «قوس» دون غيره، ويمدون له بصحون المفروكة[1] ليأكل معهم.

يعود «هلال» إلى استكمال دندنة أبيات أنشودته، يستمع له الشباب ببهجة، بينما «قوس» يميل صوب أذن الخيَّال متسائلًا: «أين كنتَ يا «رعد»؟».

يخلخل شعره الفاحم بأصابعه ويعيد ترتيبه، ثم يميل بدوره صوب «قوس» ويقول بحماس: «كنتُ أصطاد».

- عقارب مرة أخرى؟

- ثعابين هذه المرة.

يخِرج من جيبه أفعى صغيرة ويقول ما إن يرى «قوس» يبتعد بجذعه: «لا تخَف، هذا النوع ليس سامًّا».

- ماذا ستفعل بهذه الأفعى يا «رعد»؟ اتركها تمضي في سبيلها.

- سأتركها ما إن أتعرف عليها.

يتأمل رأسها واستطالته، ويتحسس ملمس جلدها ذي القشور باهتمام بالغ، تتلوى بين يديه فلا يزيده هذا إلا فضولًا وحماسة.

لا يخرجه عن استغراقه في التعرف على الأفعى سوى صهيل حصان قوي قادم من مبعدة.

---

(1) رقاق معجون بالبلح والزبد.

يرفع رأسه ويتأمل الحصان الأسود الراكض في اهتياج، يعرف أحصنة الواحة جيدًا، ليس هذا القادم من بينها.

يعيد الأفعى إلى جيبه، ويغلقه عليها برباط محكم، ثم يتوجه صوب الاتجاه الذي يركض فيه الحصان يحاول إيقافه؛ يتوقف الحصان دون أن يسمح لـ «رعد» بالاقتراب منه، كلما أمسك بلجامه أو حاول تحسسه قفز الحصان مبتعدًا وحاول رفسه.

يتجمع الرجال حول الحصان ويتأملونه بفضول ودهشة، يلتفت إليهم «رعد» ليقول وهو يمتطي فرسه البيضاء: «هذا الحصان لغريب أتى إلى الواحة، لا بُد أنه في مأزق، سأذهب لتفقده».

يحاول الشباب تقييد الحصان الأسود دون جدوى، فيتركونه يتحرك على سجيته. ما إن تقدم «رعد» من البوابة الحجرية حتى رأى جسدًا مكومًا فوق الرمال، لم يدرك أنها امرأة إلا عندما قفز عن ظهر الفرس واقترب.

نزع البرقع الذي لم تعتد نساء الواحة ارتداءه، وحاول البحث عن نبضها وسماع وتيرة تنفسها، أدرك من تشقق شفتيها وبشرتها الباهتة والإعياء الذي كانت عليه أنها تعاني جفافًا شديدًا؛ حملها وتوجه بها صوب فرسه، ثم تردد لوهلة إذ خاف أن تسقط من فوقها، ففضل السير بها طوال الطريق الطويل إلى داره التي ينبت أمامها شجر البندق.

- أمي، أبي.

أخذ ينادي أبويه ما إن دخل الدار، فلم يستجِب لندائه أحدهما، وضعها فوق الأريكة ثم بلل قماشة بالماء وشرع يقطره في فمها.

احتار بين تركها لإحضار المطبب، أو البقاء معها، وبينما كان على وشك اتخاذ قرار الرحيل، فتحت عينيها على اتساعهما.

- من أنتَ؟ وماذا تفعل؟ وما هذا المكان؟ ومن خلع عني البرقع؟ وأين «كحيل»؟

- أنتِ في واحة زرزورة.

لم تكن قد استعادت بعد صفاء التفكير، حاولت الوقوف فترنحت، حاولت السير فتعثرت، اضطرت إلى الجلوس فوق أقرب مقعد.

- وماذا تكون زرزورة؟

أخبرها بشكل مقتضب عن موقع الواحة واختفائها عن الأعين المستباحة، وأنها الوجهة الأخيرة لكل تائه تمتد به الدروب وسط الصحراء، أخبرها كيف عثر عليها وكيف أحضرها إلى الدار.

تسيح نظرات «مدينة» في البيت ذي الطابقين، تكشف لها أشعة الشمس محتوياته وأركانه. كانت نظرات «رعد» مسلطة عليها، تترقب حركاتها وردود أفعالها، كانت غريبة عن الواحة هذا مؤكد، لكنها ليست بعيدة عنهم في الشكل ولا الملبس.

لها لهجة محببة ومميزة، لم يشعر تجاهها بالغربة التي يشعر بها تجاه أي تائه تلقيه الدروب وسط الواحة.

لولا لهجتها المختلفة، والفروقات الطفيفة في ملبسها، لحسبها إحدى قريباته، أو ابنة لأحد جيرانه، أو عروسًا مرشحة له، أرسلتها «أم الرمال» إلى دار القاضي ليتعرف إليها.

عندما اقترب منها ليعطيها قارورة الماء، ضربت القارورة بظهر يدها، وصاحت به رغم الإعياء والوهن: «كيف تحملني وتأتي بي إلى دارك؟».

بوغت بهجومها، فسارع بالتوضيح: «هذه دار القاضي».

- حتى وإن كانت دار الملك، لماذا أحضرتني إليها؟

- وماذا كان ينبغي أن أفعل؟ أتركك وسط الرمال نائمة؟.. دار القاضي أكثر دور الواحة أمانًا، يلجأ إليها الضعيف، والمستغيث، والتائه.

- أنا لستُ ضعيفة ولا مستغيثة ولا تائهة.

عقد ما بين حاجبيه وهز رأسه يقول هازئًا: «بدليل أنكِ لا تستطيعين الوقوف لعشر ثوانٍ كاملة».

كانت على وشك الرد عليه لولا أن انتبهت لشيء يتحرك في جيبه، فأشارت صوبه برأسها بوجل؛ أخرج الأفعى الصغيرة وأراحها بين أنامله، جعل رأسها في مواجهتها، يقول وهو يتأمل ردة فعلها: «هذه الواحة خطر لمن يجهلها، أنقذتكِ من عضة أفعى مماثلة».

نظرت إليه كما تنظر إلى طفل يلهو بدمية، ثم قالت هازئة: «هذا النوع ليس سامًّا يا هذا، جاهل بالصحراء يزعم إنقاذي!».

استشعر القليل من الحرج، وما إن همت بالرحيل حتى قال بجدية: «الليل حلَّ، والظلام منتشر بالخارج».

- وماذا يعني ذلك؟
- ألا يخيفكِ الظلام؟
- الظلام هو الذي يخافني.

تأملها كنوع جديد من العقارب عثر عليه مصادفة، أو أفعى لم يسبق له تأملها عن مقربة، كانت بنظرتها ونبرتها وحركتها وسكنتها شيئًا غريبًا عليه لم يسبق له أن صادفه.

أصرت على الخروج من الدار في الحال، والعثور على «كحيل» وحدها، عندئذ ظهر القاضي على عتبة الدار ينقل بصره بين ابنه والغريبة ثم يقول بنبرة مرحِّبة: «سمعت أن غريبة مرت بالواحة فجئتُ لأطمئن عليها، أنا قاضي الواحة يا بنيتي، هذا ابني وهذه داري، هل أنتِ بخير الآن؟».

- بخير يا عم.

رجل مهيب له طابع سلطوي، ونبرة أبوية مطمئنة، رفض القاضي أن يسمح لها بالمغادرة قبل أن تأكل وتشرب ما تتقوى به على الرحيل.

- الليل أعمى، والنهار له عيون، ابقي معنا يا بنيتي، زوجتي ستأتي بعد قليل.
- يجب أن أعثر على «كحيل».
- لا خروج من الدار قبل أن يحل النهار.

كان هذا ما قاله «رعد» بنبرة حازمة، ودون أن يفسح لها المجال للاعتراض، دخل المطبخ وشرع في إعداد الطعام. كانت من موقعها فوق المقعد تسمع صوت تقطيع الخضر، وتشم رائحة زكية تثير فيها الشهية، يقرص الجوع معدتها ويذكرها أنها لم تأكل شيئًا منذ يوم وليلة.

يتحرك «رعد» أمامها بخفة؛ يعد الطاولة الأرضية لاستقبال أربعة أطباق من الحساء، لا تعود الزوجة من الخارج ويظل طبقها دون مساس فوق الطاولة التي التف حولها ثلاثتهم.

تأكل «مدينة» دون أن تتبادل مع الرجلين كلمة، مستشعرة حرجًا بالغًا جعلها في البداية تأكل الجزر مرغَمة، لاعت معدتها فاضطرت بخجل إلى أن تخرجه بملعقتها وتضعه على طرف الصحن، ثم تشرع في إنهاء طبقها بنهم.

دون أن تطلب المزيد، التقط «رعد» طبقها ما إن فرغ، وذهب إلى المطبخ لتعبئته من جديد. استغرق وقتًا أطول مما ينبغي، وعندما عاد ووضع الطبق أمامها، رأت بداخله الخضر تسبح في الحساء، وليس من بينها الجزر.

ترك ما فعله أثرًا بداخلها لم تستطع تجاهله، منحته إيماءة ممتنة، ثم ثبتت نظراتها على الحساء وأكملت طعامها في صمت مجدول بالقلق.

عندئذ حضرت الزوجة أخيرًا إلى الدار؛ خمسينية جميلة، قصيرة القامة دقيقة الملامح، عندما تأملتها «مدينة» شعرت أن بها خطبًا ما.

كانت تتحرك من غير اتزان، وتتحدث إلى نفسها، تدور في الدار تبحث عن شيء مفقود، لا تعرف ما يكون، ينهض «رعد» ويجذبها إلى الطاولة بحنان.

يجلسها إلى جواره، يرتب شعرها، ينفض التراب على ردائها، ويطعمها الحساء بالملعقة، كما لو أنهما يتبادلان الأدوار. تثبت نظراتها فوق «مدينة» وتسأل: «من هذه؟».

يجيبها زوجها: «ضيفة ضلت الطريق إلى الواحة».

تململت «مدينة» في جلستها، وقالت بحرج: «أهلًا بكِ يا خالة، أعتذر إن تطفلتُ على داركِ».

تترك الزوجة حساءها وتدنو من «مدينة» متأملة، تسألها: «ما اسمكِ؟».

تتوتر «مدينة» ثم تقول: «أحب أن يناديني الناس بالبدوية».

- هل أنتِ متزوجة، هل لكِ أبناء؟

تفكر «مدينة» بمرارة في زواجها المجهض لعدم اكتمال شروطه، ثم تؤكد بقوة: «لا يا خالة».

تداعب الزوجة سوارًا من خيوط الصوف ترتديه «مدينة» حول معصمها، تنبهر بألوان خيوطه المتعددة، والمضفرة إلى بعضها حول حبات من الخروع، ذات ثقب من المنتصف يتسع قطر الخيط.

تخلع «مدينة» السوار الذي صنعته بنفسها، وتهديه إلى الزوجة التي ابتسمت بجزل، موجهة حديثها إلى زوجها، وترمي ابنها بنظرة مشجعة: «أحببتها، فلتبقَ معنا».

تجذب يدها وتوجهها إلى الطابق الثاني، تتخير إحدى الغرف الصغيرة، التي كانت نظيفة ومرتبة، ثم تقول بحماس طفولي: «هذه غرفتكِ».

ثم تغلق عليها الباب قبل أن تتمكن «مدينة» من شكرها. تلك الليلة كان نومها خفيفًا متقطعًا، تراقب الباب المغلق، وتسترق السمع إلى الخطوات التي تروح وتغدو في الخارج.

تفكر في «رعد» والطريقة التي يتعامل بها مع والدته، أسرتها تلك اللمسات البسيطة، عندما رتب شعرها ونفض التراب وأطعمها بالملعقة.

تسمع طرقة خفيفة على الباب، ثم ترى ظلًّا ينحني، ويختفي سريعًا. تنهض متوجسة، تقف خلف الباب تسترق السمع، ثم تفتحه بغتة، فلا تعثر على أحد.

وعندما أوشكت على غلقه تنتبه إلى البرقع المرتب فوق الأرض، تلتقطه ثم تغلق الباب بسرعة مرة أخرى من الداخل. تسمع صهيل «كحيل» من خارج النافذة، تفتحها وتشرئب بعنقها، تراه مربوطًا في شجرة بندق، يأكل من جوال من الخيش ويهز رأسه متلذذًا.

تنبت فوق ثغرها بسمة مطمئنة، تغلق النافذة ثم تعود إلى الفراش، تفكر في الرجل الذي أعاد إليها البرقع والحصان، وكيف تشكره في الصباح. تهمس لنفسها ناهرة: «ما بكِ يا «مدينة»؟».

تصرف تفكيرها عنه، وتدفن أفكارها في حياة الهرب التي تعيشها، لا تستطيع البقاء طويلًا بالواحة، عليها البحث عن وجهة جديدة.

ظنت أنها لن تشعر بالأمان في هذه الدار، ولن تألف سكانها يومًا، لكن الحياة كان لها رأي مختلف.

***

استيقظتْ مع الفجر عازمة على مغادرة الواحة، واستكمال رحلتها غير معلومة الوجهة.

قبل أن تنزل الدرج سمعت صوت أثاث يتزحزح، ومياه تتدحرج، فتوقعت أن ترى الزوجة وهي تبدأ يومها بالتنظيف. عدلت ملابسها وارتدت برقعها،

وما إن وقفت على آخر سلمة حتى طالعها وجه «رعد» الخارج من المطبخ، يحمل فرشاة وممسحة، فوجئت بأنه مصدر الأصوات الصاخبة منذ الصباح. شعرت بحرج مباغت، ثم قالت بعجالة متوجهة إلى الباب: «اشكر أبويكَ نيابة عني».

- سأجهز الفطور بعد قليل.

- لستُ جائعة.

أبدت امتنانها على اهتمامه بـ «كحيل»، ابتسم من فوره قائلًا: «عرفنا اسم الحصان قبل أن نعرف اسم فارسته».

- يفصح عن الأسماء من ينوي البقاء.

قالت ذلك بنبرة حاسمة ثم توجهت إلى الباب، وقبل أن تمتد يدها إليه كان قد انفتح أمامها. أتت الزوجة مهرولة من السوق، تحمل في جعبتها خيوطًا ملونة، وحبات بندق قطفتها من الشجرة الكبيرة أمام الدار، بادرت «مدينة» بابتهاج: «ها أنتِ قد استيقظتِ، لم أعثر على الخروع فأحضرتُ البندق، هيا لنصنع أساور أبيعها لنساء الواحة في السوق».

كانت المرأة في غاية الحماسة واللهفة، رمقها «رعد» بحنان وبسمة رائقة، منذ زمن بعيد لم يرَ أمه تتحمس لشيء أو لأحد، يحاول استبقاءها في الدار قدر استطاعته، وسرعان ما يصيبها الملل، فتلقي بنفسها في الحواري والحارات، لا تعود إلا عندما تتعب أو تجوع.

رمق «مدينة» برجاء يناشدها أن تبقى قليلًا لصنع الأساور كما تشتهي أمه، ولم تكن «مدينة» بحاجة إلى رجاء، أومأت برأسها إيجابًا وتبعت المرأة إلى غرفة المجلس، جاورتها فوق وسادة وشرعت كلتاهما في إحداث ثقب وسط حبات البندق، ولف الخيط، وصنع الأساور.

تذوقت «مدينة» حبة بندق، فطاب لها مذاقها، حيث كانت تعيش داخل حدود قبيلتها لم تصادف شجرة بندق.

- لا تأكلي البندق، إنه للأساور.

يتابعهما «رعد» بمزاج رائق في أثناء قيامه بالتنظيف، تتعجب «مدينة» من أدائه للمهام المنزلية دون غضاضة أو تأفف، لا يرى في هذا حرجًا أو تقليلًا من رجولته.

وعندما حان وقت الرحيل كانت المرأة مبتهجة بإنتاجهما المشترك، خرجت مباشرة إلى السوق وهي تتحدث إلى رجل أخضر صغير في رأسها!

هكذا أخبرت «مدينة» التي تأملتها باهتمام بالغ.

- خذي هذه معكِ.

منحها «رعد» سلة من الخوص وضع بها ما طالته يداه من خضر وحلوى وفاكهة، ومرة أخرى يترك فعله البسيط أثرًا محسوسًا في نفسها، أخذتها منه ممتنة ومودعة.

جذبت انتباهها قلادة فضية تتدلى فوق صدره، بيضاوية الشكل، محفور فوقها شجرة لها ثلاثة أفرع، صرفت نظرها عنها بسرعة ثم جذبت لجام «كحيل» تجاوره في المسير.

لا تلتفت إلى الرجل الواقف وراءها، كانت لترى «رعد» يتابعها بنظرات تستبقيها، إلى أن اختفت عن ناظريه بصحبة حصانها الأسود، فعبس وجهه، أخذ نفسًا عميقًا وخلخل شعره بأنامله يتهامس لنفسه: «ما بكَ يا «رعد»؟».

***

ما إن بلغت البوابة الحجرية حتى توقفت مترددة، عاجزة عن اتخاذ قرار الرحيل، الذي بدا سهلًا ومنطقيًّا عندما كانت في دار القاضي.

إنها فتاة مطارَدة من رجل لن يهدأ حتى يعثر عليها وينحر عنقها، لم يترك لها فسحة للاختباء ولا مكانًا للذهاب، إن خرجت من الواحة ستكون كمن يقفز في هاوية الهلاك، سيعثر عليها لا محالة، مهما اتسعت أمامها الصحراء.

إنها الآن في واحة مسحورة غير موجودة على الخارطة، لا يصل إليها إلا تائه، تمتمت لنفسها حازمة: «هذا أكثر مكان آمن أستطيع اللجوء إليه».

عادت أدراجها تحمل السلة بيد، وبالأخرى تجذب لجام «كحيل»، تقول له كأنها تحاور صديقًا: «أول شيء علينا البحث عن مكان للمبيت، ثم وسيلة لكسب الرزق».

مرت بحدائق غناء وأشجار ونخيل ذوات ثمار نضرة وأوراق خضراء وراقة، مضت إلى ساحة السوق تتأمل ما حولها بابتهاج. أناس بسطاء كرماء يمنحونها مما يحملون من خيرات دون طلب.

مرت أمام الدكاكين وتوقفت قليلًا عند معصرة الزيتون تستمتع بالرائحة، ثم توقفت عند دكان القماش تتأمل المعروض، وتستمتع بملمس الحرير والكتان.

ترى تجمعًا على مقربة، أناس يلتفون حول شخص يجلس فوق بسطة، أثارها الفضول فاقتربت، وما إن فعلت حتى بهتت ابتسامتها، وضاقت بما سمعت.

كانت قارئة الصخور جالسة تقرأ ما تخطه الرمال من حكايات تكشف بها للناس أقدارهم، وترفع الستار عن الغيب فتراه كما يرى المرء كفيه، هكذا تزعم.

اخترقت «مدينة» الصفوف ووقفت أمامها وبكفها تلوح: «أنتِ يا مخرفة، يا معتوهة ومدلسة، بماذا تخبرين هؤلاء الناس؟ لا يرى الغيب إلا خالقه، ولا يعرف المصير إلا كاتبه».

احتدت قارئة الصخور ووقفت وسط الناس تنهرها: «كيف تقولين هذا لقارئة صخور الواحة، كيف تقولين هذا لمن تسمع دبيب النمل قبل أن يفكر في السير، وترى نهايات الليل قبل أن يستيقظ النهار؟».

- لا تسمعين إلا وهمًا، ولا ترين إلا ظنًّا، كلامك اختلاق، وادعاؤك افتراء، وما تخبرين به الناس هراء في هراء.

استنكر الناس حديث «مدينة» ووقوفها في وجه قارئة الصخور التي لم تتحمل هذا القدر من المهانة، فانقضت عليها تجذب وشاحها. كانت «مدينة» قوية البدن، عفية التكوين، ردت الضربة بمثلها، والصفعة بأختها، إلى أن فرق الناس بينهما، واستُدعي القاضي للبَتِّ في الواقعة.

حكم القاضي باعتذار الغريبة إلى قارئة الصخور، فرفعت أنفها معتدة تقول: «أقسم بمن أحلَّ القسم وأوجَد النبض في الفؤاد، ألا أعتذر لمن يفتري على الله ويخدع الناس في الطرقات».

فأصدر حكمًا آخر استرضاءً لقارئة الصخور، وهو أن تمنحها الغريبة السلة التي تحوي كل طعامها، ففعلت «مدينة» مرغَمة.

ومنذ تلك اللحظة استعداها أهل الواحة، وكرهوا وجودها.

لم تطرق بابًا إلا وأُغلق في وجهها، لم يمنحها أحد غرفة للمبيت، أو حتى فسحة فوق سطح داره للسُّكنى، بعدما عكفت قارئة الصخور على الدندنة بقصتها مع الغريبة الوقحة. عندما حل الظلام واشتد البرد، مالت صوب

«كحيل» تقول بأسنان تصطك ببعضها: «يبدو أننا سننام الليلة في العراء، كل الأبواب مغلقة في وجهنا».

- بابنا مفتوح دائمًا.

انتفضت ما إن سمعت صوتًا ذكوريًّا خلفها، التفتت لترى «رعد» أمامها، وإلى جواره فرس بيضاء جميلة.

كانت الشمس قد غابت، وحلَّت الظلمة، لا مصدر للضوء سوى نجمات صغيرة منتشرة في أطراف المظلة السماوية، ومشعل يحمله في يده.

اخترق الهدوء صوت ذئب يعوي من بعيد، شعرت أسفل قدميها بحركة حيوان زاحف فتراجعت إلى الخلف خطوات، جاذبة إلى جوارها «كحيل»، مخافة أن يفزعه المخلوق المجهول الذي يتحرك حولهما.

- أمي تنتظركِ.

قال ذلك ثم تولى، يتحرك بخطوات بطيئة محسوبة، لئلا يبتعد كثيرًا عن موضع بصرها، يخفت ضوء المشعل كلما تباعدت المسافات بينهما، فتتخذ أخيرًا قرار تتبُّعه.

لا يلتفت نحوها، يدرك أنها تسير من خلفه عندما يتنامى إلى سمعه قبقبة[1] حصانها.

- ما كان عليكِ مهاجمة قارئة الصخور، أنتِ غريبة في أرض غريبة.

لم يقُل ذلك بنبرة ناهرة، بل متلطفة، منزعجة مما أصابها في الصباح.

- استحقت ما حدث.

قالت بعناد ثم أردفت: «ثم أنها هاجمتني أولًا، واضطررت إلى الدفاع عن نفسي، تلك المرأة تدَّعي أنها ترى الغيب، لم أحتمل أكاذيبها».

- ليست أكاذيب، تقول ما يحدث فعلًا، إنها امرأة ذات بصيرة.

- بل ذات ذكاء، تعرف كيف تتلاعب بكم مثل عرائس في يدها، المستقبل لا يراه إلا علام الغيوب، إنما تلك كلمة الحق مخلوطة بمائة كلمة كاذبة، يختطفها جني ويرددها في آذان الكُهان مثل الدجاجة[2].

---

(1) صوت مميز يصدر من حنجرة الخيل.

(2) تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني، فيقرها في أذن وليه قَرَّ الدجاجة، فيخلطون فيها أكثر من مئة كذبة. حديث شريف.

لا تستميله لتحصل على مكان للمبيت، ولا تسترضيه ليقيها البرد والظلام والحيوانات المتجولة، أعجبه ثباتها وقوتها في التصريح بما تؤمن به، دون خوف أو مداهنة.

كان لا يزال يتحدث إليها دون حاجة إلى أن يلتفت.

- لا أعرف، قد تكونين على حق.

- أنا على حق.

- دائمًا؟

- ليس دائمًا، فلنقل كثيرًا.

- معتدة بنفسكِ، صعبة المراس، لا تفكرين مرتين.

- وهل هذه مشكلة؟

- ليس دائمًا، فلنقل كثيرًا.

بدت نبرته متفكهة كأنه ابتسم، فابتسمت بتلقائية مستترة بالبرقع والظلام، وبظهره الذي يوليه لها.

- كيف أطاعكَ «كحيل» بالأمس وأتى إلى الدار معكَ؟

- ربما أحبني.

صمتت فأضاف وهو يتحسس ظهر فرسته: «أعجبته «بريق» فتتبعها، يبدو أنه يهوى البيضاوات كثيرًا.. هل تشعرين بالغيرة؟».

تمتمت نافية باقتضاب، وقد كانت بالفعل تشعر بشيء من الغيرة.

- لم تخبرينا باسمكِ.

- قلتُ إن بإمكانكم نعتي بالبدوية.

- هل اسمكِ سر يجب ألا نعرفه؟

- يمكنني أن أمنحكَ اسمًا زائفًا إن أردتَ.

- لا أرضى إلا بما هو حقيقي.

قال بحزم ثم صمت ما تبقى من الطريق إلى أن بلغا دار القاضي. ربط الحصان الأسود إلى جوار الفرس البيضاء، منحها تحية صغيرة ثم مضى إلى غرفته، تاركًا إياها تتحرك في الدار كما تشاء.

استقبلتها الزوجة، وأرشدتها إلى الغرفة ذاتها، وطالبتها ألا ترحل كما فعلت في الصباح، فلا يزال أمامهما العديد من الأساور لصناعتها. كانت مبتهجة إذ تمكنت من بيع أساورها كلها في السوق، وعندما سألتها «مدينة» عن المقابل الذي تحصلت عليه. هزت الزوجة كتفيها وقالت بجزل: «بعتها دون مقابل».

ثم اعتذرت منها إذ كان عليها التحدث بشكل عاجل إلى رجل أخضر يتحدث في رأسها، فأشفقت «مدينة» على حالها.

كانت ليلة أقل أرقًا من سابقتها، أدركت خلالها أن بقاءها في الواحة سيكون أصعب مما تصورت.

***

عندما ظنت أن أهل الواحة قد نسوا ما فعلته بقارئة الصخور، كان في انتظارها نهار عاصف.

سمعت أحاديث متفرقة من هنا وهناك عن السحر الذي ترسو فوقه أرض الواحة؛ عرفت بمكانة الساحرات عندهم، موافقتهم على الأذى الذي يطال بعضهم، فأصابتها حمية لم تستطع دفعها، ووقفت وسط الساحة تبصِّرهم بما غفل عن أذهانهم، تخبرهم أن السحرة كي ينجحوا في مسعاهم عليهم أن يكونوا أولًا خدامًا للشياطين، يتعبدون إليهم من دون الله، أو يشركونهم في عبادته.

وأنه لا يكون ساحرًا متمرسًا إلا بخضوعه لغير الله، مهما ادعى غير ذلك.

ذكرتهم بقول ربهم: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾.[1]

---

(1) سورة البقرة – آية 102.

أخبرتهم أن عليهم التوبة والإنابة من اللجوء لغير الله طلبًا للشفاء أو سدًّا لحاجة. وأن الساحر محكوم بالهلاك والخسارة مهما بذل، ولا يفلح حيث أتى.

وأن جريمة السحر من السبع الموبقات التي يتوجب عليهم اجتنابها، وأن قراءة الصخور والطالع والفنجان والكف من علوم الجاهلية التي أبطلها دينهم وحذرهم من شرورها.

فما كان منهم إلا أن شرعوا يرجمونها بالحجارة، بإيعاز من الساحرة زوجة صاحب دكان التوابل، وبتشجيع قارئة الصخور التي وقفت تتطلع إليها في شماتة.

لم يحمِها منهم سوى وقوف «رعد» أمامها ببدنه، متخذًا من نفسه درعًا يقيها ما يُقذف عليها من حجارة. يأخذها من ساحة السوق ويتوجه بها إلى داره.

فتحت الحجارة جرحًا في رأسها وقدمها، وأسالت دماء دافئة تغرق وجهها وكفيها.

لم تكن وحدها الجريحة، أصاب «كحيل» الأذى بدوره، رأت جرحًا عميقًا فوق عنقه فأصابها الجزع وشرعت تتلمسه بأنامل شفيقة.

أبصر «رعد» خوفها على الحصان يتعاظم، توليه رعاية أكثر مما تولي لجرحها، فشرع يساعدها في مسح جرح رقبته بخرقة نظيفة، وتضميده بعناية، ثم يلتفت إليها قائلًا بقلق: «عليكِ الآن الاهتمام بجرحكِ».

أعطاها منشفة وضمادة، توجهت إلى الغرفة التي تبيت فيها وتركت كل شيء فوق الفراش ثم أخذت تبكي بحرقة. لا تدرك أن نشيجها يعبر النافذة ويسابق الريح إلى «رعد» الذي يضع الطعام لفرسته وحصانها، يباغته بكاؤها، وهي التي تبدي صلابة الصخور، ولا تقر بضعفها وحاجتها.

ولكم ترك هذا في حلقه مذاقًا مرًّا، لا يحب رؤية متين يتهدم، وحصين يُستباح قلبه.

لساعة ويزيد لم يفارق موضعه أسفل النافذة، جالسًا فوق صخرة، يداعب حصانها بعود من الخيزران، إلى أن أتى القاضي مسرعًا وقاصدًا، يلقي عليه تحية عاجلة، ثم يسأل عن الفتاة التائهة: «أحضرتها إلى الدار، ماذا هناك يا أبي؟».

- ألم تسمع بما فعلته بالواحة؟ لا أحد يريدها هنا، اجتمع الكبراء وقرروا أن عليها الرحيل في الحال، تؤيد هذا القرار الجدة «أم الرمال».

وقف ثلاثتهم في الباحة الواسعة أمام الدار، أسفل شجرة بندق مثمرة، يخبرها القاضي موضحًا قرار أهل الواحة بشأنها، وأنه ليس لديه ما يكفي من قناعة لاستبقائها. طلب منها أن تبحث عن أرض غير أرضهم، تستقر بها ويطيب فيها المقام.

عندئذ أخبرته برجاء المستضعف الذي لا يجد من يستنصره: «أيها القاضي، لا تخرجني من الواحة بإرادتكَ، وإلا حياتي ستكون ذنبًا في رقبتكَ».

- وهل حياتكِ في خطر؟

أطرقت صامتة فحثها على الحديث حازمًا: «إن لم أعرف قصتكِ، لن أستطيع مد يد المساعدة».

نقلت «مدينة» بصرها بين الرجلين، وبعد تردد دام للحظات أخذت نفسًا عميقًا تستحلفهما بالله القدير، أن يبقى ما تقوله سرًّا لا يخرج عن ثلاثتهم.

وما إن أديا أمامها القسم حتى قصت عليهما حكايتها، منذ تزويج أبيها لها برجل ضد رغبتها، إلى محاولة هذا الغاصب قتلها، ثم مرت على محطات رحلة الهرب في عجالة موجزة. كان «رعد» يستمع إلى قصتها باهتمام شديد، يتوقف عند التفاصيل التي لم تذكرها، ساعيًا إلى المزيد من الإيضاح والبيان.

حكت قصتها كأنها تخص امرأة غيرها؛ بلا مشاعر، بلا آلام، لكنه على ثقة بأنها حكاية في غاية الوعورة، ولكي تبدو أمامهما بتلك القوة، كان عليها أن تحارب وحوشًا شرسة بداخلها؛ للخوف والضعف، والشك، والحسرة، والخيبة.

قال القاضي وقد أزعجه ما سمع: «أليس لهذا الرجل ضمير يوخزه؟ أليس لأبيكِ قلب يردعه؟».

أدرك «رعد» أن كلمات القاضي ليست سوى ملح يتناثر فوق جرح متقيح، فقاطعه بحزم: «بعدما عرفنا يا أبي أنها في خطر لن نسمح لها بمغادرة الواحة، ستبقى في حمايتنا، لم نخذل قط مستجيرًا ولم نرد محتاجًا».

أومأ القاضي برأسه مؤكدًا، إلا أن الحيرة وضعته بين المطرقة والسندان، قال أخيرًا: «تقولين إن هذا الرجل الظالم يتتبع أثركِ من مكان لآخر، لن يصعب عليه الاهتداء إلى أرضنا إذا ما استطاع الحصول على متقفٍّ للأثر خبير يعرف الطريق إليها، لا تتعجبي، الواحة مسحورة لا يصل إليها إلا تائه، يعرف

بمكانها قلة من متقفّي الأثر المهرة، هؤلاء يتطوعون لحماية الواحة من تطفل الغرباء، ويبقون مكانها سرًّا مخفيًّا عن الجميع».

أخذ نفسًا ثم استطرد: «إذا نجح هذا الرجل في الوصول إليكِ ويبدو أنه مصر على بلوغ هدفه، وطالب بكِ على اعتبار أنكِ زوجته».

قاطعته «مدينة» باندفاع وقوة: «لستُ زوجته».

- أعرف يا بنيتي، أقول على اعتبار ما سيدعيه، وربما يصدقه أهل الواحة وعندئذ لن يسمحوا لكِ قط بالبقاء فوق أرضنا، وسيدفعونكِ إلى يدَي هذا الرجل الأثيم، علينا التفكير في طريقة لردعه قبل أن يتمكن من الوصول إليكِ، علينا أن نفكر في رابط يقيدكِ إلى الواحة.

سألته «مدينة» بحيرة: «ماذا بإمكاننا أن نفعل؟».

- سأفكر في ذلك ثم أخبركِ بما توصلتُ إليه.
- وماذا عن أهل الواحة؟ كيف أبقى دون رغبتهم؟

قاطعها «رعد» بصرامة: «لن يجرؤ أحد على الاقتراب منكِ، أنتِ في حماية القاضي».

تسرب الاطمئنان إلى قلبها، وشعرت بهمها موزعًا على ثلاثة، فبدا أخف كثيرًا؛ منحتهما نظرة ممتنة، قبل أن تنادي ثلاثتهم الزوجة من الداخل وقد كانت في مزاج مضطرب.

حاولت «مدينة» ملاطفتها في أثناء تناول الطعام، واستطاعت دفعها لتشاركهم الحديث، كانت المرأة تتحدث إليها بحماسٍ شديد، أسعد قلب ابنها وزوجها.

يراقب القاضي تعامل «مدينة» مع زوجته، والألفة التي تنمو بينهما، شاعرًا بالبِشر والحبور. لم تفهم «مدينة» ما أصاب الزوجة فجأة، ولا سبب بكائها وحدتها وصراخها في وجه زوجها، تلومه على عدم السماح لـ «برق» و«مطر» بالحضور إلى الدار!

لم يكن الوقت مناسبًا لتسأل «مدينة» عن هوية الرجلين، أسند القاضي زوجته صامتًا متفهمًا وتوجه بها إلى غرفتهما.

***

في الصباح سمعت القاضي يتحدث عن شجار خاضه «رعد» قبل قليل، مع رجل يُقال له «جمعان»، هدد بالذهاب إلى بيت القاضي وحمل الفتاة على الرحيل، فدخل «رعد» معه في شجار باللكمات، انتهى بأن ابتلع «جمعان» لسانه، وكف عنها تهديده.

استمعت «مدينة» إلى حديث الرجلين بقلب مضطرب، وفِكر يروح ويغدو، يتوقف كثيرًا عند «رعد» الذي وقف في منتصف الساحة يصرح بأنها في حمايته، وينهر من يحاول إجبارها على الرحيل، ويؤكد لها في كل وقت أنها ضيفة مرحَّب بها.

كانت قد عزمت على إخبار القاضي بأنها لا تجد في داره راحتها لأنها مضطرة إلى مشاركتها مع رجلين غريبين عنها، وامرأة لا تدرك أغلب الأوقات ما يدور من حولها. لكنها أرجأت ذلك إلى وقت مناسب، تكون فيه الأمور قد استقرت بالواحة، وتستطيع تدبر ما يكفي من عملات ذهبية لاستئجار دار صغيرة تقيم فيها.

لذلك أصابتها دهشة بالغة عندما بادرها «رعد» بتحية الصباح ثم أضاف برحابة صدر: «جهزتُ لكِ الكوخ الصغير القابع عند البوابة الحجرية، ستشعرين هناك براحة أكبر».

لم تخبره أنها كانت تعتزم المغادرة، كيف فهم ما تفكر به، وترمي إليه في نفسها؟

دهشتها الجلية أعجزتها عن التحدث إلى أن بلغا الكوخ الخشبي، كل منهما فوق صهوة حصانه، وجدت الكوخ نظيفًا ومرتبًا ومعبأ بالطعام والشراب والكسوة.

عندما التفتت إليه لتشكره، كان قد امتطى فرسه ورحل، لا يريد منها جزاءً ولا شكورًا.

وقفت تتابعه بنظراتها وهو يبتعد، وفي هذه اللحظة بالذات أنبأها قلبها الذي يدق بقوة لم تختبرها قبلًا، أنه صار مفتونًا بهذا الرجل النبيل.

***

مرت الأيام عليها بطيئة كما تحبها، وخالية من الناس، لا تذهب إلى السوق، إذ لم تنتهِ بعدُ المؤن التي عمَّر بها «رعد» الكوخ.

ذهبت بعد يومين لرؤية زوجة القاضي التي أحبتها، وشعرت بالعطف تجاهها، لم يغب عن علمها كونها مريضة تتوجع بجراح غير مرئية.

عندما وصلت إلى مشارف الدار رأت رجلًا يخرج منها، ويقطف بعض البندق من الشجرة القريبة، فتوقفت مرتبكة. كانت بعيدة عن مرمى بصره، بيد أنها استطاعت رؤيته بوضوح؛ كان أحدب منحني الظهر، له ساق أطول من الأخرى، إذ كانت في سيره عرجة خفيفة.

يقطف البندق ويحشي به جيبه ثم يعود إلى الدار دون أن تتمكن من رؤية وجهه. عادت أدراجها وقد شعرت أنها ستتطفل على أهل الدار بهذه الزيارة المفاجئة، وبينما هي عائدة إلى الكوخ شرعت تتساءل إن كان هذا الأحدب أحد الرجلين اللذين تحدثت عنهما زوجة القاضي؟

يمر بها اليوم رتيبًا، ساكنًا، وعندما يحل المساء ترفع بصرها صوب النجمات المتلألئة، وتتحدث إلى «كحيل» صديقها الوفي، تجهل «مدينة» أن «رعد» يراقبها من مكان خفي، دون أن يقتحم عزلتها التي تفضِّلها، يراها تربط جانبي البوابة الحجرية المفتوحة بخيط رفيع، حتى إذا ما جاء الرجل الذي يطاردها وانقطع الخيط في أثناء نومها، عرفت بأمره في الصباح.

وفي أحد الأيام بعد مغادرتها دار القاضي بأسبوع، أتاها هذا الأخير يرجوها للحضور لأمر يتعلق بزوجته.

وعندما دخلت «مدينة» دار القاضي وجدت زوجته تمزق وتكسر وتبعثر كل شيء في المكان، تبكي وتصرخ كأن ثمة خنجرًا غير مرئي مغروسًا في منطقة ما بجسدها، يورثها عذابات غير محتملة.

عانقتها «مدينة» ومسدت شعرها ومست جبينها تقرأ عليها بعضًا مما تحفظ من آيات الله.

كانت المرأة تزوم فوق صدرها وتتمتم بعبارات غير مترابطة، لا تفهم «مدينة» منها سوى «برق» و«مطر»، وعندما سألتها عن هويتهما، قالت الزوجة وهي تتحسس بطنها: ««رعد» و«برق» و«مطر»، ثلاثة توائم من رحم واحد».

ثم تلتفت إلى «مدينة» تتطلع إليها بعين باكية وتقول بحرقة: «لا يسمح القاضي لهما بالمبيت في الدار».

تتساءل «مدينة» في نفسها عن السبب الذي يجعل القاضي يسمح لأحد التوائم بالإقامة في الدار، ويمنع إقامة الآخَرين، ماذا فعلا ليستحقا هذه العقوبة، وأيهما يعاقب؛ التوأمين أم أمهما؟

كانت الزوجة متعبة من البكاء والصراخ، نامت فوق صدر «مدينة» مثل طفلة وديعة، بعد أن قالت لها برجاء: «لا ترحلي».

عندما خرجت «مدينة» من غرفة المرأة رأت القاضي و«رعد» وكأن على رأسيهما الطير، الهم يفسح لنفسه مكانًا فوق القسمات، والغيوم تحتشد في الأعين. قالت «مدينة» ما إن وقف الرجلان وتطلعا إليها بلهفة: «تريد أن يجتمع أبناؤها الثلاثة حولها، لماذا لا تستجيب لمطلبها؟».

كانت توجه حديثها إلى القاضي الذي أطبق شفتيه بإحكام، غادر الدار على عجالة عندما حضر أحدهم يستدعيه للبَت في مسألة. كانت وحدها مع «رعد» أمام الدار، عند شجرة البندق، والصمت يغلف كليهما، تشفق على المرأة وحالها، ولا تعرف كيف تمد لها يد المساعدة.

- تريدكِ أن تبقي، تسأل عنكِ منذ رحلتِ.

يخبرها «رعد» بشيء من الندم على إبعادها عن أمه، حتى وإن كان هذا لأجل راحتها، قالت «مدينة» مؤكدة: «سأزورها كل صباح».

استحسن «رعد» قرارها، وأومأ برأسه ممتنًّا، تبادره «مدينة» بشيء من الحدة: «لماذا تسمح لأهل الواحة أن ينعتوا أمكَ بالساحرة؟».

كانت قد توجهت إلى السوق صباحًا، وهناك رأت الناس يتجمعون حولها، يمنعون عنها الماء الذي أرادت أن تشربه ويقولون إن الساحرات العظام لا يأكلن ولا يشربن مثلهم.

ولكي تكون قوية مثل ساحرة الغابة الأسطورية عليها أن تتوقف عن الاعتياش كالبشر.

لم تدخل «مدينة» معهم في جدال غير محمود عواقبه، انتزعت المرأة من بينهم، أسقتها الماء ثم أعادتها إلى الدار سالمة.

- لأنها ساحرة بالفطرة، تتحدث إلى جن لونهم أخضر لا يراهم سواها، هكذا تقول، يخبرونها بأشياء عجيبة لم نسمع عنها ولم نرها من قبل.

- هذا جهل مركَّب، أمك مريضة نفسية، لا يوجد رجال خضر يعيشون في رأسها، ولا يوجد خوارق في حديثها، تلك خيالات وهلاوس مريضة تعاني اختلال توازن كيميائي في الدماغ يحتاج إلى علاج لا يتوفر في واحتكم.

- ما علاقة النفس بالدماغ؟

- الضغوطات النفسية تؤثر على بعض المناطق في الدماغ، الأمراض العقلية بشكل عام نتيجة ضغوطات بيئية أو عوامل وراثية.

كانت «مدينة» تحب قراءة الكتب التي يحضرها خالها معه من العريش، تقرؤها في أثناء رعي غنماتها، وحلب بقراتها، وزرع أرضها. لم يفهم «رعد» الكثير مما قالته، واستشعر حرجًا من السؤال، بدت له على علم لم يسبق أن تنامى إلى أفهام أهل الواحة.

طفق «رعد» يفكر في كلامها ليوم كامل، إن كان ثمة أمل طفيف لأن تعود والدته إلى سابق عهدها، فهذا الأمل يسكن بين يدَي تلك المرأة التي لا يعرف اسمها.

باتت صورة وجهها مطبوعة فوق جفنيه، كلما أغمض عينيه رآها، وإن حاول فتحهما سمع أصداء صوتها، يتقلب كل ليلة بين خوف ولهفة، مزيج عجيب لم يختبره قبلًا.

يخاف أن تقرر مغادرة الواحة بعد أن تمل حياتهم، يتلهف كي يأتي الصباح ويذهب إلى الكوخ، متواريًا خلف شجرة، يراقبها من مبعدة.

وفي المرات القليلة التي يتحدثان فيها، يشعر أنها تمسك بيده، وتدخله عالمًا جديدًا رحبًا، فيه من الخير والجمال أكثر من عدد رمال واحته.

يتلهف كي تفي بوعدها وتزور أمه كل يوم وربما يختلس منها حديثًا قصيرًا، ويسمع ضحكة متوارية خلف الأبواب المغلقة.

كانت بدورها تراه أمام الدار يمسك بالنبلة ويقذف بالحجارة ويصيب الهدف، يتدرب على مبارزة بالنبال كانت مقامة في ساحة المرح، فتتمنى أن تتعلم اللعبة، وتبلغ فيها ما بلغه من مهارة.

***

كانت حادثة سحر «رماح» المفاجئة بمنزلة حدثٍ مدوٍّ قلب الواحة على أعقابها.

«رماح» حفيد تاجر معروف ومحبوب وراه الثرى، ولم يكن الأمر ليمر مرورًا كريمًا كما يمر على ضعفائها. أعجزهم كل شيء، إلى أن تطوعت «مدينة» لمعالجته.

لاقت رفضًا قاطعًا من أهل الواحة، وأصروا على «النُّشرة» أي حل السحر بالسحر، وتطوعت لهذا كل ساحرة تجد في نفسها المهارة والقدرة.

عارضها الجميع إلا صاحبَي «رماح» منذ نعومة أظفارهم؛ رحب «رعد» بمساعدة الفتاة الغريبة، وتبعه «قوس» في ذلك لما سمع منها كيف ستُشفيه، وثقتها بما تدعيه.

وقف «رعد» أمام الواحة بصوته الجهوري وقوته النافذة: «لن يعالج «رماح» أحدًا غيرها».

فاستجلب ما فعله استحسان «مدينة». كان له مهابة في نفوسهم، ينعتونه بالرجل الذي لا يخاف، وصديق لــ «رماح» الذي يثق به ويحبه.

كانت «مدينة» تقرأ على «رماح» الرقية المحصِّنة، وآيات الوقاية من السحر، مستخدمة غصن شجرة كي لا تمسه، ومستعيذة من شر النفَّاثات في العُقَد.

تقرأ على الماء، ثم تطحن فيه سبع ورقات خضر رطبة من السدر، وتأمره بشربه، والتحمم به، تردد ما قاله سيدنا موسى الذي تلقى العلم من ربه، في مواجهة السحرة الذين تلقوا علمهم من شياطينهم، لترد به كيد الساحرة:

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ٱئۡتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٖ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1].

عندما سألها «رعد» بلهفة كم يلزمها من الوقت لتشفيه، قالت بيقين جازمة: «أنا لا أشفي، الله هو الشافي، وهو الذي يقر متى وكيف وأين تتنزل رحماته».

ثم استطردت باهتمام بالغ: «يجب العثور على العقد الذي نفثت فيه الساحرة لإبطاله».

عندئذ خرجوا للبحث في أرجاء الواحة، وبدؤوا باقتراحها ألا وهو البحث في المقابر، استلزمت مهمة البحث يومًا وليلة، يقودها «رعد» و«قوس». وعندما عثروا عليه بالقرب من قبر أم «رماح» التي ماتت حديثًا، كانت فرحتهم عارمة.

---

(1) سورة يونس، الآية 79:82.

منذ تلك الليلة لم تفارق «مدينة» ذهن «رعد» ولو لثانية، تعلق بها قلبه كأنما لم يرَ من النساء غيرها، اجتذبته بجميل خصالها؛ قوية، لا تخاف، لا تيأس، ولا تخضع.

يراقبها وهي جالسة تحت ظلال شجر البندق، تحيك كنزة رجالية من الصوف بني اللون، ويتمنى أن يكون المُهدَى إليه.

يجهل أنها غزلتها مدفوعة برغبة خفية، لأن يكون هو صاحب الهدية.

كان يمسك بالقلادة الفضية الملتفة حول رقبته ويعانقها بين أنامله شاردًا، حين طرق القاضي باب الغرفة، ثم بادره: «أريد أن أحدثك فيما اعتزمته من أمر الفتاة الغريبة».

في تلك الليلة تلاقت رغبة الأب والابن عند نقطة واحدة، ولم يتبقَّ لهما سوى عرض الأمر على «مدينة»، وانتظار قرارها بقلب يتأرجح كالبندول بين خوف ولهفة.

***

قال لها القاضي: «عقد الزواج سيمنع الرجل الذي يطاردكِ من استعادتكِ، ستكونين أمام أهل الواحة في عصمة واحد من أبنائهم، لن يجرؤ أحدهم على دفعكِ للرحيل، لكن مكانتي حساسة في الواحة كما تعلمين، سيبقى هذا العقد غير مشهَر لبعض الوقت إلى أن يتقبلوا وجودكِ بينهم، ما رأيك في هذا الحل يا بنيتي؟».

لم يكن القاضي يبحث عن حل لمشكلتها فحسب، كان كذلك ينظر إلى صالح زوجته التي أحبت الفتاة وأصبحت تعود إلى الدار في وقت أبكر، وأحيانًا ترفض مغادرتها مخافة أن تأتي الفتاة ولا تجدها.

تزورها في الكوخ كثيرًا فأصبح يعرف أن زوجته في يد أمينة، بدلًا من لملمتها من الحارات والحواري وهي تتشاجر مع من يمنعون عنها الماء ويتوسلون إليها لتحقيق الغايات، مستعينة بالجن الخضر الذين تراهم، وبسحرها الذي يتفوق على جميع الساحرات.

عندما تطلعت «مدينة» إلى «رعد» كان مطرقًا برأسه، لا يرفع في وجهها عينًا، ولا يظهر فوق قسماته ما يعتمل بداخله، لا تعرف إن كان راغبًا أم عازفًا، مرحبًا أم ممانعًا.

- خذي وقتكِ في التفكير.

هكذا أنهى القاضي الجلسة القصيرة ونهض تاركًا لهما المجال للحديث. شعرت باضطراب جعلها تغادر الدار سريعًا، وتقف أسفل شجرة البندق تلتقط منها بعض حباتها، تكسرها، وتلتهم لبها.

سمعت خطوات «رعد» تقترب، ظلت تكسر البندق دون أن تلتفت، تنتظر أن تسمع منه ما يوضح لها حقيقة مشاعره، فيقول بغتة: «يبدو أن «كحيل» و«بريق» اتفقا كثيرًا».

تلتفت «مدينة» صوب الحصان الأسود والفرس البيضاء، كل منهما يلف عنقه حول عنق صاحبه؛ منسجمين، ومتآلفين، وسعيدين.

بدا منظرهما بديعًا؛ استجلب ابتسامة صغيرة إلى شفتيها، تبددت سريعًا عندما قال «رعد»: «فكري فيما قاله أبي، إنه حل مثالي لكِ ولنا».

كان البرقع يحجب عنه ردة فعلها على اقتراح أبيه، لم يعرف إن سعدت به أم اشمأزت، مالت إليه أم نفرت، ود لو يسمع منها أو يرى ما يمسح على قلبه بأيادي الاطمئنان. التفتت تستفهم بنبرة دهشة مستفزَّة: «حل مثالي لكم؟».

- أمي تحبك.

- لن أتزوج أمكَ.

فابتسم هو هذه المرة، وقد أعجبه أنها توليه بعض التفكير، باغتها بعد حين بسؤال مفاجئ: «لماذا تبدين أقوى من الجميع؟ ما مصدر تلك القوة المذهلة؟».

وضعت يدها فوق قلبها وأجابته: «هذا هو بيت سعادتنا وشقائنا، عزنا وذلنا، قوتنا وهواننا، كل منا يختار تعمير بيته بما شاء وأحب».

- تقولين إذن إن بإمكاننا جميعًا أن نصير أقوياء إن أردنا؟

- عليكَ أولًا أن تفهم معنى القوة؛ ليس القدرة الجسدية ولا المهارة القتالية ولا الذكاء والسرعة وحدهم، بعضنا تكون قوته في يقينه.

- اليقين بماذا؟

- بأنك إن استعنت بخالقك صرت قادرًا على تحقيق المستحيلات، اليقين بأن كل الأبواب الموصدة في وجهك لها مفاتيح بحوزته، وكل الدروب المستعصية لها تدابير في خزائنه، فقط تحتاج إلى أن تكون أهلًا للحصول على المفتاح.

- تتحدثين بما أعرفه، لكنكِ تقولينه بشكل كما لو أنني لا أعرفه.

أطلق «كحيل» و«بريق» صوتًا من حنجرتيهما ينم عن شعورهما بالرضا، يطالبان فارسيهما بإطالة الأمسية.

- «مدينة».

تطلع إليها «رعد» مستفهمًا، وراغبًا في التأكيد على ما فهم، تستطرد: «اسمي «مدينة»».

تذوق الاسم بداخله حرفًا حرفًا، مرات ومرات، إلى أن شعر أنه كان يعرفه منذ بدء الخليقة، وأنه عندما فتح عينيه على الحياة كان ثمة من يهمس به في أذنه، فنبض بداخله سرًا، إلى أن رددته أمامه جهرًا.

- «مدينة»!

همس باسمها متلذذًا بنغمته، ومتنعمًا بقوته. ظهر ضوء مفاجئ يمزق ثوب السماء الأسود، تبعه رعد شق السكون، وقد كانت السماء قبل قليل هادئة تتهادى فوقها النجمات ببريق أخاذ. التفتت «مدينة» صوب رعد السماء الذي ألحِق بزخات المطر، تمتمت: «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته».

- وهل يُسبِّح الرعد؟

سألها «رعد» مدهوشًا فأجابته: «كل ما حولنا يسبح بلغته الخاصة».

- هل تفهمين لغة الرعد؟

- لا أحد يفهمه، لكنني أحبه.

- لا أحد يحب الرعد.

- أراه آية كونية مذهلة.

شعر بمعنى إضافي يُلحَق باسمه، وجمال لم ينتبه إليه من قبل. في تلك الأمسية كانت ثمة لغة أخرى تتردد في المكان، تدعى لغة الصمت، وهي أبلغ من فصيح الكلام، يرى خلالها بعين الخيال جسورًا متينة تمتد بينه وبينها، ودروبًا يرغب في السير فيها، يدًا بيد، ونفسًا بنفس.

رأى فيها امرأة لها قلب باتساع مدينة، أخذت بيده وجعلته يتجول في شوارعها وحواريها، أبصر من مبعدة جسرًا للعشاق مزينًا بزهور ملونة، له عبير أخاذ، وفوقه لافتة «ممنوع الاقتراب مؤقتًا».

رأى فيها امرأة باتساع مدينة لها جُدر من الرعد، تخيف الغرباء كي يبتعدوا، وتمسح بأيادي الحب فوق قلوب سكانها.

ورأت فيه قلبًا نابضًا بالخيرات، شهامة الفرسان، ونبل الأمراء، وكانت من قبل لم تلتقِ رجلًا جميل الأخلاق، لا يدفعها صوب دروب تبغضها، ولا يجرها إلى أحلام لا تعنيها.

رأته رجلًا يتوقف أمام رغباتها، يحميها دون أن يطالبها بمقابل إحسانه.

باغتها بنبرة شجية: «أشعر أنني رحالة أرهقته حياة التجوال، يقف على باب مدينة وصلتُ إلى أعتابها بعد عناء، مدينة لا تعرفني ولا أعرفها، وأجهل ما ينتظرني بداخلها، لكن صوتها يأسرني، وكلماتها تسكرني، ورائحتها تبشرني بحديقة مزروعة بالرياحين، أطرق أبوابها بوجل، وأسألها بلهفة: هلا سمحتِ لي بالدخول؟».

أبدَت القليل من الدهشة، والكثير من الارتباك، تحيطها ثلاث آيات كونية من كل اتجاه؛ الرعد والبرق والمطر.

ورابعة بمنزلة معجزة دق خلالها قلبها ثلاث دقات، كانت كافية لتنطق بالجواب، قالت بقوة تتماشى مع صوت الرعد في الخلفية، وبطراوة المطر، ولمعة البرق: «أذنتُ لكَ».

***

عندما انتهى شيخ الواحة من إضافة اسميهما في دفتره، وشهد «قوس» وصاحب دكان التوابل على ذلك، كانت زوجة القاضي في غاية السعادة، حتى إنها أخرجت من خزانتها طرحة بيضاء وثبتتها في شعر «مدينة» رغم إصرار هذه الأخيرة: «هذا ليس زفافًا يا خالة، لن يعرف بهذا أحد من أهل الواحة كما أخبرناكِ، هذا سرنا الصغير إلى حين».

لم تقبل المرأة بتلك الحجج، وضعت فوق رأس «مدينة» طرحتها التي ارتدتها ليلة زفافها على القاضي. وكان أول ما قالته «مدينة» لـ «رعد» وهما يجلسان أسفل شجرة البندق بعد انصراف الجميع: «لا أحب الرجل الذي يرتدي القلائد».

أخذ يمسح الدلاية الفضية برؤوس أنامله، كأنه يتواصل مع جزء منه، ثم يخلعها بروية، ظنت خلالها أنه سيضعها في جيبه، أو يبقيها إلى جواره، وما

لم تحسبه أنه مال صوبها، ولفها حول عنقها، تأكد من غلق القفل جيدًا، تلمس الدلاية مرة أخرى قبل أن ينظر إليها قائلًا: «هي مهركِ إذن».

عندما تحسستها وجدت لها ملمسًا ناعمًا وباردًا، تتبعت أناملها الحفر البارز للشجرة والغصون الثلاثة وهي تقول: «هذه الشجرة هي أمك، والغصون الثلاثة أنت وأخواك».

- لهذا السبب هذه القلادة مهمة جدًّا، طلبت أمي من تاجر الفضة صناعتها خلال حملها، لما أحست بثلاثة أرواح تنمو بداخلها، ورأت في حلمها أنها تمسك في كفها بثلاث حبات من البندق.. وضعت أمي حول عنق كلٍّ منا قلادة لحظة مولده، ولم تفارق قلادتي عنقي حتى اليوم.

- لماذا لم يشهد أخواكَ على العقد؟ ظننتُ أنهما سيحضران، هل أنتم توائم متطابقة؟

- ليس تمامًا، اثنان منا متطابقان، وآخر مختلف.

أطرق «رعد» قليلًا وقد بدا منزعجًا، غير راغب في الحديث عنهما، لم تستطع سؤاله سابقًا إذ إنها أمور عائلية لا يحق لغريبة أن تعرفها، أما وقد وقعت عقدًا يربطها به، صار من حقها أن تعرف أسباب هذا الجفاء، فلربما تستطيع المساعدة.

- دعينا لا نتحدث عنهما الليلة.

قال ذلك وهو يتأمل الطرحة البيضاء المثبتة إلى شعرها، ثم يمنحها ابتسامة واسعة، ونظرة شغوفة لها بريق أخاذ: «تليق بكِ».

نزعتها مرتبكة حتى كادت أن تنزع معها خصلاتها ثم تقول: «أمك أصرت، لم أشأ إزعاجها».

- لهذا تحبك، تتفهمين مشاعرها.

عندما رآها توشك على فتح القلادة أطبق بيده على أناملها قائلًا: «لا تفتحيها، سيسقط ما فيها».

هزت رأسها مستفهمة؛ أراح الدلاية على جانبها، ثم فتحها أمام عينيها ببطء، رأت بداخلها قطرات من سائل شفاف، له رائحة نفاذة، لا هي بالزهور، ولا هي بالفواكه!

- ما هذا؟

- سائل مقطر مستخرج من غصون شجرة بندق الساحرة تنمو في أحراش الغابة، وضعته أمي داخل قلائدنا الثلاث.

- وماذا يفعل هذا السائل؟

- يستخدمه المطبب في صناعة معجون لعلاج الجلد التالف، ولدغ الحشرات وضربات الشمس، لكن الساحرات اعتدن استخدامه لجذب الخير وطرد الشر.

- الخير من الله، والشر ما اكتسبته أنفسنا.

- أعرف، لكن لن يضركِ إن أبقيتِه بالداخل.

- لن أستطيع ارتداءها وهذا السائل بداخلها.

- لماذا ما دمتِ لا تعتقدين أنه ينفع أو يضر؟

- لأنكَ من يعتقد أنه ينفع ويضر.

بعد تردد دام للحظات أخذ القلادة وأوشك على سكب السائل؛ أوقفته، فتطلع إليها بحيرة. قالت: «لا تفعل إلا عن قناعة».

تركت السائل على حاله داخل القلادة، وانتظرت أن يقدم على ذلك بنفسه. كانت راضية عن الوتيرة التي يتحركان بها، بهدوء وثبات، بلا سرعة مفرطة، أو مفاجآت مشتتة.

غير مدركة أنها على بُعد أيام من الصدام وجهًا لوجه مع أكبر مفاجأة تنتظرها.

***

وقع هذا في نهار كانت غائبة فيه عن الدار، تنظف الكوخ كما أخبرت «رعد» في المساء، استعدادًا لمنحه لمن يحتاج إليه بدلًا من تركه بلا منتفِع.

في هذا النهار أصابها الإعياء فعادت إلى الدار مبكرًا، تفاجأت بصوت غريب في غرفة زوجة القاضي، واسم «برق» يتردد فوق لسانها. لم يسعها الوقت للحركة إذ انفتح الباب بغتة، وهنا طالعتها المرأة ببشاشة تقول بجزل: ««برق» هنا في الدار، و«مطر» وعدني أن يأتي في المساء، تعالي أعرفكِ إليه».

شعرت «مدينة» بحرج بالغ عندما جذبتها الزوجة إلى الداخل، وهناك أمامها وقف رجل يوليها ظهره، يرتدي معطفًا بلونٍ صارخ، وعلى رأسه قبعة يخرج منها ريش يمامة.

تستطرد زوجة القاضي بحماس كبير، وصوت خافت كأنها تبوح بسر خطير: ««برق» هو أول رجل يشتغل في السحر داخل الواحة، يهتم به منذ أن كان صغيرًا.. تلك كانت رغبتي.. ابني الغالي حقق رغبة أمه الحبيبة».

انقبض قلب «مدينة» ولم تشأ الحديث إلى الرجل الذي نما بداخلها تجاهه بغض كبير. ظل يوليها ظهره هو الآخر، فانتهزت تلك الفرصة السانحة، ثم خرجت من الدار مسرعة.

وعندما قابلت «رعد» في الظهيرة، وتحدثت إليه عن أخيه الساحر، التزم صمتًا طويلًا لا يقطعه سوى صوت أنفاسه المتلاحقة القصيرة.

- نتحدث عن كل شيء في المساء.

لم يمنحها جوابًا عن أي من أسئلتها، فأمضت نهارها في أرق وضيق وانزعاج، إلى أن أطل الليل بظلمته، وسمعت صوت رجل غريب لا يشبه من سمعته بالأمس، فأدركت أن «مطر» ثالث التوائم قد حضر.

تذكرت حدبته وطريقة مشيته، فشعرت بفضول كبير لرؤيته، ومعرفة سبب ابتعاده وأخيه عن الدار. عندما نزلت الدرج وطالعها حول الطاولة القاضي وزوجته ورجل ذو ظهر محدودب يوليه لها، أشارت لها الزوجة أن تنضم إليهم، فتساءلت «مدينة»: «أين «رعد»؟».

أطرق القاضي واجمًا، ولم تقدم لها زوجته معلومة واضحة، عندئذ استدار الأحدب وتطلع لها مباشرة!

أطلقت «مدينة» شهقة صغيرة من هول المفاجأة، كان للرجل المحدودب الظهر وجه «رعد» نفسه، لا وجهًا يشبهه، بل الوجه نفسه، لم تفهم هذا من ملامحه وحدها، بل من نظراته، هذا الرجل هو «رعد» زوجها، ولم تكن من قوة كافية لإقناعها أن الذي أمامها رجل مختلف.

شاركتهم الجلوس حول الطاولة مصدومة بوجه شاحب مضطرب، وذلك عندما أشار لها «رعد» من طرف خفي أن تفعل.

كانت زوجة القاضي تلاطف ابنها وتتحدث إليه باسم «مطر»، تعطيه من الطعام ما يكره «رعد» أكله، وتمنع عنه ما تعرف «مدينة» أنه يشتهيه.

وعندما تحدث إلى أمه، أخرج صوتًا هزيلًا مختلفًا عن صوت «رعد» الأجش، ومحملًا بمشاعر جياشة.

لا يدخل حلق «مدينة» سوى ثلاث ملاعق صغيرة من الحساء، فيما كانت مذهولة مما تراه يحدث حول الطاولة.

وما إن تثاءبت الزوجة وطلبت من القاضي أخذها إلى الفراش، وخلت الغرفة إلا منهما، سددت نظراتها صوب الحدبة البادية من فوق كتفيه، وتطلعت إليه بعينين متسائلتين.

أمسك بيدها وتوجه بها إلى خارج الدار، وقبل أن يمتطي معها الحصان الأسود ليقفز بها إلى الجانب الآخر من الهاوية، خلع معطفه الذي كان يحوي من الداخل جيبًا ذا سحاب عند الكتفين معبأ بالرمل والحجر.

لم يتحدثا بكلمة واحدة طوال الطريق الذي قطعاه إلى الجبل، ومنه إلى الغابة، ثم إلى الهضبة الملونة، تظللهما السماء بقمرها البدر، ونجماتها المتناثرة.

لم تحثه على الحديث، تركت له اختيار الوقت والمكان والكلمة المناسبة، ثم أولته آذان قلبها المنصتة: «بدأ الأمر في طفولتي كلعبة بيني وبين أمي، أجذبها للبقاء بالدار».

أجلى صوته الذي تحشرج، ثم أردف بينما يجاورها جنبًا إلى جنب، ظهرهما إلى الهضبة، ونظراتهما شطر النجوم المتأملة، يقول مستدعيًا ذكرى بعيدة مؤلمة: «مات «برق» يوم مولده».

أطلقت تنهيدة صغيرة حارة، وتطلعت إليه مشفقة، تحاول أن تتخيل مبلغ الألم الذي نبت في قلب الأم المكلومة، عندما أخبرها عن اختطاف الزوجة الأولى للقاضي له، وإلقائه في الهاوية.

- كان «مطر» مصابًا في ظهره منذ مولده، له قلب كبير، رقيق، حنون، أحبته أمنا أكثر مما أحبتني.

عندما حاولت الاعتراض التفت إليها يوقفها بإشارة من يده: «لم أشعر بالغيرة منه، كنتُ أقدِّر أنها تمنحه حبًّا مضاعفًا لكونه بحاجة إلى ما يعزز ثقته بنفسه لاختلافه، كانت تقول إن قلبها مقسم ثلاث غرف، تمنحني غرفة، ولـ «مطر» غرفتان، كان طفلًا حساسًا مميزًا، لم يره أحد إلا وأحبه».

صمت برهة ثم أردف بمرارة: «مات «مطر» عندما كنا في السادسة».

مست كتفه تضغط فوقه تدعمه، وتؤازره، فاستطرد بصوت أرهقته الذكرى: «كنا نلعب الغميضة بالقرب من الدار عند مدخل النفق، زلت قدمه

عندما كنتُ أركض خلفه، اصطدم رأسه بحجر، ولم يتحرك بعدها، لم أكف عن الشعور بالذنب، لم يفارقني الندم لحظة».

- ما ذنبك؟
- لو لم أصر على الخروج للعب الغميضة لما مات «مطر».
- هذا عمره، ما كان بإمكانكِ تأخير ذلك ثانية واحدة.
- أثَّر موت «برق» على أمي، لم تعد المرأة التي تتحاكى عنها الواحة لحكمتها وذكائها، صارت باهتة، شاردة، تتحدث إلى «برق» وتنسى أنه مات، تسألنا حال عودتنا إلى الدار لماذا لم نصحب أخانا الثالث معنا؟ لكن بعد موت «مطر» صارت مطفأة بالكامل، لم تتحمل فقد اثنين من أبنائها.

مسح وجهها بنظرات تترقرق فيها العبرات، يقول: «صار لا شيء يسعدها سوى رؤية ثلاثتنا واللعب معنا، اضطررت إلى أن أكون «رعد» و«برق» و«مطر» كي أبقيها في الدار، هذا في البداية، ولم أتصور أنها ستعتاد اللعبة، وتتحول إلى واقع في حياتنا، لم تعد تقبل بعدم رؤية «مطر» و«برق» من حولها، تثور غضبًا إذا ما غابا عن الحضور إلى الدار، كما رأيتِها تفعل أكثر من مرة».

صمت قليلًا ثم أردف ببسمة ساخرة: «اكتشفتُ أنني قادر على العيش بثلاث شخصيات، لكل منها اسم وصوت وهيئة، حملت أمي توائم ثلاثة في رحمها، وحملتهم أنا في عقلي، مثل ثلاث حبات من البندق نبتن من غصن واحد».

يميل نحوها، يمسك بقلادتها ويفتحها، يتأمل قليلًا قطرات السائل المستخلص من غصون البندق، الذي لا يضر ولا ينفع، يتمتم هازئًا: «كان حول عنق كل من أخويَّ قلادة مماثلة».

يريق ما بها فوق الرمال، ويسكب معها كل إيمان شائه عمر قلبه لسنوات طويلة. يسعدها ما فعله للتو، فتمنحه أجمل ابتساماتها، ثم تسأله متلطفة: «لماذا لم تخبرني بذلك قبل الآن؟».

- خفتُ، كنتُ أرتعب ما إن أتخيل النظرة التي قد ترمقينني بها.
- وهل تخيفكَ هذه النظرة الآن؟

لم يكن في عينها سوى كل ما يبعث على الحب والتفهم والاحتواء، تلتقط يده بين يديها، تشد عليها بقوة كان في حاجة إليها، تُخرج من جيبها منديلًا طرزته لأجله، وتمسح به حبات عرق بارد تفصدت عن جبينه، تميل صوبه وتقول: «هذه الواحة تمرضنا، علينا الرحيل يا «رعد»».

في تلك الليلة أضمرا نية الرحيل، كانا يعرفان أن إقناع القاضي لن يتم بسهولة، لكن مع إصرارهما على علاج الزوجة، سيرضخ لهما في النهاية، حتى وإن لم يقرر الرحيل معهم.

كانت نهاراتهما مسرحية معروضة أمام أعين أهل الواحة الفضولية، وفي لياليهما حياة سرية؛ أخبرها «رعد» عن النفق الذي لا يعرف بأمره أحد، الذي اكتشفه أبوه قدرًا وهو يبني الدار.

كل ليلة يحملان معهما مشعلًا وزادًا، ثم يمران عبر النفق الطويل الذي يقود إلى الجبل، حيث باطنه الذي يشبه كهفًا كبيرًا، يأكلان ثمار القشدة، ويستمعان إلى هسيس النيران، ويتشاركان الأحلام.

يخبرها «رعد» أنهما بعد علاج أمه سيعودان إلى الواحة، وعندئذ سيبني لأجلها في الجبل مدينة كاسمها، يعيشان فيها مع ذرية وفيرة العدد، ويؤسسان معًا قبيلة اسمها الشُّجعان، لا يتبعون السحرة، ولا يصمون آذانهم عمن يستنجد بهم، ويسلمون بقدرة الله الخلاق.

تستمع إليه بقلب ينبض حبًّا، وعقل يتخيل التفاصيل والصور.

يثقان بأنهما سيصنعان من الواحة مكانًا أجمل، ووطنًا أقوى، هذا ما كان يؤمنان به، ويسعيان له.

إلى أن جاءت ليلة الحريق!

***

قالت «مدينة» وهي تقف فوق الجبل ولا يزال السلاح في يدها، أمامها الرجل الذي يريد قتلها، وذاك الذي تريد أن تحيا معه، تتمتم بتأثر دامعة بينما الذكريات تتدفق من الثقب المظلم في عقلها: ««مطر».. «برق».. «رعد»!».

فيُجيبها الرجل الذي هو مزيج من ثلاث روائح، الأحدب والساحر والممسوس، وقد أدرك أنها تذكرت حكايتهما: «نعم، هذا أنا يا «مدينة»».

دُنيازاد

لكلٍّ منا وحش يطعمه

يبقيه إلى جواره يلازمه

غيرة وحسد.. وحقد وكسل

بغض وعجلة.. تسويف وشهوة

وحش عفي لا يهدأ

وبغير التهامك لا يهنأ

إن أردتَ السقوط أطعمته

وإن أردت النجاة حرمته!

الليلة الثالثة والأربعون

إذا كان لقلبك فم كبير، فبأي شعور تحب أن تغذيه؟

(1)

تتأمل «مدينة» كفها التي كانت مختومة بالنار في حياتها السابقة، عالج مختطفها أثر الندبة؛ خشية أن تحمل لها ذكرى مميزة، تعينها على استعادة ذكرياتها المفقودة.

- أخبرتكَ أن هذه الواحة ستُمرضنا.

قالت هذا بقسمات تتألم قهرًا، لم يكن يعنيه من كل ما يحدث إلا أنها عرفته من جديد. ترنو إليه بتلك العين التي كانت تراه بها قبل ثلاث سنوات، تعرفه كما يعرفها، ويتقاسمان الذكريات نفسها.

أما الرجل الغاصب لحقٍّ ليس له، فقد استغل غفلتهما عنه التي لم تتعد عدة ثوانٍ، وشرع في الهجوم تجاهها، مطلقًا صيحة عالية، مثل ضبع يهاجم فريسته.

لم تكن «مدينة» بفريسة يُستهان بها، أعادت إليها ذكرياتها الاتزان المفقود، والثقة الضائعة، عرفت من تكون، وما هي قادرة عليه.

أطلقت رصاصة رادعة في الهواء قبل أن يتمكن من الوصول إليها، دفعته لأن يتوقف في مكانه هلعًا، وقد أدرك أنها قادرة على أن ترديه دون أن يرف لها رمش واحد.

تسبب هجومه عليها في نفث النيران في قلب «رعد»، فاندفع تجاهه يكيل له الركلات غضبًا. لم يكن الغاصب بالخصم الذي يستهان به، تلاحما في عراك عنيف، تأذى فيه كل منهما.

توجِّه «مدينة» فوهة السلاح صوب الجسدين الملتحمين، تخاف أن تضغط الزناد فتنطلق رصاصتها لتخطئ هدفها. تصرخ في الغاصب كي يتوقف عن القتال، وتصرخ في «رعد» كي ينتبه من الضربات المفاجئة. لم تكن فحسب قوة الرجلين هي الخطر الوحيد على كل منهما، بل المكان أيضًا.

يقفان على حافة جانبية للجبل الأسود، حركة واحدة خاطئة وسيفقد كل منهما توازنه، ويسحب أحدهما الآخر ويقوده إلى حتفه.

ظهر من العدم خطر يحيق بـ «رعد» وحده، إذ وجدته يتحسس بطنه، ثم يتلوى جذعه في ألم مباغت، فأدركت أنه مفعول السحر الذي أكله، يهاجمه في وقت حرج وموقف يستلزم كل قوته وانتباهه.

أدركت أنه يفقد طاقته، ويختل توازنه، ويشوش تفكيره، يجاهد ليحتمل الألم المتصاعد؛ يدرك خصمه في اللحظة نفسها أنه بات هشًّا، ويستطيع أن يجهز عليه بضربة واحدة. تصرخ «مدينة» بجنون مستنجدة بالحراس عند سفح الجبل، فتسرق الرياح العاتية صوتها وتطويه في جيبها.

- انتبه يا «رعد».

قالت ذلك في الوقت الذي التقط فيه الغاصب حجرًا وتوجه بقوة واندفاع تجاه رأس «رعد» من الخلف.

أدركت أنه لن يسعه الالتفات بينما يعاني كل هذا الألم، سيصيبه الحجر قبل أن يعي ما يحدث، ويسقط من هذا الارتفاع الشاهق.

لم تفكر «مدينة» مرتين، أطلقت الزناد صوب جسد المعتدي، يداها ترتعشان بشدة، طاشت الرصاصة ولم تصب هدفها.

تطلع إليها الرجل الغليظ بحقدٍ دفين، له عمر يقرب من السنوات الأربع، مر شريط الذكريات أمام عينيه المحتقنتين بالكراهية.

اختارها زوجة فلفظته كما يلفظ البحر الأسماك الميتة، تزوجها غصبًا من غير موافقة، وقد ظن أنها كغيرها من النساء المستضعفات ستستسلم لقدرها، وترضخ له.

لكن ليس «مدينة»، تعلَّم ذلك بأصعب الطرق.

هربت منه ليلة زفافهما، ومرغت كرامته في أوحال قبيلته، ظلت مختفية طويلًا عن الأنظار إلى أن اقتفى أثرها فإذ بها تختبئ في بيت خالها، طاردها كما يطارد الضبع فريسته، لا لشيء إلا ليعلِّمها الخنوع لصاحب النفوذ والقوى. وفوق أحد جبال صحراء سيناء أصابت رصاصته صدرها، فتدحرجت من فوقه وقد أهدِرَت دماؤها.

حسبها لاقت ربها فشرع في الهرب، وقد شعر بالظفر انتقامًا لكرامته، عندئذ زلت قدمه في جريمة أخرى شنعاء فقبضت عليه الشرطة متلبسًا.

فُتح التحقيق في وفاة «مدينة» بعد مضي سنوات على سقوطها من فوق الجبل، أثبت المعمل الجنائي أن الرصاصة التي دسها الراعي في رفات الفتاة

المجهولة قد انطلقت بالفعل من سلاحه، فصار متهمًا بقتل «مدينة»، وكان مصيره السجن عقوبة جريمته.

إلا أن تقرير الطب الشرعي الذي أتى متأخرًا، نظرًا لحالة الجسد وتحلله، أثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن الجثة لا تخص «مدينة»، فأدرك أنه وقع في مكيدة محكمة.

نمت لحقده سيقان كثيرة، وأيادٍ تبطش وتعتدي، حركه كما تتحرك العرائس في يد صانعها، وقد بات صنيعة الحقد الذي تملكه.

برَّأه القانون من قتل «مدينة» وكذا من الجريمة الأخرى نظرًا لإتيانه بشهود زور ومحامٍ لا ذمة له، زوروا أحداث الواقعة.

خرج متلذذًا بحريته من جديد، عازمًا على النيل من «مدينة» التي صنعت منه أضحوكة تتحاكى عنها قبيلته.

وكان ما أجج بداخله نارًا مستعرة لا تخمد، هو معرفته بأنها لجأت إلى شيخ القبيلة وقاضيها للإقرار ببطلان نكاحها، دفعه هذا لتزوير وثيقة زواج رسمية، ظنًّا منه أن قطعة من الورق محبرة قادرة على أن ترغمها على قبول ما رفضته سابقًا، وليثبت للناس حكايته الملفقة، عن زوجة خائنة، هربت مع عشيق استحلها.

كان قد توجه إلى بيت الخالة «سمارة» في الواحات الداخلة، إذ يعلم بقرابة بعيدة تجمعهما، وهناك في الواحة صدق حدسه، إذ عثر على آثارها، لكنها تفلتت منه في اللحظة الأخيرة كالزئبق ينزلق من بين أصابعه.

توحشت رغبته، واستعرت شراسته، لم ييأس ولم يكل وهو يفتش عنها في كل واحة يدخلها، إلى أن انتهى به المطاف إلى حائط مسدود.

فتفتق ذهنه عن حل يساعده، بعدما أفضى إلى بعض الرجال بمشكلته وثأره الذي يريد أن يبلغه، من امرأة انتهكت شرفه وكرامته.

أشاروا عليه أن يتفق مع دليل خبير متقفٍّ للأثر على مبلغ مجزٍ من المال إذا نجح في العثور عليها.

كان يحتفظ بصورة لها، أخذها من أبيها الجهول، وضع إحداهما على قسيمة الزواجِ المزورة، والثانية أبقاها في جعبته، صنع منها عدة نسخ ووزعها على أكثر من دليل مشهود له بالمهارة، أنقدهم المال، ووعدهم بمضاعفة الأجر إذا نجح أحدهم في العثور عليها.

وفي اليوم الذي وصلت فيه «مدينة» برفقة «مشتاق» إلى الفندق القريب من الهضبة التي استرعت انتباهها، كان ثمة دليل يقف خلفها، يتأمل ملامحها بدقة متناهية، يقارنها بالصورة التي يحتفظ بها!

وفي الصباح التالي رآها تقترب منه بينما يتحدث إلى فوج سياحي عن الآثار المدفونة في رمال الصحراء الغربية، تسأل عن واحة مسحورة اسمها زرزورة!

لم يسعه إجابتها، إذ تدخَّل في الحوار متقفٍ للأثر اسمه «رماح»، أخذها ورفيقها وانطلق بها في رحلة مجهولة الوجهة.

وقتها هاتَف الرجل الغليظ وبشَّره بعثوره على الفتاة الضائعة، وذكَّره بوعده وما اتفقا عليه من أموال طائلة.

تتبع سيارتها إلى أن توقف بهم «رماح» في بقعة معينة، اختارها هو أيضًا للتخييم مع فوجه السياحي، وهناك حاول تجاذب أطراف الحديث معها، ومعرفة وجهتها، لكن الفتاة كانت صارمة.

انطلق «رماح» بهما قبل أن يصل الرجل الغليظ إلى الموقع المتفق عليه، وعندما وصل وعرف أنها رحلت، أمسك بتلابيب الدليل ينهره.

فأخبره أنها كانت تسأل عن واحة غير موجودة على الخارطة، وأنها حتمًا في طريقها للبحث عنها، وأن الأقاويل تؤكد أن تلك الواحة المجهولة تقع بالقرب من الجلف الكبير.

وعندما طالبه بأجرته، سدد له الرجل الغليظ ضربة على رأسه، ونجا بنفسه. انطلق في رحلة ستطول لبضعة أسابيع، أقسم خلالها ألا يعود إلا ظافرًا بقتلها.

وعندما فقد بوصلته، والدليل الذي أرشده، تاه في الموقع المذكور، ظن أن الموت نهايته، إلى أن رأى أمامه بوابة حجرية عظيمة البناء، فوقها تمثال لعصفور يحمل في فمه مفتاحًا أثريًّا!

والآن بينما يتطلع إلى «مدينة» بحقده الدفين الذي نما إلى أن صار قبيلة كاملة، تلذذ برؤية عينيها تتسعان هلعًا وانتظارًا للنهاية المحتمة.

- سنخرج معًا من الواحة، سأبحث عن شفائها بالخارج.

هذا ما تفتق عنه ذهن «طوفان» بعد طول تفكير، ما قاله لم يكن ليروق «أبو الأحناش». قال بغلظة محتدًّا: «هل جننتَ يا «طوفان»؟ لن أسمح لكَ بأخذ ابنتي إلى أي مكان».

- لكنكَ ستسمح بموتها فوق فراشها دون أن تفعل شيئًا لأجلها؟

أصابت كلماته وترًا حساسًا من نفس «أبو الأحناش»، فانهمرت عبراته الصامتة من جديد، أنهكته قلة الحيلة، وتآكُل الأمل، وشُح الحلول الناجعة. لم يستسلم «طوفان» للرفض الذي كان يتوقعه، ظل يغمر الجرح بالملح إلى أن توسل إليه «أبو الأحناش» كي يتوقف عما يفعله.

- ستموت أمامنا يا أخي، لن يعود هناك «سلام»، كيف ستنظر إلى وجهها وهي تحتضر بينما تعلم أنه كان بإمكانكَ إنقاذها؟

قال باعتراض واهن: «العثور على الشفاء خارج الواحة ليس مؤكدًا، إنه مجرد احتمال».

- وألا يستحق هذا الاحتمال الضئيل المحاولة، ألا تستحق هذا «سلام»؟

- كيف أسمح بذهابها معكَ؟ ماذا سيقول أهل الواحة، هربت مع عمها الذي يراها كامرأة؟ توقف يا «طوفان» عن هذيانك، لن أسمح أن تلوك ألسنة الواحة شرف ابنتي.

- إذن اجعلهم يقولون: ذهبت مع زوجها!

تطلع إليه «أبو الأحناش» بمزيج من الذهول والسخط، وقبل أن يرميه بكلمات لاذعة، أردف «طوفان» بصرامة منفعلًا: «إما أن تفكر في ابنتك وإما الناس، اختر يا «أبو الأحناش»».

تهدلت كتفا «أبو الأحناش» وتقوس ظهره، لا يجد في نفسه القدرة على الاختيار، ضل طريق الحكمة، ولم يحز في يده سوى شتات التفكير. جثا «طوفان» فوق ركبتيه أمام «أبو الأحناش» يمسك بيديه ويقول بنبرات راجفة: «إنها «سلام» يا أخي، أعرف كم تحبها، وما تعنيه لكَ، لا تفجعنا فيها فقط لأنك خائف من حديث الناس، منذ متى توقف الناس عن الحديث؟ أخبرني؟ ألم يلوموكَ لزواجك بأمها لأنه بالواحة من هي أجمل وأشرف نسبًا؟ ثم لاموك على عدم زواجك بعدها؟ ثم لاموك على رغبتك في تزويج «سلام» بينما هي مريضة؟ ثم لاموك على رفض زواجها بـ «جمعان»؟ كلام الناس لا يقتل يا أخي، الذي يقتل هو الإنصات إليهم».

تسربت كلمات «طوفان» مباشرة إلى قلب «أبو الأحناش» ووجدت فيه مستقرها. تحرك رأسه بإيماءة خفيفة، كانت كافية لـ «طوفان» كي يخبره بحماس أنه ذاهب لإحضار شيخ الواحة والشهود.

تطلع «أبو الأحناش» إلى السماء التي ما تزال ترتدي ثوب العتمة، وقال بدهشة: «لن يخرج أحد من داره قبل أن يشرق النهار، ألا تعرف ماذا بإمكان الممسوس أن يفعل بمن يخالف أوامره، كيف ستقنعهم؟».

استل «طوفان» خنجره من طيات ملابسه ثم قال بقوة واعتداد: «سيتكفل هذا بإقناعهم».

***

أدركت «مدينة» أنها النهاية، لن تستطيع إطلاق الرصاص إذا ما التحم الرجلان من جديد، مخافة أن تصيب «رعد» بدلًا من عدوها. سيشج الحجر رأسه ويسقط قبل أن تجد الفرصة المواتية لإطلاق رصاصة لا تطيش عن هدفها.

وفي الوقت الذي شعرت فيه أنها على وشك خسارة كل شيء، اخترق المشهدَ رمحٌ يمرق بسرعة خاطفة!

لم يدرك أحدهم حقيقة ما يحدث إلا عندما أصدرت حنجرة الغاصب صيحة ألم عاتية؛ يختل توازنه فوق الصخور، محاولًا بقنوط إخراج الرمح الذي اخترق صدره من المنتصف.

يدور حول نفسه كحيوان مذبوح، يتعثر في صخرة بارزة، لا يجد في الهواء مشجبًا يتمسك به، ولا في العالمين من يستنقذه. يطيح جسده في الهواء بطول ارتفاع الجبل، ليصدِر عند اصطدامه بالأرض صوتًا مكتومًا، سكن الوجود بعده.

التفت «رعد» و«مدينة» إلى مدخل الفجوة، فوجدا «قوس» يقف هناك، يده مثبتة في الهواء في وضعية إلقاء الرمح، الذي أخذه من فوق الجدار بغرفة «رعد».

ومن خلف كتفه يشرئب القاضي بعنقه، ثم ينطلق صوب «رعد» معانقًا وفي صوته حشرجة البكاء.

يرتج قلب «مدينة» بعنف داخل محبسه بين الضلوع، تُسقِط السلاح من يدها نافرة ومشمئزة، ثم تركض صوب «رعد» تعاين جرحه، وتتفحص

موضع ألمه، تغمرها مشاعر جياشة مثل طوفان لا يجد أمامه ما يوقفه، ترتب خصلات شعره بأنامل حانية، تمسح عن جبينه العرق الغزير، تمس آثار النار المتفرقة، ثم تقول لاهثة ومشجعة: «انتصرنا في تلك الجولة، علينا أن نستعد للجولة التالية، تماسك يا «رعد»».

يبتسم لها بشغف من استعاد سنواته الضائعة، وبنشوة من عثر على شجرة الأمنيات، وقطف أخيرًا ثمارها.

تبهت الابتسامة وتختفي، يئن متوجعًا، فتخبر «مدينة» القاضي بهلع: «السحر يضربه من جديد».

يتكئ على الرجلين حتى يبلغ غرفته، يسقط جسده المتهالك فوق الفراش، يفسحان الطريق لـ «مدينة» التي أمرتهما بإحضار السدر والماء. عندئذ أدرك كلا الرجلين أنها استعادت ما فقدته من ذكريات، وأنه سيُكتَب لـ «رعد» على يديها الشفاء كما حدث مع «رماح». قال «قوس» بحماس وابتهاج: «من المفترض الآن أن نبحث عن محل العمل المدفون، أليس كذلك؟».

أومأت برأسها، فأردف وهو يستعد للمغادرة: «سأخبر الحرس بما هو مطلوب، لن ندع شبرًا في الواحة إلا وقلبناه رأسًا على عقب».

تحدث «رعد» متوجعًا: «انتبه يا «قوس»، جميعنا ممنوعون من مغادرة الواحة، ساحرة الغابة صنعت عقدة لكل منا، حاول أحد الحراس الخروج فسقط صريع سحرها».

تبادل ثلاثتهم النظرات في اضطراب بالغ، «مدينة» و«قوس» والقاضي.. إذ باتوا على علم بهوية ساحرة الغابة، وحده «رعد» ما زال لا يعرف!

أخرج «قوس» القلادة الفضية من جيبه، حركها أمام ناظرَي «رعد» مفصحًا: «عثرتُ عليها في قبر «مطر»، حول جثته التي تحللت، حفظت حرارة رمال الصحراء بعض عظامه، أمكنني التمييز بوضوح أنها عظام طفل في السادسة».

مات «مطر» في سن السادسة، غسَّله أبوه وصلَّى عليه وكفَّنه، وساعده أهل الواحة على دفنه. لطالما كانت زوجة القاضي تتحدث عن عودة «مطر»، وعن مجيء «برق» لزيارتها، فظنوا أنها مهارات ساحرة متمرسة، استطاعت بقوة سحرها استدعاء طفليها من عالم البرزخ، يحطان على دارها لزيارة خاطفة.

وحسب بعضهم أن الطفلين لم يموتا من الأساس، خبأتهما الساحرة في دارها لسبب يخص طقوسها. يجهلون الدور الثلاثي الذي كان يمارسه «رعد» داخل الدار سرًّا، كي يبقي والدته سعيدة وهادئة.

وعندما وقع الحريق في دار القاضي، كان «رعد» يرتدي قناع «مطر»، يحشو ظهر معطفه بالرمال والحجر، يصفف شعره الطويل ليحجب جبينه، ويلامس عينيه، يخجل من النظر، ويتلجلج في الحديث، ويميل في أثناء السير.

كان «رعد» يمثل دور «مطر» عندما وقع الحريق، لكنه خرج من وسط النار مصدومًا محطمًا، كانت لحظة فارقة في حياته انقلب خلالها التمثيل إلى حقيقة، والوهم إلى واقع، إذ انقسمت صورته الذاتية إلى ثلاث صور.

تهشمت حبات البندق الثلاث بداخله، وامتزجت ببعضها، معجونًا بماء غصون البندق الذي تركن إليه كل ساحرة، فقد قدرته على السيطرة على «مطر»، الذي أخذ يتحرك ويتحدث ويفكر ويبني لنفسه هوية محددة.

وفي الوقت نفسه كان «برق» أيضًا يأخذ لنفسه مساحة خاصة، الساحر الذي يتحلى بذكاء يفوق ما يتحلى به «مطر»، استطاع إخفاء نفسه عن «رعد» دون أن يشعِره بهويته.

أدرك «رعد» وجود «مطر» بداخله، وذلك كلما استيقظ من غفوة تصيبه ويجد نفسه بظهر محشو بالرمال والحجارة. نبذه عند أطراف الواحة، وحيدًا في الكوخ المعزول، منعه من التحدث إلى أحد، وحرم على الناس زيارته، وسد بالحجارة النفق الذي يقود إلى الغابة، لئلا يدرك الناس حقيقته.

وكان كلما استيقظ «مطر» ورأى نفسه في الجبل، في قاعة الممسوس أو غرفته، أصابه الجزع، يخشى أن يفسد على «رعد» حياته، أو يغضبه بأكثر مما فعل، فيلجأ إلى النفق السري الذي اكتشفه القاضي قديمًا، ويعود منه سرًّا إلى كوخه المعزول في أقاصي الواحة، لا يتحدث إلى مخلوق ولا يزوره أحد.

استطاع «رعد» بتلك التدابير إبقاءه في الواحة، رغم أنه لم يرَ منه ما يسوؤه، إلا يوم أكل السحر في الغابة، ليلتها استيقظ ليجد نفسه في لباس «مطر».

نبت «برق» من تربة الحقد، غضبًا على «رعد» الذي يملك كل القوة، وعلى «مطر» الذي يملك كل الحب، كان منبوذًا بينهما، منسيًّا، مهمشًا.

طفق يمارس السحر في بيت البامبو الكائن في أحراش الغابة، متواريًا عن الأعين، مستغلًّا حكاية قديمة، وأسطورة متداولة، عن ساحرة تعيش في الغابة، لا تأكل، ولا تشرب، وعمرها ألف سنة، فأضاف لهذه الأوصاف وصفًا إضافيًّا، وهو أن لها أذنًا واحدة، وسربه إلى أسماع الخلق؛ إذ كان لـ «برق» عند مولده ضمور ملحوظ في أذنه اليمنى.

وهكذا أصبح الساحر يعيش الأسطورة ويحققها، مستعينًا بـ «عبد البر» ولاعبًا على وتر أطماعه، متلذذًا بالقدرة التي يملكها، وما يثيره في أبناء الواحة من هواجس ومخاوف، توازي تلك التي يثيرها الممسوس فيهم.

سحر «رعد» بنفسه، أطعمه السحر بنفسه، ما داموا يملكون فمًا واحدًا!

عندما استيقظ «رعد» مسحورًا في الغابة، رأى خلف ظهره رمالًا وحصى، فعرف أن من سرق جسده ودفعه لدخول الغابة هو «مطر»، فأبعده، ونبذه.

وبهذا أفسد «برق» بينهما في سعادة.

أطرق «رعد» برأسه صامتًا، ينقل بصره بين ثلاثتهم، يغمره اضطراب، وخجل، يضاف إلى ما يشعر به من ضيق وألم. قال باقتضاب: «أخذني «مطر» إلى الغابة وجعل الساحرة تطعمني السحر، ليتمكن من سرقة جسدي، أصبح يقاسمني إياه رغمًا عني وذلك منذ ليلة الحريق، لهذا أبقيته بعيدًا عن الجبل، لا أعرف كيف استيقظ من موتته، ربما هو سحر أقوى من كل ما نعرفه، لكنه منذ الحريق كان حاضرًا بداخلي، يزاحمني العقل والقلب والجسد، حاولت طرده، بذلت جهدي لإعادته إلى الموت الذي تفلت من سلاسله، لكن دون جدوى، يريد أن يعاقبني لأنني أصررت على لعب الغميضة معه، لولا ذلك لما مات «مطر»».

ثم يرفع رأسه بمرارة ليقول بقوة رغم الوهن: «لن أترك له جسدي، علينا إيجاد ساحرة الغابة لتفك لعنتي».

أمسكت «مدينة» بيديه برفق تخبره عن الحقيقة التي غابت عن خاطره. تفصح عن هوية الساحر الذي تلاعب به، وعن الجسد الذي تفتت بداخله ثلاث هويات كان يحسب أنه يتحكم في كل منها على حدة.

ما عاد بإمكانه إدارة دفة العقل الذي أنهكه، الذي أتت عليه صدمة الحريق والعوامل الوراثية بالضربة القاضية. أخبرته «مدينة» أنه يجمع في جسده بين السحر والمرض، السحر يسلبه قوته، ويضعف قدرته، ويسقِطه نائمًا من

غير حول منه ولا قوة، والمرض الذي يفتت حبات البندق ويطحنها ببعضها، فلا يعُد يُدرك من صاحب الجسد.

كانت صدمته بالغة إلى الحد الذي استجلب عبراته العنيدة، فتساقطت في انهزام ووهن. يتمتم ذاهلًا: «أنا مريض مثل أمي؟».

- كل مرض له دواء، فقط علينا أن نبحث في المكان الصحيح.
- هل بإمكاني الشفاء حقًّا؟
- سنبذل كل جهدنا.

تقول مترفقة به، تحيط يده بكفيها وتطبق عليها بقوة داعمة، تمتص صدمته، كان يبحث عن الساحر في كل مكان، وإذ به يعيش بداخله.

يعجبه استخدامها لنون الجمع، يدرك أنها تخبره من غير حديث كثير أنها معه، ستكون دعامته وقت الحاجة، والضوء الذي ينير الطريق. هي الحقيقة الوحيدة المؤكدة في حياته، التي تبدد الأوهام، وتخيف الخيالات.

يتطلع إليها بنظرات حب خالصة، فتبادله كل نظرة بمثلها.

يسأل الرجلين متى وكيف اكتشفا الحقيقة، فيقول «قوس» موضحًا: «عندما أخبرتني زوجتكَ أنها تشك أن ساحر الغابة رجل، طاف بعقلي رجل وحيد تعلم السحر في صباه لأن أمه أحبت له ذلك، وهذا الرجل هو أنت يا «رعد»، كانت أمك تحسب نفسها ساحرة، ومرة تظن أنها قاضية، وأحيانًا تدعي أنها جن يسكن الجبل الأسود، فطاف بعقلي احتمالية أن يكون مرضها قد انتقل إليكَ، وأنكَ من يرتدي لباس «مطر» وتعيش في الكوخ المنعزل، لطالما كانت عودة «مطر» لغزًا بالنسبة إليَّ، لم نستطع التفرقة بينكما لأن لكليكما الوجه نفسه، وعندما خرج أمامنا من الحريق بظهر منحنٍ وصوت مختلف وطباع لا تمت لكَ بصلة، لم نشكك في هويته، حسبناكَ بالفعل «مطر»، وأن الساحرة كانت تبقيه في الدار سرًّا وتستغله في طقوسها، والبعض صدق أن لها قدرة مذهلة على إحياء الموتى من قبورهم، كان شيء من الشك يخمش صدري، وبخاصة عندما أبعدت «مطر» ومنعتنا من التحدث إليه أو زيارته، وادعيتَ أنه حاول قتل الساحرة، كنتُ أعرف أنكَ لا تحب تلك الساحرة ولم أفهم لماذا تبقيها في الجبل وتعادي أخاكَ لأجلها.. أخاك الذي منعت وصوله إلى أبيك نفسه».

التقط أنفاسه ثم أردف وهو يعبث بالقلادة: «وعندما وجدتُ عظام «مطر» ترقد في القبر، عرفتُ أن الرجل الذي كان يعيش داخل الكوخ طوال هذا الوقت هو أنتَ، ولحظة أن فهمتُ ذلك لم يكن صعبًا أن أخمن أنكَ أيضًا تلعب دور الساحر، الذي يدعي «عبد البر» أنه «برق» بشحمه ولحمه».

بينما يضيف القاضي إلى ما وضحه «قوس» مغتمًّا وذاهلًا، يتحسس ذراع ابنه ويمسدها: «عندما زارني «مطر» في غرفتي عرفتُ ما أصابكَ، كنت تمنع الحراس من التحدث إليَّ عن «مطر» أو عن وجوده في الواحة، وعلى الرغم من أن شيئًا من همساتهم كان يبلغني وسمعتُ أكثر من مرة اسم «مطر» يتردد بين سكان الجبل، عندما سألتكَ عنه نفيتَ ظنوني، ولحظة أن قابلتُ «مطر» في غرفتي سقط قلبي أرضًا، لم تكن تقوم بدور أخيك كما كنت تفعل في صغرك لإسعاد أمك، بل كنتَ تتلبس جلده فوق جلدكَ كما لو أنكَ تحولت إلى رجل آخر، لكنني لم أكن لأتخيل أنكَ أيضًا الساحر نفسه الذي كنت تبحث عنه طوال الوقت، آذيتكَ يا بني عندما رفضتُ مغادرة الواحة في وقت أبكر، كان يجب أن أستمع إليكَ وأبحث عن علاج أمكَ بالخارج، لكن فات الأوان، سامحني يا بني على كل ما حدث، أنا سبب هذا المرض».

- أسامحكَ يا أبي.

يهمس بها «رعد» بقوى خائرة، ينكس القاضي رأسه ثم يخرج على عجالة رفقة «قوس» لأداء مهمة التفتيش عن محل السحر المدفون، وتبقى «مدينة» إلى جواره تسقيه من الماء المقروء عليه.

يتابع لهفتها وحركاتها في سعادة تهزم الألم، وتبرز فوق سطح مشاعره المتضاربة. يمد يدًا يمررها بحنان فوق وجنتها، فترجف مثل مدينة ظهر في سمائها رعد مباغت. يقول بحروف تتلألأ حبًّا: «عدتِ إليَّ من جديد».

تضربها لهفة توازي لهفته، وشوق لحديث طويل، تخبره فيه بكل ما يجهل، وتشكو له ما وقع. قالت بصوت أليم خفيض: «لم أرحل بإرادتي».

لم تسعده أكثر من تلك الكلمات القليلة، هذا ما كان يرجوه ويأمله.

- ماذا كان مهركِ؟

يريد أن يستوثق من تذكرها لكل شيء يجمعهما، تمنحه بسمة خفيفة رغم المِحَن، تتحسس عنقها، وتبرز القلادة أمام عينيه. فيسألها: «ماذا كان بداخلها؟»

- سائل مقطَّر من غصون شجرة بندق الساحرة.
- ومتى سكبتِه؟
- لم أسكبه، أنتَ فعلتَ، عند الهضبة الملونة.

رغم آلام جسده، تسربت الراحة إلى قسماته، وبدا أكثر استرخاءً، يرنو إليها كأنها عادت للتو، استرد ما كان مقدرًا له منذ البداية.

- أخبريني بما حدث.

قال ذلك بينما عيناه توشكان على الاستغراق في نوم بئيس، تحاول ألا تدعه يغفل، وتدفعه لأن يبقي عينيه مفتوحتين. تسرد عليه ما وقع كي تستجلب انتباهه، وتثير مواطن اليقظة في عقله.

- حدث كل شيء قبل يوم من ميعاد الرحيل.

تساءل بلهفة، وقد نجح في فتح جفنيه، ومقاومة النوم الذي يجثم عليه: «لماذا تركتِ هذه الرسالة البغيضة خلفكِ؟».

- لم أكتبها بإرادتي.
- من الذي أجبركِ؟ من الذي سرقكِ مني؟ لم أكن مريضًا وقتها، لم يكن هناك «برق» و«مطر».

تركت عينيها تتجولان فوق وجهه، هذه المرة من غير حواجز تمنعها، أو هواجس تردعها، تنهدت بقوة، ثم قالت موضحة: «سأخبركَ عمَّن فرق بيننا!».

***

لا يتذكر «برق» من طفولته أكثر من شعور التفرقة، لا يقول للمرأة التي تربيه «يا أمي» مثل أخيه وأخته، يشعر أنه دخيل على البيت، وفائض على حاجة ساكنيه.

كل ما يعرفه أنه أخ لهذا الفتى ولهذه الفتاة، يشترك معهما في الأب نفسه، وأن تلك المرأة التي ربته في بيتها هي زوجة أبيه الأولى.

وكلما تساءل عن أمه ومكانها، استحالت زوجة أبيه إلى أخرى مجنونة، تكيل لأمه السباب والاتهام، وتنزل على جسده بخرطوم برتقالي تخفيه في دولابها، فيكف عن السؤال.

وعندما شب قليلًا وصار قادرًا على المواجهة، لم يتنازل عن معرفة جواب السؤال الذي أرقه: لماذا تخلت عنه أمه وتركته في رعاية زوجة أبيه؟

فتشير زوجة أبيه إلى أذنه اليمنى الضامرة، وتخبره أن أمه لم تحتمل عاهته، أرادت أطفالًا أصحاء كتوأميه، فتخلصت منه يوم مولده.

أخذته منها لأنها أشفقت عليه، وأرادت أن تحظى بثواب كفالته.

يتطلع في المرآة إلى أذنه المتآكلة، المحرومة من حاسة السمع، فيشعر بالسخط، والحقد، والغضب. تخبره عن توأميه الجميلين، والكاملين الصحيحين، اللذين اقتسما حب أمه فلم يبقَ لأجله ولا حتى الفتات.

يثور نقمًا، ويُربي بداخله وحش الحقد الأسود، يطعمه ويسقيه، يكفله ويربيه.

لا تدرك الزوجة الأولى أنها تربي في بيتها وحشًا كاسرًا، ما إن تنمو له مخالب وأنياب حتى يمزق كل من حوله.

لا تختلف عنه في الكثير، كانت هي الأخرى تربي بداخلها وحش الغيرة منذ أن سمعت بزواج زوجها بالثانية، طافت بخيالاتها خطط شتى تفسد بها حياة الزوج الذي تخلى، والزوجة التي تعدت على حياتها.

لم تكن حياتها هانئة مع «أبو العيون»، لم يمض يوم عليهما في الواحة إلا وأرادت الرحيل، فيما يصر هو على البقاء داخل حدود أرض مسحورة لا تجد فيها شيئًا من رفاهيات تربت عليها في العاصمة.

رفضت الرحيل، ورفضت البقاء، فصارت ممزقة بين تعاسة وشقاء.

عانت نزيفًا خطيرًا في ولادتها الثانية، ولبساطة المعدات، وقلة الإسعافات، فقدت على إثر النزيف رحمها، وحُرمت للأبد من القدرة على الإنجاب. كان هذا كحكم بالإعدام على أنوثتها، وكونها امرأة خُلِقت لتنجب الأبناء وتعمر الأرض.

لم ترَ في ابنها وابنتها أي جمال، فقدت القدرة على الإحساس بالنعم التي تملكها، وأصبح شاغلها هو تلك التي فقدتها. أتعست نفسها، وزوجها، وطفليها، إلى أن صارت حياة أربعتهم غير محتمَلة.

وعندما سمعت من إحدى نساء الواحة أن زوجها خطب امرأة ويتجهز لزواجهما المرتقب، طاش ما بقي في عقلها من تفكير.

لم تصرف الغيرة في مصارفها الحميدة، نمَّتها بداخلها، أطعمتها وسقتها، كفلتها وربتها.

وعندما صار لوحش الغيرة مخالب وأنياب، نهش في كل من حوله؛ سرقت الطفل الثالث وهو كل ما استطاعت حمله. كانت ثمة قلادة فضية ملتفة حول عنقه، بها شجرة لها ثلاثة أفرع، احتفظت بها في طيات ثيابها، ثم ذهبت به إلى الهاوية بنية إلقائه بداخلها، لتحرق قلب أمه وأبيه، كما أحرقا روحها.

لكنها لم تقوَ على تنفيذ الخطة الجهنمية التي أعدتها للانتقام، كان القتل بحاجة إلى قلب أشد قساوة، ونفس أكثر حقارة. أخذت غطاء الرضيع ولفته حول الحجارة ثم ألقت به في الهاوية.

أخفت الرضيع في حقيبة ظهرها، ومضت به وطفليها خارج الواحة، تفتش تحت سراج من النجمات عن طريق العودة إلى ديارها.

يكبر الرضيع أمامها ويذكِّرها بكل ما فقدت، فتحترق شيئًا فشيئًا، جاهلة بأنها ودون الحاجة إلى جينات وعوامل وراثية، ستورث الرضيع شيئًا من نارها التي لا تخمد، وسيتأجج وحش الحقد في صدره، مثلما تعاظم وحش الغيرة في صدرها.

ولم يكن حظها من ابنها وابنتها بأفضل من حظها في زواجها، إذ كان ابنها سيئ الخلق، دنيء النفس، حقير الشأن، أنجب «مشتاق» ليورثه سلسلة لا تنتهي من العذاب والمهانة.

وكانت ابنتها طائشة، خبيثة، يسري في دمائها الطمع، ولا تتسع عيناها إلا جشعًا، أنجبت هي الأخرى «سراب» التي قاست الأمرَّين من طباع أمها.

طلق الابن زوجته وعاد بـ «مشتاق» يلقيه بين ذراعي الجدة، وترملت الابنة التي عادت لتلقي «سراب» بين ذراعَي الجدة بدورها.

كانت السنون قد أهلكت الجدة، وفتتت الكثير من طباعها وحدَّتها، تكفل الزمن المرير بأن يريها الآثار الجسيمة لأخطائها، صارت لحفيديها أمًّا وجدة، تحاول معهما تصويب أخطاء الماضي، ومحو الذنوب التي تنكِت قلبها بنُكَت سوداء مظلمة.

لكن الأوان قد تأخر كثيرًا لإصلاح البذرة التي فسدت بالماء العكر الذي رويَت به.

بدأ كل شيء في نهار ضبابي بأواخر الخريف، عندما اكتشفت ابنتها قدَرًا الذهب الذي سرقته الجدة من مخزون الواحة قبل الرحيل.

لم تنفق الجدة شيئًا من هذا الذهب طوال سنوات، سوى سبيكة صغيرة اعتاشت منها لفترة. دخل هذا المال كالنار على حياتها، أنفقته على علاج، وعمليات، وأطباء، وأدوية.

لم يكن فيه شيء من البركة، أو قدرة على إدخال البهجة، مال نتن، فاسد، أدركت أنه دخل على حياتها كاللعنات.

أبقت على ما تبقى من الذهب، قررت أن تتركه ميراثًا يرثه عنها أبناؤها وأحفادها، فيكون لهم مالًا خالصًا، لا تحرقهم نيران لعناته الخبيثة.

وعندما عثرت الابنة على الذهب، اتسعت عيناها في جشع، وقررت الاحتفاظ به لنفسها. ولأنها خافت مكر أخويها، لم تودع المال في حسابها، بل وديعة باسم ابنتها «سراب».

لا يحق لأحد سواها استلام الأموال، وذلك بعدما تتم الحادية والعشرين من عمرها.

عندما أدركت الجدة سرقة الذهب، قامت القيامة في بيتها، اتهم كلٌّ من الأبناء الثلاثة الآخر، إلى أن حط طير الحقيقة فوق كتفَي السارق. وقع شجار عنيف بين الأخوين وأختهما الخائنة، التي استولت على نصيبهما من الغنيمة.

لم تستطع الجدة وقف الشجار الدائر بين أولادها، ولم تفلح أي كلمة أو دمعة أو رجاء في تهدئة الثورة التي اندلعت في عقر دارها.

وقفت تنظر إلى النار تلتهم أبناءها، دون أن تقوى على إطفائها، فأدركت أنه العقاب المنتظر؛ دار بدار، ونار بنار!

أخذ الأخوان أختهما في السيارة وانطلقا بها صوب البنك في محاولة مستميتة لإقناعها بسحب الأموال وتقسيمها على ثلاثتهم.

لكنها أبَت إلا أن تتمسك بالمال كاملًا.

كان الشجار دائرًا بين ثلاثتهم، والشيطان رابعهم، وذلك عندما حادت السيارة عن الطريق، واصطدمت بشاحنة تأتي في اتجاههم مسرعة، لتنقلب سيارتهم رأسًا على عقب.

بينما أتى الجدة الخبر كانت تجمع «مشتاق» و«سراب» في حضنها وتوشك على الاعتذار على ما بدر منها في حق عائلتها، عازمة على أن تقص عليهما الحكاية كلها، منذ أن التهمت نيران الغيرة قلبها، وسمحت لها بالتمادي لتأكل الأخضر واليابس.

فقدت الجدة ابنيها الاثنين في ضربة واحدة، ولم يبقَ سوى الوحش الذي ربَّته في بيتها.

كان «برق» في حالة ثورة، إذ أيقن أنه الخاسر الوحيد في تلك العائلة، ولم يكن ممن يقبلون بالخسارة. ذات صباح عندما استيقظت الجدة من نومها، لم تجد أثرًا له، ولا لـ «سراب» الحفيدة. تجهل أنها لم ترحل كرهًا برفقة خالها، بل طوعًا تبعته في رحلة سفر طويلة، طمعًا في المزيد من الذهب، يقتسمانه معًا.

فما تملكه من أموال باسمها لن تحصل عليه إلا بعد ثلاث سنوات وبضعة أشهر، وبدا لها هذا بعيدًا جدًّا، لم تطق لانتظاره صبرًا، هذا ما وسوس به «برق» في أذنها، حاملًا خارطة مرسومة يدويًّا عن موقع واحة زرزورة، حيث كنوز الذهب المخفية.

لم يعثرا على الواحة بسهولة، أمضيا شهرين في الصحراء تلفحهما الحرارة ويعضهما الصقيع، يحطان ضيوفًا على كل قرية يمران بها، يأكلان طعامهم، ويرتديان لباسهم.، إلى أن استسلمت «سراب» وأرادت الرحيل، ولم يكن خالها ليسمح لها بإفساد الخطة.

وفي ليلة حالكة السواد استطاعا أخيرًا بلوغ زرزورة.

كان يعرف الواحة من حديث زوجة أبيه، ويرسم لها تفاصيل من بنات خياله. عندما دخلها شعر أنه يحفظها غيبًا، كأنه وُلد فيها وما فارقها يومًا.

أخبرته زوجة أبيه عن بيت البامبو القديم المخفي في أحراش الغابة، فارتأى أنه مكان مثالي للاختباء إلى حيث قضاء الحاجة التي جاء لأجلها.

سار في طريق موازٍ للهاوية، عثر على النفق أولًا، ثم رأى أشجار البندق حول دار من طابقين، فأيقن أنه قد بلغ وجهته. أشار لـ «سراب» بأن تلزم الصمت وتنتظره داخل النفق.

- أنا خائفة يا خالي.
- لا تخافي، سننهي ما جئنا لأجله سريعًا، وسأعطيكِ حصة من الذهب كما وعدتكِ.
- لا حاجة لي به، سآخذ الوديعة ما إن أبلغ الحادية والعشرين.
- ألم أقل لكِ إن السنوات تمر بطيئة مملة، لكن إن استطعت الحصول على الذهب سأعطيكِ حصتكِ لتنفقيها في الحال.

كان «برق» بحاجة إليها، كورقة ضغط على أبيه إن لم ينجح في سرقة الذهب سرًّا، سيخرجها أمامه، ويساومه عليها، هذا ما قرره في نفسه، دون أن يطلعها على خطته، لتبدو ردة فعلها مرتعبة على الحقيقة.

انتظرته «سراب» داخل النفق، إلى حين استكشافه للدار ومن فيها؛ الأب الذي تخلى، والأم التي هجرت، والطفلان اللذان سطوَا على حصته من الحب في قلب أبويه.

إلى حديقة الدار تسلل، ومن النافذة المشرعة استرق النظر، اتسعت عيناه دهشة ورهبة، فما رآه كان بمنزلة صفعة.

لم يرَ من توأميه سوى واحد، وكان هذا الواحد أحدب الظهر، أعرج الساق، عليل البدن، يشبهه في الأنف المستقيم والجبين العريض، وربما طول القامة، والشعر الفاحم، لا شيء سوى ذلك، هل هذا الذي فضَّلته أمه عليه لعيب أصاب إحدى أذنيه؟

كان قد صدق القصة الملفقة، التي ظلت مثل خنجر مسموم في القلب.

والآن بينما يرى أمامه توأمه بهذه الحالة البدنية المتردية، يجلس إلى جوار أمٍّ تلاطفه وتمازحه، وحبيبة تقدم لهما أكواب الشاي على صينية من الخوص، في جلسة عائلية دافئة حُرم منها عمرًا بأكمله، عند هذه اللحظة شعر «برق» بالنار تشتعل بداخله.

أدرك أنه بلغ حدًّا من الحقد ما عاد بإمكانه إلهاؤه بمسكنات لا نفع لها، أصبح هذا الحقد راغبًا في الإطعام، وقد قرر مستسلمًا أن يطعِمه.

***

فوجئت «مدينة» بخرقة تكتم أنفاسها، شعرت بوعيها يتسرب رويدًا إلى عالم مظلم تغيب عنه التفاصيل، كانت قبل هذه اللحظات تفكر في حياتها القادمة بعد الرحيل عن الواحة، واللحظة التي ستتماثل فيها زوجة القاضي للشفاء، مستردة عقلها وعافيتها.

سعادة بالغة ستترك أثرها في قلب «رعد»، وحِمل ثقيل سيزاح من فوق كاهله.

في تلك الأمسية توجه «رعد» والقاضي إلى ساحة المرح، وغادرت الزوجة إلى مكان غير معلوم، تركوها وحدها في الدار، إذ كان ثمة احتفال سيقام بعد

قليل، بمناسبة خطبة «طوفان» الأولى لامرأة اختارتها له «أم الرمال»، وكانت «مدينة» في غرفتها تتحضر للمناسبة.

اختارت قماشًا بني اللون من الحرير، خاطته بنفسها فستانًا مرصعًا بقشور البندق، تمنت أن يعجب به «رعد» ويسمِعها ما تنتظره من كلمات المغازلة.

كانت تبتسم لتلك الخاطرة السعيدة عندما هاجمها «برق» من الخلف، فيما كانت تحضر الطعام لـ «كحيل» و«بريق» في حظيرتيهما.

وعندما فتحت عينيها وجدت نفسها داخل بيت قديم من البامبو، أدركت من النوافذ المشرعة على الأشجار والنخيل أنها وسط أحراش الغابة، مهما صرخت لن يسمعها أحد.

- آن أوان سداد الدين، وانتزاع حصتي العادلة من الحياة.

كان هذا أول ما قاله «برق» بعد أن أخبرها بهويته. تتطلع ذاهلة إلى التوأم الثالث الذي ظنه الجميع قد مات رضيعًا بلا قبر، ملقى في فم الهاوية.

- أنتَ على قيد الحياة!.. يا لها من هدية لأمك المسكينة.

أخبرته أن أمه فقدت عقلها حسرة عليه وعلى أخيه الذي مات في عمر السادسة، لم يصدق حرفًا يخرج من فمها، كان قد تلحف بالكذبة إلى أن أدمنها، أخبرته أنها زوجة ثالثهم دون أن تذكر اسمه، فظن أنها تتحدث عن الأحدب، وعندما عاد بها إلى القاهرة بعد الحريق، أخبر «مشتاق» أنها زوجة أخيه الأحدب.

***

لم تعرف «مدينة» كل هذه التفاصيل الدقيقة، وحدها النجمات تعرف، أخبرن «دنيازاد» في خدرها، وها هي تقص الحكاية على أسماعكم.

كل ما أدركته «مدينة» حين استعادت الذاكرة، أن الرجل الذي تعرفه كأب لـ «مشتاق» ليس أبًا له.

ليس فحسب لأن لديه أذنًا يمنى ضامرة مثل «برق» الرضيع، ولا للقائها «برق» في بيت البامبو قبل الحريق، بل أيضًا بسبب الصورة التي تخرجها الآن من جيبها.

وضعت هاتف «مشتاق» الذي أخذته من الحارس أمام عينَي «رعد»، كانت قد حدَّثته سابقًا عما تعنيه الهواتف النقالة وما بإمكانها أن تحمله في ذاكرتها.

اندهش حين تطلع إلى الصورة الصغيرة المحبوسة داخل الهاتف، يتأمل الوجوه الخمسة باهتمام بالغ، تشير «مدينة» إليهم وتعرفه بهوياتهم: «الجدة، «سراب» وأمها، «مشتاق» وأبوه».

- وما الغريب في ذلك؟ إنها الصورة نفسها التي أرفقتِها مع رسالتكِ لتأكيد أنكِ تعرفين تلك العائلة، ومنها استطعنا معرفة هوية «سراب» حين وقعت في البئر وقلادة «برق» ملتفة حول عنقها.

أشارت إلى وجه الرجل الذي يقف جوار «مشتاق» في الصورة العائلية وقالت: «هذا الرجل الذي تراه في الصورة إلى جوار «مشتاق» هو أبوه، لكن هذا ليس الرجل الذي قدم لي نفسه كخال «سراب» عندما كنت فاقدة للذاكرة، الرجل الذي كان يعيش معنا تحت سقف واحد، الذي كان يصبغ بعض خصلات شعره بلون أبيض كي يبدو أكبر من عمره بعشر سنوات، الرجل الذي اختطفني وأجبرني على كتابة الرسالة، كانت لديه أذن يمنى ضامرة».

ثم أفصحت بما لا يدع مجالًا الشك أو التأويل: «الرجل الذي فرق بيننا هو «برق»، توأمكَ الثالث!».

***

أخذت بيديه مرة أخرى وتجولت به في مدينة الذاكرة، تخبره عن بيت البامبو واللحظة التي اكتشفت فيها أنها أسيرة بين يدَي «برق».

لم يصدق أيًّا من ادعاءاتها عن عدم تخلي أبويه عنه، كان الحقد قد تملك فيه الشعور والتفكير. ترك زمام القيادة لشياطين الهوى، واتبع خطته بحذافيرها.

أراد إيلام تلك العائلة كأشد ما يكون الإيلام، أن يضرب عدة عصافير بحجر واحد؛ يسرق الذهب، ويمزق وحدتهم الدافئة.

كتبت الرسالة مخافة أن يتعرض لها بالأذى، وعندما حاولت أن تكتب في طرف الرسالة عبارة تحذيرية: («برق» هنا) التفت إليها فجأة لم يسعها سوى كتابة اسم «برق» وحده.

دق ألواحًا خشبية بالمسامير أمام النوافذ والباب ليمنعها من الهرب، ثم اختفى لفترة. لم تجد سوى «سراب» حولها لتفضي إليها بما تعرفه.

- الجدة كذبت عليكم، سأخبركِ بالحقيقة.

«سراب» التي باتت كارهة لتلك الرحلة وأهدافها، مال قلبها لـ «مدينة» وصدقت حديثها. لم تكن ممن يتخذون قرارات شجاعة، أو يستطيعون المواجهة، لكن بكلمات «مدينة» تحفزت لتصحح خطأ مميتًا سيطيح بعائلة كاملة.

فكت القيد الذي يربطها بمقعد خشبي، ثم حاولت معها كسر الألواح التي تسد النافذة باستخدام المقعد وأيديهما العارية. لم تكن «مدينة» من تلكن النساء اللاتي يستسلمن بسهولة، ظلت تحاول الفرار، أما «سراب» فقد يئست سريعًا من المحاولة.

نجحت أخيرًا في إحداث شق كافٍ للعبور، عانقت «سراب» فرحًا، وقالت لها ببهجة خالصة، وحنان وفير: «سيسعد جدكِ كثيرًا برؤيتكِ، ستحبينه كثيرًا، لا شأن لكِ بخلافاته مع جدتكِ، أنتِ حفيدته، سيحبك كما أنتِ، لكِ خال رائع، ستحبينه فور رؤيته».

عبرتا الغابة يدًا بيد، يتقافز قلب «سراب» لهفة لرؤية الجد الذي ظلت «مدينة» تحدِّثها عنه، والخال الذي سيفتح ذراعيه لأجلها. كانت تبني في خيالاتها أحلام البقاء في الواحة، وذلك عندما ظهر «برق» أمامها من العدم.

قرأ الخيانة في عينَي «سراب» بنظرة واحدة، تنامى الحقد في قلبه ومنحها نظرة حارقة.

- اركضي يا «سراب»، اتجهي حيث الأصوات الصاخبة في ساحة المرح.

افترقت «مدينة» عن «سراب» كلٌّ تركض في جهة، ضربت الحيرة «برق» أيتهما يتبع، إلى أن قرر الذهاب خلف الفتاة اللعينة التي أفسدت خطته، وقلبت عليه ابنة أخته.

ركضت «مدينة» صوب البحيرة، وفي لحظة كادت أن تغرق بعد أن ملأت المياه جوفها! نجحت أخيرًا في التخفي بين أشجار الغابة، تحاول البحث عن ملجأ، في الوقت الذي كانت «سراب» تعبر فيه النفق، ثم تركض فوق الرمال المكشوفة، أسفل مصابيح السماء المطفأة.

تركض صوب الصخب والمشاعل التي تبرق من مبعدة، تمامًا كما أخبرتها «مدينة»، لم تنتبه إلى البئر المهجورة التي تقف في منتصف الطريق بينها وبين الأحلام المأمولة.

أطلقت صرخة عاتية لم يسمعها أحد، وهي تسقط في قاع البئر المظلم، تنتهي الصرخة القصيرة فجأة، كما بدأت فجأة. ومن حول عنقها تتدلى القلادة التي كانت حول عنق خالها «برق» يوم مولده، أهدتها إياها الجدة يوم مولدها.

بدأت تلك الليلة بفاجعة موت «سراب» الحفيدة، وانتهت بالحريق الذي اختطف زوجة القاضي، وفتت حبات البندق بداخل «رعد».

تلك الليلة كانت جسرًا واصلًا بين الأحلام المشرقة والكوابيس المرعبة.

***

أطبق عليهما صمت طويل يتجرعان خلاله مرارة الذكرى البعيدة، البعيدة جدًّا.

- ليت بإمكاني اختيار ما يمكنني نسيانه من ذكريات، وإبقاء ما أحب فحسب.

هذا ما نطق به «رعد» ما إن انتهت من قص ما تعرفه، الذي اختتمه بكلمات مقتضبة تشي بالألم رغم محاولتها لإخفاء ذلك: «أمسك بي «برق» في الغابة، لم أتمكن من الركض أكثر بعدما تعثرتُ وآذيتُ قدمي، أفقدني الوعي بضربة حجر قوية فوق رأسي، وعندما استعدتُ وعيي لم يكن «برق» بجواري، كان الليل قد أوشك على الانتهاء، نهضت متحاملة رغم الألم، ورحت أبحث عن «سراب» في كل مكان، لم أكن وقتئذ أعرف عمن كنتُ أبحث، كانت أفكاري مشوشة. لم أدرِ أنها سقطت في البئر التي لم ترَها في الظلام، توجهت مسرعة إلى الدار، إليكَ، عندئذ كانت الدار تشتعل أمام عيني».

صمتت قليلًا تلتقط أنفاسها، أوقفها بأن مسح فوق وجنتها يقول: «لا ترهقي نفسكِ، يكفي ما حكيتِه يا «مدينة»».

- يجب أن تعرف، عليَّ أن أخبرك.. عندما رأيت النار تشتعل في الدار لا أعرف ما الذي حدث لي وقتها، كنتُ مشوَّشة، ربما من ضربة الحجر، أو السقطة التي صدمت خلالها رأسي وآذيت بها ساقي، لا أعرف، قلتَ إنني كنتَ أنظر إليك عبر النافذة، جامدة لا أحرك ساكنًا، هذا ما كنتُ

أشعر به تمامًا، شعرت أن عقلي تجمد عن التفكير، كنتُ أنظر إليكَ وأحاول تذكر من تكون، وماذا تفعل وسط النيران، وكيف أتيتُ إلى هذا المكان، لم أرَ الدماء التي كانت تتساقط من مؤخرة رأسي، كنتُ أنزف طوال هذا الوقت دون أن أعرف، رغم شعوري بسائل لزج يزحف فوق رقبتي، لم أعرف حتى أنه دماء إلا عندما تحسست رأسي ورأيت أناملي تصطبغ بلون أحمر. عندما رأيتكَ وسط النيران، ورغم أنني لم أستطِع أن أتذكركَ، حاولتُ إنقاذك، لكنني كنت مشوشة بشدة لم أفكر بحكمة، اقتحمتُ النار كأنني محصنة منها، كأنني نسيتُ أن النار تحرق وأن الماء يطفئها، اشتعلت النار في وشاحي وامتدت إلى عنقي ووجهي، كان شعورًا رهيبًا غير محتمَل، ثم شعرتُ بمن يدفع بي صوب الرمال، ويدحرجني فوقها كي تنطفئ النيران، لم أعرف وقتها أنه «برق»، بينما سمعتُ أصوات أهل الواحة قادمين من بعيد، كان يبتعد هو بي عن الأنظار. فقدت الوعي مرة أخرى، وكلما استيقظت شعرتُ كأن النيران تحرق وجهي من جديد، لم تؤذِ وجهي النار وحدها، بل عدم إسعافي في الوقت المناسب، مع حرارة الشمس ولهيب الصحراء كان الوضع غير محتمل، كأنني وسط النار بشكل مستمر، مرت أيام قاسية ونحن نعبر الصحراء، لم أتذكر منها شيئًا إذ كنتُ إما أصرخ ألمًا وإما مغيبة من شدة البكاء.

مست يده وقالت مؤكدة بعينين مترقرقتين دمعًا: «لم أتركَكَ تحترق، لم ترَني وأنا أحاول إنقاذكَ، رغم أنني لم أكن أتذكركَ».

تمسكا ببعضهما بشدة يحاولان تبديد مرارة الذكرى وقسوة الفراق، سألته باهتمام: «الآن دوركَ، كيف حدث الحريق؟».

- دعينا لا نتحدث الآن.

- بل الآن، مرة واحدة، ثم نغلق هذا الدفتر إلى الأبد.

- حسنًا، إليكِ ما حدث!

***

خرج «قوس» مع القاضي من غرفة «رعد» للبحث عن محل السحر المدفون، قررا الافتراق لتغطية مساحة أكبر. توجه القاضي مع نصف

الحراس إلى المقابر، حيث عثروا سابقًا على السحر المدسوس لـ «رماح»، وعزم «قوس» على الاطمئنان أولًا على «طوفان».

وهناك وسط الساحة فوجئ «قوس» باجتماع أهل الواحة، يحشدون ما معهم من سلاح، ويجهزون ما يملكون من خيول عفية. فأدرك من الوهلة الأولى حقيقة نواياهم، وما يتجهزون لأجله.

أشار للحراس كي يتوقفوا على بعد خطوات من أهل الواحة، الذين ما إن رأوهم حتى اتخذوا وضعية الاستعداد لهجوم وشيك. دنا منهم «قوس» يرفع كفيه في الهواء ويقول مطمئنًا قلوبًا وجلة: «لم نأتِ لنؤذيكم، اطمئنوا، نحن أولادكم وإخوانكم وأنتم آباؤنا وأجدادنا».

اقتربت «أم الرمال» تشق الصفوف وتضرب بعصاها الأرض قائلة: «لا شأن لنا معكَ يا «قوس»، لا تقف أمامنا، معركتنا مع الممسوس الذي يسكن الجبل ويُدني منه امرأة متزوجة برجل آخر».

- الحكاية ليست كما تعرفين يا جدة، أتاكِ فاسق يخبرك بالأكاذيب، كيف تصدقينه قبل أن تتبيني؟ انظري إلى أهل الواحة من حولك، إنهم يستعدون للدخول في معركة طاحنة، مع من؟ مع الحراس الذين هم أبناؤهم وأحفادهم، لا تفعلي هذا يا جدة، لا تجعلي أرض الواحة التي ظلت جافة إلى اليوم ترتوي بدماء أبنائها.

توقف ليقص عليها حكاية الرجل الغاصب، والفتاة التي لجأت إلى بيت القاضي ليحميها وينقذها من ظلم وقع بها.

لم يكن هذا وحده مصدر استياء الجدة من الممسوس والفتاة الغريبة. قالت محتدة: «هذه الغريبة أفسدت واحتنا، انظر ماذا فعل «طوفان»، انظر ماذا فعلتَ أنتَ، انظر كيف يفكر شبابنا ويحاولون نبذ ما تربينا عليه وما علمنا إياه الأجداد».

- ليس كل ما فعله الأجداد صالحًا للتوارث يا جدة، نحترم جذورنا، ونقدر أسلافنا، لكن لا يصح إلا الصحيح، إذا حادوا عن جادة الطريق لسنا مضطرين إلى تتبعهم يا جدة، خلق لنا الله عقولًا لتتفكر، وقلوبًا لتشعر، خلق بداخلنا نفوسًا نجاهدها، وشهوات نمنعها، ووساوس ندفعها،

لسنا حجارة كتلك المنتشرة في أرجاء الواحة، ينقلها من شاء إلى حيث شاء، نحن بشر يا جدة، علينا أن نختار طرقنا الخاصة بأنفسنا.

لم يثِر ما قاله شيئًا في قلوب المنصتين، تقدم بعض الكبراء يؤججون النيران ويضيفون لها المزيد من الحطب لتلتهمه وتتأجج وتستعر، يتقدمهم «كسار» والساحرة التي حررها من أسرها، يقذفان بالحماسة في قلوب أهل الواحة لئلا يحيدوا عن الخطة المرسومة. تكرر الساحرة ما قصته للتو على آذانهم بنبرة متخابثة: «كان الممسوس يخدعكم طوال الوقت، يرتدي اللثام كي لا تكتشفوا أنه «مطر»، خدعكم وجعلكم تظنون أن «مطر» لا يزال على قيد الحياة، اندس بينكم ليعرف أخباركم ويكشف خباياكم، هذا الرجل أفاق كذاب كان يتجسس عليكم طوال الوقت وهو السارق الذي سلبكم الذهب من مخزنه».

- اخرسي يا امرأة.

قالها «قوس» بقوة محتدًّا وهو يدحض ادعاءاتها: ««رعد» لم يكذب، «رعد» مريض لم يسرق الذهب بوعيه وإرادته، كان ثمة رجل آخر يعيش في رأسه، لم يكذب «رعد» عليكم طوال حياته».

اندفع «كسار» يؤكد: «بل كذاب لعين، كشفت الساحرة أمره منذ زمن، كانت الوحيدة التي تدخل غرفته لمداواته، وهذا بناء على تعليماته، كشفت اللثام وعرفت أن له الوجه نفسه الذي يحمله «مطر»، الحروق نفسها، والتفاصيل التي لا يمكن أن تتطابق.. خدعنا ممسوس الجبل، خدعنا جميعًا».

اندفع «قوس» يدور بحصانه بين الناس موضحًا: «لم يقل لنا «رعد» قط إن «مطر» على قيد الحياة، لم ينطق بها أمام أي منا، نحن من أسأنا النظر، وأسأنا الفهم، وأسأنا التفكير، صدقنا ادعاءات زوجة القاضي بأنها استطاعت استعادة «مطر» و«برق» من فم الموت، وأنهما يزورانها في الدار في خفية عن الأنظار، عندما وقع الحريق ورأينا «رعد» بظهر محدودب، ورأينا كيف يتكلم مثلما كان يفعل «مطر»، لا ينظر إلى أعيننا، يتحرك مثل نسمة لطيفة عابرة، أشرنا إليه وقلنا هذا «مطر»، من أحسن فينا الظن، قال إنه لم يمت من الأساس، خبأته الساحرة طوال هذا الوقت في دارها، ومن أساء الظن قال إنها

معجزة، لو كنا نعرف الرحمن حق المعرفة، لأدركنا أنه وحده من بيده إحياء الموتى، لا يستطيع هذا لا كاهن ولا ساحر، مهما بلغوا من مساخِر».

ربما تركت كلماته أثرًا خفيفًا في نفوس البعض، لكن القلوب الحاقدة ظلت على اشتعالها. تجهزوا لمهاجمة صفوف الحراس خلف «قوس»، الذين تجهزوا بدورهم لصد العدوان الغاشم، أخرجوا الخناجر والهراوات من طيات أحزمتهم.

صاح أحد الكبراء محذرًا: «ابتعد من أمامنا يا «قوس» لا مشكلة لنا معكَ».

- لكن أنا مشكلتي معكم.

قال ذلك صوت ذكوري يقف خلف الصفوف، فوجئ الجميع باقتحام «أبو الأحناش» للساحة، بسرعة واهتياج، وقف إلى جوار حصان «قوس» بشعر أشعث وملابس غير مهندمة، يصرخ في لوعة: «ألا ترون أن كل ما حدث لنا هو جزاء ما فعلته تلك الأيادي الآثمة؟».

يرفع ذراعيه عاليًا في الهواء ويلوح بكفيه، تطوف نظراته اللائمة فوق وجوههم، يمس كلٌّ منهم يده، يحاول مسحها، أو إخفاءها مثل خطيئة عليه سترها. يردف «أبو الأحناش» بوجه محتقن: «تعرفون جيدًا كيف بدأ الحريق».

تتطأطأ الرؤوس، وتهرب الأعين من بعضها، تتلفت ثلة منهم، في محاولة لإخفاء وجوههم. أشار «أبو الأحناش» إلى قارئة الصخور التي تقف بينهم وقال بانفعال صارخ: «صدقنا ما قالته تلك المرأة الجاهلة.. عندما أخبرنا القاضي برحيل زوجته مع «رعد» والغريبة للعلاج خارج الواحة، قالت لنا تلك المرأة إنها قرأت فوق رمال حجرها أن الواحة ستحترق إن غادرت زوجة القاضي أرضنا، صدقنا جنونها، وأكاذيبها وهذيانها».

طاف بينهم يشير إلى أناس بعينهم: «تركنا العرس القائم في ساحة المرح وتوجهنا إلى دار القاضي في غيبته، أنا، وأنتَ، وأنتِ، وأنتَ..».

ظل يعدد كل شخص كان حاضرًا ليلتها، ثم أردف: «أخذنا ما نستطيع حمله من حجارة وذهبنا إلى الدار لإرهاب المرأة المسكينة، كل منا قذفها بحجر، وحجرين، وثلاثة، وأربعة، لم نتوقف إلا حين أنَّت أذرعنا من الألم، ثم مضينا في سبيلنا دون أن نرى المشعل الذي سقط، والحريق الذي اشتعل من خلفنا، نحن من أحرقنا تلك المرأة حية في دارها».

ثم كرر بأنفاس لاهثة وإعياء شديد ما قالته «سلام»: «لو أحرق «الممسوس» بيوتنا، لاستحققنا ذلك أولنا عن آخرنا، من شارَك، ومن شاهَد، ومن صمت».

ران صمت طويل بعد أن أنهى «أبو الأحناش» مقالته، لم يستطع الوقوف فعاونه «هلال» على الجلوس فوق صخرة، ثم امتطى حصانًا ووقف به إلى جوار «قوس»، في وجهه جروح غائرة إثر حمايته لـ «طوفان» بالأمس.

يقول بنبرة مزلزلة: «كل ما قاله عمي صحيح، نحن من حولنا «رعد» إلى ممسوس الجبل، نحن من فرقنا بيننا وبين إخواننا الذين اختاروا الرحيل معه إلى الجانب الآخر من الهاوية، اختاروا مفارقتنا بعدما رأوا أنهم لن يستطيعوا تحمل العيش مع أناس أحرقوا امرأة حية في دارها.. كرهوا صنيعنا، من قذف الحجر ومن صمت بعدها.. إن استمررنا في تجاهل ما حدث، ودفنه أسفل جبل من الرمال والحجر، لن نجني من ذلك سوى مزيد من الألم، علينا مواجهة أخطائنا والاعتذار عما حدث، من شارَك، ومن شاهَد، ومن صمت».

تبادل «كسار» والساحرة نظرات ساخطة، ثم طفقا يحاولان إقناع أهل الواحة بعكس ما سُمِع، بأكاذيب مختلقة، وأحداث ملفقة. لم يدع لهما «قوس» فرصة لبث السموم المفسدة في آذان الخلق، وطمس قلوبهم عن الحق، لأهداف خبيثة يضمرها كل منهما.

بإشارة من رأسه، قيدهما الحراس بالحبال، واستُبعدا عن الساحة، وسيقا مباشرة إلى زنازين الجبل.

- كان الشر الذي علينا محاربته منذ البداية يسكن هنا.

قالها «قوس» وهو يشير إلى قلبه، ثم يردف: «خاصمتُ «رعد» لأنه كان يروعكم، يجمع في ذلك بين المصيب والمخطئ، كان يعاقبكم على طريقته، وهذه الطريقة كانت منبع خلافي معه».

أضاف «هلال» وهو يلقي سهمًا ناجعًا: «مشكلتنا مع الممسوس بإمكاننا حلها، فقط إن اجتمعنا على قلب رجل واحد، وألا نسمح لقول عرافة، أو خبث ساحرة أن يفرق بيننا».

منح عمه نظرة تستأذنه، فأومأ «أبو الأحناش» يدعمه، أخذ «هلال» نفسًا عميقًا ثم أعلن: «تزوج «طوفان» بـ «سلام» ليلة أمس، وكنتُ شاهدًا على العقد».

اندفعت الدماء مرة أخرى تثور في عروق الخلق، فأوقف مجراها قائلًا: «لا تقلقوا، لن يعيشا بينكم، إنهما الآن في طريقهما للبوابة الحجرية، سيغادران الواحة لأجل إيجاد علاج لمرض «سلام»».

انتفض «قوس» فزعًا، يلتفت إلى «هلال» يسأله: «تقول إنهما توجها صوب البوابة الحجرية؟ يجب ألا يحدث ذلك، يجب أن نمنعهما من الخروج».

أخبرهم عن الحارس الذي مات، والسحر المدسوس باسم كل منهم.

أدركوا أن خطرًا رهيبًا يحيق بـ «سلام» و«طوفان»، فتوجهت أنظار الهلع صوب البوابة الحجرية.

دُنيازاد

وفي الختام نلقي السلام
على كل من سمع الحكاية
وشاركنا الرحلة إلى النهاية
نقول وبإذن الحليم نستعين
الثالثة ستتبعها في يومٍ رصين
تكون فيه النجمات سابحات
في بحر السماء ومثيرات
لشهية الحكي عند إحداهن
فتحل محلي في قلب هُن
وتتبع السلسلة بحكاية ثالثة
قوية مثيرة بأحداث لاهثة
فأستودعكم القدير إلى حين
ولتنعم بالنوم كل عين!

الليلة الرابعة والأربعون والأخيرة

لماذا على الحكايات أن تنتهي؟

(1)

أضحت عين «مدينة» سماء يتساقط من خلالها المطر، عبرات حارقة تحفر أخدودًا فوق وجنتيها، تمسح بأناملها ألم ثلاث سنوات عن جبين «رعد» مفصحة: «كيف طاوعتهم قلوبهم على أذية تلك المرأة المسكينة؟».

- قلتِ من قبل، الجهل يقتل أكثر مما تقتله الشجاعة.
- صرتَ أحسن؟
- أنتِ هنا، بالطبع أحسن.

فجأة تغيرت نظرته، انحنى ظهره، وتبدلت نبرته، نظر خلفه فوجد ظهره من غير اعوجاج فانزعج!

أمسك بوسادة صغيرة يدسها بين ملابسه، تتكسر نظرته، وتتهادى بنعومة فوق وجهها، تجمدت «مدينة» في مكانها، تتطلع إليه بعين ذاهلة، متفهمة، ومشفقة.

همست بنبرة راجفة: «مطر؟».

تلفت حوله بخوف طفل وجد نفسه في دار غريبة، يقول باضطراب وجزع: «أين أنا؟ هل أنا داخل الجبل، إن عرف «رعد» أنني جئتُ إلى غرفته سيغضب كثيرًا، يجب أن أرحل عن طريق النفق السري، إنه هنا، خلف الجدار الذي يعلق فيه رمحه، يجب أن أرحل سريعًا».

- لماذا لم تستخدم هذا النفق لإنقاذي، بدلًا من إزاحة الحجارة من النفق الآخر؟
- لأن «رعد» كان سيغضب، أستخدمه فقط للخروج من غرفته كلما وجدت نفسي هنا داخل الجبل لئلا يكتشف الحراس أمري، ويعرفون أنني أسرق أحيانًا جسد أخي، فتسقط هيبته في نفوسهم، ويكرهني أكثر مما يفعل، كان عليَّ حفظ سره، ثم أنني كنتُ بحاجة إلى الوجود في الغابة، ما كان بإمكاني البقاء في الجبل، كان «رعد» يترك بعض ملابسه في كوخي وفي الغابة، كي يرتديها ما إن يستعيد سيطرته على

جسده، ذات مرة استعاده وسط السوق حين كنتُ أوزع البلح على المارة، لا أتذكر ما حدث وقتها لكن عندما استعدتُ السيطرة عرفتُ أنه تصرف كما كنتُ أفعل، بظهر منحنٍ، وعرجة خفيفة لساق أطول من أختها، عرفت أنه نجح في ذلك إذ لمٍ يشك أحد في أمره.. هل تذكرين عندما كنا عند الهضبة الملونة؟ كدتِ تكشفينني تلك الليلة.

تذكرت «مدينة» ذاهلة، كيف أن «رعد» استفاق فجأة من نومته، يمسك بطنه بيده، وبظهره إلى الأمام ينحني! وما إن رآها حتى أشاح عنها وجهه، وأبعد عينيه متعمدًا، عرفت الآن أنها في تلك اللحظة كانت تتطلع إلى «مطر».

- يجب أن أرحل.

أوقفته بإشارة من كفها، وقالت بخفوت وكلمات بطيئة متوازنة: ««رعد» يعرف بوجودك في غرفته، ولا يمانع يا «مطر»».

تطلع إليها بدهشة بالغة، ولسانه يتمتم متلهفًا: «يعرف؟.. هل سامحني «رعد»؟ هل عفا عني؟».

لم يمهلها فرصة إجابته، ضرب جانب رأسه بقبضته ثم قال: «غبي «مطر»، كنت مع أمنا بعد أن رشقوا الدار بالحجارة، وبعدما التهمت النار القش حولها، ثم استطالت ألسنتها، عانقتها بقوة شديدة، أخفيتها بين ذراعي، وحميتها بجسدي، لكنني لم أستطع إنقاذها، أفلتت نفسها بغتة ثم جرت في اتجاه آخر، سقط السقف فوق رأسها، وزحفت النيران من حولها، لم أستطع إنقاذها، لم أستطع، غبي «مطر»».

تلك هي اللحظة التي تفتتت عندها حبات البندق، فقدان داخل الدار وخذلان خارجها، وألم كالنار يحرق الأفئدة.

- لم يكن خطأك يا «مطر»، ارفع رأسك وانظر إليَّ، فعلتَ ما بوسعكَ، إياكَ أن تلوم نفسكَ.

- «رعد» يلومني.

- «رعد» لا يلومكَ.

- يكرهني لأنني سرقتُ جسده، أنا لم أسرقه، صدقيني، بعد الحريق وجدتُ نفسي بداخله، حاولتُ الخروج لكن.. غبي «مطر».

تمسك بقبضتيه وتبعدهما عن رأسه، تتحدث إليه عن المرض الذي يعانيه «رعد»، تخبره أن ثمة أطباء خارج الواحة بإمكانهم المساعدة. تحاول تبسيط

كلماتها، وتحديد معانيها. يستحسن ملمس يديها حول كفيه، إلا أنه يسحب يده باضطراب، يردد باقتضاب: «سيغضب «رعد» لو رآني بقربكِ، هل تعرفين أنه دق المسمار في كوخي فقط كي يحضر أمامك بهيئته ويكتشف من تلك الغريبة التي تزورني؟ ساوره الشك أنها أنتِ، لا يطيق أن تكوني بقربي، سيغضب «رعد» كثيرًا».

- لن يغضب «رعد».

تعود لتشبك أناملها بأنامله، تخبره أنها زوجته، لأنه و«رعد» رجل واحد، وإن تعددت الهويات بداخله. ينظر إليها «مطر» ذاهلًا، ثم مبتهجًا بما يسمعه، ويخرج من صندوق الأسرار ما كان يخبئه من شوق ولهفة.

- هل تعرف بمَ تُذكِّرني يا «مطر»؟

رنا إليها بلهفة، فأردفت: «ثلاثتكم كالنفس التي تنقسم إلى ثلاثٍ، وما من إنسان إلا ويعيش بداخله هؤلاء الثلاث، أنتَ يا «مطر» تذكرني بالنفس اللوامة.. التي تتوقف عند كل كلمة وكل فعل، تستحضر الحسرة، والتردد، والتوجس، والخشية، والندم.. مرهفة الشعور، حريصة التفكير، دقيقة البيان، تحاور الإنسان بحديث نفس طويل، كناصح أمين وصديق لا يخون، لكنها ككل شيء إذا زاد عند الحد المسموح أفسد من حيث أراد الإصلاح».

- وبماذا يذكركِ «رعد»؟

- بالنفس المطمئنة، كنتُ أرى النور يشع من قلبه، ومن عينيه، وفوق ثغره، بسيطًا، حليمًا، شفيقًا، لديه قوة ظاهرة وأخرى باطنة، يرغب فيما عند الله دون سواه، هكذا صار.. هكذا تركته.. قبل أن يتزلزل وجدانه، وتنقسم هويته.

يسأل بخجل ونبرة مرهفة: «هل يحق لي أن أخبرك عما أشعر به؟».

تهز رأسها مطمئنة، فيردف بحماس بينما يمسح وجهها بنظرات شغوفة متألقة: «لا أعرف إن كنتُ أحببتك قبل «رعد» أم بعده، لكنني أحبك حبًّا يكفي لإحداث طوفان في قلبي الكبير».

يدق قلبها كما لو كانت تسمعها للمرة الأولى، ربما بالفعل لأنها تسمعها للمرة الأولى، فـ «مطر» الذي تراه أمامها الآن هو جزء من نفس «رعد» كان متواريًا عن الأنظار، تشعر كما لو أن للكون مشرطًا كبيرًا، أخذ به يشق الرجل الذي أحبته، ويريها ما يخفيه بداخله.

- وأنا أحب كليهما.

تتغير نظرة «مطر»، ترتفع هامته، وتتبدل هيئته، تحسب أن «رعد» قد عاد، إلى أن قرأت في قسماته الخبث والمكر، الغرور والكِبر، وشعرت بلهيب الحقد المشتعل. فأدركت أنها الآن وجهًا لوجه مع النفس الأمارة بالسوء!

***

كانت «سلام» قد استعادت بعض قوتها، منذ أن دخل أبوها غرفتها وأخبرها باتفاقه مع «طوفان». عاد قلبها الراكد يدق بسرعة مستنفرًا أعصابها، تتضارب مشاعرها بين رهبة الرحيل ورغبة الشفاء، بين فراق الأب واجتماع الحبيب، بين توجس من القادم وتلهف عليه.

شعرت أنها مسيَّرة غير مخيَّرة، وكان هذا الشعور مصدر راحة كبيرة، أنهى جدالها مع نفسها، وأحجم مخاوف القلب وهواجس التفكير.

عندما حمل «طوفان» القليل من أغراضهما فوق حصانه وساعدها على الركوب أمامه، شعرت أنها تعيش داخل حلم مستحيل. السماء من فوقها تتزين بعشرات النجمات، أدركت وقتها أنها اشتاقت كثيرًا إلى التجول في المساء.

لم يرحل «طوفان» عن الواحة في الحال، توجه بها صوب حديقة «أبو الأحناش» التي لطالما أحبتها، واعتنت بنباتاتها، مر بها أمام كل ما يعرف أنها تحبه، لمنحها نظرة وداع أخيرة قبل الرحيل.

- سأشتاق إلى الواحة كثيرًا.

يلمس حشرجة البكاء المختنق في حلقها، يقول مخففًا ومتلطفًا: «قد نعود بعد حين، لا أحد يعلم الغيب».

- هل تثق حقًّا أن ثمة علاجًا لقلبي؟

يترك اللجام ويتمسك بها، يؤكد بقوة من يحسن الظنون: «أثق أن علينا أن نحاول، من يعرف؟ قد تكون ثمة معجزة مخبأة في السماء لأجل «سلام»».

تنظر إليه كمعجزة تحققت، وقد كانت قبل ذلك ضربًا من المستحيل. تتشبث بتلك الذراع التي تطوقها، وتستطيع أخيرًا منح المشاعر التي خنقتها لسنوات طويلة اسمًا معروفًا وهوية محددة.

- ستكونين بخير، سأبذل جهدي لأجل ذلك يا «سلام».

تدرك تضحيته الكبيرة لأجلها، يترك من خلفه كل شيء يملكه في الحياة، كل ما حققه، وكل ما أحبه، لأجل حياتها وسعيًا لإنقاذها. تتأمل الجروح التي أحدثتها الحجارة التي رشقوه بها وسط الساحة، تود لو تمرر أيادي الشفاء فوق كل منها وتنسيه تلك الذكرى القاسية.

تتساءل في نفسها مرة أخرى، ماذا فعلَت لتستحق قلبًا كقلب «طوفان»؟

- «سلام» محظوظة بكَ.

تقولها مبتسمة، وعيناها تترقرقان بعبرات التأثر، يضغط جبينها بقبلة طويلة ظنت أنها لن تنتهي، ثم يتمتم: «بل «طوفان» هو المحظوظ بكِ».

تطمئن به ويسكن قلبها، تشرق الشمس وتمزق رداء المساء، فيتوجه بها صوب البوابة الحجرية، استعدادًا للرحيل. يتهادى الحصان في طريقه، بتعمد من فارسه الذي أرادها أن تملي عينيها بكل ركن من الواحة قبل أن تغرب عنها شمسها.

وما إن اقتربا من البوابة حتى سمعا عويلًا طويلًا، التفتا صوب الجمع القادم تجاههما فوق صهوة الأحصنة، وبعضهم يركض من بين السيقان المتسارعة. يرتعد قلب «سلام» وتتمسك بذراع «طوفان» بقوة، تخشى أن يؤذوها فيه مرة أخرى.

يستل «طوفان» خنجره ويستعد لمواجهة كل معتدٍ أثيم.

يرى «قوس» و«هلال» بينهم، فتهدأ ثائرته، يسمعهم يهتفون به أن يبتعد عن البوابة وألا يقرب حدودها.

وعندما تتوقف السيقان عن الركض، والرمال عن القفز، والحناجر عن العويل، يتمكن من فهم الخطر المحدق بالجميع. يقول «قوس» محذرًا وجامعًا: «علينا أن نتعاون لإيجاد السحر المدفون، ونتخلص جميعنا من السلاسل التي تقيد أقدامنا، يد واحدة لا تصنع شيئًا، أيادٍ كثيرة تصنع المستحيل».

فتلاقت رغبات الجميع في نقطة مشتركة، وحقيقة مؤكدة.

***

- لماذا قلتِ إنكِ تحبين كلينا؟ كان عليكِ أن تقولي إنكِ تحبين ثلاثتنا، أليس كذلك يا زوجتنا العزيزة؟

لم تشعر بالراحة التي شعرت بها مع «مطر»، رغم أن ثلاثتهم يعيشون داخل الرجل الذي أحبته. كان شعورها تجاه «برق» مضطربًا، ممزوجًا بشيء من النفور، والصد، والتوجس.

النظرة التي يرمقها بها ذكرتها بأنها رأته سابقًا، أجهدت خلايا عقلها للتذكر، إلى أن تمثل المشهد أمام عينها، عندما كانت تتحدث معه عند شجر «السنديان الأسود»، وقد تناثرت شظايا مجسمات الفخار إثر ضربات نبلته، وقتها تبدلت نظرة «رعد» إلى تلك النظرة التي تراها في عينَي «برق»، اختلفت نبرته، وتجمدت قسماته، وشعرت وقتها كأنها برفقة رجل مختلف!

أدركت أنها كانت بالفعل تقف أمام رجل مختلف، لم يكن تعبيرًا مجازيًّا أو شعورًا مراوغًا.

استعاذت من شر الخناس، وكبَّرت مراتٍ ثلاث، ثم رددت ما تحصن به نفسها. وأخيرًا سألته: «لماذا سحرته؟ بماذا سيفيدك فقدانه لقوته، وتغييب وعيه؟».

أزعجها أن تعترف لنفسها أنها كرهت نظرته الفجة، وملمس يده لبشرتها، شعرت أنها أمام رجل مختلف، لن يتورع عن إلحاق الأذى بها. لا ترى فيه شيئًا من عقل «رعد»، ولا ملمحًا من قلب «مطر»، كأنه مخلوق من أهواء وشهوات تُركت على سجيتها، بلا رادع يحجمها، ويقيد حركتها.

- لأعاقبه، أليس هذا واضحًا؟.. اختار «رعد» معاقبة أهل الواحة بترويعهم وحرمانهم من الليل الذي أحرقوا فيه أمنا، لكنني لم أرَ هذا عقابًا كافيًا، لا شيء أقوى من السحر على أرضنا، أردتهم أن يشربوا من الكأس التي يتباهون بصناعتها.

حتى نبرته بدت مختلفة على أذنيها، لها وقع أفعى تزحف على ربلة ساقها، انتبه لهذا أم لم ينتبه، ظل يستطرد: «رفض «رعد» ممارسة السحر، رغم أنه كان مهتمًّا به منذ صغره، يعرفه، ويجيده، فضول لا يعيبه، مثلما كان يصرف فضوله تجاه كل مخلوق حوله، الشجر والحجر، الحيوان والبشر.. وعندما جئتِ إلى الواحة أصبح يتأثر بحديثك عن السحرة، ويرتعد كلما ذكَّرتِه بما أعده الجبار من عذاب لأجلهم، أما أنا فلستُ جبانًا مثله».

تنظر إليه بحذر وحيطة، مخافة أن يأتي بحركة مفاجئة، كانت قسماته جامدة إذ أردف بشراسة: «تركتِ أثركِ بداخله حتى بعد رحيلكِ، أثر قوي لا يزول، لذا كان عليَّ التدخل، ليلة الحريق وجدتُ داخل عقله فسحة للعبور،

وقدرة على الانفصال، وأخيرًا أصبحت لي رغبة مستقلة، وقدرة على إدارة الجسد الذي أستحقه».

لم تأتِ بفعل يُسكته، كانت ترغب في تحصيل كل ما تطوله من معرفة، تدرس جيدًا العدو الذي عليها مواجهته. تركته يستطرد: «حاولتُ إضعافه بالسحر والتخلص منه إلى الأبد، لكنه ظل يردد ما حفَّظتِه إياه رغم استعانته بساحرة الجبل، وعندما عدتِ تركتكِ جاهلة بكل ما يدور حولكِ، رغم قدرتي على مباغتتكِ، تركتكِ حوله لأنكِ كنتِ خنجرًا مسمومًا مدسوسًا في ظهره، قادرًا على تعذيبه وإنهاكه».

يا لكَ من غبي، ودت لو تهتف بها في وجهه، يجهل بالمرض وعوارضه، ولا يدرك أن الدواء وحده هو القادر على إضعاف الهوية المتطفلة، وبالطبع لم يكن «رعد» متطفلًا.

- ولن تنجح في مسعاكَ أبدًا، لأنني صرتُ خنجرًا في يده.

تخلل قسماته ألم حقيقي يزعزع ثباته، منبعه هو السحر الذي أطعمه لنفسه بنفسه، واراه سريعًا وقال بقساوة لم تعتدها من صاحب الجسد: «قوتكِ لا تكفي، ألا تعرفين بأي مَرَدة أستعين؟».

- قوتي لا تكفي، ألا تعرف بأي جبار أستعين؟
- لن تستطيعي أبدًا شفاءه، لا من السحر ولا من المرض.
- أنا لا أشفي، لذلك ألجأ إلى من يُشفِي.
- أنا الشر الذي لا تستقيم الحياة دونه، كيف يمكن القبض على الشر الذي يبيت كل ليلة فوق جفون العالم، يقتل ويسرق ويدمر؟
- لستُ مطالَبة بالتخلص منه، ما أستطيعه هو دفع بعضه، وأعظم الشرور التي على الإنسان دفعها هو شر النفس الأمارة التي تبعده عن الطيبات وتقربه من المهلكات.. لستَ قويًّا كما تحسب، يزاحمكَ في هذا الجسد «رعد» و«مطر»، لذلك لا يثبت هذا الجسد على حال واحد، لو كنتَ تستطيع إدامة وجودك لفعلتَ، هذا الجسد يتقلب بين الأنفس الثلاث كما يفعل كل منا كل يوم، بل كل ساعة ودقيقة، وستكون الغلبة لـ «رعد» لأنني إلى جواره، لن أسمح لكَ بهزيمته.

تقابلت النظرات الملتهبة في أعين تملؤها القوى المتناحرة، نار بنار، ونفَس بنفس. ألقت فوقه بحركة مباغتة الماء المقروء عليه، تسمِعه من آيات

الله ما يزعجه. لو كان بإمكانها أن ترى من وراء الحجب، لرأت الشر يتقهقر وينحسر، إذ شعر الساحر بهشاشة في نفسه، وأعوانه يبتعدون عنه مخافة الاحتراق.

وفي لحظة ضعف انطفأت شعلته، وابتعد عن مقعده، يفسح المجال للرجل الذي تحب، كي يتسلم دفة الجسد، ولو مؤقتًا.

- ماذا حدث؟

يستفيق «رعد» من غفوته، يتفاجأ بالماء يغرِقه، يقلقه ما وقع في غياب وعيه.

تنتفض «مدينة» ومنه تقترب، تضمه بقوة وتخبره: «مهما حدث، سأبقى معكَ».



رسومات زينب الصيري

***

كانت ساحرة الجبل تدور في زنزانتها مثل طير نُزع عنه جناحاه، لم يعد يقوى على الطيران، وإسقاط حجارة من سجيل فوق رؤوس الخلق.

كانت في أسوأ حالاتها عندما رأت «صدف» أمامها، يفصل بينهما حاجز من قضبان حديدية.

- أتيتِ لتساعديني على الخروج؟ أليس كذلك يا «صدف»، يا بنيتي الحبيبة الرقيقة؟

تقترب «صدف» من القضبان، تمد يدها وتمسح بها فوق وجه أمها وتقول بإشفاق: «جئتُ لأخلصكِ يا أمي».

تبتسم الساحرة، وتمسح فوق وجنتها بدورها، تقول بحماس مفرط: «كنتُ أعرف أنكِ ستنقذين أمكِ، هيا يا «صدف»، هيا افتحي الزنزانة لأمكِ».

تبتسم «صدف» بوهن ثم تقول بالنبرة المشفقة نفسها: «جئتُ أمنحكِ الفرصة لتتخلصي من الشر الذي بداخلكِ، إنه يأكل قلبكِ يا أمي، ألا ترين؟».

- بماذا تهذين؟ هيا افتحي الزنزانة، هيا قبل أن يرانا أحد.

- الله يرانا يا أمي وإن لم يرَنا أحد، أذى السحر طال جميع من بالواحة، لم يسلم منه أحد، والآن أهل الواحة يقفون يدًا بيد يبحثون عن محل السحر المدفون، وجئتُ لأمنحكِ فرصة مساعدتهم، تلك هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع تخليصك بها.

- لا بُد أنكِ جننتِ، لماذا أساعدهم؟

- لأنني قد أكون من بين من تعرضوا للأذى، أليس هذا كافيًا لتمدي لنا يد المساعدة؟

- غبية.

ابتسمت «صدف» بوهن ثم قالت: «تستخفين بي دائمًا، أعرف، لكنني لستُ غبية كما تدعين، لو كنتُ كذلك لما فكرت في طريقة لمساعدتكِ».

- مساعدتي تكون بإخراجي من هنا قبل أن يجز الممسوس عنقي.

- أضمن لكِ ألا يتعرض أحد لكِ إن أخبرتِنا بما نريد أن نعرفه.

تطلعت إليها الساحرة هازئة تقول: «من أنتِ لتضمني سلامتي؟».

- أنا زوجة «قوس» الأمين الذي لا يقول إلا صدقًا.

استوقفها ذلك، فأبعدت رأسها قليلًا تتطلع إليها بترقب متسائلة: «هل أخبركِ زوجكِ أنه سيضمن لي سلامتي؟».

- تحدثتُ إليه واتفقنا على هذه المحاولة.

- و«كسار»؟

- لن يرى النهار أبدًا.

كان الوقت ينفد أمامهم، «طوفان» بحاجة ماسة إلى إخراج «سلام» من الواحة قبل أن تسوء حالتها، وكذلك تحتاج «مدينة» إلى إنقاذ «رعد» قبل أن يتفاقم وضعه.

لم يستطع «قوس» استنطاق «عبد البر»، ليس لأن الرجل لا يرغب في البوح، بل لأن فمه المربوط عن الحكي ظل يلتصق ببعضه كلما حاول إخبارهم عن محل السحر.

وكانت «صدف» تشعر أنها مدينة لـ «رعد»، فقررت أن تقوم بهذه المحاولة لمساعدة أمها، والتكفير عن ذنبها.

أخذت الساحرة تطوف بالمكان، تفكر فيما يجب أن تصنع، تعرف محل السحر المدفون، إذ إن لكل ساحر شيطانًا يتقرب إليه، ولكل شيطان معاونون صغار، عن طريقهم عرفت الموضع الذي تدفن فيه ساحرة الغابة السحر، وكانت لم تعرف بعدُ هوية هذا الساحر.

- حسنًا، إن ضمنتِ سلامتي، سأخبركم.

- أضمنها لكِ بحياتي يا أمي.

- اجعليهم يحفرون أسفل البوابة الحجرية، هناك ستعثرون على ما تبحثون!

***

عندما دخل القاضي الزنزانة توقع كل شيء إلا ما حدث للتو. رأى أمامه شابًّا به الكثير منه عندما كان في مثل عمره، إلا أنه ضائع في الملكوت، كأنه بلا هوية، بلا ملامح، بلا وجود.

أخَّر القاضي هذا اللقاء إلى أن تجهز له، تعتمل بداخله مشاعر متضاربة تجاه الحفيد الذي يلتقيه لأول مرة.

ظن أن الغضب سيتسوَّد ما تبقى من مشاعره، لكن ما إن وقعت عليه عيناه حتى شعر بالانكسار يزاحم كل ما سواه، ويتربع فوق عرش أحاسيسه.

عرفه «مشتاق» ما إن دقق النظر، كان يشبه كثيرًا صورته في شبابه، انتفض واقفًا، يلصق ظهره بجدار الزنزانة، ينتظر ضربة موجعة أو صفعة مباغتة. توقع قائمة من الاتهامات الطويلة المجهزة، ووعيدًا بمصير حالك.

أقبل عليه القاضي مسرعًا، فرفع ذراعيه يحمي وجهه مما يتوقعه، بوغت «مشتاق» بعناق حميمي، تشتد حوله ذراعا الجد بقوة وإصرار، تجمد لوهلة، ثم وجد شلالًا من المشاعر الدافئة يتفجر بداخله.

لا يتذكر «مشتاق» في حياته كلها أنه بكى بالقدر الذي يحدث الآن وهو بين ذراعَي «أبو العيون».

أمسك الجد بوجهه بين كفيه يطالعه بلهفة قائلًا: ««مشتاق»، حفيدي الوحيد».

يهمس «مشتاق» بصوت متحشرج مرتجف: «جدي، لا أصدق أنني قابلتكَ أخيرًا».

- لماذا لم تأتِ مباشرة إلى الجبل، لماذا لم تخبرني بوجودك بالواحة؟

أطرق «مشتاق» ندمًا وخجلًا، أجهش في البكاء مرة أخرى وهو يقول: «لم أظن أنكَ ستقبل بي، حسبتكَ تكرهني لما فعلته بك جدتي، فأنا في النهاية حفيدها».

رفع «أبو العيون» رأس حفيده وقال ناهرًا: «لستَ حفيد تلك المرأة وحدها، أنتَ حفيدي أيضًا».

- أخطأتُ في حقكَ يا جدي، وفي حق عمي «رعد»، أخطأنا جميعنا، أنا وجدتي وعمي «برق».

رجف قلب الجد الذي أخبرته «مدينة» بالحقيقة كاملة، وما خفي عن علمه طوال السنوات الماضية. سأل باهتمام بالغ: «أين «برق» الآن؟»

- في السجن، يقضي عقوبته في قضية اختلاس.

- أخبرتني «مدينة» بكل شيء، أجبرها على أن تبوح له بمكان الذهب لما لم تأتِ الرسالة بثمرها، وذلك قبل هروبها من بيت البامبو، المسكينة اضطرت إلى إخباره لأنه هددها بقتل زوجها، لكن ما لا يعرفه أننا اعتدنا

تغيير مكان المخزن كل فترة، فلم يجد في المكان المعلوم سوى قدر يسير من الذهب، ولم يكتفِ بالسطو عليه، سرق «مدينة» من بيننا.. والآن تقول لي إنه يقضي عقوبة في قضية اختلاس؟ أين الذهب؟

- ضاع الذهب.

- ضاع!

- عمي «برق» مدمن قمار، خسر كل شيء كان يملكه.

أطرق «مشتاق» برأسه خجلًا مرة أخرى، يقول كمن يتخلص من حمل ضاق به ذرعًا: «لم يستطع الانتظار إلى أن تتم «سراب» الواحد والعشرين في الأوراق الرسمية، فتورط في قضية اختلاس، عندما اختطف «مدينة» وأتى بها إلى بيتنا، قال إنه الحل الوحيد للحصول على الوديعة التي كتبتها أخته باسم ابنتها، لم يكتفِ بالذهب الذي سرقه، أراد المزيد.. لم تكن لدينا جثة «سراب» لنثبت أنها ميتة وأننا ورثتها والأحق بأموالها، لذا عندما رأى «مدينة» وقد فقدت ذاكرتها، أخذها لتكون بديلًا عن «سراب»، لم يكن صعبًا عليه تزوير بطاقة شخصية لها، إذ لم نكن بعد قد استخرجنا هوية شخصية لـ «سراب» قبل موتها، ثم أخبرنا «مدينة» أنها خضعت لعملية تجميلية غيرت من وجهها بعد الحريق».

أخبرت «مدينة» عمه باسمها قبل أن تهرب من بيت البامبو وتفقد ذاكرتها، وهذا كل ما يعرفه «مشتاق» عنها، بالإضافة إلى كونها زوجة لعمه. احتقن وجهه وهو يردف في ندم: «كان يطلب من الممرضة وضع محلول حارق على وجهها، كي تظن طوال الوقت أن آثار الحريق أقوى مما هي على حقيقتها، وتوقفت عن وضعه بأمر منه عندما قررنا نزع الشاش، لهذا كانت تصدق أن وجهها تغير حقًّا، وأن آثار النيران كانت جسيمة».

مسح عبراته الغزيرة بأكمامه المتسخة ثم أردف: «قبل خروج «مدينة» من المستشفى كانت جدتي قد قررت أنها لن تشارك في تلك الخدعة، وبخاصة عندما عرفت أن «مدينة» هي زوجة لابنكَ الأحدب، كنا نظن وقتها أنها زوجة «مطر» لأن عمي «برق» رآه من شرفة دارك في الليلة التي أتى فيها للواحة، وقبل قليل تبادل معي أحد الحراس حوارًا قصيرًا طالبته فيه بالتحدث إلى عمي «مطر»، أخبرني أنه لم يكن هناك «مطر» من الأساس، وأنه مات صغيرًا جدًّا».

تطلع «مشتاق» إلى جده الذي يستمع إلى كل هذا في صمت، بكتفين متهدلتين كأن سنوات أضيفت إلى عمره خلال تلك الدقائق القليلة.

- عندما أصرت جدتي على إفشال الخطة، أمسك عمي بسكين وقطع لسانها.

في داخله شعر القاضي بشيء من الرضا، لم يشفق على المرأة التي اختطفت فلذة كبده، وأحرقت بنيران الحقد عائلة كاملة.

وفي أعمق نقطة من نفسه، أدرك أنه بأحداث كثيرة متلاحقة تسبب دون وعي في إثارة أسوأ ما بداخل زوجته، وذلك عندما اقتلعها من جذورها وأتى بها إلى الواحة غير راغبة، وعندما أصر على البقاء فيها وتجاهل رغباتها، وعندما لم يقدِّر بشكل كافٍ ما تمر به بعد استئصال رحمها، وعندما تزوج أخرى قبل التمهيد لها.

أدرك أن أخطاء صغيرة كثيرة كانت تعمل في غفلة منه ككرة ثلج سحقت حياته تحتها.

ولهذا السبب بالتحديد، لم يستطع إلقاء الملامة كاملة على كاهلَي «برق» وحده؛ لكلٍّ منهم حصة في الحال الذي وصلت إليه عائلته، وستقع على كل منهم حصة إصلاح ما فسد.

- لذلك كنتُ أظنكَ لن تقبل بي أبدًا، رغم ذلك اصطحبتُ «مدينة» إلى الواحة عندما اقترحَت عليَّ ذلك، لم يكن المال وحده هو ما أثار اهتمامي، المال الذي استطاع المحامي أن يخفي عنها كونه وديعة من عمتي لا من زوجها، السبب الأكبر الذي دفعني لمصاحبتها في تلك الرحلة هو الذنب الذي يوخز روحي لما فعلناه بها، وما سرقناه منها، وما حولناها إليه، لهذا قررت أن أخوض معها تلك الرحلة المستحيلة، كنتُ أجبَن من إخبارها بنفسي، تركتها لـ «مطر» يخبرها بالحقيقة، عرفته من الحدبة منذ رأيته أول مرة، ظننت أن بإمكان كل شيء أن يعود إلى سابق عهده.

هز رأسه بقوة يقول بأسى: «لكن فات الأوان كثيرًا».

أدرك الجد أن البذرة الطيبة بداخل «مشتاق» لم تجد بعدُ من يرويها، لم يكن في حياته مثال حقيقي وقدوة يُحتذى بها. رأى بعين الخيال «مشتاق» وهو يمد يدًا متخيَّلة نحو الآخرين، يصرخ فيهم من غير صوت أملًا في منقذ

ينتشله مما هو فيه من انفلات وضياع، لم يسمعه أحد إلا جده الواقف أمامه على مقربة.

أمسك الجد بكتفَي «مشتاق» وصدح بقوة: «لم يفُت أوان إصلاح ما فسد».

***

عندما أذن «رعد» و«مدينة» للطارق بالدخول علت وجهيهما الصدمة لرؤية «مشتاق» وقد أصبح نظيفًا مرتب الشعر يرتدي ملابس جديدة.

يقف كتفًا بكتف إلى جوار القاضي الذي رفع كفه يمنع كلمات الممانعة التي أوشك «رعد» على النطق بها، يقول بحزم وهو يدير عينيه في ثلاثتهم: «لن أسمح لأحقاد الماضي أن تسلبني فردًا آخر من عائلتي، سينتهي النزاع الذي بينكم، وسنبدأ معًا صفحة جديدة».

توجه صوب «مشتاق» بالحديث يعلِمه: ««رعد» و«مدينة» سيغادران الواحة لوقت قد يطول، ستبقى أنتَ معي هنا في الجبل، ونعوض تلك السنوات التي انفلتت من بين أيدينا كالرمال، وإذا فكر «برق» في العودة إلى موطنه الذي انتُزِع منه من غير رغبة، سيجد أبواب الواحة وأبواب قلبي مفتوحة له».

نظرت «مدينة» إلى «رعد» تشجعه على اتخاذ الخطوة التي تقع على عاتقه كعم له. تقدم «رعد» من «مشتاق» الذي أشاح عينيه في خجل، مستشعرًا ندمًا كبيرًا يسحق وجدانه.

يتوقف «رعد» أمامه دون أن يقدم على شيء، استغرق وقتًا كافيًا ليطفئ النار التي تلتهمه من الداخل، كلما تذكر ما اضطر إلى معايشته، والمر الذي تجرعه. وأخيرًا تقدم من «مشتاق» يعانقه، تلتحم نظراته بنظرات والده المؤيدة، يقول «رعد» بصوت أجش: «مهما كانت أخطاؤك سأظل عمًّا لكَ، تحتاج إلى إعادة تأهيل لتصير رجلًا حقيقيًّا وأظن أن أبي قادر على التكفل بذلك».

سأله «مشتاق» بنبرة مترددة: «هل.. هل تسامحني؟».

يرمي بنظراته صوب «مدينة»، ويكرر السؤال الذي ما فتئ يتردد داخل عقله بأصداء لا تنتهي. وضع «رعد» كفه على كتفه دون أن يصرح بشيء. قالت «مدينة» مؤكدة وهي تعقد ذراعيها أمام صدرها: «سيأخذ هذا وقتًا وجهدًا لكن.. سنسامحكَ».

نمت ابتسامة صغيرة في عيني القاضي وهو يتطلع إلى عائلته الصغيرة في رضا، وأخيرًا استطاع قلبه الذي كان يرقد مثل جمرة بين أضلعه، أن يهنأ قليلًا.

لم يحسب يومًا أنه يستطيع تحمل فراق «رعد» حتى وإن كان فراقًا مؤقتًا، أما مع وجود «مشتاق»، أصبح يجد في نفسه القدرة على تحمل هذا الوضع الجديد بنفس رحبة.

***

تطلب الأمر نهارًا كاملًا لاستخراج الأسحار المدفونة أسفل البوابة الحجرية، شرعوا في فك السحر بمساعدة «مدينة» عن الراحلين الأربعة ومن استطاعوا تخليصهم، وتركت مهمة إبطال البقية على عاتق «قوس»، الذي وقف «رعد» أمامه بين الرجال معلنًا: «من الآن «قوس» هو قائد الجبل».

صُدم «قوس» بالمهمة التشريفية، حاول الاعتراض في البداية، متحججًا بأنه لا يملك القوة البدنية اللازمة. أراح «رعد» كفه فوق صدر «قوس» يؤكد: «القوة التي يحتاج إليها القائد ليعتني بشؤون رعيته هنا يا «قوس»، تلك القوة النادرة التي لا يملكها الجميع، أراك أكثر من يحظى بها».

لم يعارض أيٌّ من أهل الواحة قرار استبدال القائد بآخر، في الحقيقة كانوا يعرفون «قوس» حق المعرفة، ما من دار في الواحة إلا ودخلها طفلًا وصبيًا ورجلًا بالغًا. ما من دار إلا وتشهد أركانها على أخلاق «قوس» وحُلمه، ورزانته، وأمانته.

أنهى هذا الاستبدال المحتم الصراع الذي نشب كالنار في الواحة، وأول ما تلتهمه النار هو مشعِلها، ربما كانت تلك هي الحقيقة الغائبة عن أذهان الجميع، وأولهم الزوجة الأولى للقاضي، التي أشعلت النار وظنت أنها في مأمن منها، مضت إلى أرض أخرى تعتصم من لهيبها، لكن النار لحقت بها أينما حلَّت. وها هي الشمس ترمقها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة فوق فراش صغير بالمستشفى، وحيدة، ظالمة ومظلومة، جانية ومجني عليها.

وقفت الجدة «أم الرمال» ترقب ما ستجري عليه الأمور في الواحة، مدركة في قرارة نفسها أن الزمن يتغير، والحال يتبدل، وأن الواحة التي تعيش في الماضي تنفلت رويدًا محطِّمة حواجز الزمن.

لا تملك القوة الكافية لإبقاء الصورة البالية داخل الإطار القديم المتهالك، لا أحد يملكها، بيد أنها لن ترفع يديها عن الواحة ومحاولة تسييرها وفقًا لما أرساه الأجداد الأولون، كان هذا ضد طبيعتها، والطريقة التي نشأت عليها.

يدرك «قوس» ذلك تمام الإدراك، وفي الوقت نفسه يفكر في الطريقة التي ستتمكن بها الواحة ذات يوم من أن تأخذ من الماضي أصالته وحكمته، ومن الحاضر علمه وقوته.

***

(2)

كانت لحظة الوداع عند البوابة الحجرية قاسية على الجميع، من رحل، ومن بقي. طال الوداع إلى أن تحلى الراحلون بالجرأة الكافية للرحيل، وتحلى الباقون بالجرأة الكافية لتركهم يرحلون. يقف «هلال» متأثرًا، يعانقه «طوفان» مفصحًا: «تركتُ لكَ معصرة الزيتون، اعتنِ بها جيدًا».

فيما يودع «أبو الأحناش» ابنته: «سأعيش منتظرًا عودتكِ سالمة».

يربت القاضي فوق كتفي «رعد» ويقول: «ستتخطى تلك المحنة، ما دامت «مدينة» برفقتكَ، أثق بكَ وبها».

يلوح «مشتاق» بكفه لـ «مدينة» بنظرة تقول سأنتظر أن تسامحيني يومًا كما وعدتِني. تقبِّل «مدينة» يد القاضي وتبث الأمل في قلبه، تؤكد له أنها لن تفارق ابنه مهما تعاظم مرضه.

بدأت القافلة المكونة من أربعة في المسير خارج البوابة الحجرية، وذلك عندما استوقفتهم امرأة تركض خلفهم، التفتوا فوجدوا «فضة» تناديهم وتتبعهم. قال «رعد» بدهشة: «ماذا تفعلين يا «فضة»؟».

تمسح يديها في مريولتها، ثم تمسك بحصان أحد الحراس، تقول وهي تضع فوقه سلال الطعام التي تحملها: «ستحتاجون إليَّ بالتأكيد، سأرحل معكم».

تبادل الجميع نظرات دهشة، إلى أن قالت «مدينة» بريبة: «هل تستطيعين ركوب الحصان يا خالة «فضة»؟».

لم تتم سؤالها حتى كانت الطباخة قد قفزت فوق ظهر الحصان، ثبتت سلالها، وأمسكت باللجام ترفع حاجبها وتقول بحماس: «كنتُ في صغري أمهر فارسة بالواحة، ويزعجني كثيرًا أن أسمع هذا السؤال من فتاة في نصف عمري، اسحبي سؤالك يا «مدينة» وإلا حرمتكِ من أكل فطائري اللذيذة».

افتر ثغر الجميع عن ابتسامة رحبة، يشير «رعد» إلى مقدمة القافلة ويقول: «لا نشكك في قدراتكِ يا «فضة»، نعرف أنكِ كصندوق الجواهر يخفي بداخله كل ما هو ثمين».

رفعت رأسها مختالة بالمديح، ثم تحركت بحصانها لتتقدم المسير. لم تكن الرحلة وسط الصحراء القاحلة يسيرة على أكثرهم صحة؛ أشفقوا على «سلام» التي ما فتئت تحاول الابتسام. تؤكد لهم كل حين: «أنا بخير».

حتى عندما لا تكون كذلك. أربعة أحصنة تسير متجاورة أحيانًا، وأحايين أخرى خلف بعضها. تسند «سلام» رأسها إلى صدر «طوفان»، يمسك اللجام بيد وبالأخرى يطوق عنقها. وحين يشعر أن التعب قد بلغ منها مبلغًا عظيمًا، ينادي فيهم أن يتوقفوا عن المسير، يركنون إلى ظل جبل، وينصبون في العراء ثلاث خيام.

يرحلون عن أرض أمرضهم فيها الجهل، والظلم، والتغييب؛ أحيانًا لا يسع المرء إلا الرحيل، مثل قاتل الأنفس المائة الذي أدرك أن حاله لن ينصلح إلا إذا رحل إلى أرض جديدة، وصُحبة رشيدة.

المكان الذي سيقوِّم «مشتاق» ويمنحه حياة أفضل، هو نفسه القادر على إماتة «سلام» وخنق «مدينة». لو لم يُمنح كل منهم حرية الاختيار، لشقُّوا على بعضهم، ولأُلزِم كلٌّ منهم بحياة مستحيلة.

في خيمة «سلام» اجتمعت حولها «مدينة» و«فضة»، تعتنيان بها مثل طفل محمول على كفوف الراحة.

- مبارك يا عروسة.

قالتها «فضة» ببهجة وفرحة عظيمة، ابتسمت «سلام» بخجل وسعادة، ظننت أنها لن تسمعها نظرًا للوضع الراهن والظروف العصيبة. ثم توجهت «فضة» إلى «مدينة» ممازحة: «ولكِ أنتِ أيضًا، مع أنكِ عروس قديمة». يتخلل الرحلة الشاقة مزاح للنساء، وحديث جانبي طويل للرجلين، يخططان فيه للخطوة القادمة. وعندما يحين موعد استكمال المسير، يتحركون بهمة ونشاط، يُمتص منهم بعد ساعات طويلة للنهار الحارق، والليل القارس، لا يقودهم السير من غير دليل إلى مكان، فقط رمال وصخور وجبال.

كان اليأس قد بدأ في التسرب إلى مسام قلوبهم، عندما أبصروا بحيرة من مبعدة، تذكرت «مدينة» أنها وقفت عندها تملأ زجاجات الماء.

أشارت صوبها بابتهاج، فتردد كل من «رعد» و«طوفان» في تغيير الوجهة: «قد يكون سرابًا».

قالها «رعد» متشككًا، فنظرت إليه تبدد الشك وتمنحه اليقين: «ليس سرابًا، ثق بي».

وكان أكثر من يثق بها، بلغوا أطراف البحيرة عند المغيب، يغتسلون ويشربون ويملؤون القوارير، ويستظلون بالنخيل المتناثر حولهم، ويأكلون من ثماره النضرة.

يحل المساء ويشعرون بحركة خلفهم، لا تكفي النيران التي أشعلوها لتكشف مصدرها؛ تجهز الرجلان بالخنجر والرمح استعدادًا لمواجهة حيوان مفترس، ومن خلفهما ثلاث نساء يبتهلن بالدعاء إلى الله كي يحميهم من الشر المنتظَر.

وفجأة قفز مصدر الصوت أمامهم، فأطلقت «فضة» صيحة مكتومة واستعدت «مدينة» بنبلتها وحجارتها كي تفقأ عين الحيوان الذي يعتزم افتراسهم.

فوجئوا أمامهم برجل يقترب، لا تزال ألسنة النار تعجز عن توضيح قسماته. يقترب ويقترب، فلا تنزل الأيدي ما تحمله من أسلحة إلا عندما يقف في محيط الضوء ويتبدى وجهه ظاهرًا. يهتف الرحالة الخمسة في نفسٍ واحد: «رماح!».

***

لم يستطع أبناء الصحراء العيش بعيدًا عنها، اختاروا «واحة باريس» إحدى الواحات الداخلة مكانًا للاستقرار، ومنها يسافرون إلى القاهرة بحثًا عن الشفاء.

مرت الأشهر الأولى عصيبة على أولئك الذين كانوا يعيشون بين جدران ماضٍ سحيق وجهل مميت، كانت «مدينة» عونًا للجميع، وترك «رماح» أشغاله وصاحبهم في سفرهم ذهابًا وإيابًا؛ سعد الرجلان باجتماع ثالثهم، ورحبوا به بينهما، واستعادا معه ذكريات حياة كانت تبدو بعد شهور قليلة بعيدة جدًّا.

رحل «رماح» عن الواحة بعد ما أصابه فيها، لم يستطع البقاء في مكان يتأذى فيه أصحابه، ولا أرض تحقن المرض في عروق أهلها. يعيش في

الصحراء، ويمنع المتجولين فيها من بلوغ الواحة المسحورة، ينفي كونها حقيقة ويؤكد أنها أسطورة.

إلى أن التقى «مدينة» رفقة «مشتاق» والدليل «مسعود» في الفندق، لم يتعرف على قسماتها إذ إنها كانت ترتدي البرقع داخل الواحة، إلا أن صوتها ظل عالقًا بأذنه، فلطالما قرأت عليه من آيات الله كي تعينه على الشفاء من السحر الذي غذى جسده، وقتها من هول المفاجأة اختل توازنه وأسقط الإبريق!

وفي الصباحِ التالي سمعها تسأل دليلًا آخر عن واحة زرزورة كما لو أنها لا تعرفها، فاختلط عليه أمرها، أهي «مدينة» التي يعرفها، أم أخرى تشبه صوتها؟

قرر أن يرافقها لا لشيء إلا ليكتشف لماذا تتظاهر أنها فتاة أخرى باسم مختلف؟ إلى أن سمعها و«مشتاق» يتشاجران مباشرة قبيل العاصفة، وتتحدث عن خُطابها وعلاقاتها الفاشلة، فأدرك أنها فاقدة للذاكرة، وإلا لما أقدمت على الاقتراب من رجل بينما هي في عصمة آخر، «رعد» صديق طفولته.

ولأنه كان مدينًا لها بالكثير قرر أن يتبعها بعد العاصفة ويعيدها إلى الرجل الذي تنتمي إليه، بعد فترة من تتبع الأثر، عثر عليها فاقدة للوعي وقد اصطدم رأسها بحجر، وأمامها «مشتاق» يناديها بلهفة ويستغيث لأجلها، ولأنه كان يحمل برفقته محقنًا مخدرًا في حال هجم عليه حيوان بري يتضوع جوعًا، قرر حقن «مشتاق» به في غفلة منه، بجرعة دقيقة محسوبة، ثم حملهما داخل السيارة التي تمكن من إصلاحها، وانتقل بهما صوب الواحة. لا يستلزم على أبناء الواحة أن يضلوا الطريق كي يعثروا على بوابتها المخفية وسط الصحراء الغربية، يعرفون الطريق إليها كما يحفظون خطوط كفوفهم.

وعندما التقى الأحدب عند البوابة أوقفه عما كان يعتزم فعله قائلًا: «لا تجعل «رعد» يراها الآن، تعرف أن غضبه منها ليس كأي غضب، اتركها لي إلى أن أفهم سر اختفائها».

فأودعها و«مشتاق» في أمانة الأحدب، غير مدرك أنه كان يتحدث وجهًا لوجه إلى «رعد» نفسه!

والآن بينما يسمع أخبار الواحة وأهلها، وما ينوي «قوس» فعله من خطوات الإصلاح، قرر التوجه إليهم للزيارة، ليكون حلقة الوصل بين الماضي

والحاضر، يساهم في محو الجهل الذي تفشى، وعلاج الخلل الذي كاد يقلب الواحة رأسًا على عقب. وعندما خطت قدماه أعتاب البوابة الحجرية قوبل بالكثير من الترحاب. عرف أن «عبد البر» الذي أذاه يقبع في زنزانة داخل الجبل، وكان أول ما فعله هو أن عفا عنه وأصفح.

عرف أن أول ما أمر به «قوس» ما إن تسلَّم القيادة هو بناء جسر متين يربط الجبل بالواحة، وترك الممرن مفتوحًا ومنع سده بالحجارة.

لم يجد «رماح» عناءً في بلوغ الجبل، ولا عبور الجسر الذي لم تُبنَ له بوابة على الجانبين.

ظل الحراس يقومون بدورهم في حفظ القوانين، إلا أن القوانين نفسها تبدلت بما يتناسب مع واحة تحب جميع من يعيش فوقها، ولا تفرق بينهم.

أول لقاء بين «صدف» وأمها بعد أن أصبحت زوجة القائد الجديد كان عاصفًا أكثر مما تخيلت، لم تهضم أمها فكرة أن تتفوق عليها ابنتها في المكانة، وهي البسيطة التي لا تملك أي قوة أو مزية تتفوق بها عليها.

كان أمر «صدف» قاطعًا وهي تبلِغ به أمها بدلًا من الحرس: «لا مزيد من ممارسة السحر داخل الواحة، هذا قرار القائد الجديد».

قالت ذلك ثم عانقتها بحنان بالغ، تبتسم في وجهها وتقول: «لكن هناك المزيد من «صدف»، إن أردتِ بإمكانكِ البقاء بيننا، وإن شئتِ رحلتِ».

لم تستطع الساحرة المعتزلة البقاء في جبل لم تعد تملك فيه سلطة أو كلمة، فضلت الانتقال إلى الواحة، والسكنى في إحدى دورها. فقدت قارئة الصخور كذلك مصدر رزقها، وهذا ما كان معروفًا علنًا، لكنها سرًّا ظلت تزور مريديها في دورهم، متخفية تحت ستار الليل، بحجة بيع التفاح الذي تطرحه أشجار حديقتها. لم يتخلَّ الناس عن قراءة مسار حياتهم فوق الصخور السوداء التي يلعقونها ويقذفونها في طست الرمل، إلا أنهم لم يعودوا يجهرون بهذا.

أدار «هلال» معصرة عمه، وأدخل عليها بعض التعديلات بإيعاز من «فلك»، بدلًا من عصر الزيتون أصبح يعصر الفاكهة ممزوجة النكهات. مقترحًا الرمان بالزيتون كأول عصير فواكه بالواحة.

- شربتِه كله يا «فلك» عندما أهديتكِ إياه ذاك اليوم.

- شربته لأنني زوجتكَ يا «هلال»، ما ذنب الناس لنسقيهم رمانًا بالزيتون؟ لا تفكر يا «هلال» دع لي هذا القسم من العمل الذي يحتاج إلى لمسات «فلك».

تتحسس بطنها المتكور وتجهش في البكاء فجأة، وعندما يحاول «هلال» معرفة سبب حزنها تخبره: «ماذا إن كان شعر ابنتي خفيفًا مثلك ولم أستطع أن أجمعه إلا في تسع ضفائر فحسب؟».

بالنسبة إليه ما كانت تشكل له مشكلة أن يكون له ابنة بتسع ضفائر، أو حتى صلعاء من الأساس، رغم ذلك ربت فوق كتفها قائلًا: «يمكنكِ أن تأخذي شعيرات قليلة من كل ضفيرة لصنع ضفيرة عاشرة».

بينما تمر الأيام بها تخرج طاقتها الإبداعية وحب التجديد في اختراع نكهات تمزجها ببعضها. تجمع بعض فتيات الواحة في دارها وتدعوهن بـ «الذوَّاقات»، وتسقيهن آخر تجاربها وتحصد الآراء. تشعر بأنها تتفتح مثل زهرة وجدت أخيرًا تربة خصبة لإنبات السعادة، وعثرت على فكرة تصرف فيها طاقتها العظيمة، وقدراتها الكامنة.

انسحب تفكيرها شيئًا فشيئًا من قصص الحب الأسطورية الخالدة. وحاولت تسيير حياتها مع «هلال» بما يكفل لهما الود والراحة، وقدرًا كافيًا من سعادة حقيقية، لا تلك التي تسمع عنها في ظلال الحكايات الخيالية. لم تعد تنظر إلى «هلال» كنبع وحيد للسعادة عليه طوال الوقت إشباع ظمئها، تدرك أن السعادة لا تؤخذ على جرعة واحدة كبيرة، بل جرعات صغيرة تجمعها من أماكن متفرقة، ومن أحداث متجددة، وعليها أن تمتن لتلك الرشفات الصغيرة، وتتلذذ بنكهتها وتستديمها في فمها لأطول فترة ممكنة.

كانت سعادة «صدف» بالغة عندما أهداها «قوس» صدفة عثر عليها في بحيرة الغابة، استطاعت لأول مرة أن ترى اسمها مجسَّدًا، فتح الصدفة القاسية أمامها، وأشار إلى الكائن الرخو بداخلها، الذي يعانق في ثنايا جسده لؤلؤة صغيرة، ويقول مغازلًا: «أنتِ الصدف، وقلبكِ هو الجزء اللامع بالداخل».

اقتربت منه وقبَّلت وجنته، لم تتخلَّ عن تلك الصدفة قط، احتفظت بها، وعلقت اللؤلؤة في سلسلة من الفضة حول رقبتها.

كلما شعرت أن الحياة تقسو عليها، أو تنعتها بما ليس فيها، أمسكت باللؤلؤة واستشعرت الجمال الذي تحمله بداخلها، الجمال الذي رآه «قوس»

وأحبه، قبل حتى أن تتمكن هي من رؤيته. تسأل مكررة: «هل سامحتني حقًّا؟ هل زال غضبك كله؟».

يأخذ وجهها بين كفيه مثل شمس تعانقها السحب، يقول مؤكدًا: «لم أغضب منكِ بل لأجلكِ، لم أحزن منكِ بل عليكِ، قلتِ إنكِ شعرتِ أنكِ ستخسرينني بينما في الحقيقة أنا من شعر أنه يخسركِ، أخسر هذا النقاء بداخلكِ، وتلك الطيبة التي أراها في عينيكِ كلما أطلتُ النظر، شعرتُ أنني أخسر «صدف» التي أعرفها وأحبها، وتحل محلها أخرى لا أريد أن أعرفها ولا أن أحبها، لكنكِ باعترافكِ وبعدم سماحك للأسرار أن تنمو بيننا، قطعتِ الطريق على تلكَ الأخرى، وظللتِ «صدف» التي أريد أن أمضي معها سنوات عمري، وأنجب منها ذرية من القادة الشجعان، يحمون الواحة، ويعتنون بأهلها».

لم تتوقف «أم الرمال» عن تسيير الواحة وفقًا للأعراف والموروثات الفكرية، إلا أنها اضطرت إلى قبول قرارات «قوس» بإرسال بعثات خارجية من خيرة شباب الواحة، لتعلم ما ينقصهم من علوم وفنون وآداب.

رأوا فيه قائدًا مثل قوس متين تنطلق منه أسهم فتصيب هدفها بمهارة.

كان الشباب يعودون إلى الواحة من تلك البعثات محملين بمختلف أنواع البضائع والكتب والاختراعات، يساعدهم «رماح» ذهابًا وإيابًا. يتم ذلك بوتيرة محددة وخطة حذرة كيلا ينكشف أمر واحتهم لمن يجهلون بوجودها، لتظل كما هي، واحة يظنها الجميع مجرد أسطورة في الذاكرة الجمعية لأبناء الواحات الداخلة.

واحة مسحورة مدسوسة في مكان ما بالقرب من هضبة الجلف الكبير بالصحراء الغريبة، لا يعثر على بوابتها الحجرية إلا تائه ضل الطريق بين رمالها.

***

عندما تقرر موعد عملية تغيير صمام القلب لـ «سلام»، كاد عقل «طوفان» أن يطيش؛ تنازعه رغبتان قويتان متعارضتان، ما بين السماح لها بالخضوع لتلك الجراحة، ومنعها.

لو كان في هذا الموقف بمفرده ربما ما تمكن يومًا من اتخاذ القرار، ظل «رماح» إلى جواره، ييسر عليه التجهيزات وما طلبته المستشفى من إثباتات للهوية. كانت تلك هي الخطوة الأولى التي سعى إليها الجميع، الخضوع

للتسنين في الوحدة الصحية والحصول على هويات تمكِّنهم من التحرك داخل المدينة الحضرية.

لم يبقَ لـ «مدينة» أحد بسيناء لتعود إليها، بعدما وارى الثرى عائلتها الصغيرة في سنوات متتابعة.

ظلت إلى جوار «رعد» تزوره في المصحة وقت احتجازه، كان من أكثر المرضى التزامًا بالخطة العلاجية، لا لشيء إلا رغبة في الاجتماع بها في أقرب وقت ممكن، ليعيشا الحياة التي سُرقت منهما.

وفي يوم الجراحة كانت «مدينة» و«فضة» إلى جوار «سلام» في المستشفى، تطمئنانها، وتمسحان عنها القلق.

ما إن بشرهم الطبيب بأن قلب «سلام» ما عاد يشكل خطرًا على حياتها حتى خرَّ «طوفان» على الأرض ساجدًا، لم تسعه الفرحة كأنه حاز الدنيا بأسرها.

ما إن فتحت عينيها حتى بشرها بميلاد جديد، ستعيش فيه بقلب سليم، وستفعل كل ما كان محرمًا عليها. كانت لحظة شديدة الخصوصية ولم ترغب لها أن تكون ممتلئة بالعبرات حتى وإن كانت علامة فرح. ارتسمت في عينيها نظرة شقية، وهي تقول متظاهرة بالجدية: «أشعر أنهم وضعوا بداخلي قلبًا جديدًا بالفعل، أعطني الماء يا عمي».

تبدلت قسمات «طوفان» وتعكرت نظرته، ما إن سمع اسمه ملحوقًا باللقب القديم.

- هل تبدلت مشاعركِ؟

عقد جبينه بشدة، وبدت قسماته في غاية الحدة، وهو يسألها بينما في عقله يلعن الطبيب الذي أكد له أنه لن يعبث بقلبها.

- أحببتُ قولها.

نهرها وقد تعجبت كيف تكون نبرته الخشنة إلى هذا القدر محببة: «أقسم يا «سلام» إن ناديتِني بها مرة أخرى».

لم يكمل عبارته، فبادرته: «كنتُ أقولها كَرهًا، على الأقل الآن أقولها طوعًا».

- لا أريد أن أسمعها حتى وإن كان حلمًا، وأنتِ معي لا تنطقي بأي كلمة تحوي العين والميم والياء.

- ولا حتى «حبيبي»؟

لانت عريكته، واستكانت ثورته، كانت نبرته خشنة إذ أردف: «هذه لا تتوقفي عن قولها».

ما إن تماثلت للشفاء وأصبح بإمكانها مغادرة المستشفى توجهوا من فورهم إلى الدار التي اشتروها في «واحة باريس»، يرسلون الخطابات مع «رماح» الذي قسم وقته بين رحلات وبعثات الواحة، وعمله كمتقفٍّ للأثر، فيُطمئن «أبو الأحناش» على ابنته وحالها.

جاورها «طوفان» في شرفة دارها يتحسس بطنها البارز، يخطط لحياة طويلة عامرة، لا تنتهي قبل عمر المائة، ينسجان معًا حلم العودة إلى أرضهم، يخبرها أنها ستكون جدة أعظم من «أم الرمال» في مجدها، وستحبها الواحة بأسرها.

وتخبره أنه سيكون جَدًّا مميزًا، يلجأ إليه الطفل والصبي، ويحتمي الجميع تحت مظلته.

ينسجان معًا حكاية آن الأوان كي تُروى، ستتردد على ألسنة الخلق، وأبدًا لن ينسوها.

***

يغادر «رعد» برفقة «مدينة» دارهما التي تجاور دار «طوفان» و«سلام»، متوجهَين إلى القاهرة لمتابعة العلاج، اختارا دارين متجاورين اشترياهما بالذهب الذي منحهما إياه كل من القاضي و«أبو الأحناش».

يعرفان أنهما يخوضان رحلة طويلة قد لا تنتهي بتمام الشفاء، وقد يضطران إلى التعامل مع هذا الاضطراب النادر في الهوية إلى الأبد.

«اضطراب الهوية التفارُقي» هذا ما أوضحه الطبيب المعالج وهو يفسر لهما الحالة وعوارضها وندرة حدوثها، تتناوب الهويات داخل المريض وتتناطح لتمسك بزمام السيطرة.

يجد المريض ثغرات بذاكرته، وفجوات زمنية لا يتذكر ما حدث خلالها، يصاحب ذلك صديقان متلازمان هما الاكتئاب والقلق. ينشأ عن صدمة قوية يتعرض لها المريض فتكون سببًا لاندلاع المرض، يسرِّع من وتيرته الاستعداد الوراثي.

كانت «مدينة» حليمة كفاية لتتعامل مع «مطر» حال ظهوره، تحب أن تستأنس بالحديث إلى قلبه الشفاف الرائق، وقوية كفاية لمواجهة الساحر الذي نزعت عنه أسلحته، بتحصين مستمر للجسد وصاحبه، فقل ظهوره، وتباعدت المسافات بين زياراته.

بإيعاز من خيِّر، قرر «رعد» اللجوء إلى شيخ عارف بألاعيب السحرة، يعرف كيف يفك العهود والعقود التي يبنيها الساحر مع المرَدَة. صارت سورة البقرة وخواتيمها وردًا يوميًّا محصنًا، جنبًا إلى جنب الأذكار التي لا ينقطع عن ترديدها صباحًا ومساءً.

علمته «مدينة» ما علَّمه «جبريل» للنبي الكريم، وما انطفأت به شعلة الشياطين: أعوذ بكلمات الله التامة من شر ما خلق، وذَرَأَ، وبَرَأَ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يَعرُج فيها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق، إلا طارقًا يطرق بخير يا رحمن.

أدركت «مدينة» أن الابتلاءات تختار أصحابها، أولئك الذين يملكون القدرة على تحملها، ولأنها امرأة معجونة بالقوة، لاحقتها سلسلة من الابتلاءات، منذ أن كانت تعيش في صحراء سيناء، كل ابتلاء كان كضربة تتقوى بها في مواجهة الضربة التالية، كأن الله يُهيئها لتكون ملاذ «رعد» الآمن، كأنها مخلوقة لأجله، وهو مخلوق لأجلها، الرجل الوحيد الذي اقتحم حصونها، واستمال قلبها، بنبله وأصالته.

يتباريان بالنبلة والحجر، ويتسابقان فوق حصانيهما بسعادة غامرة، لا شيء في الحياة يمنعهما من التمتع بملذاتها، لا الابتلاءات ولا المرض.

وفي يوم مُشمس لطيف، وقفت تراقب «رعد» الذي يعمل كدليل في «واحة باريس»، يقص الحكايات الباهرة على آذان السياح والزائرين، بنبرة قوية وقسمات واثقة، عن الرمال والجبال وسُكان البادية، بخبرة رجل عليم بالصحراء وطبائعها، رجل خرج من رحم بئر الحكايات العجيبة. وقفت «مدينة» ترقبه بعين تحمل العشق والولَه، بينما الجميع ينصتون إليه بحماس وشغف، لا يرتضون بغيره دليلًا، وكلما توقف ليلتقط أنفاسه سارعوا باستنطاقه، والتقاط الصور معه.

التقت نظراتهما في منتصف جسر المسافات الطويلة، كأنما يقص عليها وحدها تلك الحكايات المثيرة، كأنها جمهوره الوحيد، ومدينته الأثيرة.

يستقبلان الحياة يومًا بيوم وثانية بثانية، يقدران كل لحظة حق قدرها، وفي ليلة صافية بعد نهار شاق طويل، افترشا الرمال في بقعة خالية إلا من القمر وحفيداته المتلألآت، تُطعمه فطيرًا خبزته للتو، ويضمها بقوة إلى صدره، كأنما يعيد إليه الضلع الذي افتقده، يغمره عطرها الذي يحبه، تعده بنفسها من زهرات الياسمين والقرنفل. يسألها إن كانت قد تعبت من البقاء مع رجل له ثلاث نسخ، فتدنيه وتسأله: «ماذا يحدث إن فتحت مدينة ذراعيها؟».

يفكر قليلًا ويعجِزه الجواب، فتردف وهي تفتح أبوابها على مصراعيها أمام كل نسخه الممكنة: «تسع الرعد والبرق والمطر».

يبتسم مطمئنًا ومتشبثًا بأسوار المدينة، يتجول في شوارعها وحواريها. يعبر جسورها التي لم تعد محرمة، يرى بداخلها عالمًا رحبًا يعشق تفاصيله الدقيقة المتناثرة. يرفع عينيه صوب النجمات المتلألئة فوقه ويتمنى لو كان لإحداهن قدرة على الحكي، فتقص على الأسماع حكاية حبيبة لها قلب باتساع مدينة، تأوي فيه حبيبًا يرعَد ويبرق ويُمطِر.

***

الخاتمة

تقف «دهب»[1] في ممر المصحة بعد جلسة تعديل سلوك تحرص على الالتزام بها، تجمع خصلات شعرها في كعكة، وتترقب الباب في نهاية الممر بشغف. يرن هاتفها فتجيب في عجالة: «هل وصلتِ يا «شفق»؟».

- نحن عند البوابة، ألم تنتهِ جلستكِ؟

- بقي القليل.

تقول ذلك كاذبة مع وعد بعدم التأخير، تروح وتغدو في الممر بلهفة إلى أن ينفتح الباب ويخرج صاحب الجلسة، ترافقه زوجته التي تسير معه يدًا بيد.

تعرفه «دهب» من جلسة علاجية جماعية حكى فيها قصته، اسمه «رعد» وله زوجة اسمها «مدينة»!

تركض «دهب» صوب الدرج، في طريقها إلى «شفق» التي تقف أمام بوابة المصحة، إلى جوار زوجها الذي نزل من سيارته، تقول متململة: «لا أعرف لماذا أصرت «دهب» على أن نقلها بسيارتنا، ولماذا كانت تتصل كل دقيقة لتتأكد من وصولنا في الموعد ثم بعد كل ذلك تتأخر هي في الخروج».

يهز زوجها كتفيه ويتمتم بنبرة الخبير: «إنها «دهب»».

تنظر «شفق» بقلق إلى ساعة هاتفها ثم تقول: «لا أريد أن أتأخر على «أفق» والتوأمين».

---

(1) شخصية من رواية «رايات الشوق»، الحكاية الأولى من سلسلة «احكي يا دنيازاد»، للمؤلفة.

يغلق معطفها ما إن تمر نسمة باردة، يميل تجاهها ويتطلع بدوره إلى الساعة، ثم يمسك بذراعها مطمئنًا: «ينسوننا في وجود أمي، تعرفين».

- يعشقون عرائسها المعبأة بالرمل، والحلوى الشهية التي تصنعها بيديها.

يبتسم مبتهجًا، يلتفت صوب المصحة فتتجمد ابتسامته، كانت «دهب» تركض صوبهما ثم تقف أمامهما وتقص عليهما في عجالة حكاية الزوجين المتهاديين ببطء من خلفها، اسمه واسمها!

تشتد أنامل الرجل حول ذراع «شفق»، وقد اجتاح كليهما توتر كبير تأثرًا بحدث عظيم. يتفحص الرجل الزوجين باهتمام ودقة، يتعرف على «مدينة» بلباسها وبرقعها وعينها الواسعة المُكحَّلة. تهمس له «شفق» بدهشة وصدمة بالغة: «مدينة!».

لم ترَها من قبل ولا تعرف هيئتها، أكدت «دهب» أنها «مدينة» البدوية، التي ظنها الجميع ميتة، ثم اكتشفت الشرطة أن الجثة التي عثروا عليها في القبر لا تخصها، ومن يومها ظل لغز «مدينة» محيرًا، يتساءل جميع من عرفوها هل هي حية أم ميتة.

يمر الزوجان أمامهما دون أن ينتبها إلى أحدهما، تنقبض قسمات الرجل ويتفصد العرق عن جبيه، يواجه «شفق» بنظرات ذاهلة، تتقافز الأفكار داخل عقل صدمته تلك الحقيقة الآسرة.

تمسح «شفق» فوق صدر زوجها وتشعر أسفل أناملها بجرح غائر يلتئم، يتمتم بنبرات من ارتياح بعدما أزيح حمل كان يسلسله: «لم تمُت يا «شفق»، «مدينة» على قيد الحياة!».

تومئ برأسها بحماس كبير بينما العبرات تحتشد في مقلتيها، تتمسك به، تربت فوق قلبه وتخبره: «آن الأوان لهذا القلب أن يشعر بالخفة».

***

تقف «دنيازاد» الحكاية خلف زجاج النافذة بينما السماء تسكب ماءها بالخارج، تتأمل آيات الله الكونية، من رعد وبرق ومطر، يجمعهم رحم سماوي واحد.

تعود «دنيازاد» إلى مكتبها الخشبي داخل المكتبة الصغيرة، تتأمل أرفف الكتب من حولها، أخذت تفكر كم أن الحياة عجيبة، طوال هذا الوقت كانت ثمة حياة أخرى تنتظرها خارج الواحة، تتعلم فيها القراءة والكتابة وتعمل في مكتبة، حياة جميلة هانئة، عثرت فيها على شقيق روحها، ورفيق دربها، إذ تزوجت منذ أشهر قليلة بصاحب المكتبة.

مسحت «دنيازاد» كفيها المتعرقتين بشدة في ردائها بحُكم العادة، ثم انتبهت لما تفعله فالتقطت منديلًا ورقيًّا من فوق المكتب، ثم قذفته في السلة!

راضية عن الحكاية التي أتمت سردها، وأحسنت وصفها، وكانت شاهدة على بعضها، أخبرنها النجمات بما سقط من علمها، وأكملن معها حكاية تامة البيان.

ابتسمت «فضة» في هناء، وقد شعرت بانتشاء النهايات.

انفتح باب المكتبة لتدخل امرأة ذات معطف زمرُّدي اللون، تضع قبعة فوق رأسها لتنزلق من أطرافها قطرات المطر. تلقي تحية قصيرة على «فضة» زوجة صاحب المكتبة، ثم تدور ببطء حول الأرفف. تقترب منها «فضة» وتسألها ببشاشة: «هل تبحثين عن شيء محدد؟».

تقول المرأة بعد تردد وهي تنفث في كفيها طلبًا للدفء: «أريد أن أحكي حكاية، لكنني لستُ بارعة في هذه الأمور، تنقصني القدرة على الإلمام بالتفاصيل، ولا أعرف كيف أملأ فجوة المشاهد التي لم أشهدها، هل لديكِ كتاب يساعدني؟».

- هل هي حكاية مثيرة؟

- مثيرة وعجيبة.

تبتسم «فضة» وتأخذ بذراعها صوب النافذة، تشير إلى السماء وتخبرها: «عندما يتوقف المطر وتعود النجمات الهاربة، بإمكانكِ أن تستعيني بهن لتكوني «دنيازاد» الحكاية الجديدة».

رنَت إليها المرأة في دهشة متسائلة: «ومن تكون «دنيازاد»؟».

- سلسلة من الحكَّاءات اللاتي يسردن حكايات مدهشة، كل «دنيازاد» سابقة تسلم دفة الحكي إلى «دنيازاد» لاحقة.

- وكيف أكون «دنيازاد»، كيف أحوز اللقب؟

أشَّرت «فضة» صوب السماء مفصحة: «النجمات يخترن الصادقات اللماحات، الشغوفات بالحكايات، إن كنتِ حريصة على الحكي، وأمينة في السرد، ستكونين «دنيازاد» المختارة، فقط أطيلي النظر إلى السماء، وانتظري الإشارة».

تعجبت لحديثها، ثم شكرتها وهمت بالمغادرة، فأوقفتها «فضة» بفضول متسائلة: «تلك الحكاية ماذا سيكون اسمها؟».

أطرقت المرأة قليلًا مفكرة، لحظات لا يُسمع خلالها سوى صوت زخات المطر التي تطرق النافذة، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة رائقة، ترنو إلى «فضة» بحماس وتخبرها بالاسم الذي وُلد قبل الحكاية: «شاطئ الزمرُّد»!

خرجت ذات المعطف الزمرُّدي تحمل في قلبها رغبة حقيقية في سرد تلك الحكاية العجيبة، تسدد وجهها شطر السماء بحرارة، وتنتظر بشغفٍ تلك الإشارة.

تمت بحمد الله

نام القمر..

وتثاءبَت النجمات..

فكفَّت دنيازاد..

عن سرد الحكايات!

من الكتب التي استعنتُ بها:

- *"الواحات الداخلة.. دراسة في التاريخ الثقافي والمأثورات الشعبية".. عبد الوهاب حنفي.*
- *"الطَّار الواحي أيامه ولياليه.. الأغاني الشعبية في الواحات الخارجة".. كمال كوكب.*
- *"المدن المسحورة تجسير المسافات بين السماء والأرض".. فارس خضر.*

شكر خاص لـ

ميادة محمد

زينب الصيري